

نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ
وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

دراسة منهجية مُعاصرة للشَّخصية النبوية الخاتمة
مِنْ مِشْكَاة الرَّحْمَةِ الْكُبْرَى وَالْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ

بقلم الدكتور

عبد المجيد البياضي

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا ارْتَدْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصاير

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ الأنبياء .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٤﴾ القلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿١١﴾ الأحزاب .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ﴿٤١﴾ الأحزاب .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ

الْكَفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ الفتح .

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ آل عمران .



الإهداء

﴿ ... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٢٧)

﴿ ... وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٢٨)

اللَّهُمَّ إِنِّي أَرْفَعُ إِلَيْكَ هَذَا الْعَمَلُ
فَتَقَبَّلْهُ مِنِّي بِقَبُولِ لَحْسَنٍ ، وَاصْلَحْهُ لِي
بِهِ أَجْزَاءً ، وَصَلِّ عَلَى مَنْ فِيهِ وَزَمَاءُ ،
وَاصْلَحْهُ لِي بِهِ أَجْزَاءً وَقَرِّبْهُ



يطلب الكتاب من المؤلف على العنوان التالي :

جدة ٢١٥١٢ ص ب /٤٥٢٠٦/ المملكة العربية السعودية

جوال /٠٥٠٣٦١٩٤٤٥/ هـ /٦٨٢١٢٤٣/

البريد الإلكتروني : ALBYANI@YAHOO.COM



الرحمة المهداة للعالمين

حيرة وقلق .. وفتن هوجاء ، وظلم وفساد .. في كل أرض ،
وتحت كل سماء .. وأمم من البشر كالقطعان ، تهيم في الظلام ، تقدس
الأوهام ، يقتلها الركام .. والكون حيث كان في حيرة ولهان ..
أيعقل أن يستبدّ الشيطان بالأرض ، وينثر الشرّ والفساد حيث
شاء .!؟!

أيعقل أن يعيش الكون كله تحت وطأة الجهل ، وفي بحار الظلمات .!؟!
أيعقل أن تطمس أنوار المعرفة الإلهية من قلب الإنسان إلى الأبد !
ويتلاشى نور الإيمان واليقين ، وينمحي الحق وآثاره ، فلا تجد إلا حجراً
يقدّس حجراً ، ولا صنماً إلا يهيم في هوى صنم .!؟!

أيعقل أن يصبح الإنسان وحده أسير شهوته ، مستعبداً للظلم
والفساد ، والشرّ والخراب ، والوهم والخرافة .!؟! يلهث وراء نوازف
الدماء ، ويلعق الجراح .. لا يشبع ، ولا يرتوي .!؟! وسائر الوجود من
حوله يسبح بحمد ربّه ، ويقدّس له ..

أيعقل أن تكون فلسفة العبث ، وغيبة المسئولية ، ونزوة الشهوة ،
هي العملة الرائجة ، والبضاعة المرغوبة ، والغاية الكبرى ، التي ترفع
رأسها ، وتعلن في الأرض صوتها .!؟! وتستعبد البشر حتى الموت .!؟!
أيعقل أن يكون هذا الوجود الجميل ، البديع الحكيم : بإنسانه
وحيوانه ، بأرضه وسمائه ، وشمسه وقمره ، وأنهاره وأشجاره ،
وجباله وبحاره ، وسائر خلقه .. مرتعاً للظلام ، وخادماً لعبث الظالم ،
وسلاحاً لسحق المظلوم .!؟!

أيعقل أن يصبح الإنسان أتفه شيء في الوجود ، بما آل إليه أمره ..
وهو سيّد الوجود بما حباه الله من خصائص ومواهب ؟!
أيعقل أن تصبح الحياة مكروهة حتّى من عابديها ، مذمومة حتّى
من مزيّنيها ؟! يملّ الإنسان وجوده ، ويجهل مصيره ؟!
أيعقل أن تزيّن سماء الأرض بمصابيحها ، ولا تزيّن سماء المعرفة
بنجومها وأقمارها ؟! ويقفر القلب من ساكنه ؟!
يا ربّ قد ضاعت المعالم ، والتبست السبل ، وعمّ الشرّ وطمّ ..
الكون كلّه يبحث عن النور .. ويتطلّع إلى النور .. ويسعى إلى النور ..
وينتظر النور .. فهل يعقل أن يضنّ عطاء الله عليه ، فلا يجد أشواقه
العليا ، التي هي قبس من عطاء الله وفضله ، بعد صدق الأمل
والانتظار ؟!

أعطاف الأرض تهتزّ شوقاً لانبلاج النور .. وأرجاء السماء تضحجّ
بالتسبيح والرجاء ، أن تأذن العناية الإلهية بقدوم الفجر الصادق من
وراء زئير العتمة ، وأزمة الهرج والمرج ، وتيه الجهالات .. والإنسان
.. ويح الإنسان إنّه وحده سادر في جهالاته ، سكران من كثوس غيّه
وبغيّه .. اللهمّ إلّا بقيّة من أهل كتاب ، بين أيديهم بقيّة من حقائق
مغيّة ، وأخبار مضطربة ، تمّني بها نفسها ، في خضمّ هذا البحر اللجّيّ
من الفساد العريض .. وبقيّة ممّن لا يزال نور الفطرة يضيء جنبات
نفسه ، فيميز بين الحقّ والباطل ، ولكنّه لا يستطيع أن يكتشف شيئاً من
معالم الحقّ من بين ركام الأباطيل .. وأمة الجزيرة ، غافية غريرة ، لا
تدري ما تحبّي لها الأيام .. إنّها يعدّها القدر .. لتصنع القدر ..

قَدْ هَبَّتِ الْأَصْنَامُ مِنْ بَعْدِ الْبَلَى وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ قَبْلِ نَفْخِ الصُّورِ
وَالْكَعْبَةُ الْعُلْيَا تَوَارَى أَهْلُهَا فَكَأَنَّهُمْ مَوْتَى بَغِيرِ شُعُورِ
وَقَوَافِلُ الصَّحَرَاءِ ضَلَّ حِدَاتُهَا وَغَدَتْ مَنَازِلُهَا ظِلَالُ قُبُورِ

يا رَبِّ ! يا من أضأت هذا الوجود بِاسْمِكَ الْحَيِّ الْقَيُّومِ .. أُرْسِلْ
إِلَيْهِ سَحَابٌ رَحْمَاتِكَ بِاسْمِكَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. أَنْرْ جَنَابَاتَهُ بِنُورِكَ الَّذِي
لَا يَنْجُبُو .. بِعَبْدِكَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ ، الَّذِي أَعَدَدْتَهُ لِحَمْلِ نُورِكَ الْمُبِينِ ..
بِمَنْ يَعْبُدُكَ وَحْدَكَ ، وَيَقْدَسُكَ وَحْدَكَ ، وَيَرْجُوكَ وَحْدَكَ .. وَلَا يَنْحِنِي
بِحَبْهَتِهِ إِلَّا إِلَيْكَ .. بِمَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ ، وَيَصْنَعُ بِاسْمِكَ الْحَقِّ
أُمَّةَ النُّورِ وَالْهُدَى ..

يا رَبِّ يا رَحْمَنُ ! الْكَوْنُ كُلُّهُ يَجْأَرُ إِلَيْكَ بِالْدُّعَاءِ : " يا رَبِّ ! إِنْ
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ انْتَشَرُوا ، وَكَادَ الْمُخْلِصُونَ أَنْ يَنْدَثَرُوا ، وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الْأَرْضُ
تَرَى حِدَاةَ الْقَوَافِلِ ، وَلَا الْمُتَعَبِّدِينَ فِي الْمَنَازِلِ .. أَعَدَّ الطَّيُورُ الْمَغْرَدَةَ إِلَى
أَغْصَانِ الصَّنُوبَرِ ، فَقَدْ فَرَّتْ مِنْ رَوْضِهَا إِلَّا بَلْبَلًا ، يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ ضَجَّةَ
الْقِيَامَةِ وَهَوْلَ الْحَشْرِ .. أَعَدَّ الْأَوْرَاقُ الذَّابِلَةَ إِلَى رَوْضِهَا الْأَخْضَرِ ،
وَجَدَّدَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ظَمَأَهَا إِلَى حَيَاضِ الْحَشْرِ .. " .

وَلَدَ الْهُدَى فِي السَّمَاءِ ابْتِهَاجٌ .. وَفِي رُبُوعِ الْأَرْضِ عَرَسٌ ..
وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. وَتَلَأَلَّتْ جَنَابَاتُ السَّمَاءِ بِانْبِعَاطِ
نُورِ الْوَحْيِ مِنْ جَدِيدٍ .. وَجُنَّدَتْ كَتَائِبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، جُنُودًا مَجْنُودَةً ،
لِتَحْرُسَ النَّبِيَّ الْخَاتَمَ ﷺ ، وَتَكُونَ فِي خِدْمَةِ دِينِهِ وَدَعْوَتِهِ .. وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .. وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

لَمَّا أَطْلَعَ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرَّبِّي وَاخْضَرَ فِي الْبَسْتَانِ كُلِّ هَشِيمٍ
وَأَذَاعَتْ الْفَرْدُوسُ مَكُونُ الشَّدْي فَإِذَا الْوَرَى فِي نَضْرَةِ وَنَعِيمٍ

لقد فتح الله للدنيا ، وللعالمين ببعثة محمد ﷺ رحمة لا ممسك لها ،
ونشر نوراً لا يطفأ ، ولا يخبو .. وعمّهم بخير لا رادّ له .. ولن يستطيع
أحد كائناً من كان أن يقف في وجه هذا الخير أو يصدّه ، أو يسدّ منافذه
.. لأنه أمر الله جلّ وعلا وقدره ، وبإذن الله وإرادته .. ولكن هل يحسّ
الناس كلّ الناس بهذه الرحمة ، ويشعرون بها ، ويعترفون بفضلها ،
ويتنسّمون أنسامها الرخيّة النديّة ؟! إنّ المؤمنين السعداء هم الذين
يعيشون فيها ، وينعمون بظلالها ، ويلمسون في حياتهم وعلاقاتهم
بركاتها .. وغيرهم يناله قسط منها في الدنيا ، إذ تكون أماناً له من
عذاب الله العاجل ، ومن الظلم ، أو انتقاص شيء من حقّه ، ثمّ تكون
عليه حجة في الآخرة ، لأنه كفر نعمة الله ولم يشكرها ..

إنّ العقل الذي حمله رسول الله ﷺ وسع به العقول ، والقلب
الذي ملكه ملك به القلوب ، والروح التي خفقت بين جوانحه في هذا
العالم هفت إليها الأرواح ، وترامت على أعتابها هامات العظماء
والكبراء .. فطوبى للإنسان حيث كان بهذا الرسول الإنسان ..

ومهما جذّت البشريّة طاقتها واجتهدت ، وأدركت مطامعها من
خيرات الأرض وكنوزها وبركاتها ، فإنّها لن تستطيع أن تستغني عن
فضل السماء ، ورحمة السماء .. وإنّها لن تدرك سعادتها الحقّة إلّا يوم
تتّصل بوحى السماء ..



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ،
مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ، بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا
فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ النساء ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ الأحزاب ، وبعد :

فلقد وهب الله هذه الحياة سعادة متجددة ، وروحاً ناضرة .. ببعثة
سيدنا محمد ﷺ ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً
منيراً ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم إلى صراط
العزیز الحمید ، وفتح به أعیناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .. وكان

للبرشيرة شمساً أضوا من شمس الكون .. وللأرض غيثاً أظهر من طهور
الغيث ، بعدما اشتد عطشها ، وطال جديها ، وأقفر روضها ، وكان
للجسد المدنف كالعافية والحبور ، وللعقل العليل كالبلسم الطهور ..

وإن من ينظر في سيرته عليه الصلاة والسلام يجدها من أعظم الدلائل
على أن بين جنبيه ﷺ نفساً بالغة من الكمال ما لا يبلغه الإنسان الذي
يطلب المعالي بنفسه ، ولو ملك من المواهب ما ملك ، وبلغ من العبقريّة ما
بلغ ، ولقّن من الحكمة ما شاء أن يُلقّن ، فدونك كتب التاريخ عربيّة ، وغير
عربيّة ، طالّعها وأمّعن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليقة إلى
هذا اليوم ، فإنك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجل من أولئك
العظماء ، وتقصّ علينا من سيرته ومزايه وأعماله الجليلة حديثاً يضاهاه عشر
معشار ما تحدّث به التاريخ عن هذا الرسول العظيم ﷺ .

ولقد دوّن العلماء كتباً كثيرة في شمائله ﷺ وأخلاقه ، وذكروا فيها
أحواله المتعلقة بعبادته ، وأمره ونهيه ، ويقظته ومنامه ، ومشيه ووقوفه ،
وجلوسه واتكائه ، وصِفَة طعامه وشرابه ، ومعاشرته لأهله وأصحابه ؛
ووصفوا فيها سروره وغضبه ، وضحكّه وبكاءه ، وصمته ونطقه ،
وشجاعته وصبره ، وكرمه وعفوه ، وحياءه وتواضعه ، وثيابه ولُبْسَه ،
ووضوءه وغُسْلَه ، وعيشه وهديّه كلّ .

ومن المؤسف أن ترى كثيراً من المسلمين في هذا الزمن لا يعرفون من
شمائله الكريمة إلاّ النزر اليسير ، الذي لا يخلو عن زيفٍ أو مغالاة ، أو قصور

على جانب من الجوانب . ولهذا فإننا نُهيب بهؤلاء المسلمين أن يقتنوا ولو كتاباً واحداً موثقاً في سيرته ﷺ وشمائله ، ليكونوا على معرفة بهدي رسول الله ﷺ ، وأحواله الخاصة والعامة ، فيقتدوا به فيما يأتون وما يذرون ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٦١ ﴾ الأحزاب .

ولقد كانت السيرة النبوية مدرسة تخرج فيها أمثل النماذج البشرية ، وهم الصحابة رضي الله عنهم ، فكان منهم الخليفة الراشد ، والقائد المحنك ، والبطل المغوار ، والسياسي الداهية ، والعقري الملهم ، والعالم العامل ، والفقيه البار ، والعامل الحازم ، والحكيم الذي تتفجر من قلبه ينابيع العلم والحكمة ، والتاجر الذي يحول رمال الصحراء ذهباً ، والزارع والصانع ، اللذان يريان في العمل عبادةً ، والكادح الذي يرى في الاحتطاب عملاً شريفاً ، يرتفع به عن التكفف والتسول ، والغني الشاكر ، الذي يرى نفسه مستخلفاً في هذا المال ، ينفقه في الخير والمصلحة العامة ، والفقير الصابر الذي يحسبه من لا يعلم حاله غنياً من التعفف ، وكل ذلك كان من ثمرات الإيمان بالله ، وأتباع رسول الله ﷺ ، وبهذا كانوا الأمة الوسط ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

ولقد كان السلف الصالح من هذه الأمة يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء ﷺ ، وسير الصحابة النبلاء ، من آثار حسنة في تربية النشء ، وبناء جيل صالح لحمل رسالة الإسلام ، والتضحية في سبيلها بالنفس والمال ، فمن ثم كانوا يتدارسون السيرة ، ويحفظونها ، ويلقنونها لأطفالهم منذ نعومة أظفارهم ، كما يلقنونهم السورة من القرآن ، روي عن زين العابدين ، عليّ

ابن الحسين - رضي الله تعالى عنهما - أنه قال : " كُنَّا نَعْلَمُ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا نَعْلَمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ " ، وهذا هو الإمام الزهريّ عالم الحجاز والشام ، وهو من قدماء من عنوا بجمع السيرة ، بل قيل : إنّ سيرته أوّل سيرة ألّفت في الإسلام ، يقول : " في علم السيرة علم الدنيا والآخرة " ، وإنّها لكلمة حقّ وصدق ، ورُوي عن إسماعيل بن محمّد بن سعد بن أبي وقاصّ رضي الله عنه أنّه قال : " كان أبي يعلّمنا المغازي والسرايا ، ويقول : يا بنيّ هذه شرف آبائكم ، فلا تضيّعوا ذكرها " ، نعم والله ، إنّها لشرف الأجيال والآباء ، والمدرسة التي يتعلّم فيها الأبناء ! " (١) .

وإنّا على وفرة ما كتب في سيرة النبيّ ﷺ وشمائله ، وخصائصه وفضائله ، من حقوق المصطفى على أمته وعلى العالمين ، لا نزال نشكو من الجفاف الروحيّ ، والبرود العاطفيّ ، نحو هذا الحبيب الأعظم ﷺ ، ذلك لأنّ كثيراً منا يفتقدون الجسر الذي يربط بينهم وبين المصطفى ﷺ فهم يعرفونه ، ولم يألّفوه ، ويسمعون سيرته وشمائله بآذانهم ، ولم يعقدوا الصلة بين قلوبهم وبينه ، ويحبّونه بمقتضى واجب الإيمان ، ولكنّهم لا يؤثرونه على أنفسهم وأموالهم ، وأهليهم وأولادهم ، لأنّ نفوسهم قد أتخمت بحبّ الذات ، وتهالكت على حبّ الدنيا وإيثارها ، واللهات وراء حطامها ، فأتى لها أن تخرج عن هذه الدائرة الرعناء ، إلى رحب النور الغامر ، والسناء الباهر ، الذي سمّاه خالقه سبحانه : " نوراً مبيناً ، وسراجاً منيراً .. " .

(١) - السيرة النبويّة للشيخ محمّد محمّد أبو شهبه ٨/١ / بتصرّف يسير .

ولقد صحت الأمة في هذا العصر من غفوتها على قوارع كثيرة ،
ومصائب كبيرة ، أخطرها ما يحاك لها من مؤامرات لإبعادها عن دينها ،
وقطع صلتها بحضارتها وتراثها ، وكان من أسوأها وأشنعها محاولات الإساءة
إلى مقام النبي ﷺ ، والافتراء على شخصه الكريم ، ولكن إرادة الله الغالبة ،
جعلت من كيد أعداء الأمة سبباً في صحتها وإقبالها على دينها ..

ولقد أساء إلى نفسه من أراد الإساءة إلى مقام النبي ﷺ ، وأحسن إلى
الأمة ، وهو يريد الإساءة إليها ، إذ تحركت عواطفها الكامنة ، وغيرتها
الإيمانية ، ولواعج الحب الصادق ، وكان من آثار ذلك الإيجابية أن أقبل
الواعون من أبناء الأمة على السيرة العطرة ، ينهلون من معينها العذب ،
ويوقدون جذوة الحب والإيمان .. وتحرك المؤمنون الغيورون ، والدعاة
المهديون لتوظيف هذا الحدث للقيام بحق الدفاع والنصرة ، وتدارك التقصير
والتفريط .. فكانت المواقف والمؤتمرات ، والمحاضرات والندوات ، ومواقع
النصرة والمسابقات .. وكل ذلك مع ما فيه من الخير فلا يزال دون الحقّ
الواجب بكثير .. وحسبنا : أنّ أول الغيث قطر ثم ينهمر ..

وإنّ مما يسعدني أن يكون لي شرف المشاركة في هذه الجهود
المباركة ، بمجهود قليل ، من قلم قليل ، إسهاماً في شرف الدفاع عن نبينا
ﷺ ، واجتهاداً في نصح الأمة ، ونشر العلم بين أبنائها ..
وقد أتبع في كتابة الشمائل النبوية منهجاً جديداً ، يقوم على ربطها
بشخصية النبي ﷺ ، والأخلاق العظيمة التي كان عليها ..

هذا وقد رُتبت هذا البحث في مدخل عام وثلاثة أبواب وخاتمة ،
فالمدخل العام : تحدّثت فيه عن تعريف القرآن بالنبي ﷺ ، وتعريف النبي ﷺ
بنفسه ، وحول آيات نبي الرحمة وصاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة .
والباب الأول : صورة شاملة للشخصية العظيمة والشماثل الكريمة
وفيه تمهيد وسنة فصول .

والباب الثاني : الرحمة المهداة للعالمين ، وفيه تمهيد وسبعة فصول .

والباب الثالث : شهادات المنصفين ، ودفع المفترين ، وفيه تمهيد وخمسة
فصول . والخاتمة : وفيها ثلاثة موضوعات .

وأسأل الله تعالى بتمّنه وفضله وكرمه أن يتقبّل منّي هذا العمل ،
ويجعله لي ذخراً يوم لقائه ، وينفع به عباده ، إنّه سميع مجيب .

والحمد لله ربّ العالمين

حرّر في ١٤٢٨/٩/٢٥ هـ

وكتبه :

عبد المجيد البسيوني



مدخل عام

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : القرآن الكريم يقدم للإنسانية الرسول
الخاتم ﷺ .

المبحث الثاني : الرسول الكريم ﷺ يعرف بنفسه .

المبحث الثالث : أضواء وظلال حول آيات نبي الرحمة
وصاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة .



المبحث الأول

القرآن الكريم يُقدّم للإنسانية الرسول الخاتم ﷺ

شخصية النبي ﷺ كما يقدّمها القرآن الكريم موضوع على درجة كبيرة من الأهمية ، يحتاج إلى دراسة مستقلة مستفيضة ، إذ إنه يقدّم الأدلة البينة الناصعة ، بمختلف الحقائق والمعاني على نبوة محمد ﷺ ، بما يملأ قلب العاقل المنصف يقيناً أنّ محمداً رسول الله ، وخاتم النبيين ، وأنّ عقد النبوة الربّانيّ المبارك لا تنتظم درر حباته ، ولا يكتمل بناؤه وجماله إلاّ بنبوة محمد ﷺ ، الذي اكتملت به الرسالات ، وخُتِمَت به النبوات ، وكان الدليل الأكبر عليها ، وعلى حملتها الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، فلولا ﷺ لما أمكن لإنسان العصر أن يعرف بيقين شيئاً عن دين الأنبياء وشرائعهم ، أو يثبت النبوة ، ويطمئنّ قلبه إليها ..

وأنا في هذا المدخل بما أسلفت من اعتبار لا يسعني أن أفصل القول فيما أعرض من حقائق قرآنية ، تتعلق بنبوة محمد ﷺ ، وبما يتّصل بها من معانٍ ، وما تقوم عليه من علاقات متداخلة

متشابهة ، فأكتفي من ذلك كله بوضع العناوين الفرعية ، وذكر الآيات المناسبة ، على حسب الملامح الرئيسة التالية :

١ . مكانة الرسول الخاتم ﷺ عند ربه :

٢ . الرسول الخاتم ﷺ في النبوات السابقة :

٣ . الرسول الخاتم ﷺ في صفاته ومهماته :

٤ . الرسول الخاتم ﷺ في علاقته بأهل الكتاب :

٥ . الرسول الخاتم ﷺ في علاقته بالمؤمنين وبأمنه :

ويبقى التدبر مهمة القارئ الكريم ، ليربط ما بين الحقائق ، ويصل ما بين العناوين ، ويستحضر بما ذكر ، الآيات المتشابهة التي لم تذكر ..

١ . مكانة الرسول الخاتم ﷺ عند ربه :

● مقام النبي الكريم ﷺ عند الله تعالى ، وفي الملأ الأعلى :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦ ﴾ الأحزاب .

• نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ يس .

• نُبُوَّةٌ خَاتَمَةٌ لِمَنْظُومَةٍ كَامِلَةٍ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاثَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١١٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝١١٦﴾ النساء .

• نَبِيٌّ أُمِّيٌّ ، لَا عِلْمَ لَهُ بِكِتَابٍ ، وَلَمْ يَخْطُ شَيْئًا بِيَمِينِهِ :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا تَرْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ۝١٨﴾ العنكبوت .

• وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا : يقول الله تعالى : ﴿ ...

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾ النساء .

● وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ : يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾ (١)

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ أَنْقُضْ طَهْرَكَ ۖ ﴾ (٢) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿ الشَّرْح .

● إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

الْكَوْثَرَ ۖ ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿ ابْتَغْ شَانِكَ ۚ هُوَ الْآبِتَرُ ۖ ﴾ (٢) الْكَوْثَر .

● إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى : يقول الله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ

وَمَا غَوَى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿ النِّحْم .

● بَشَائِرُ الْمَغْفِرَةِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ : يقول الله

تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا

﴿ الْفَتْح .

● الْبَيْعَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بَيْعَةُ اللَّهِ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا

أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ

وَنُوَفِّرُوهُ وَنَشِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ

اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ

اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ الْفَتْح .

● طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله : يقول الله تعالى :

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا ٨٠﴾ النساء .

● محبة الله لا تصدق إلا باتباع الرسول ﷺ : يقول الله تعالى :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

٣٢﴾ آل عمران .

● عبودية لله تعالى مطلقة : يقول الله تعالى : ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ٢﴾ الفرقان .

ويقول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي

فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ

أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَسْحُورًا ٨﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثلة فاضلوا فلا يستطيعون سبيلًا

٩﴾ بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ١٠﴾ الفرقان .

٢ . الرَسُولُ الْخَاتَمُ ﷺ فِي النُّبُوءَاتِ السَّابِقَةِ :

● دَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٢٩) البقرة .

● وَبَشَّرَى عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ يَلِإِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِيَّةِ وَمُبَشِّرًا
رَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتْمُهُ أَخَذَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٦) الصف .

● أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّينَ وَأَقْوَامِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا

بَعَثَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ

كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ
ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨١) آل عمران .

● وَبَشَّرَى لَأَمَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَصِفَاتُ الرُّسُولِ

ﷺ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَوُجُوبُ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

الأعراف .

● مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولُ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَصِفَةُ أَصْحَابِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرُ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ ۚ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَابِهِ ۚ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿ الفتح .

● مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ : يقول الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨) ﴿ الْحَجَّ .

● رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﷺ : يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٢٨) الَّذِينَ يَبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣١) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٤٠) ﴿ الأحزاب .

● النَّبِيُّ الْخَاتَمُ ﷺ وَأَمَّتْهُ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ : يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا هَذَا نَبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨) ﴿ آل عمران .

● النَّبِيُّ الْخَاتَمُ ﷺ رِسَالَتُهُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ عَامَّةً : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ سبأ .

● ليس بدعاً من الرسل : يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِن أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) الأحقاف .

● رَسُولٌ مَّتَّبِعُ أَمْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ الْوَحْيِ شَيْئاً : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِفَتْرَةٍ غَيْرَ هَذِهِ أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِي نَفْسِي إِن أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) يونس .

● وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤) فاطر .

٣ . الرسول الخاتم ﷺ في صفاته ومهماته :

● بَشَرٌ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ : يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١١١) الكهف .

● صِفَاتُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَمِنْهَجُ دَعْوَتِهِ ، وَعَلَاقَاتِهِ : يَقُولُ

اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَانِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١٨) ﴿ الْأَحْزَاب .

● مَهَمَّاتُ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٥١) ﴿ الْبَقَرَةُ .

● الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ ﷺ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) ﴿ الْجُمُعَةُ .

● مِثْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١٦٤) ﴿

آل عمران .

• البَشِيرُ النَّذِيرُ ﷺ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ : يقول الله تعالى : ﴿ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ

صَالِحًا يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝۱۱﴾

﴿ الطلاق .

• الْحُكْمُ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝۱۰۵﴾ النساء .

• رَسُولٌ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ : يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ۝۱۰۸﴾ يوسف .

• رَسُولٌ خَاتَمٌ وَمَنْهَجٌ رَبَّانِيٌّ شَامِلٌ : يقول الله تعالى : ﴿

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا ۝۱﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝۲﴾

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝۳﴾ الأحزاب .

● إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا : يقول الله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا

الْمُرْمَلُ ①﴾ قُرْآنُكَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَبُّهُ الْقُرْآنَ
تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ ﴿الْمُرْمَلُ .

● قُمْ فَأَنْذِرْ : يقول الله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الْمَدَنِيُّ ①﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ②

وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ③ وَبِابِكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ
فَاصْبِرْ ⑦ ﴿الْمَدَنِيُّ .

● رَسُولٌ خَاتَمٌ وَدِينٌ جَامِعٌ لَأَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَدَعَوَاتِ النَّبِيِّينَ :

يقول الله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَتَأْمِنُوا حَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
⑦﴾ النساء .

● آمَنَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ : يقول الله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ⑧﴾
﴿البقرة .

● لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾
أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ النساء .

● نُبُوءَةٌ خَاتَمَةٌ ، وَرِسَالَةٌ جَامِعَةٌ : يقول الله تعالى : ﴿ قُولُوا

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أَوْحَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْحَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوْلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ البقرة .

● رَسُولٌ بَشَرٌ ﴿﴾ . . لَا يَتَعَدَّى طُورَ بَشَرِيَّتِهِ : يقول الله

تعالى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِفًا لِّهَا نَفْحِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ
تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ ﴾ الإسراء .

● صَاحِبُ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ ﴿١﴾ ﴾ القلم .

● صَاحِبُ الْمَقَامِ الْحَمُودِ : يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ

فَتَهَجَّدَ بِهِ بِنَاِفَلَةٍ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧١) الإسراء .

● رَحْمَةُ الْعَالَمِينَ : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) الأنبياء .

● نَبِيُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ : يقول الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَقْوَ وَأَمْرًا

بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴾ (١١١) الأعراف .

● إِنَّهُ النَّبِيُّ الْمُؤَيَّدُ بِنَصْرِ اللَّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ : يقول الله تعالى : ﴿ ..

هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢) وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنْ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴾ (١٣) يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤)

الأنفال .

● لَيْسَ بِشَاعِرٍ ، وَلَا سَاحِرٍ ، وَلَا كَاهِنٍ : يقول الله

تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤٠)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴾ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٣) الحاقة .

● أَعْقِلُ النَّاسِ وَأَحْكُمُ النَّاسِ يَتَّهِمُ بِالْكِهَانَةِ وَالْجُنُونِ : يقول

الله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ

شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَبِّبُ الْمُتُونِ ﴿ ٣٠ ﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿ ٣١ ﴾

الطور .

● لَا يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقُولَ شَيْئاً عَلَى اللَّهِ : يقول الله

تعالى : ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴾ (١١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ ١٢ ﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

الْوَتِينَ ﴿ ١٣ ﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ ١٤ ﴾ الحاقة .

● وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا

عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾ (٦١) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا

وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ ٧٠ ﴾ يس .

٤ . الرُّسُولُ الْخَاتَمُ ﷺ فِي عِلَاقَتِهِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ :

● خِطَابُ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ : يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا

مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾ (١١) المائدة .

● الدعوة إلى التوحيد الخالص : يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ آل عمران

● الدعوة إلى الإيمان بالنبي ﷺ وما جاء به : يقول الله تعالى :

﴿ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ المائدة .

● يعرفون الحق ويأبون الإيمان به : يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا

جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ البقرة .

● لو صدقوا في إيمانهم لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه : يقول الله

تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِذَا بَلَغَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ المائدة .

● شَهَادَةُ اللَّهِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ :

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾
الأنعام .

● رَسُولٌ شَهِيدٌ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَأُمَّةٌ وَسَطٌ شَهِيدَةٌ عَلَى النَّاسِ :

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة .

● رَسُولٌ شَهِيدٌ عَلَى أُمَّتِهِ كَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ : يقول الله

تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ المزمل .

٥ . الرسولُ الخاتمُ ﷺ فِي عِلَاقَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ وَبِأُمَّتِهِ :

● قُرْبُ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : يقول الله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ

أَوَّلُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ الأحزاب .

● **الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ** : يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ (٦١)
الأحزاب .

● **رَسُولٌ كَرِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** : يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩ ﴾ التوبة

● **رَحْمَةُ الرُّسُولِ ﷺ بِالْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ** : يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ
تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ ﴾ النساء .

● **طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ الرُّسُولِ ﷺ هُمَا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فِي حَيَاةِ**

الْمُسْلِمِ : يقول الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوَلِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥١ ﴾ النساء .

● طاعة الله والرسول ﷺ ترفع المؤمن إلى أعلى المراتب :

يقول الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦١﴾
ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ٧٠﴾ النساء .

● أدب التلقي عن الله ورسوله ﷺ ، وخطر الخروج عن

الطاعة والأدب : يقول الله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥﴾ الحجرات .

● طاعة الرسول ﷺ عِصْمَةٌ لِلأُمَّةِ مِنَ الزَّيْغِ وَالانْحِرَافِ :

يقول الله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ٧﴾ الحجرات .

● التحذير من معصية الرسول ﷺ ومخالفة أمره : يقول الله

تعالى : ﴿ ... وَمَاءِ انْتَكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ الحشر .

● رسول الرحمة ، والأخلاق العظيمة : يقول الله تعالى :

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْهُمْ لَوَ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَعُكَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٢٩﴾ آل عمران .

● الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسمو

في التعامل مع الأعداء يقول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ النحل .

● رِسَالَةٌ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ : يقول الله تعالى : ﴿ .. وَأَرْسَلْنَاكَ

لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ٧٩ ﴾ النساء .

● فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ : يقول الله تعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا

مُطَهَّرَةً ٢٠٢ ﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ٢٠٣ ﴾ البينة .

● مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ : يقول الله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ

الْمُبِينُ ١٢٠ ﴾ المائدة .

● وَلَا يَضُرُّكَ الْمَكْذِبُونَ الضَّالُّونَ : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا

أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ١١١ ﴾ البقرة .

● وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ : يقول الله تعالى : ﴿

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن

تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥٤ ﴾ النور .

● طَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ هِيَ الْمَرْجِعُ وَالْمَلَاذُ : يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى

أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ النساء .

● الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ وَمُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ الْخِزْيُ وَالْعَذَابُ : يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا
يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ
هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ
اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ المائدة .

● عَاقِبَةُ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ النساء .

● وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : يقول الله
تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿التوبة .

● وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَلْعُونُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿الأحزاب .

● بَلِّغْ . . . وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ : يقول الله تعالى : ﴿

يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿المائدة .

● إِنَّهُ ﷺ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ ، وَيَمُوتُ كَمَا مَاتَ مِنْ قَبْلِهِ : يقول الله

تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي

اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿آل عمران .

● وَيَشْكُرْ لِرَبِّهِ جَفْوَةً قَوْمِهِ لِلْقُرْآنِ : يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ

الرَّسُولُ يَرْبِ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿الفرقان .

● جِهَادُ الْقُوَّةِ بَعْدَ جِهَادِ الدَّعْوَةِ : يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُثَسَّرُ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة (٧٢) ، والتحريم (١) .

● مخالفة الرسول ﷺ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْعَذَابِ : يقول الله تعالى : ﴿ ... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٣) النور .

● سيرة الأمم مع الرسل مُتَشَابِهَةٌ : يقول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (١٨٤) آل عمران .

● وَلَنْ يُفْلِتَ الْمُكَذِّبُونَ مِنَ الْعِقَابِ : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٥٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٦٦) فاطر .

● وَلَنْ تَكُونَ عَاقِبَةُ تَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا الْهَلَاكُ الْمُبِينُ : يقول

الله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (١٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ

أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢١) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ

رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ
كَانَ تَكْوِينِ ﴿٢٦﴾ ﴿ فاطر .

● تَكْذِيبُ الرُّسُولِ ﷺ يُنْذِرُ بِأَسْوَأِ الْعَوَاقِبِ : يقول الله تعالى :
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ النحل .

● حَسْرَةُ الْكَافِرِينَ وَنَدَامَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يقول الله تعالى :
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾
يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ
حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ النساء .

● حَسْرَةُ الْكَافِرِينَ عَلَى طَاعَةِ الرُّسُولِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يقول
الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرُّسُولَ
﴿٦٦﴾ ﴾ الأحزاب .

● مَصِيرُ الْمُتَنَكِّبِينَ عَنْ طَاعَةِ الرُّسُولِ ﷺ : يقول الله تعالى :
﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

يَوَيْلَ لِيَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴿ الفرقان .

● فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ : يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ

الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٢﴾

وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ

لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴿ الأنعام .

● احْكُمُوا إِلَىٰ عُقُولِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ : يقول الله

تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرْدَىٰ ثُمَّ

تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ

﴿ ٤٦ ﴾ ﴿ سبا .



المبحث الثاني

الرسول الكريم ﷺ يعرف بنفسه

السيرة الذاتية من أهم ما يُعرّف بالإنسان ، ويكشف عن شخصيته ، بما لا يستطيع الآخرون الكشف عن جوانبه في كثير من الأحيان .. ومن هنا فقد عظم الاهتمام بها ، والحرص على كتابتها ، والعناية بدراستها ، لما فيها - في كثير من الأحيان - من صدق في القول ، وتعريف بدخائل النفس واتجاهاتها ، وأسرارها وخفاياها ، وتعليل لمواقفها ، واعتراف بضعفها وأخطائها ..

فكيف إذا كانت السيرة الذاتية تقدّم من أصدق الناس قولاً ، وأعظم الناس منزلة وقدرأ ، من اصطفاه الله على العالمين ، وفضّله على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأمره بالتحدّث بنعمة ربّه فقال سبحانه :

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) الضُّحَى ١٢!

وهذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، التي يعرف فيها النبي ﷺ بنفسه ، وتعريفه ﷺ فيما هو من الغيب لم يكن إلّا وحياً من الله تعالى ، إذ إنّه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلّا وحي يوحى ..

عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ : قَالَ الْعَبَّاسُ : بَلَّغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ قَالَ : فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَقَالَ : (أَيُّهَا النَّاسُ ! مَنْ أَنَا ؟ قَالُوا : أَلْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ

الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ،
وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بَيُوتًا ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ
بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا ^(١) .

وَعَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَمِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ
إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا ، وَاصْطَفَى مِنْ
قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ) ^(٢) .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا
نَفْسَهُ أَسْمَاءً ، فَقَالَ : (أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَالْحَاشِرُ ،
وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ) ^(٣) .

أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ :

ومن أهم الأحاديث التي تدل على عظيم مكانة النبي ﷺ عند ربه

حديث الشفاعة العظمى :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ ،
وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَتَهَشَّ مِنْهَا تَهَشَّةً ، ثُمَّ قَالَ : (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَلِكَ ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ،

(١) - رواه الترمذي في الدعوات / ٣٤٥٥ / وفي المناقب / ٣٥٤١ / وقال : هذا حديث حسن ،
ورواه أحمد في المسند / ٢٤١٣٩ / واللفظ له .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله ، باب في فضل النبي برقم / ٣٥٣٨ ،
وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم / ٤٣٤٤ .

يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ
وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ ، وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ
بَلَغَكُمْ ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ :
عَلَيْكُمْ بِآدَمَ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ،
خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، اشْفَعْ
لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ، فَيَقُولُ
آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا ، لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ
بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ،
اذهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ إِنَّكَ
أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، اشْفَعْ لَنَا
إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ
الْيَوْمَ غَضَبًا ، لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ
لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذهَبُوا إِلَى غَيْرِي ،
اذهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ
وَحَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ،
فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا ، لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ
يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو
حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذهَبُوا إِلَى
مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَصَلِّكَ اللَّهُ
بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ،
فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا ، لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ
بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا ، لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ،

اذهبوا إِلَى غَيْرِي ، اذهبوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَيَقُولُ عِيسَى ، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا ، لَمْ يَعْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلُهُ قَطُّ ، وَلَنْ يَعْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلُهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذهبوا إِلَى غَيْرِي ، اذهبوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ، فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا ، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهُ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ ، أُمِّتِي يَا رَبِّ ، أُمِّتِي يَا رَبِّ ، أُمِّتِي يَا رَبِّ ، فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى (١) .

وجاء في رواية الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَيَبْدِي لِوَاءِ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ ، قَالَ : فَيَفْرَعُ النَّاسُ ثَلَاثَ فَرَعاتٍ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي

(١) - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن ، باب : ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً برقم /٤٤٣٥/ ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم /٢٨٤/ .

أَذْنَبْتُ ذَنْبًا ، أُهْطِطُ مِنْهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ أَتُوا نُوحًا ، فَيَأْتُونَ نُوحًا ،
فَيَقُولُ : إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً ، فَأَهْلَكُوا ، وَلَكِنْ اذْهَبُوا
إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ ، ثُمَّ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا مِنْهَا كَذِبَةٌ إِلَّا مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِينِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ
اتُّوا مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُ : إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا ، وَلَكِنْ أَتُوا
عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُ : إِنِّي عُيِدْتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَتُوا
مُحَمَّدًا ، قَالَ : فَيَأْتُونَنِي ، فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ - قَالَ ابْنُ جُدْعَانَ : قَالَ أَنَسٌ :
فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَآخِذْ بِحُلَقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأَقْعُقْهَا ،
فَيَقَالُ : مَنْ هَذَا فَيَقَالُ : مُحَمَّدٌ ، فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَحِّبُونَ بِي ، فَيَقُولُونَ مَرْحَبًا :
فَأَخِرُّ سَاجِدًا ، فَيُلْهِمُنِي اللَّهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ ، فَيَقَالُ لِي : ارْفَعْ رَأْسَكَ ،
وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لِقَوْلِكَ ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمُحْمُودُ ،
الَّذِي قَالَ اللَّهُ : ﴿ .. عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ (١) .

فإني مقام أرفع من هذا المقام وأجل ؟! وجميع الأنبياء والرسل عليهم
الصلاة والسلام يعتذرون عن هذه المهمة العظيمة ، ويدركهم الفزع من
أحوال الموقف ، ويحيلون الأمر إلى مَنْ عرفوا منزلته وفضله ، إنه سيّد ولد آدم
ﷺ .. فيشفع في أهل الموقف جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، برّهم وفاجرهم ،
فيأذن الله تعالى بفصل القضاء بين عباده ، وتبدأ الخصوصية لهذه الأمة ،
فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ
مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ " ..

(١) - رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، باب ومن سورة بني إسرائيل ،
برقم /٣٠٧٣/ ، وقال : هذا حديث حسن ، ورواه مسلم مختصراً .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : (إِذَا
 سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ
 صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنَزَلَةٌ فِي
 الْجَنَّةِ ، لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ
 سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ) ^(١) .



(١) - رواه مسلم في كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ثم يصلي
 برقم /٥٧٧/ .

المبحث الثالث

أضواء وظلال حول آيات : نبي الرحمة وصاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة

يقول الله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) ﴿ الأنبياء .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ﴿ القلم .

ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) ﴿ الأحزاب .

ثلاث آيات فذة في كتاب الله تعالى ، تشكل مع بعضها معادلة شاملة لشخصية النبي ﷺ وشمائله ، وطبيعة رسالته ، ومنهجه وعلاقاته ..
يسعك أن تنظر إليها بهذا الترتيب ، أو تُقدِّم الآية الثانية لتكون مكان الأولى ، وتفكر في ترابطها ل تراها تقدِّم لك تسلسلاً منطقيًا لهذه المعادلة ، التي كان من ورائها تكوين خير أمة أخرجت للناس ، وقيام حضارة ، غيرت وجه الدنيا ، وسعدت بها الإنسانية قرونًا من الزمن ، وأخرجت أمم الأرض من ظلمات الجاهلية ، وعبث الباطل ، وتيه الضلال ، إلى نور الحق والهدى ..

ومع كلّ ما عرفت البشرية من تطوّر علميٍّ ماديٍّ ، وتيّارات فكرية متصارعة ، وقيم متباينة متناحرة ، ورفاهية عيش ، دفعت الإنسان إلى الأشر والبطر ، والاستكبار والتزف ، وبغي الإنسان على أخيه الإنسان ، والتمرد على قيم السماء .. مع كلّ ذلك وما يشبهه ، تبقى

معادلة هذه الآيات الفدّة تقف شامخة سامقة ، تتحدّى كلّ ذلك ؛ فلا تبلى جدّتها ، ولا تضعف فاعليّتها ، وتدبر الصراع بين الحقّ والباطل ، وتؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ..

ومع ما ابتليت به أمة الإسلام من الوهن والتخلّف ، وشتات الأمر ، وتفرّق الكلمة ، فلا تزال هذه المعادلة الإيمانيّة تنفخ الروح الزكيّة في عموم الأمة ؛ فتخرج لها طائفة صفوة مختارة ، من الرجال والنساء ، والشيب والشباب ، ظاهرين على الحقّ ، لا يضرّهم من خذلهم ، حتّى يأتي أمر الله ..

أفلا يجدر بنا إذن أن نقف أمام هذه المعادلة مستلهمين منها الخير والرشد ، والنور والهدى ؟ فإلى رحاب هذه الآيات الكريمة ، وليّ والله التوفيق والسداد ..

شريعة الرحمة ، ونبى الرحمة :

يقول الله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

الأنبياء ، ما أوسع هذا الإعلان العظيم ، وما أرحبه ! " إنّ سعة هذا الإعلان ، وإطاره الكبير ، ومساحته بحساب الزمان والمكان ، تجعلان هذا الإعلان خارقاً للعادة ، لا يمكن أن يمرّ به الإنسان الواعي مرّاً عابراً سريعاً ، فإنّ مساحته الزمنيّة تحوي جميع الأجيال ، والأدوار التاريخيّة التي تتلو البعثة المحمديّة ، ومساحته المكانيّة تسع العالم كلّهُ ، بما فيه من مخلوقات أحياء وجمادات ، فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يقل : إنّنا أرسلناك رحمة للمؤمنين ، أو لجزيرة العرب ، أو للشرق أو الغرب ، أو لقارة من

القارّات مثلاً ، بل إنّ قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) .

والحقّ أنّ سعة هذا الإعلان وشموله ، وعظمته وسموّه ، واستمراره وخلوده ، كلّ ذلك يقتضي أن يقف عنده مؤرخو العالم وفلاسفته ، ونوابغه وأذكيأؤه حيارى مشدوهين ، بل يقف أمامه الفكر الإنسانيّ كلّّه حائراً مشدوهاً ، وينقطع إليه كلياً ، ردة من الزمن ، يبحث في مدى صدق هذا الإعلان ، أو صحّة هذا الواقع ، لأنّنا لم نجد في تاريخ الأديان والنحل ، وفي تاريخ الحضارات والفلسفات ، وتاريخ الحركات الإصلاحية ، والمحاولات الثورية ، بل في تاريخ العالم كلّّه ، وفي المكتبة الإنسانية بأسرها ، مثل هذا الإعلان المحيط بالكون كلّّه ، والأجيال البشرية كلّها ، والأدوار التاريخيّة بأجمعها ، حول أيّ شخصيّة من شخصيّات العالم ، حتّى إنّ خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، وما وصل إلينا من أحوالهم وسيرهم .. كلّ ذلك أيضاً مجرد عن مثل هذا الإعلان الواسع الشامل .

وإنّ لتقدير شيء ووضعه في محلّه المناسب ، ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامّة : الأول : مقداره وحجمه ، الذي يعبر عنه في المصطلح الحديث : الكميّة . والثاني : جوهره ووصفه ، الذي يقال له : الكيفيّة .

وهذا الإعلان الذي نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين ، فإنّ بعثته ﷺ ، وشخصه العظيم ، وتعاليمه السامية الخالدة ، أفاضت على الإنسانية مسحة جديدة من الحياة والنشاط ، وكان السبب المباشر في شفائها من أسقامها وعلاّتها ، وفي حلّ معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها ، وهطول أمطار الرحمة والبركة ، واليمن والسعادة ، والخير

والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة ، وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية ،
منقطعة النظر بحساب السعة والوفرة ، والحجم والكمية ، وبحساب النفع
والإفادة ، والجوهر والكيفية أيضاً .

ولفظ " الرحمة " شاع استعماله في حياتنا اليومية ، وهو يطلق على كل
شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة ، أما أنواع الرحمة وأقسامها ، ودرجاتها
ومدارجها ، فلا حصر لها ؛ يقدم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان ،
ويدلّ المسافر والغريب على الطريق ، ويحرك له المروحة في يوم صائف ،
شديد الحرّ ، والأم تحنو على طفلها ، والأب يرّبي ولده ويعلمه ، ويزوّده
بمجاهيات الحياة ، والمدرس يدرّس تلاميذه ويؤدّبهم ، ويمنحهم ما عنده من
نعمة العلم ، وهكذا إطعام الجائع المسكين ، وإكرام الضيف ، وكساء
العريان ، كلّ ذلك من مظاهر الرحمة العامّة ، وألوانها المختلفة الزاهية ،
وهي تستحقّ منا كلّ تقدير ، واعتراف ، وشكر .

ولكنّ أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، وأروع صورة من صورها
الجميلة : أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت ؛ هناك طفل صغير بريء ،
نراه في حالة الاحتضار ، كاد يلفظ نفسه الأخير ، الأم تقف إلى جواره
تبكي ، قد أظلمت الدنيا في ناظريها ، وانقطع أملها في فلذة كبدها ،
وماوى حنانها وحبّها ، والأب يسعى هنا وهناك ، هائماً على وجهه ، فلا
يجد راقياً وأنيساً ، هنالك يأتي طبيب حاذق ، كما ينزل الملك من السماء ،
ويقول : مهلاً ! لا داعي للقلق ، ولا موجب لليأس ، ويلقي في فم الطفل
قطرات قليلة من الدواء ، فيزول عنه المرض ويتلاشى ، ويفتح عينيه ، وينشط

من مرضه .. لتتصوّر ماذا يقال لهذا الطبيب ؟ ألا يقال له : إنّه ملك الرحمة ، أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل ، وإعادة الحياة إليه ، هنالك تتلاشى كلّ هذه الأنواع من الرحمة التي قدمناها أولاً ، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخاذ من الرحمة ، إنّها ليست منّة على الطفل فقط ، بل على أسرته كلّها .

نرى أعمى يمشي متوكّئاً على عصاه ، قد شارف هوّة عميقة أو بئراً ، قد تكون خطواته التالية خطوة الموت ، فيهرول إليه عبد من عباد الله ، ويأخذ بحجزته ، ويمنعه عن الوقوع في هذه الهوّة ، أفلا نسمّيه ملك الرحمة .

وهذا شاب يافع ، قرّة عين أبويه ، وكفيل عائلته الفقيرة ، قد أشرف على الغرق في نهر فائض ، يحاول أن يطفو على الماء ، ولكن دون جدوى ، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته ، ويأخذ به إلى ساحل النجاة ، فيحمله ربّ الأسرة ، أو إخوة هذا الشابّ ، على أعناقهم ، ويضمّونه إلى صدورهم ، بحرارة وحبّ ، ولا ينسون فضله على أسرتهن الصغيرة مدى الدهر ، ترى هل تساوي مظاهر الرحمة الأولى ، هذه الرحمة العظيمة الغالية .

وهناك ما هو أكبر من هذه الرحمة وأعظم ، عندما يكون الإنقاذ لا يختصّ بفرد أو أفراد ، وليس متعلّقاً بحياة الإنسان الدنيويّة ، وإنّما يتّصل بحياته الأخرويّة السرمديّة ، وبنجاته من الخلود في نار جهنّم ، فعندئذ لا تقاس بها آية رحمة في هذا العالم مهما كان شأنها ، ففرق كبير بين هلاك وهلاك : هلاك قصاراه هلاك الجسد ، وهلاك فيه هلاك الأبد ..

وتلك هي رحمة الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وتلك هي المهمة التي حمل عبأها ومسئوليّتها ، ونهض بها على أحسن حال وأتمّه سيّدهم وخاتمهم ، نبيّنا محمّد ﷺ ، وقد خصّه الله تعالى بشريعة جامعة لكلّ

خير ، وهي رحمة للعالمين ، كما أنَّ الله تعالى جعله رحمة للعالمين بما خصّه من خصائص ، وجباه من فضائل ، لا يستطيع أيّ باحث ذكيّ ، أو كاتب عبقريّ أن يحيط بها ^(١) .

ونضرب لهذه الرحمة مثلاً مستوحى من مثل نبويّ ثبت في السنّة .. لقد كانت الأرض جرداء مجدبة ، لا يوحى منظرها أنّ فيها شيئاً من الحياة ، فمَنّت عليها السماء بالغيث الغدق ، فما هي إلّا أيّام حتّى استحالت مروجاً خضراء ، وجنّة غنّاء ، فنبت الزرع ، وامتأّ الضرع ، وعمّ الخير ، وانتقلت الأرض من موات الشتاء ووحشته ، إلى بهجة الربيع وأنسه ، وأشرقت الأرض بنور ربّها ، وغدت الأرض جنّات تفيض أنهاراً ، ورياضاً تحتضن أبقاراً .. وكذلك كان الهدى للأرواح والقلوب ، لقد انتعشت به القلوب الضامرة الظامئة ، التائهة الشاردة ، واستنارت أرجاؤها بجمرة الإيمان ، ودفق الحبّ والحنان ، وصحّت العقول من سكرة الضلال ، ورقدة الخبال ، وأعلن في الكون ميلاد الإنسان من جديد ، وانحسرت الجاهليّة ، وتزلزلت أركانها ، وتصدّع بنيانها ، واندحرت في شتّى بقاع الأرض ..

جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه : عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

(إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَأَنَّ مِنْهَا طَائِفَةً طَيِّبَةً ، قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَثْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ ، أُمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا ، وَسَقَوْا وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ ، لَا

(١) - انظر : " السيرة النبويّة " للشيخ أبي الحسن الندويّ رحمه الله ص/٤٥٤/ بتصرّف يسير .

تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَعَهُ بِمَا
بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى
اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ (١) .

فما أشبه غيث الأجساد الظامئة ، والبطون الخاوية ، بغيث العقول
والقلوب ، إِلَّا أَنَّ غَيْثَ الْأَجْسَادِ وَالْبَطُونِ قَصَارَاهُ سَدُّ الْجُوعِ ، وَتَحْسِينُ
صُورَةِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ إِلَى حِينَ مَعَ شَقَاءِ الْعُقُولِ وَالْأَرْوَاحِ .. وَغَيْثُ الْعُقُولِ
وَالْقُلُوبِ غَايَتُهُ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَصَلَةُ الْمَخْلُوقِ الْفَانِيِ ،
بِخَالِقِهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَإِعْمَارُهُ لِلْأَرْضِ وَفَقِ مِنْهَجِ اللَّهِ وَهْدَاهُ ..

بَشَرَى الْإِنْسَانِيَّةِ بِالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ : وَلَقَدْ بَشَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى وَآمَتَهُ
بِالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ ، الَّتِي تَنْتَظَرُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى يَدِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ،
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ
مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿ .. أَنْتَ وَلَيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ

﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي
أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الَّذِي جَاءَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَتَى الْفُرْقَانَ بَيْنَ الْبَاطِلِ وَالْحَقِّ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا

(١) - رواه البخاري في كتاب العلم برقم /٧٧/ ومسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٣٢/ .

يُؤَيِّدُ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿ ١٥٧ ﴾ الأعراف .

ففي هذه الآيات الكريمة عندما سأل موسى عليه السلام ربّه المغفرة الرحمة ، بيّن الله تعالى له ولقومه حقائق كتبها على نفسه رحمة بعباده ، وهي أنّ العذاب يخصّ من ظلم وانحرف ، وبدل نعمة الله كفرأ ، وأنّ رحمته سبحانه وسعت كلّ شيء ، ومن عموم رحمته بخلقه ما خصّ به عباده المتّقين المستجيبين لأمره ، الذين يسارعون إلى الإيمان بنبيّ الرحمة ، الذي يجدون صفته عندهم في التّوراة والإنجيل ، ومن أهمّها : أنّه يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، ويخفف عنهم الأحكام الشديدة ، التي كتبها الله على آبائهم بسبب عصيانهم وتعتّتهم ، وتمردهم على أنبيائهم ، فمن آمن بهذا النبيّ الخاتم ، وعظّم حقّه ، واستجاب لدعوته ، ونصر دينه ، واتّبع القرآن الذي أنزل عليه ، وهو النور المبين فهو عند الله من الفائزين المفلحين .

والإسلام دين الرحمة العظمى : ومن حقائق عقيدتنا التي يدركها كلّ ذي بصيرة ، ويلمحها كلّ ذي عقلٍ ولبّ : أنّ الإسلام دين الرحمة الشاملة العامّة ؛ فربّنا سبحانه هو الرحمن الرحيم ، العفوّ الغفور ، الذي وسعت رحمته كلّ شيء ، وسبقت رحمته غضبه ، وجعل الرحمة فطرة راسخة في كلّ ذي روح ، بها يتعامل الخلق ويتعاطفون ، فتعمر الحياة ، وتستقيم العلاقات ، وقد قسمها الله سبحانه إلى مئة جزء : جزء جعله في هذه الحياة ، به يتراحم الخلق ويتعاطفون ، وتسعة وتسعون جزءاً قد أدّخرها عنده ، لينشرها على عباده في الآخرة ..

جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً ، بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَغْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (١) .

ونبيّن ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين ، وجعله رءوفاً رحيماً بالمؤمنين ، فحياته كلّها رحمة ، وأخلاقه كلّها رحمة ، وهو نبي الهدى والرحمة .. وشرعية الله كلّها رحمة : في عقيدتها ، وعباداتها ، وأحكامها ، وأخلاقها ..

فلن يعرض عن ربّه ، ويأبى الإيمان بنبيه ﷺ ، والالتزام بشريعته إلّا من اختار لنفسه العذاب على الرحمة ، والشقاء على السعادة ، ولا يهلك على الله إلّا هالك ..

والرحمة عاطفةٌ روحيةٌ سامية ، تسري في أخلاق الناس وعلاقاتهم ، فتجعل حياتهم هائلة كريمة ، آمنة مطمئنة ، لا تدخل أنواعها ومظاهرها تحت حصر .. والرحمة النبوية أعلى أنواع الرحمة وأرقاها ، وأتمّها وأكملها ، وهي مفتاح شخصيّة النبي ﷺ ، وسرّ عظمة أخلاقه ..

وليس في تعاليم الأنبياء والمصلحين على مدار التاريخ الإنساني كلّهُ دعوة إلى مكارم الأخلاق ، وإشادة بها ، وحثّ عليها ، وبيان لفضلها ومكانتها في الدنيا والآخرة ، وربطها بكلّ حقائق الإسلام والإيمان ، مثل دعوة النبي ﷺ إلى ذلك .. وكلّ ذلك ينبع من معين رحمته ﷺ للعالمين ..

ثمّ لم يقف أمره عند هذا الحدّ ، بل إنّ كلّ ما دعا إليه ﷺ نجد حياته وشخصيّته المرآة الصادقة له ، أفلا يكون ذلك دليلاً من أظهر الأدلّة وأجلاها على صدقه في دعوى النبوة والرسالة ؟!

(١) - رواه مسلم في كتاب التوبة برقم /٤٩٤٤/ .

هذا، ومن أهم مظاهر الرحمة الإلهية في شريعة الله تعالى وهدى نبيه ﷺ :
 إثارة الأيسر واختياره ، وإثارة الرفق على العنف ، وإثارة العفو على العقوبة
 والمؤاخاة ، والحث على العفو والصفح الجميل ، والرحمة بالنساء ، والرحمة
 بالأطفال ، والرحمة بالأمة عامة ، والرحمة بالأعداء ، والرفق في التعليم ،
 والرفق بالجاهل ، وبناء الشريعة على اليسر والرحمة ، والتيسير ورفع الحرج ،
 وتشريع الرخص ، والحث على الأخذ بها ، ومراعاة الأحوال الاستثنائية ،
 والضرورات والأعذار ، وكتابة الأجر بالنية ، واعتبار المصلحة في التشريع ،
 وأن الأصل براءة الذمة والإباحة ، وبناء الأحكام على اليقين أو غلبة الظن ،
 وإهدار الشك ، ودرء الحدود بالشبهات ، والحث على الصلح والترغيب به ،
 ورفع الحكم عن المخطئ والناسي والمكره ، وقواعد الشريعة الكلية العامة
 كلها مبنية على الرحمة والتيسير .

ولا يخفى أن تفصيل هذه النقاط ، والتدليل عليها والتمثيل لها يحتاج إلى
 بحث واسع مستقل ، وهذا البحث الذي بين يديك أخي القارئ هو يعون
 الله تعالى محاولة جادة لتجلية أكثر هذه الحقائق ، المتصلة بشخص رسول الله
 ﷺ ، وسيرته العطرة ، وشمائله الكريمة ، ومن الله التوفيق والسداد .

نصوص نبوية في بناء دين الله على الرحمة :

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبِيًّا ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ
 السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ تُدِيهَا تَسْقِي ، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ
 بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : (أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةٌ وَلَدَهَا فِي
 النَّارِ قُلْنَا : لَا ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ
 هَذِهِ بَوْلَدِهَا) ^(١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم / ٥٥٤٠ .

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) ^(١) .

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا) ^(٢) .

وعن قبيصة بن جابر عن عمر رضي الله عنه قال : " لَا يُرْحَمُ مَنْ لَا يَرْحَمُ ، وَلَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَا يَغْفِرُ ، وَلَا يُتَابُ عَلَى مَنْ لَا يُتُوبُ ، وَلَا يُوقَى مَنْ لَا يَتَوَقَّى " ^(٣) .

زاد في رواية ابن خزيمة : قال قبيصة : " وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَفْقَهَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَلَا أَقْرَأَ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ عَمْرٍ " .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه يَقُولُ : (لَا تُنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ) ^(٤) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : (اِرْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَاغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَيُلْ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ ^(٥) ، وَيُلْ لِلْمُصْرِئِينَ ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ^(٦) .

(١) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم/٤٢٨٣ .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ برقم/١٨٤٣ .

(٣) - رواه البخاري في الأدب المفرد ، انظر : " ملخص فضل الله الصمد " برقم /٣٧٤ .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ برقم/١٨٤٦ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ برقم/٤٢٩١ .

(٥) - الأقماع جمع قمع كضلع ، وهو الإناء الذي يترك في رءوس الظروف لتملاً بالمناعات من الأشربة والأدهان ، شبه أسماع الذين يستمعون القول ، ولا يعونه ويحفظونه ويعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها ، فكأنه يمر عليها مجازاً ، كما يمر الشراب في الأقماع اجتيازاً ، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن أثير ٤/١٠٩ .

(٦) - رواه أحمد في المسند برقم /٦٢٥٥ .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " أَوْصَانِي جِبِّي بِخَمْسٍ : أَرْحَمُ الْمَسَاكِينَ ، وَأُجَالِسُهُمْ ، وَأَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ تَحْتِي ، وَلَا أَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي ، وَأَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ ، وَإِنْ أَدْبَرْتُ ، وَأَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ ، وَإِنْ كَانَ مُرًّا ، وَأَنْ أَقُولَ : " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " ، يَقُولُ مَوْلَى غُفْرَةَ : لَا أَعْلَمُ بَقِيَّ فِينَا مِنَ الْخَمْسِ إِلَّا هَذِهِ ، قَوْلُنَا : " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " (١) .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ : (بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا) (٢) .

نبي الخلق العظيم والأسوة الحسنة ﷺ :

ولقد لخص القرآن الكريم شخصية النبي ﷺ : وهو الرسول المبلغ للرسالة عن ربه ، والداعية المبشر بالدعوة بأية جامعة ، هي قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) القلم ، وهذه الآية تجمع إعجاز القرآن البياني إلى إعجاز شخصية النبي المصطفى ﷺ ، تلك الشخصية التي حازت الكمال الإنساني من أطرافه ، وتربعت على قمته فلا تدانيها فيه قمة .

لقد وصف الله تعالى رسوله ﷺ بعظمة الأخلاق ، ولم يصفه بكريم الأخلاق ، وعد العلماء أخلاق النبي ﷺ معجزة من أعظم معجزاته ودلائل نبوته ، وبيان ذلك : أن الموصوف بالأخلاق الكريمة قد يكون على خلق فاضل في بعض أموره دون بعض ؛ فقد يكون سخيًّا كريماً ، ولا يكون

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٠٥٤٠/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب العلم برقم /٦٧/ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /٣٢٦٢/ .

متواضعاً للناس ، لئِن الجانب ، أوْ لا يكون ذا عفوٍ عَمَّنِ يسيءُ إليه ، أوْ ينتقصه بعضُ حقِّه .. وقد يكون رحيماً ، ولا يكون حكيماً ، وقد يكون خدوماً للناس ، يَسعى في مصالحهم ، ويفرِّج كرباتهم ، ولا يكون عفيفاً عَن أموالهم وحقوقهم ..

وكثيراً ما تكون أخلاق بعض الناس فاضلةً في حال دون حال .. فيعدّه الناس كريماً في أخلاقه ، ويوصف بذلك لتحليّهِ ببعض الأخلاق الفاضلة ، التي تغطّي على شخصيّته كلّها ، وتسترّ جوانب ضعفها وقصورها ، بل واختلالها في كثير من الأحيان ، كما أنّ وصف الإنسان بكريم الأخلاق قد يوحي بغلبة جانب الضعف في شخصيّته ، أو العجز عن القيام بالحقّ أو تحصيله ، وحاشا رسول الله ﷺ عن ذلك كلّهُ ..

وكثيراً ما تغطّي بعض الأخلاق الكريمة على كثير من صفات الخلل ، ومظاهر النقص في شخصيّة الإنسان وسلوكه ، فيتناساها الناس ، أو يكادون ، وتَصغر في عيونهم ، ويلتمسون لها المبررات ، وقد يكون فيها ما يشين الإنسان ، ويحطّ من منزلته وقدره ..

أمّا الأخلاق النبويّة الشريفة فقد جمعت عظمة الأخلاق من أطرافها ، وملكت زمامها ، وتمكّنت منها ، وسلس لها قيادها ، فهي كالماسّة المنيرة من كلّ زواياها ، أتى نظرت إليها رأيت جوهر ذاتها يشعّ على ظاهرها وما حولها ، ولمعان جانبها يوحي بتألّلي سائرها .. وذلك تقدير العزيز العليم ، واصطفاه وتكرّمه ، جلّت ذاته ، وتقدّست أسماؤه ، و ﴿ .. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۖ ﴾ (١٢٤) الأنعام .

ويشير الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه " الاعتصام " ^(١) إلى شيء من ذلك بقوله : " وإِثْمًا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ ، لِأَنَّهُ حَكَّمَ الْوَحْيَ عَلَى نَفْسِهِ ، حَتَّى صَارَ فِي عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ عَلَى وَفْقِهِ ، فَكَانَ لِلْوَحْيِ مُوَافَقًا مَذْعَنًا مَلْبِيًا ، وَاقِفًا عِنْدَ حُكْمِهِ .

وهذه الخاصّة كانت من أعظم الأدلّة على صدقه فيما جاء به عن ربّه ، إذ قد جاء بالأمر وهو مُؤْتَمِرٌ ، وبالنهي وهو مُتَنَتِّهِ ، وبالوعظ وهو مُتَعَطِّ ، وبالتخويف وهو أوّل الخائفين ، وبالرجاء وهو أوّل الراجين ، وحقيقة ذلك كلّهُ أنّه جعل الشريعة المنزلة عليه إمامه وحجّته ، ومرجعه ودليله ، فاقتفى هديها في كلّ شأن ، وحاكم إليها ، وجاهد في سبيلها ، حتّى استنارت معالمها ، واستبان نهجها ، محجّة بيضاء ، لا يزيغ عنها إلّا هالك " .

وإنّ عظمة أخلاق النبي ﷺ ، التي شهدت بها هذه الآية ، تتجلى في ثلاثة جوانب قد جمعها الله تعالى فيه ، وأتمّها له على أكمل حال وأوفاه :

- الجانب الأوّل : الخروج عن حظوظ النفس ، وترك الانتصار لها ، مهما جهل عليه الجاهل ، أو تجاوز حدّه ، وأساء إلى مقامه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

- والجانب الثاني : العفو عند المقدرة ، والتسامي عن المؤاخذه بما سلف من جرائم ، بلا منّ ولا ترفع .. والسيرة النبويّة الكريمة طافحة بذلك فيّاضة ..

(١) - ٣٣٩/٢ / بتصرّف يسير .

- والجانب الثالث : اجتماع أمّهات الأخلاق والفضائل والكمالات فيه ، في جميع الأحوال ، وعلى أرفع مستوى ، وأكمل حال ، ووضع ذلك أحسن مواضعه ، بقدر حكيم ، ونظام كريم ، بما لم تجتمع في غيره من الأنبياء والرسل ، فضلاً عن أحد من البشر .

فهذه الجوانب الثلاثة قد اجتمعت في رسول الله ﷺ على أكمل وجه ، فكانت سرّ عظمة أخلاقه ، ومعجزة من أجلى معجزاته : فالخروج عن حظوظ النفس ، وترك الانتصار لها ، لم يكن مرّة واحدة ولا مرّتين ، بل في كلّ مرّة .. والعفو عند المقدرة ، لم يكن في حال دون حال ، بل في جميع الأحوال .. واجتماع أمّهات الأخلاق والفضائل والكمالات لم يكن في موقف دون آخر بل في جميع المواقف والأحوال .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١٠ ﴾ في مساق التدليل على صدق النبي ﷺ فيما جاء به من دعوى النبوة ، ونفي افتراءات المشركين واتّهاماتهم له بالجنون أو غيره ، ممّا يتنافى مع مكارم الأخلاق التي كان عليها ، صلوات الله وسلامه عليه ..

وأي نوع جليل من الأدلة هذا الدليل ، وهو بهذا البيان يدحض مفتريات المشركين ، ويشيد دعائم الحق المبين .!

إنّه يحمل من الدلالات النفسية والروحية ، التي يطمئن إليها القلب ، وينشرح لها الصدر ، وتسعد بها النفس ، مثلما يحمل من الدلالة العقلية القطعية الرصينة ، التي تأبى أن يكذب الصادق ، أو يصدق الكاذب ، أو يتهم طاهر السيرة نقي السيرة ..

وهذه الأخلاقية البيّنة في منهج الإسلام ، لا تقبل النفعية المادية ، أو المكر والمراوغة ، أو الغدر والالتواء .. وبخاصّة فيما يبرم من عهود وعقود ، حتّى في التعامل مع الأعداء والخصوم .. بينما نجد في مقابلها الأديان المحرّفة ، أو النظم الوضعيّة ، تفتقد إلى هذه الأخلاقية الرفيعة في التعامل ، وتغيب عنها ولا تعرفها ، وليس الأمر دعوى تدعى بغير حجة أو برهان ، فالواقع الذي تضجّ منه أمم الأرض أوضح للعيان من كلّ بيان ، ومن أنكر أو كابر فقل له :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦) ﴿ الْحَجَّ .

وإنّ أمة الإسلام هي أحوج ما تكون اليوم إلى إحياء منهج دينها الأخلاقيّ النبويّ في التعامل فيما بينها ، والالتزام الدقيق بذلك ، قبل أن تعلن عنه للناس ، وتدعو إليه ، ثمّ يراها الآخرون بعيدة عمّا تدعو الناس إليه ، مُفتقدة لأبسط ما يأمرها به دينها ، ويلزمها به ..

عَظَمَةُ الْأَخْلَاقِ النَّبَوِيَّةِ ، وَعَظَمَةُ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ : " لَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَظَمَةِ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي السِّيرَةِ ، وَعَلَى لِسَانِ أَصْحَابِهِ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، وَكَانَ وَقَعَ سِيرَتُهُ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ مِنْ كُلِّ مَا رُوي عَنْهُ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ بَدَلَاتِهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ : أَعْظَمُ بِصُدُورِهَا عَنْ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ، وَأَعْظَمُ بِتَلْقَى مُحَمَّدٍ ﷺ لَهَا ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، وَبَقَائِهِ بَعْدَهَا ثَابِتًا رَاسخًا مُطْمَئِنًّا ، لَا يَتَكَبَّرُ عَلَى الْعِبَادِ ، وَلَا يَتَعَاضَمُ ، وَهُوَ الَّذِي سَمِعَ مَا سَمِعَ مِنَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ..

والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان إلّا مُحَمَّدٌ ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكلّ عظمتها الكونيّة الكبرى ، فيكون كفئاً لها ، كما يكون صورة حيّة منها ..

إنّ هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحقّ ، بحيث لا يحملها إلّا الرجل الذي يثني الله عليه هذا الثناء ..

إنّ حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة الرّبّانيّة ، وإنّ عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة ، وإنّ الحقيقة المحمّديّة كالحقيقة الإسلاميّة لأبعد من مدى أيّ مجهر يملكه بشر ، وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدّد مداها ، وأن يشير إلى مسارها الكونيّ دون أن يحيط بآفاق هذا المسار وآماده ..

لقد كان رسول الله ﷺ عندما يثني على أحد أصحابه يهتزّ كيانه صاحبه من وقع هذا الثناء العظيم ، وهو ﷺ بشر .. وصاحبه يعلم أنّه بشر .. فأما هو ؛ فيتلقّى هذه الكلمة من الله .. وهو يعلم من هو الله .. ويعلم منه ما لا يعلمه سواه ..

وفي هذه الآية دلالة على تمجيد العنصر الأخلاقيّ في ميزان الله ، وأصالة هذا العنصر في المنهج الإسلاميّ كأصالته في شخصيّة رسول الله ﷺ وهديه ..

والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ﷺ ، يجدّ العنصر الأخلاقيّ بارزاً فيها أصيلاً ، تقوم عليه أصولها التشريعيّة وأصولها التهذيبيّة على السواء .. الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل والرحمة ، والبرّ وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعال ، ومطابقتها معاً للنيّة والضمير ، والنهي عن الجور والظلم ، والخذاع والغشّ ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ،

وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور .. والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير ، وفي واقع المجتمع ، وفي العلاقات الدولية على السواء ..

والرسول الكريم ﷺ يقول : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (١) فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل ، وتوارد أحداثه تترى في الحضى على كل خلق كريم ، وتقوم سيرته الشخصية مثلاً حياً ، وصفحة نقيّة ، وصورة رفيعة ، تستحقّ من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١ ﴾ ، فيمجّد بهذا الثناء نبيّه ﷺ ، كما يمجّد به العنصر الأخلاقي في منهجه ، الذي جاء به هذا النبيّ الكريم ، ويشدّ به الأرض إلى آفاق السماء ، ويعلّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه ، وهو يدلّهم على ما يحبّ ويرضى من الخلق الكريم القويم ..

وهذا الاعتبار هو الاعتبار القدّي في أخلاقيّة الإسلام ، فهي لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضيّة مادّيّة إطلاقاً ، وهي لا تستمدّ ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العُرف ، أو المصلحة ، أو الارتباطات التي كانت قائمة ، وإنّما تستمدّ من السماء ، وتعتمد على السماء ، تستمدّ من هتاف السماء للأرض ، لكي تتطلّع إلى الأفق ، وتستمدّ من صفات الله المطلقة ، ليحقّقها البشر في حُدود الطاقة ، كيّ يحقّقوا إنسانيّتهم العليا ، وكي يصبّحوا أهلاً لتكريم الله تعالى لهم ، واستخلاصهم في الأرض ، وكي يتأهّلوا للحياة الرفيعة الأخرى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدَرٍ ۝٢٥ ﴾ القمر ..

(١) - رواه مالك في الموطأ بلاغاً عن النبيّ ﷺ ، وقال ابن عبد البرّ : هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره ، انظر كشف الحفاء ١/٢٤٤ .

ومن ثمّ فهي غير مقيّدة ولا محدودة ، بأيّ اعتبارات قائمة في الأرض ، إنّما هي طليقة ، ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر ..

ثمّ إنّها ليست فضائل مجرّدة : صدق وأمانة ، وعدل وإحسان ، ورحمة وبرّ .. إنّما هي منهج متكامل ، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ، وتقوم عليه شؤون الحياة واتّجاهاتها كلّها ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله ، لا إلى أيّ اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة ..

وقد تمثّلت هذه الأخلاقية الإسلامية العليا ، بكماها وجمالها ، وتوازنها واستقامتها ، واطرادها وثباتها في محمّد ﷺ ، سيّد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والرسل ، كما تمثّلت في ثناء الله العظيم عليه في قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وهنا نجد أنفسنا بعد هذه النظرة العامة لابدّ لنا من وقفات عند هذه الآية الفذة في كتاب الله تعالى ، نستجلي بعض حقائقها ومعانيها ، ونقف على شيء من أسرارها وأغوارها ..

وإذا كان لابدّ لأيّ متحدّث عن أخلاق النبي ﷺ إلّا أن يذكر هذه الآية الكريمة ، ويتناولها بشيء من البيان ، فهي في الحقيقة لا تقتصر على أن تكون دليلاً قوياً على عظمة أخلاق النبي ﷺ ، ولكنّها قبل كلّ شيء شهادة من الله تعالى ، الذي يعلم السرّ وأخفى ، وكفى بالله شهيداً ..

وهي على وجازة كلماتها تحمل معاني جمّة ، ودلالات عميقة ، وإشارات لطيفة ، يحسن الوقوف عندها ، واستجلاء ما فيها .

(١) - انظر في ظلال القرآن ٦/٣٦٥٦ - ٣٦٥٨ / بتصرّف يسير واختصار .

- الوقفة الأولى : لقد أكد الله تعالى وصف أخلاق النبي ﷺ بالعظمة بثلاثة مؤكّدات : (إنّ ، والجملة الاسميّة ، ولام التوكيد) ليدلّ على أنّ النبي ﷺ كان مجبّولاً على الأخلاق الزكيّة الكريمة ، بأصل فطرته الطاهرة النقيّة ، لم ينل ذلك بتكلّف أو مجاهدة نفس ، بل بجودٍ إلهيّ واصطفاء ، وتكريم وعطاء ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ..

- والوقفة الثانية : لماذا قال الله تعالى : " لَعَلِّيْ خُلِقَ .. ولم يقل : ذو خُلُق .. فمن المعلوم عند علماء اللغة أنّ (على) تدلّ على التمكن من الشيء تمكّن قوّة وإحاطة ، وهذا أبلغ من مجرد الوصف ، فالنبي ﷺ كان متمكّناً من مكارم الأخلاق ، بتوفيق الله تعالى وعطائه ، وعونه ومدده ، كتمكّن المعدن النفيس من حقيقته الذاتية الثمينة ، التي بها كان سيّداً على ما سواه من المعادن ، ومعنى الآية الكريمة " أي : وإنّك لمفطور على خلقٍ عظيم ، فأنت متمكّن منه تمكّن القادر على الشيء باستعلاء ، فحرف " على " يدلّ على هذا التمكن باستعلاء ^(١) .

- والوقفة الثالثة : لماذا وصف الله تعالى أخلاق النبي ﷺ بالعظمة ، ولم يصفها بالحسن مثلاً أو الكرم ؟؟ ومعلوم أنّ من الشائع كثيراً قول الناس : أخلاق كريمة ، ومن غير الشائع القول : أخلاق عظيمة ، والجواب عن ذلك : أنّ وصف الأخلاق بالعظمة أبلغ كثيراً عن وصفها بالحسن أو الكرم ، وذلك أنّ عظمة الأخلاق تدلّ على معان كثيرة ، واسعة شاملة ، ما يحيط بها وصف الأخلاق بالحسن أو الكرم ، فوصف الأخلاق بالحسن أو الكرم قد

(١) - انظر " معارج التفكير ودقائق التدبّر " ١ / ٢١٤ للشيخ عبد الرحمن حسن جبّنة .

يقتزن بنظر كثير من الناس بضعف الشخصية ، ووهن العزيمة ، وإيثار الراحة والسلامة ، والعجز عن نيل الحق .. وقد سبق لنا تفصيل ذلك .
أما وصف الأخلاق بالعظمة فهو بمنأى عن ذلك كله .. إنها عظمة
قوة الشخصية ، وسمو النفس ، وعلو الهمة ، وقوة الاتصال بالله تعالى ،
والتحقق بعبوديته ، الذي لأجله سبحانه ، وفي سبيله يُتَحَلَّى بهذه الأخلاق ،
ويستمسك بها ..

- والوقفه الرابعة : أن هذه الآية الكريمة جاءت في مساق الردّ على
اتّهام المشركين للنبي ﷺ بالجنون ، وعجبا لا يكاد ينقضي ! إنه ﷺ أعظم
العقلاء عقلاً يتّهم بالجنون .! وأصدق الناس قولاً يتّهم بالكذب .! ويحاصر
بهذه الأقاويل من أقرب الناس إليه ، إنها حرب نفسية ضروس ، تمتحن
صدق الإنسان في دعوته ، وتختبر ثبات شخصيته وقوة إرادته ، فماذا كان
موقفه ؟ لقد قال الكلمة التي ما عرف التاريخ لها مثيلاً : " والله يا عم ! لو
وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته
حتى يظهره الله أو أهلك دونه " (١) .

لقد اقتضت الحكمة التربوية أن يرشد الله تعالى رسوله ﷺ في موقف
التكذيب ، والاتّهام الكاذب الأثيم ، إلى الصبر والحلم والصفح وسعة
الصدر ، ومتابعة قيامه بوظائف رسالات ربه بأسلوب الثناء عليه بآئه لعل
خلق عظيم ، أي فتعامل معهم يا محمد ﷺ بهذا الخلق العظيم ، الذي فطرت
عليه ، إذ تدعوهم إلى سبيل ربك ، وإذ تنال منهم ما تنال من الأذى .

(١) - انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٦/١ .

وهنا نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ لم يأمر رسوله ﷺ صراحةً بالصبر والحلم والصفح وسعة الصدر ، وتحمل الأذى من قومه ، ومتابعة قيامه بوظائف رسالته ، وإنّما ألح له إلى ذلك إلماحاً ، بالثناء عليه بما هو عليه من الخلق العظيم ، الذي هو عنوان شخصيّته ، وحقيقة معدنه ، وقاعدة حياته ..

- والوقفه الخامسة : وإذا كان لابدّ لنا من استجلاء أهمّ جوانب عظمة الأخلاق النبويّة ، فإنّ أهمّها في اجتهادي أربعة جوانب ، وكلّ جانب منها يحتاج أن يفرد بالبحث والدراسة ، وأقتصر في الحديث عنها هنا على الإشارة العابرة الموجزة :

● الجانب الأوّل : شمول أخلاقه لما جاء في القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه التشريع الحكيم .

● والجانب الثاني : شمول أخلاقه لكمالات من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

● والجانب الثالث : كمالات أخلاقه لا تتناهى .

● والجانب الرابع : شمول أخلاقه العظيمة لجميع الظروف والأحوال التي مرّ بها ، وقد قدّمت سيرته العطرة مئات البراهين على ذلك ، وهي في الوقت نفسه تقدّم للمؤمنين به المثل الإنسانيّ الأعلى للتأسيّ والاقتداء ..

ويترتّب على هذه الجوانب أنّ هذه الآية الكريمة تتحدّى الثقّلين أن يأتي أحد بمثل أخلاقه ﷺ ، فهل عرفوا أحداً كمثله ؟!

فلا عجب بعد ذلك أن جعله الله تعالى أُسْوَةً حَسَنَةً للمؤمنين ، وحثّهم على التأسيّ به ، فقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ (النّ ٢١) ، فانظر كيف

تتماهي الرحمة الكبرى للعالمين في شخص صاحب الخلق العظيم ، وكيف تدعو عظمة الأخلاق إلى التوجه إلى صاحبها ، ليكون الأسوة الحسنة : ﴿ .. لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ (١١) .

فطرة الأسوة الحسنة ، والمثل الأعلى : وإن في الإنسان فطرة لا تقبل التحوير والتغيير ، وهي التطلّع إلى من يعجب بسلوكه ، ويتأسى به ، التطلّع إلى الأسوة الحسنة ، والمثل الأعلى ، وهو يمنح ذلك أول ما يمنحه أمه وأباه ، ثم كلما كبر ونما ، وتعرّف على الناس من حوله بحثاً بشكل فطري ، وبغير شعور منه عمّن يعجب به أكثر ، ويجد فيه أسوة له وقدوة ، تشبع نهمته ، وتبني كيانه ، وتحقق له تطلّعاته ..

ومن رحمة الله بالإنسان أن حقق له هذه النهمة الفطرية ، والحاجة الضرورية على أتم الأحوال وأعلاها بما جعل له في سيرة الأنبياء والرسل ، وحياتهم عليهم الصلاة والسلام من أسوة حسنة ، وقدوة مثلى ، وبخاصة حياة نبيه محمد ﷺ ، سيّد الخلق ، وخاتم الأنبياء والرسل ، إذ جعله معصوماً عن الخطأ ، منزهاً عن اتباع الهوى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤) النجم .

ألا إنّ العقل والرشد في الإنسان يفرضان عليه ألا يتأسى إلا بمن كان أسوة حسنة .. وهو حين يتأسى بأحدٍ ، كأنه يعلن للناس : أن هذه هي أسوته الحسنة ..

فهل أسوة الناس دائماً حسنة ؟ إنّ الواقع يقول : إنّ أكثر الناس يتأسون بآخرين بدوّن وعي أو رشد .. وإنّما بدافع الهوى أو الاستهواء .. أو بدافع الإعجاب بجانب من حياة المتأسى به ، ولو لم تكن أعماله الأخرى

تدعو إلى الإعجاب والقبول ، وَإِنَّمَا يُزَيَّنْ لَهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ فِإِذَا هُوَ حَسَنٌ ، ولو كان تافهاً منكراً ..

كما نرى عَلَى ذلك حَالٌ كثيرٌ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدَ الْوَافِدَةَ عَلَى بلاد المسلمين ، المتغيرة المتقلبة ، التي لا تعرف لا هي ولا أصحابها شيئاً من الثبات أو الاستقرار ..

* مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ الْعَظْمَى :

وإذا كان الإنسان في هذه الحياة لابدَّ له من تقليد من هو أكبر منه في نظره سناً ، أو قدراً .. فَإِنَّ هَذَا التَّقْلِيدَ قد يأخذ طابع سلوك لا شعوري غير واعٍ ، وربما كان في بعض الأحيان غير مقصود ، وقد ينكره الإنسان ظاهراً ويأباه ، ولكنه في الواقع يتتبع سلوك من يقلده ، ويتابعه بغير شعور منه ، ولا قصد ظاهر ..

وقد يأخذ التقليد طابع سلوك واعٍ مقصود ، عندما تشترك قوى العقل والفكر مع القلب والعاطفة ، ويتساوقان في دفع الإنسان إلى التقليد والتبعية .. ونلاحظ في كثير من الأحيان أَنَّ التنازع يقع في حياة كثير من الناس بين السلوك الواعي ، والسلوك غير الواعي ، أو بين الشعور واللاشعور ، كما يسميهما علماء النفس .

وبيان ذلك أَنَّ السلوك الواعي : يستند إلى انسجام أحكام العقل والعاطفة ، واتصال الفكر والقلب ، فإذا ضعفت قوة العقل ، واختلت موازين الفكر وأحكامه ، غلبت العاطفة ، وتحكمت الأهواء بالقلب ، فجنح باتجاه ما تمليه عليه ، فتغلب عندئذٍ دوافع اللاشعور على الإنسان ، وتوجهه

وتقوده ، وهي أنواع من العواطف المستكينة ، والرغبات الداخلية ، التي تغذيها في كثير من الأحيان أهواء النفس ودوافعها .. وكثيراً ما تصطدم مع أحكام العقل ولا تتفق معها ..

وقد يعلن الإنسان موقفاً عقلياً ، يبرر فيه هذا الانسياق العاطفي غير الواعي ، ويظهر للناس أنه يتخذ من وعي واقتناع ، والحقيقة غير ذلك ، وربما صرح الإنسان بتبعيته العمياء لجمهور الناس بحجة واهية : ألا يكون شاذاً عن مجتمعه ، متمرّداً على عادات قومه ، ويكشف عن ذلك ويصوره ما جاء في الحديث عَنْ حَدِيثِ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً ، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا) ^(١) .

ونضرب على ذلك مثلاً نراه في حياة كثير من الناس : عندما نرى شاباً أو فتاة ، أو رجلاً أو امرأة يقلّد أحدهم بعض العادات الأجنبية الوافدة إلى بلاد المسلمين ، مما يتعارض مع قيم الإسلام وآدابه وهديه ، فإذا افترضنا أنه يعلم ذلك التعارض ولا يجهله ، فإنّ حقيقة ما يجري في نفس هذا المقلّد أو المقلّدة : أنّ العقل الواعي بما فيه من أحكام يرفض له الانسياق وراء هذا السلوك ، ويطالبه بالكفّ عنه ، ويريد للعقل الباطن غير الواعي أن يستجيب إلى طلبه ، ولكنّ العقل الباطن إذا غلبت عليه دوافع الهوى والرغبة الجامحة في

(١) - رواه الترمذي في كتاب البرّ والصلة برقم /١٩٣٠/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

ذلك السلوك ، لم يستجب لنداء العقل الواعي ، وراح يلتمس المبررات لاندفاعاته ، ويلبسها لبوس الرأي والفكر ، وهي من دوافع الهوى ، ووساوس النفس ..

ولا يخفى أنّ نتيجة هذا الصراع المحتدم في النفس البشرية وآثاره مريعة مدمرة ، وهو يكون كذلك عندما يتعارض اقتناع الإنسان الفكريّ مع دوافعه العاطفيّة ، وقد وقى الله المؤمنين ذلك عندما أكرمهم بالنبيّ المعصوم ﷺ ، وجعله لهم القدوة العمليّة في كلّ شأن من شئون حياتهم ، وهذا ما يحقق لهم الهدوء النفسيّ ، والاستقرار الفكريّ ، والانسجام الروحيّ ، فلا يعيشون نهباً للقلق والاضطراب ، وضياح النفس والسلوك وراء النكرات ، الذين يسمّون في عالم اليوم : " نجوماً " ، وأكثرهم نماذج سيّئة لمسالك الشذوذ والانحراف .

وقد وضع الله تعالى في هذه الآية الكريمة شرطين للتحقق بالتأسّي بالرسول ﷺ :

- الشرط الأول : رجاء الله ورجاء اليوم الآخر .

- والشرط الثاني : ذكر الله كثيراً .

- والشرط الأول : وهو رجاء الله ، ورجاء اليوم الآخر ، وهو شرط

عامّ جامع ..

فمعنى رجاء الله : رجاء مثوبة الله ورضاه ، وخوف سخطه وعذابه .. وفي الآية ما يسمّيه علماء البلاغة اكتفاء : أي يرجو الله ويخافه ، ولكن النصّ قدّم الرجاء وذكره ، لخصوصيّة الظاهرة في الاتّباع والطاعة عن حبّ ورغبة وإقبال ، وشوق ونشاط نفس وحسن امتثال ..

ويدخلُ في رجاء الله : إخلاص العمل لله من كلّ شائبة ، إذ كيفَ يرجو الله تعالى ، ويتعلّق قلبه بمثوبته ومرضاته ، مَنْ لا يخلص عمله لله تعالى ، ويريد به وجهه ؟!

ويدخلُ في رجاء الله تعالى : تعظيم الله جلّ وعلا ، وتعظيم أسمائه وصفاته ، وتعظيم دينه وشرعه ، وتعظيم أمره ونهيه ، وتعظيم ما عظم الله تعالى .. وما أغنى المؤمن بالله تعالى عندما يتعلّق قلبه بالله سبحانه ، ويتحقّق برجاء الله عزّ وجلّ ، فيستشعر من قرارة نفسه أنّ الله تعالى مولاه ، وهو معه ، وناصره ومعينه ..

وإنّ أعظم ما عظم الله سبحانه نبيّه المصطفى ، ورسوله المجتبي ، أشرف الأنبياء والمرسلين ، وسيّد الأولين والآخرين ﷺ .. فقد شرح الله تعالى صدره ، ووضع وزره ، ورفع ذكره ، وغفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وجعل الإيمان بنبوّته ورسالته شطر شهادة التوحيد وشرطها ، فلا يقبل الله توحيد عبد لله تعالى ما لم يتّبع النبيّ ﷺ ويطيعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٣١﴾ آل عمران .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ﴿٨٠﴾ النساء .

ورجاء اليوم الآخر يعني الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من الأحوال العظام ، والعوالم المهولة ، والاستعداد لذلك اليوم بتقوى الله والعمل الصالح ، وعندئذ فمن البدهيّ والطبيعيّ المتسق مع هذا السلوك أن يرجو

المؤمن مثوبة الله تعالى في ذلك اليوم ، وحسن جزائه ، فكأنه رجا اليوم نفسه ..

وفي ذكر رجاء اليوم الآخر ما يكفي ويغني عن التخويف من سخط الله وعذابه ، ويحقق الاكتفاء الذي حَسُنَ أيما حُسْنٍ في هذا المقام .

- وأما الشرط الثاني في هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا

﴿ ١١ ﴾ فَإِنَّ حَقِيقَةَ ذِكْرِ اللَّهِ تعالى أن يعيش الإنسان حياته العامة والخاصة ، يذكر الله ولا ينساه ، ويستشعر قرب الله تعالى في كل موقف ورحمته ، ويأنس بالله سبحانه ، ويشهد عظمته ..

والذكر في مفهومه الصحيح يعني معاني كبيرة ، وحقائق كثيرة ، أقلها حركة اللسان ، وهو ما يَظُنُّه كثيرٌ من المسلمين اليوم أعلاها وأجلها .. فيقف عند حركة اللسان العامة والبسطاء ، ويزهد فيها من هم أعلى فكراً وثقافة ، لما يرون من قلة جدواها في حياة هؤلاء ، وضعف أثرها .. وأعلاها أن يكون حاضر القلب مع ربه ، يذكر الله عند كل شأن كبير أو صغر ، ويراقب الله في كل حركة أو سكون ، وفي السر والعلن ..

والذكر الحق حصنٌ للنفس حصينٌ ، من سطوة الأهواء وهيجانها ، وهو زاد الروح ، وقوت القلب ، وسلاح المؤمن الماضي في مواجهة الشيطان ووساوسه ..

وهو غذاءٌ للروح ، وعلاج لها من عللها وأدوائها ، ولا علاج لها منها على الحقيقة سواه ^(١) .

(١) - وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أكثر من مئة فائدة لذكر الله تعالى في كتابه النفيس : " الوابل الصيب من الكلم الطيب " عددها ودلّل عليها من ص/ ٥٧ - ١٣٣ / فارجع إليه واعقد همتك على أن تكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والله يتولانا وإياك بهدايته ورضاه .

- وقوله تعالى : ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : " هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله .. " .

ويقول الحكيم الترمذي : " الأسوة في الرسول ﷺ : الاقتداء به ، والاتباع لسنّته ، وترك مخالفته في قول وفعل ، فمتابعة الرسول ﷺ تحب على كلّ مؤمن ، حتّى يتحقّق رجاؤه ، ويثمر عمله " .

فالأسوة هو القدوة ، وتنكير الأسوة في هذه الآية ووصفها بالحسن يحمل دلالة عميقة شاملة ، تحتاج منّا إلى وقفة طويلة مستفيضة .. لا يتسع لها المقام هنا ، ولكننا نقدّم منها ملامح عامّة عسى أن تدلّل على ما وراءها ، وتشجّد من المهمم ما يدعو إلى استجلاء آفاقها ، وسبر أغوارها ..

وإذا كان كلّ ما في شريعة الإسلام حسناً ، وكلّ ما كان عليه رسول الله ﷺ وما جاء به حسناً ، فما وجه تقييد الأسوة بهذه الصفة ؟.

- إننا نلاحظ في هذا أنّ من فطرة الإنسان أن يتطلّع إلى من يكون أحسن الناس في كلّ ما يريد التأسي به والاقتداء ، وكأنّ الآية الكريمة تقول للناس : " إنّ من أراد منكم التأسي والاقتداء بأحسن قدوة ، فدونه النبيّ المعصوم ﷺ بعصمة الله تعالى ، الذي وصفه ربّه بقوله : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١) ﴿النجم﴾ ، فالآية الكريمة تقدّم التوجيه والأمر مشفوعاً بالبيّنة والدليل ، وتعرض الدعوى مقرونة بالحجّة والبرهان .

- ومن المعلوم بالبدهة أنّ شريعة الإسلام حتّت على الأخذ بالأحسن في كلّ شأن : من الأقوال والأفعال ، والأحكام والأخلاق .. كما في قوله

تعالى : ﴿ .. وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا .. ﴾ (٨٣) البقرة ، وقوله سبحانه : ﴿ .. وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴾ (١٤٥) الأعراف .

والأحسن هو الأقوم ، كما عبّر القرآن الكريم في مناسبة أخرى ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴾ (١) الإسراء . ولكنّ شريعة الإسلام التي تقوم على الواقعية وإقرار الحقّ لذي الحقّ راعت أحوال الناس وواقعهم ، ولم تفرض عليهم المثالية التي لا يقدر عليها أكثرهم :

فالطلاق حقّ ، ولكنه ليس حسناً ، وهو أبغض الحلال إلى الله ، إن لم يتعيّن الأخذ به في موقف ما .. وضرب الزوجة الناشزة بظروفه الخاصّة ، وبشروط ذلك وقيوده مباح ، وليس فضيلة أو مطلوباً ، كما أنّه ليس الأحسن أو الحسن لما جاء في الحديث الشريف (.. وإيمُ الله لا تجدون أولئك خياركم ..) (١) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ : (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) (٢) .

(١) - جزء من حديث رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣٠٤/٧ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٩٦/ .

ومقاضاة المدين الماثل وحبسه حقّ للدائن ، ولكنه ليس الحسن أو
الأحسن دائماً ..

والمطالبة بالدين واستيفائه حقّ وحسن ، ولكنّ الأحسن منه إنظار
المدين المعسر ، والعفو عن شيء من دينه ، والتخفيف عنه ما أمكن : ﴿
وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٠) البقرة .

وكثير من الأحكام المشروعة التي لا حرج فيها ولا تثريب ، وقد
توصف بأنّها مندوبة في بعض الأحيان ، ولكنها لا توصف بأنّها حسنة أو
أنّها الأحسن في بابها .. وبخاصّة عندما يكون في فعلها تفويت ما هو أرجح
منها من المصالح وأكد ، أو يكون في فعلها مفسد متحققة غير موهومة ..
والمؤمن العاقل لا ينظر إلى الأحكام الشرعيّة نظرة تجزيّة ، محدودة قاصرة ،
فهذا شأن من لا فقه عنده بدينه ، وهذا النظر يفسد أكثر ممّا يصلح ، ويجرّ
على صاحبه الابتلاء ، وعلى الآخرين الفتنة ، وقد يظنّ أنّه يحسن صنعاً .

وإنّ آية الأسوة للتحدّي : ولو نظرنا إلى هذه الآية من زاوية أخرى
لرأينا أنّها وهي تقدّم النبي ﷺ أسوة حسنة ، هي الأحسن للمؤمنين
والمؤمنات في كلّ شأن من شئون الحياة تحمل بذلك معنى التحديّ للناس
كأفّة أن يفتشوا حياة النبي ﷺ الخاصّة والعامة ، وفي جميع أحواله : في
حالات الرضا والغضب ، والحرب والسلام ، واليسر والعسر ، والأمن
الخوف .. وغير ذلك ممّا يعترى النفس البشريّة من أحوال وتقلّبات ، وما يمرّ
بها من ظروف ونوازل ، فهل يجدون في شيء من ذلك ما لا يكون باباً
للاقتداء والتأسي ؟! ولا شكّ أن الأعداء المناوئين منذ عهد النبوة ، وإلى

يومنا هذا لو أنّهم وجدوا شيئاً من ذلك لطاروا به فرحاً ، وأعلنوا في كلّ نادٍ ومحلّ : أن كيف يقتدى بنبيّ أو مدّع للنبوّة هذا شأنه ووصفه ؟! ولكنّ الواقع يقول : إنّ كثيراً من المخالفين الناقدين ، شهدوا بعد طول البحث والتحريّ شهادة الحقّ ، ونطقوا بالصدق ، وأعلنوا للناس كافّة : أنّ هذا النبيّ ﷺ مبرّأ من كلّ نقيصة ، معصوم من كلّ زلّة أو ريبة ، وآثمه النموذج الأمثل للإنسانيّة الراقية أعلى درجات السموّ والكمال ، لا يدانيه في ذلك بشر ولا يقاربه ..

فهل عرفت الإنسانيّة فتىّ أظهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشرف نسباً ، وأكرم حسباً ، وأعظم خلقاً من مُحمّد بن عبد الله ﷺ ؟
لقد لقّبه قريش بالأمين ، وشاع هذا اللقب بين رجالها ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عرّفت أحد زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفة ، واختصّت بها محمداً ﷺ من دونه .

ووصفته زوجه العاقلة الحكيمة ، خديجة رضي الله عنها ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة قبل النبوّة ، خبرت خلالها شخصيّة وأخلاقه ، فقالت له أول عهده برسالة السماء ، وقد داخله الخوف مما جرى معه : " كلا ! والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحقّ " (١) .
وكان ﷺ يعفو عمّن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ولم يكن ﷺ يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرّمة الله ، فإذا انتهكت حرّمة الله تعالى لم يقم لغضبه شيء .

(١) - رواه البخاريّ في حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها ، في كتاب بدء الوحي برقم ٢٣١/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٣١/ .

ولقد أودى ﷺ في الله تعالى أشدَّ الإيذاء ، فلم يدع على قومه ، ولم يتطَّلع إلى الانتقام منهم ، وإنما كان يقول : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (١) .

وعندما ناله ﷺ منهم من الأذى أشدَّه عُرض عليه التعجيل بعذابهم وهلاكهم ، فقال ﷺ كلمته المشهورة : (.. لَا بَلْ أَرَجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) (٢) .

إنَّه ﷺ أعظم إنسان لبس جلباب العبودية لله تعالى ، ونعم بأكرم مراتبها ، لقد شُغِف قلبه الشريف بعبادة ربِّه ، والاستغراق في مناجاته وذكره ، فكان يجتهد في التَّعبُّد عبادة خشوع وخضوع ، وخشية ودموع ، وإخلاص في التوجَّه إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته ، قام من الليل حتَّى تَفْطَرَتْ قدماه ، وعندما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟! قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .. ولم يمنعه اجتهداه في العبادة من أن يكون مبادراً إلى كل عمل في حينه ، بدون تأخير يفقد العمل قيمته ، أو تعجِّل بالعمل قبل وقته ..

لقد جمع الرسول ﷺ جمعاً فريداً في التاريخ بين أعلى درجات النقاء الروحيِّ بالاجتهاد في عبادة الله تعالى ، وأعلى درجات العمل والنشاط ، دعوة إلى الله تعالى ، وتربيةً لأُمَّته ، وخدمة لكلِّ من قصده بخدمة أو نصره ،

(١) - رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم /٣٢١٨/ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /٣٣٤٧/ عن عبدِ الله بن مسعود ؓ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم /٢٩٩٢/ ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /٣٣٥٢/ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ .

وجهاداً في سبيل الله ، ودفاعاً عن المستضعفين ، وبناءً لدولة الإسلام ، وتنظيماً لشئونها ، وتسييراً لمصالحها ..

ومن أبرز خصاله الشخصية النادرة بين العظماء ذوي السلطان : مزيد التواضع والحياء ، والعطاء والكرم ، والبذل والإيثار ..

وكان من تواضعه ﷺ بعده عن كلّ صور الأبهة ومظاهر التعظيم ، التي يتميَّز بها في العادة الحكّام والرؤساء ، ويحرصون عليها أشدّ الحرص ؛ فكان يتساوى مع أتباعه في المأكل والملبس ، والمظهر والمجلس ، وما يقوم به من الأعمال البدنية ، ويكره أن يتميَّز عنهم في شيء .

وكان من إثارة ﷺ وزهده أنّه قد يأتيه ما يملأ الوادي من الأموال والغنائم والهدايا ، فيوزّعه كلّ من فوره ، ويبيت ليس عنده منه شيء .. ومن خصاله الشريفة النادرة ﷺ : إذعانه للحقّ على نفسه ، حتّى مع من يخالفه في الدين ، ويعلن له العداوة والخصومة ، ويدخل في هذه الخصلة الكريمة : صبره الجميل ، واحتماله للأذى ، وسعة صدره على إساءة الجهّال ، وحفوة الأعراب .

- ومن أهمّ ما يميّز سيرته المثالية ﷺ بين سائر العظماء : التزامه الشديد بالأخلاق التي يدعو إليها ، التزاماً لا خروج عنه ولا استثناء ، حتّى مع أعدائه ، فلا تناقض في حياته ، ولا اختلاف بين الدعوة والسلوك ، فلم ينقض عهداً مع عدوّ ، ولم يحاول غدراً بخصم ، مهما كان يائساً منه ، ويخشى غدره .. بل واجه غدر عدوّه في كثير من الأحيان بالحلم والصفح .. وكان ﷺ قدوة للناس في كلّ ما يأمرهم به ، وأبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى الناس عنه .. ولن يستطيع هذا المبحث العاجل أن

يَلْمُ بشيء من جوانب العظمة في شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه ، بل
حسبه أن يكون مدخلاً ومقدمة مشوقة لها ..

أوجه الحسن في التأسي برسول الله ﷺ :

إنَّ أوجهَ الحسنِ في التأسي بالرسول ﷺ لا يمكن أن يحيط بها باحث ،
أو يَلْمُ بها دارس ، ولكننا نستعرض أهم جوانبها ، التي تعدّ أنواعاً جامعة ،
يقاس عليها ما سواها ، فمن ذلك :

١ - الجمع بين محاسن الدين وفضائله وآدابه في كلّ جانب من جوانب
الحياة ، بإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه ، وعدم الميل مع جانب على حساب
آخر ، وهذا المبدأ يقوم عليه الدين كلّهُ ، وقد أعلنه النبيّ ﷺ في قوله لبعض
أصحابه: (.. فأعطِ كلّ ذي حقّ حقّه) (١) .

وقد تجلّى ذلك في حال النبيّ ﷺ وسيرته ، ومنهجه وهديه : فلا تكاد
ترى النبيّ ﷺ قائماً في الليل ، متبتلاً بين يدي ربّه ، تنفطر قدماه من طول
القيام ، ويذرف الدموع من خشية الله ، حتّى تراه مع المجاهدين لأعداء الله
تعالى في أوّل صفوف القتال ، يحتمي به أصحابه ، ويتّقون العدوَّ .. ثمّ تراه
داعياً إلى الله تعالى ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، يصدع بالحقّ ، ويقىم
الحجّة ، ثمّ تراه يثلو آيات الله ، ويبلّغ دين الله ، ويتفقّد أصحابه ويرشدهم ،
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، يرفق بالجاهل ، ويرشد الحائر ، ويبذل
المعروف ، ويغيث الملهوف .. ثمّ تراه مبسِطاً لأهله ومؤانساً ، يخدمهم

(١) - جزء من حديث طويل في قصّة مواخاة النبيّ ﷺ بين سلمان الفارسيّ وأبي الدرداء ،
وهو في البخاري في كتاب الصوم برقم /١٨٣٢/ وفي الترمذي في كتاب الزهد برقم /٢٣٣٧/
وغيرهما .

ويعلمهم ويؤدّبهم .. حقاً إنه ﷺ الأسوة الحسنة ، والقُدوة العظمى للمتّقين إلى يوم الدين ..

٢ - ومن أوجه الحسن في التّأسي بالرسول ﷺ أنّ الله تعالى عصمه من

الذنوب والأخطاء ، وأمدّه بالتأييد الإلهي في كلّ شأن ، كما قال تعالى : ﴿

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ النجم ، فأبي عاقل حريص

على مرضاة ربّه ، يخيّر بين الاقتداء بالمعصوم ، الذي يكفل له السير على صراط الله المستقيم وبين الاقتداء بمن لا يؤمن عثاره ، ولا تُضمن استقامته على الحقّ ونجاته ، ثم يختار المغامرة الخاسرة على التجارة الراجحة !؟

وعلى مثل هدي النبي ﷺ وسيرته العطرة كان خلفاؤه الراشدون الكرام ، الذين جعلهم رسول الله ﷺ قدوة للأمة من بعده ، فقال ﷺ : (.. فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ..)^(١) .

٣ - ومن أوجه الحسن في التّأسي بالرسول ﷺ : أنّ النبي ﷺ كان يأخذ بالأحسن في كلّ شيء ، فمن اقتدى به ﷺ ، وأخذ بهديه كان على حقّ اليقين أنّه على الهدى المبين ، وعلى صراط الله المستقيم ، بل على ما هو الأحبّ إلى الله تعالى الأقرب ، في ميدان الدعوة إلى الله تعالى ، وفي العلاقة مع الناس ، وفي كلّ شيء .. فما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قطّ ، إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، كما تقول أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها^(٢) .

(١) - جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب العلم برقم /٢٦٠٠/ عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ .

(٢) - جزء من حديث رواه البخاريّ ٤١٩/٩ و ٤٢٠ ، ومسلم برقم /٢٣٢٧/ .

٤ - ومن أوجه الحسن في التأسي بالرسول ﷺ أن أعمال النبي ﷺ وأحواله واجتهاداته ﷺ ، هي أكمل الأعمال والأحوال والاجتهادات وأجلّها ، وإذا قارنّا بين أقوال الناس وأفعالهم رأينا أكثر الناس تنزل أفعالهم عن مستوى أقوالهم ، وقد تتناقض معها .. أمّا النبي ﷺ فأقواله وحي وتّشريع ، ومن التّشريع ما هو مباح ، ومنه المشروع والمستحبّ ، وأمّا أحواله ﷺ ؛ فهي دائماً الأحبُّ إلى الله تعالى ، والأقرب إلى مرضاته ورحمته ..

ومن المسائل الأصوليّة التي بحثها العلماء واختلفوا فيها ، ولها أمثلة كثيرة في التّشريع : أيّهما يقدّم في التّشريع ويرجّح قول النبي ﷺ أم فعله ؟
فمن العلماء من رجّح قول النبي ﷺ على فعله ، ومنهم من رجّح فعل النبي ﷺ وقدمه على القول ، كما في قرانه ﷺ في الحجّ ، وأمره لأصحابه بالتمتّع ، وذلك بالتحلّل من إحرامهم وجعلها عمرة ، والمسألة معروفة مشهورة ، ولها نظائر عديدة .

وعلى هدي النّبيّ ﷺ الأكمل ، في الأقوال والأحوال والأفعال ، يجتهد ورآته الكمل ، أن يكونوا أسوة حسنة للناس ، كما زكّاهم النّبيّ ﷺ ، وأثنى عليهم ، وبشّر بهم بقوله : (.. إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ ..) (١) .

ولقد جعل الله نبيّه ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين ، لأنّه ﷺ جاء بالأحسن والأكمل في كلّ شيء .. جاء بالعدل والإحسان ، والحقّ والبرّ والفضل .. في العقيدة والعبادة ، والتّشريع والأخلاق .. جاء بمكارم الأخلاق ، ومحاسن

(١) - رواه الترمذي في كتاب العلم برقم / ٢٦٠٦ / وأبو داود ، ورواه ابن ماجة والدارمي في المَقْدَمَة .

العادات والآداب .. جاء بكلّ ما يشهد العقل بحسنه وكماله ، جاء بمثاليّة واقعيّة لا يعجز أحد عن ارتقاؤها ، وتسنّم ذراها شيئاً بعد شيء .. حتّى يبلغ أوج الكمال الإنسانيّ ، وينافس الملائكة المقرّبين في رقيّه وسموّه ..

ولو نظرَ العاقل بعينِ البصيرة لرأى أنّ دين الله وأحكامَ شرعه الشريف كلّها ذوقٌ ولطفٌ ، وحُسنٌ وجمال .. فالذوقُ يشملُ محاسن الآداب والعادات ، واللطفُ هو الرفقُ في التعامل مع كلّ شيءٍ ، وفي العلاقة مع كلّ شيءٍ .. والله تعالى رفيقٌ يحبّ الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف .. والجمال هو الدين كلّهُ .. فإنّ الله تعالى جميلٌ يحبّ الجمال ، وكلّ ما جاء في شرع الله تعالى فهو حسنٌ وجميل ، وكلّ ذلك ممّا جاء في الأحاديث ، وطفحت به النصوص والأدلة .. ومن لم يفهم ذلك و لم يدركه بعقله وذوقه ، فليتّهم عقله وفهمه ، وليسأل الله تعالى أن يرزقه الأدب وحسن الفهم ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (١٣) العنكبوت .

وبعد ؛ فإنّ حاجة الإنسان ، والناشئ على وجه الخصوص إلى مثل أعلى يتعلّق به قلبه ، ويطمح إليه نظره ، ويمنحه صادق حبه ، لهي حاجة أكيدة ماسّة .. وإنّ ما نشكوه اليوم من ضياع شباب الأُمّة وراء التعلّق بالنكرات ، والافتتان بكلّ أفاك أثيم .. سببه الأوّل والأكبر تقصير الآباء والمرّيين في تقديم القدوة الحسنة لأبنائهم ، من أنفسهم وسلوكهم ، وتقديم المثل الأعلى من شخصيّة النبي ﷺ ، وسيرته العطرة وهديه ..

وإنّنا بحاجة إلى إصلاح مناهج التعليم ، التي تقدّم السيرة النبويّة تاريخاً لدولة ، وعلاقات صراع وحروب ، أكثر ممّا تقدّمها مثلاً أعلى للإنسان ،

ولا تبرز جانب الأخلاق والسلوك ، بما يتناسب مع أهميته ، ويلائم نموّ الطفل ونشأته ، واهتماماته ونسج علاقاته ، فلا تتصل السيرة بهذه الطريقة بعاطفة الناشئ ووجدانه ، وقلبه وروحه ، وإنما تأخذ حظها مادة من المواد العلمية الجافّة ، إذ يقصر الطالب تعامله معها ، وتفكيره فيها أن ينال درجة النجاح ، ثم لا يهتمّ بعد ذلك أن يهتملها ويتناساها ..

وإنّ الصورة الوضيئة ، التي أراد الله تعالى لهذه الأمة أن تتعامل بها مع نبيّها ﷺ ، وتقيم علاقتها به : هي صورة الأسوة الحسنة ، والقذوة المثلى ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ الأحزاب .

فما أحسن أن يربط الآباء والمربون الأبناء والناشئين بشخصية النبي ﷺ وسيرته العطرة ، حباً واتباعاً ، وتدارساً واهتماماً ، لتملأ قلوبهم تعظيماً لشريعته ، وحباً لسنّته ، واتباعاً لهديه ، وتبتعد بقدر ذلك عن الافتتان بما سواها من المناهج والاتجاهات ، والنكرين والنكرات ..

وإنّا لنرجو لها ذلك وتمناه ، والله وليّ الهدى والرشاد ، والتوفيق والسداد ..



الباب الأول

صورة شاملة للشخصية العظيمة والشمائل الكريمة

وفيه تمهيد وسبعة فصول :

تمهيد : مقياس العظمة وأخلاق النبوة .

الفصل الأول : صفاته الخلقية وجمال صورته ﷺ .

الفصل الثاني : كمال عقله ﷺ وحكمته وأتزان شخصيته وشجاعته

قلبه وعظيم هيئته .

الفصل الثالث : فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم ،

وما آتاه الله تعالى من جوامع الكلم .

الفصل الرابع : رفقته ﷺ في التعليم ، والدعوة إلى الله .

الفصل الخامس : عبادته ﷺ .

الفصل السادس : عيشه ﷺ وزهده .

الفصل السابع : صورة شاملة مجملة عن شخصيته العظيمة وشمائله

الكرمية .



مُهِيد

مقياس العظمة وأخلاق النبوة

مقياس العظمة :

إنَّ عظمة العظماء عامّة في جميع منابتها تقوم على أسس هي أسباب لها ، كما ينبت جذع الشجرة من الجذور ، وبحسب ما يكون في تلك الأسس والأسباب من كثرة وقوّة ، تكون قيمة العظمة وشأنها وخلودها ، كالجذع تكون قوّته وضخامته ، وثباته في وجه الرياح والأعاصير ورسوخه بقدر ما لجذوره من كثرة تُغذيّه ، وقوّة تحميه .

هذا ، وإنَّ أهمّ الأسباب التي تكمل بها العظمة الحقيقيّة أربعة :

١ - الصفات النفسيّة والأخلاق الشخصية التي يكون عليها الإنسان العظيم .

٢ - عظمة المبادئ والأعمال التي أتى بها الإنسان العظيم ، ودعا إليها .

٣ - قوّته وكفايته ونجاحه في تنفيذ المبادئ التي أتى بها .

٤ - امتداد تأثيره ، والأثر الذي تركه من بعده ، ومدى نجاحه في تكوين جيل قياديّ صالح ، مؤهلّ لحمل المسؤوليّة ، والمحافظة على المبادئ التي أتى بها ، ومتابعة تنفيذها .

فهذه الجوانب الأربعة تعدّ المقياس الموضوعيّ الدقيق ، للكشف عن عظمة الإنسان ، ومعرفة مستواها :

فالجانب الأول : هو الجانب النفسي ، ويشمل قوة الإنسان النفسية وسواؤها ، وما يكون عليه الإنسان من طبيعة النفس ومواهبها واستعدادها ، وأخلاقها وصفاتها .

والثاني : المبادئ التي يدعو إليها ، ومدى إقرار العقل الحصيف ، أو مجافاته لها ، وموقعها من المبادئ الأخرى : أهي مقتبسة منتحلة ، أم مبتدعة أصيلة لا عهد للناس بها ، أم مجددة مكملة ؟!

والثالث : واقع الإنسان ، وما يكون عليه سلوكه ، وما يتحقق له من نجاح أو إخفاق ، وهل يتطابق واقعه ، وينسجم سلوكه مع ما يدعو إليه من مبادئ ؟.

والرابع : الأثر الذي تركه الإنسان من بعده ، ومدى نجاحه فيه ، وانسجامه مع واقعه ومبادئه ، وهو ما يشير إلى التغيير التاريخي والحضاري ، الذي يتركه الإنسان من بعده.

وقد جمع الله هذه الأسباب الأربعة للعظمة الحقيقية في شخص النبي ﷺ على أكمل صورة وأوفاها ، وأجلها وأعلاها ، وتحققت ببعثة النبي ﷺ على أعلى مستوى ، وأكمل ما عرفته البشرية ، كما تحققت في هذه الأسباب ثلاث صفات وخصائص : شمولها واستيفائها ، وكمالها وسموها ، ووضعها في مواضعها ، فقد شب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى ، بعيداً عن أدناس الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأشدّهم حياءً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأسماهم في آثران شخصيته ، ونبل صفاته ، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة ، حتى أسموه في قومه : " الأمين " ، قد حفظه الله تعالى من عادات الجاهلية ، وكان يصل الرحم ، ويحمل ما يثقل كواهل الناس ، ويكرم الضيف ، ويعين

الضعيف ، ويأكل من كدّه وعمله ، ويعفّ عمّا في أيدي الناس .. ومن
ثمّ فقد وصف الله تعالى أخلاق النبي ﷺ بالعظمة ، بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم .

ولا توصف الأخلاق بالعظمة إذا احتلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة ،
فالشجاعة صفة كريمة مرغوبة ، ولكنها عندما توضع في غير موضعها ، أو
تكون في الإنسان في أمر دون آخر ، لا توصف بكمال ولا عظمة ..

والرحمة صفة كريمة مرغوبة ، ولكنها عندما يعامل بها المجرم الآثم ، أو
الباغي الظالم لا تقلّ شناعة عن البغي والظلم ، لأنها في الحقيقة مملّأة له
وتشجيع ، إذ تكون سبباً لنشر الشرّ في الأرض .. وقس على ذلك بقيّة
خلاق والصفات ..

خصائص الأخلاق النبويّة، أو مظاهر عظمة الأخلاق النبويّة، وهي
تنبجلى في النقاط التالية:

● - أصالتها ورسوخها وثباتها ، فهي موهوبة غير مكتسبة ، دائمة
مستمرّة .

● - وكمالها ، فلا خلق أعلى منها أو أتمّ .

● - وشمولها وعمومها فلا تقصّر عن جانب ، وتزيد في آخر ، ولا
تكون مع القريب غيرها مع البعيد .

● - واتزانها ، فهي تسلك في كلّ مقام بما يناسبه ، فلا تميل إلى جانبٍ
على حساب آخر .

● - وسموها ، فلا تحكمها ردة الفعل ، ولا الأغراض البشرية الدنيوية ،
أو المقاصد المسفّة ، وإنّما غرضها الأوّل والأخير ابتغاء وجه الله تعالى ، ونيل
مرضاته ، بتبليغ دعوته ، ونصرة دينه ، وهداية الخلق إلى صراطه المستقيم .

إنّها أخلاق ربّانية ، حكيمة كريمة ، عقلانية منزّنة ، شاملة
كاملة .

وهذه الدراسة إن هي إلّا تفصيل وبيان لهذه المحاور الكبرى .. إنّها
تستلهم حقائق التاريخ القاطعة ، وتخطب العقل الباحث عن الحقّ ، وتمتّع
القلب والوجدان ، وتقف الإنسان حيث كان على العظمة الحقّة ، التي حباها
الله لنبيه المجتبي ، وحبيبه المصطفى ﷺ ، ممّا يجعله المثل الإنسانيّ الأعلى
للبنشيرة كلّها إلى يوم الدين .

ولعم الحق من لم يؤمن بعد ذلك بمحمد ﷺ نينا رسولا فأنى له
أن يؤمن بالنبوة والأنبياء . !



الفصل الأول

صفاته الخلقية وجمال صورته ﷺ

لقد أجمعت كلمة كل من كتب في السيرة ، ونقل وقائعها وأحداثها بدقة على كمال خلقه النبي ﷺ ، وجمال صورته ، وأن الله تعالى جمع له محاسن الشرف من أطرافها ؛ فهو أشرف الناس أصلاً ونسباً ، وأجلهم خلقاً وصورة ، وأعظمهم خلقاً ، وقد كان شرف نسبهِ ، وطيب مَحْتِدِهِ قرين جمال صورته ، وكمال خلقته ، وكان ذلك محلّ بداهة في قومه ، فلا يعرف اللبس أو الجدل ، فهذا عتبة بن ربيعة ، وهو زعيم من كبار زعماء قريش ، يقول للنبي ﷺ ، بعدما صدع النبي صلوات الله عليه وسلامه بدعوته : " يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت ؛ من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب .. " (١) .

وتحدّث النبي ﷺ عمّا حباه الله تعالى من شرف النسب والأصل ، فجاء في الحديث الشريف عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس قال : فصعد المنبر ، فقال : (أيها الناس ! من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ، فقال : أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي

(١) - سيرة ابن هشام ٢٩٣/١ ، والسطة على وزن عِدّة ، ومعناها الشرف والخيريّة ، ومنه

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۚ ﴾ البقرة ، أي عدولاً خياراً .

خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ يُّوتَا ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا (١) .

كما عرّف الناس ببعض أسمائه ﷺ ، ومعلوم أنّ كثرة الأسماء من شرف المسمّى ، فجاء في الحديث عن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً ، فَقَالَ : (أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَالْمُقَفَّى ، وَالْحَاشِرُ ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ) (٢) .

● وأما صفته الخلقية : فقد جاء في ذلك ما رواه إبراهيم بن مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : كَانَ عَلِيٌّ ﷺ إِذَا وَصَفَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ الْمُمَغِطِ ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ ، وَكَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطِطِ ، وَلَا بِالسَّيِّطِ ، كَانَ جَعْدًا رَجُلًا ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ ، وَلَا بِالْمُكَلَّمِ ، وَكَانَ فِي الْوَجْهِ تَدْوِيرٌ ، أَيْضُ مُشْرَبٌ ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ ، أَهْدَبُ الْأَشْفَارِ ، جَلِيلُ الْمَشَاشِ وَالْكَتَدِ ، أَجْرَدُ دُو مَسْرَبَةٍ ، شَتْنُ الْكَفَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، إِذَا مَشَى تَقْلَعُ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النَّبُوَّةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًّا ، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْرًا ، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً ، وَأَلْيَنُهُمْ عَرَبِيَّةً ، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ يَقُولُ نَاعَتُهُ : لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ) (٣) .

(١) - رواه الترمذي في الدعوات / ٣٤٥٥ ، وفي المناقب / ٣٥٤١ وقال : هذا حديث حسن ، ورواه أحمد في المسند / ٢٤١٣٩ واللفظ له .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم / ٤٣٤٤ .

(٣) - رواه الترمذي في سننه / ٣٥٧١ وقال : هذا حديث حسن غريب ليس إسناده بمتصل .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ :
- الْمُعْطُ : الدَّاهِبُ طَوْلًا ، وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ : تَمَعَّطَ فِي نُشَابَةِ
أَيِّ مَدَّهَا مَدًّا شَدِيدًا .

- وَأَمَّا الْمُتَرَدَّدُ : فَالدَّاحِلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ قِصْرًا .
- وَأَمَّا الْقَطَطُ : فَالشَّدِيدُ الْجُعُودَةِ ، وَالرَّجُلُ الَّذِي فِي شَعْرِهِ حُجُونَةٌ ،
أَيُّ يَنْحَنِي قَلِيلًا .

- وَأَمَّا الْمُطَهَّمُ : فَالْبَادِنُ الْكَثِيرُ اللَّحْمِ .
- وَأَمَّا الْمُكَلَّثُمُ : فَالْمُدَوَّرُ الْوَجْهَ .
- وَأَمَّا الْمَشْرَبُ : فَهُوَ الَّذِي فِي نَاصِيَتِهِ حُمْرَةٌ .
- وَالْأَدْعَجُ : الشَّدِيدُ سَوَادِ الْعَيْنِ .
- وَالْأَهْدَبُ الطَّوِيلُ الْأَشْفَارِ .
- وَالْكَتْدُ : مُحْتَمِعُ الْكَتِفَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ .
- وَالْمَسْرُوبَةُ : هُوَ الشَّعْرُ الدَّقِيقُ الَّذِي هُوَ كَأَنَّهُ قَضِيبٌ مِنَ الصَّدْرِ إِلَى
السُّرَّةِ .

- وَالشَّنُّ : الْعَلِيزُ الْأَصَابِعُ مِنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ .
- وَالتَّقْلُعُ : أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ .
- وَالصَّبَبُ : الْحُدُورُ ، يَقُولُ : انْحَدَرْنَا فِي صُبُوبٍ وَصَبَبٍ .
- وَقَوْلُهُ : حَلِيلُ الْمَشَاشِ يُرِيدُ رُعُوسَ الْمَنَاقِبِ .
- وَالْعِشْرَةُ : الصُّحْبَةُ ، وَالْعَشِيرُ الصَّاحِبُ .
- وَالْبَدِيهَةُ : الْمَفَاجَأَةُ ، يُقَالُ : بَدَهْتُهُ بِأَمْرٍ أَيْ فَجَأْتُهُ .
وَعَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ عَلِيٍّ ؓ قَالَ : " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ، شَنَّ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، ضَخَمَ الرَّأْسِ ،

ضَخَمَ الْكَرَادِيسَ ، طَوِيلَ الْمَسْرُوبَةِ ، إِذَا مَشَى تَكْفَأُ تَكْفُؤًا كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ ، لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ " (١) .

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ، وَلَيْسَ بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ ، وَلَيْسَ بِالْأَدَمِ ، وَلَيْسَ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ ، وَلَا بِالسَّبَطِ ، بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشَرَ سِنِينَ ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشَرَ سِنِينَ ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً ، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلَحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بِيَضَاءً (٢) .

ويقول عمرو بن العاص رضي الله عنه : (.. وَمَا كَانَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا أَجَلًا فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ، لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ) (٣) .

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه : (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطَوَّى لَهُ ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرَبٍ) (٤) .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَّانٍ (أَي لَيْلَةِ اكْتِمَالِ الْقَمَرِ) فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ) (١) .

(١) - رواه الترمذي في المناقب / ٣٥٧٠ / وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ .

(٢) - رواه البخاري في اللباس / ٥٤٤٩ / وفي المناقب / ٣٢٨٤ / و / ٣٢٨٥ / ومسلم في الفضائل / ٤٣٣٠ / والترمذي في المناقب / ٣٥٥٦ / وأحمد / ١٣٠٣١ / ومالك في الموطأ / ١٤٣٤ / .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم / ١٧٣ / في حديث طويل عنه .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ برقم / ٣٥٨١ / ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

أمّ معبد الخزاعية تصف النبي ﷺ وصفاً جامعاً :

مرّ النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة بقديد بأمّ معبد الخزاعية ، وهي عاتكة بنت خالد ، وكانت برزة ^(٢) جلدة ^(٣) ، تحتني بفناء القبّة ^(٤) ، ثمّ تسقي ، وتطعم من يمرّ بها ، وكان القوم مُرملين ^(٥) مُستئين ^(٦) ، فسألوها : هل عندها لبن أو لحم يشترونه ؟ فلم يجدوا عندها شيئاً ، وقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى .. ^(٧) . ثمّ جرت للنبي ﷺ معجزة عندها ، إذ حلب لها من شاةٍ عجفاء مجهدة ، وشرب هو ومن معه ، وترك لها بقيّة ، وعندما حضر زوجها أبو معبد ، حدّثته بما رأت من العجب من هذا الرجل المبارك ، فقال لها : صفيه لي يا أمّ معبد ، فقالت : " رأيت رجلاً ظاهر الوضأة ^(٨) ، مبلج الوجه ^(٩) ، حسن الخلق ^(١٠) ، لم تعبّه ثجلة ^(١١) ، ولم تُزِرْ به صعلة ^(١٢) ، وسيم قسيم ، في عينيه دمع ^(١) ، وفي أشفاره وطف

(١) - رواه الترمذي في كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ برقم /٢٧٣٥/ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ .

(٢) - كضخمة عفيفة مسنة ، فلم تتحدّر لسنّها ، وخرجت من حدّ المحجوبات .
(٣) - قوّة .

(٤) - الفناء المكان الواسع أمام البيت أو القبّة وهي الخيمة .

(٥) - نفدت أزوادهم .

(٦) - أصابتهُم سنة أي جذب .

(٧) - القرى إكرام الضيف أي ما منعناه عنكم .

(٨) - الحسن والبهجة .

(٩) - مشرقه .

(١٠) - بفتح الخاء وسكون اللام أو بضمّهما ، وقد عرفت ذلك من تواضعه وحسن معاملته لرفقته .

(١١) - بفتح الثاء وسكون الجيم : عظم البطن .

(١٢) - صغر الرأس .

وطف ^(٢) ، وفي صوته صحل ^(٣) ، أهور ^(٤) ، أكحل ^(٥) ، أزج ^(٦) أقرن ^(٧) ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سَطَح ^(٨) ، وفي لحيته كثائة ^(٩) ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأنَّ منطقَه خرزات نظمٍ يتحدَّرن ^(١٠) ، حلو المنطق ، فصل ^(١١) ، لا نزر ^(١٢) ، ولا هذر ^(١٣) ، أجهر الناس ^(١٤) وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ^(١٥) ، ربعة ، لا

-
- (١) - شدة سواد العينين .
(٢) - أشفاره : رموش عينيه ، وطف : طول وغزارة .
(٣) - بفتح الصاد والحاء بحّة خفيفة ، فليس في صوته غلظ .
(٤) - الحور بفتح الحاء والواو : شدة بياض العينين ، وشدة سواد سوادهما .
(٥) - الكحل بفتح الكاف والحاء سواد في أجفان العينين خلقة ، والرجل أكحل وكحيل ، والمرأة كحلاء .
(٦) - دقيق الحاجبين في طول .
(٧) - مقرون الحاجبين .
(٨) - ارتفاع وطول .
(٩) - غزارة من غير دقة .
(١٠) - أي كلام متناسق ، ومتّصل بعضه ببعض ، فأشبهه في تناسقه الدرر ، وفي تواليه الخرزات إذا تتابعت .
(١١) - بسكون الصاد : أي كلام بيّن ، يفصل الحقّ من الباطل ، أو تفسيره ما بعده .
(١٢) - قليل الكلام .
(١٣) - أي : كثير الكلام فهو وسط بين هذا وذاك .
(١٤) - أرفعهم صوتاً من غير إفراط مع الوضوح .
(١٥) - أفرد الضمير حملاً على لفظ الناس ، أو لإرادة الجنس .

تشنؤه من طول ^(١) ، ولا تقتحمه عين من قصر ^(٢) ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرأ ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفّون به ^(٣) ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا لأمره ^(٤) ، محفود محشود ^(٥) ، لا عابس ، ولا مفند ^(٦) . قال أبو معبد : هذا والله صاحب قریش ، لو رأيته لاتبعته ، ولأجهدنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً ^(٧) .

ولقد كان كمال الخلقة وجمال الصورة معبراً عن طيب المعدن وسويرة النفس ، وكمال فضائلها ، وحسن استعدادها ، فربّما دلّ خلل واحد في تلك على نقیصة في هذه ، تقوم عليها صفات رئيسة في حياة الإنسان ، ولقد عرف العرب استشراف أسرار باطن الإنسان من صورته الظاهرة ، وهو ما يعرف " بعلم الفراسة " ، وقد لحظ ذلك الأديب الرافعي رحمه الله ، فربط بين الصفات الخلقية ، وبين الصفات الخلقية العظيمة ، التي كان عليها النبي ﷺ ، فيقول بعدما نقل رواية من صفاته الجسميّة ﷺ : " .. فتأمل أنت هذه

(١) - لا يُبغض لفرط طوله .

(٢) - لا تتجاوز به إلى غيره ازدراء له وإعراضاً .

(٣) - يحيطون به .

(٤) - تسابقوا إلى امتثاله .

(٥) - محفود : مخدوم ، محشود : عنده حشد ، وهم الجماعة .

(٦) - عابس مقطب الوجه ، والمفند بكسر النون مع التشديد : اسم فاعل ، وهو الذي يكثّر اللوم .

(٧) - روى قصتها البيهقي وابن خزيمة ، والحاكم وصحّحها وصاحب الغيلانيات ، ومن طريقه العمري عن أبي سليط الأنصاري البدری ، وابن عبد البر ، وابن شاهين ، وابن السكن ، والطبراني ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٩٢/٣ ، وشرح المواهب ٤١٠/١ والاستيعاب ، وعيون الأثر ، والسيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة ٤٨٨/١ .

الصفات ، واعتبر بعضها ببعض في جملتها وتفصيلها ، فإنك متوسم منها أروع ما عسى أن تدلّ عليه دلائل الحكمة ، وسمّة الفضيلة ، وشدة النفس ، وبعد الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وإحكام خطة الرأي ، وإحراز جانب الخلق الإنسانيّ الكريم " .

" وانظر كيف يكون الإنسان الذي تسع نفسه ما بين الأرض وسماها ، وتسع الإنسانية بمعانيها وأسمائها ، فهو في صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، وفي صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك ، وما حصّ بتلك الصفات إلّا ليملاؤها الكون ويعمّه ، ولا كان فرداً في أخلاقه إلّا لتكون من أخلاقه روح الأمة " (١) .

ولا عجب بعد ذلك أن كان هذا الجمال في الخلقة الذي لا يوصف ، والسلامة في البنية أن يتبعهما قوّة نفسيّة وجسميّة لا تبارى ، تسخر في الدعوة إلى دين الله ، وتبليغ رسالته ، ونشهد آية من ذلك في هذا الموقف المعبر من أحداث السيرة العطرة :

" كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدّ قريش قوّة وبأساً ، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة فقال له رسول الله ﷺ : يا ركانة ! ألا تتقي الله ، وتقبل ما أدعوك إليه ؟! قال : إنّي لو أعلم أنّ الذي تقول حقّ لأتبعنك ، فقال له رسول الله ﷺ : أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أنّ ما أقول حقّ ؟ قال : نعم ، قال : فقم حتّى أصارعك ، قال : فقام إليه ركانة يصارعه ، فلمّا بطش به رسول الله ﷺ ، أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثمّ قال : عد يا محمّد ، فعاد فصرعه فقال : يا محمّد ، والله إنّ هذا للعجب ! أتصرعني ؟! فقال رسول الله ﷺ :

(١) - تاريخ آداب العرب ٢/٢٩١ .

وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه ، إن اتّقيت الله واتبعت أمري ، قال :
ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني ، قال : ادعها ،
فدعها ، فأقبلت حتّى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ ، قال : فقال لها :
ارجعي إلى مكانك ، قال : فرجعت إلى مكانها .

قال : فذهب ركّانة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ساحروا
بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أسحر منه قطّ ، ثمّ أخبرهم بالذي
رأى ، والذي صنع " (١) .

ومع ما رأيت من قوّة النبي ﷺ البدنيّة ، وصرعه أقوى من عُرف
مُصارعاً بين العرب ، فهل استخدم النبي ﷺ قوّة البدنيّة للدفاع عن نفسه في
مواجهة عدوان المشركين على بدنه ؟! وما أكثر ما اعتدوا عليه وآذوه !
وكان يسعه ذلك ، ويقدر عليه ، ولو دافع عن نفسه لما لامه لائم ، ولما
استطاع أحد أن ينتقص من مكانته وقدره .. ولكنّه كان يرسم من بعده
للدعاة منهجاً ، ويختطّ لأمر ربّه ووحيه سيرة تحتذى ، ويريد لحملة
الدعوة إلى الله من بعده أن يخلصوا لله في دعوتهم ، ويتجرّدوا عن حظوظ
أنفسهم ، وعندئذٍ لن تكون الغلبة بإذن الله إلّا لهم .



(١) - سيرة ابن هشام ١/٣٩١ .

الفصل الثاني

كمال عقله ﷺ وحكمته ، وأثران شخصيته

وشجاعته ، وعظيمة هيبته

الحديث عن شخصيّة النبي ﷺ صعب مهيب ، عميق دقيق ، إنّه حديث عن شخصيّة تلتقي فيها الأرض بالسما ، بل قل وأنت تعي ما تقول : تمتزج فيها الأرض بالسما ، والعقل بالوحي ، والفطرة الإنسانيّة المشرقة بالوحي الإلهي المنزّه المنزل ، فلا تدري العظمة من أيّ الطرفين تبزغ ، وإلى أيّهما تنتمي .؟! وهي إن انتمت إلى عظمة السما وجدت الأرض موفورة الزرع والخير ، والنماء والعطاء ، وإن رأت الأرض زاهية الجمال بحلّة الجلال رأتها معجزة الخلق والتكوين ، ممدودة بعطاء السما .. إنّها في الحقّ معجزة الأمر الإلهي : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ ﴾ (الكهف ، ومثلها كمثّل البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان .؟ إنّها النبوة والاصطفاء .. التي تنفخ روح الهدى فكأّنها تنقلب بها طبائع الأشياء ، وهل تستطيع وكأنّ الأرض تطاول رفعة السما .. وإنّما يختبر عقل الإنسان في المواقف الحرجة ، وفي الأزمات الطارئة ، وفي المصائب الكبيرة ، التي تنزل بالإنسان ، وتحتاج إلى قوّة النفس ، وثبات القلب ، وحسن التصرف ..

ولقد كان رسولُ الله ﷺ حسيّفَ العقل ، واسعَ الفكر ، بعيدَ النظر ، ذكيّ الفؤاد ، يُعالج ما يعترضه من مشكلات بحكمة باهرة ، ودقّة ماهرة ،

وبديهة حاضرة ، وفطنة لا حدّ لها ، ممّا يجعل من يتعامل معه يدّعن لحكمه ،
وينقاد بكلّ ارتياح لرأيه .

وعندما تطّرد قوّة عقل الإنسان في كلّ موقف ، ولا يوصف أنّه يحسن
إدارة الأزمات ، والثبات في الشدائد والملّات فحسب ، بل يقف أمام
التحدّيات الكبرى كالطود الأشمّ ، ويصارع عقول أمة وأعرافها وعاداتها
فيصرعها ، بل يحول اتّجاهها ومجرى حياتها ولا تكون أمام عقله شيئاً
مذكوراً ، فذاك دليل على أنّه ممدود بقوّة الله التي لا تغلب ، وعزّة الله التي لا
ترام .. وهذا ركن ركين ، ومعنى أصيل من حقيقة النبوة ، التي لا تطالها
أعناق البشر مهما اجتهدوا ، ومهما أوتوا من مواهب وقدرات وّة ..

وإنّ كمال عقله ﷺ ، وأصالة تفكيره ، وبعد نظره ، كان يتجلّى في
تصرّفاته ومواقفه قبل النبوة وبعدها ، وذلك كما في تحكيمه قبل النبوة في
وضع الحجر الأسود ، ورضا المشركين بحكمه ، وانطفاء الفتنة التي كادت
تشبّ ، فتأكل الأخضر واليابس ، ومواقفه وأساليبه في الدعوة إلى الله تعالى ،
ومواقفه في إدارة الدولة الناشئة في المدينة ، وسياسته الحكيمة البعيدة النظر في
معاملة المنافقين ، التي تجمع بين مقتضى الشريعة ، وقوّة الحقّ ، ومقتضى
الدعوة والخلق الكريم ، ومقتضى حفظ هيئة الدولة والقيادة عن عبث
العابثين ، كما تتجلّى في اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب والمقام
المناسب ، وفي إعداده للجيش ، ومباغطة الأعداء قبل أن يبعثوه ، وموقفه في
القضاء على الفتنة ، التي كادت تقع بين الأوس والخزرج ، بتحريش من
اليهود ، وبين المهاجرين والأنصار أثناء غزوة بني المصطلق ، ومواهبه الفذة في
عقد المعاهدات والصلح ، وفي ترضية الأنصار بعد قسمة غنائم حنين ، وفي

معاملة الأصدقاء والأعداء ، حتّى كانت سبباً لدخول كثير منهم في الإسلام .. وغير ذلك أكثر من أن يحصى ..

ومّا يدلّ على كمال عقله ﷺ ، ورجحانه على سائر العقول : ما هداه الله إليه من حلّ حكيم عندما اختلفت قريش في بناء الكعبة ، فيمن يذهب بشرف وضع الحجر الأسود مكانه ، حتّى كادت الحرب أن تقع بينهم ، وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثمّ تعاقدوا هم وبنو عديّ بن كعب بن لؤيّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في تلك الجفنة ، واستمرّوا على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثمّ ألهم الله تعالى أحد عقلائهم ، وهو أبو أميّة بن المغيرة المخزوميّ ، والد السيّدة أم سلمة رضي الله عنها ، وكان يومها أسنّ رجل في قريش ، فقال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل من باب هذا المسجد ، فرضوا وقبلوا ، وأشخصوا أبصارهم إلى باب المسجد ، فكان محمد بن عبد الله أوّل داخل ، فعندما رأوه قالوا : " هذا الأمين ! رضينا به .. رضينا به .. " ، لقد أرسلته يد العناية الإلهيّة فكان قدر الحقّ المبين ، لينقذ قريشاً من هذا الشرّ المستطير ..

فلمّا أخبروه بالأمر لم يلبث أن بسط رداءه ، ثمّ أخذ الحجر فوضعه عليه ، ثمّ قال : لتأخذ كلّ قبيلة بطرف ، فرفعوه جميعاً ، حتّى بلغوا مستوى وضعه ، فأخذه ﷺ بيديه الشريفتين ، ووضعه مكانه ، وبهذا الحلّ الحكيم وقى الله قريشاً شرّ الحرب والاقتتال ، وازدادت قريش تقديراً للنبيّ ﷺ واحتراماً .. إنّهُ صاحبُ العقل الحصيف الكامل ، الذي هيّأه الله تبارك وتعالى ليقود البشريّة إلى طريق الحقّ والعدل والسلام ، بعيداً عن الإفساد في الأرض وسفك الدماء . وإنّ هذه الحادثة لتعدّ إرهاباً وبشرى بما قدره الله للإنسانيّة من الهداية والرشاد ببعثته ورسالته ..

ومن كمال عقله ﷺ ما فطره الله عليه من الغيرة على الحق ونصرته ،
والوقوف مع المظلوم : وقد أشاد ﷺ بما حضر قبل الإسلام من حلف
الفضول ، ومشاركته فيه ، فقد جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : (شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيِّينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ ،
فَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي حُمْرَ النَّعَمِ ، وَأَنْيَ أَنْكُتُهُ) ، قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : "
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَمْ يُصِْبِ الْإِسْلَامُ حِلْفًا إِلَّا زَادَهُ شِدَّةً ، وَلَا حِلْفَ
فِي الْإِسْلَامِ) ، وَقَدْ أَلْفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ " (١) .

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي
خُطْبَتِهِ : (أَوْفُوا بِحِلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ - يَعْنِي : الْإِسْلَامَ - إِلَّا
شِدَّةً ، وَلَا تُحْدِثُوا حِلْفًا فِي الْإِسْلَامِ) (٢) .

وقد كان حلف الفضول بعد حرب الفجار بأربعة أشهر وكان أكرم
حلف وأفضله في العرب في الجاهلية ، وسببه أَنَّ رجلاً من قبيلة " زُبَيْدٍ
باليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وأبى أن
يعطيه حقه ، فاستعدى عليه الزبيديّ الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوماً ،
وجمحا ، وسهماً ، وعديّ بن كلب ، فأبوا أن يعينوه على العاص بن
وائل ، وانتهروه لما للعاص من وجاهة في قومه ، فلمّا رأى الزبيديّ
الشرّ صعد على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقرّش في أنديتهم
حول الكعبة ، فاستصرخهم لردّ ظلامته قائلاً :

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٥٦٧/ .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب السير عن رسول الله ﷺ برقم /١٥١١/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ
حَسَنٌ صَحِيحٌ .

يا آل فهر لمظلوم بضاعته بيطن مكة نائي الدار والنفر

إنّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت بنو

هاشم ، وزهرة ، وبنو تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتّى يردّ إليه حقّه ما بلّ بحر صوفة ، وما بقي جبلا ثبير وحراء مكانهما ^(١) .

فسمّت قريش هذا الحلف : " حلف الفضول " ، وقالوا : لقد دخل

هؤلاء في فضل من الأمر ، ثمّ مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيديّ ، فدفعوها إليه ، وقيل : إنّما سميّ " حلف الفضول " لآته أشبه حلفاً تحالفته جرهم على هذا : من نصر المظلوم ، وردع الظالم ، وكان دُعيّ إليه ثلاثة من أشرافهم ، اسم كلّ واحد منهم فضل ..

وفي هذا الحلف يقول الزبير بن عبد المطلب :

إنّ الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألاّ يقيم بيطن مكة ظالم

أمر عليه تعاقدوا وتوافقوا فالجار والمعتزّ فيها سالم

وقد حضر النبيّ ﷺ هذا الحلف ، الذي رفعوا به منار الحقّ ، وهدموا

صرح الظلم ، وهو يعتبر من مفاخر العرب ، وعرفانهم لحقوق الإنسان ،

وقد روي أنّ النبيّ ﷺ قال : (لقد شهدت بدار عبد الله بن جدعان حلفاً

ما أحبّ أنّ لي به حمر النعم ، ولو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت) ^(٢) .

(١) - الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٢٨/١ .

(٢) - السيرة النبويّة لأبي شعبة ١/٢١٤/١ .

ومن النماذج الدالة على كمال عقله ﷺ : هذا الحوار العقليّ الراقي مع من جاءه سائلاً ، وقد امتلأ قلبه بالشكّ بزوجه ، وكأنيّ به كان ينتظر كلمة أو إشارة ، ليثبت الشكّ فيكون يقيناً ، ومن ثمّ يسارع إلى الطلاق ، وفراق زوجته : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ : أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ ؟! فَقَالَ : هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا أَلْوَأُهَا ؟ قَالَ : حُمْرٌ ، قَالَ : هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَتَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ ، قَالَ : فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ (١) .

وأما اتزان شخصيته ﷺ ؛ فقد تثلّت في حياته كلّ جوانب الحياة البشرية ، بأحوالها المختلفة ، وتقلّباتها المتباينة ، بأفراحها وأحزانها ، ويسرها وعسرها ، وضيقها وفرجها ، وقد واجه النبيّ ﷺ جميع هذه الأحوال بإرادة صلبة ، وشخصيّة مّتزنة راسخة ، فاستقبل أقدار الله بالصبر والثبات ، والتوكّل والرضا ، فانحنت أمام إرادته العواصف الهوج ، وتفتّتت المؤامرات والمكايد ، وذابت أمام حكمته المشكلات ، وتحوّلت بعزيمته الصادقة ، وإرادة ربّه قبل كلّ شيء معاول الهدم إلى أدوات بناء ، وعواصف التدمير إلى قوّة بناء وتغيير ، وصدق الله العظيم : ﴿ .. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) ﴿ يوسف .

ومن النماذج الدالة على اتزان شخصيته ﷺ ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقٌّ ، فَأَغْلَظَ لَهُ ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا ، فَقَالَ لَهُمْ : اشْتَرُوا لَهُ سِنًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، فَقَالُوا : إِنَّا لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًا هُوَ خَيْرٌ

(١) - رواه البخاريّ في كتاب الطلاق برقم /٤٨٩٣/ .

مِنْ سِنِّهِ ، قَالَ : فَاشْتَرَوْهُ فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً (١) .

فانظر إلى قوّة أتران شخصيته في موقف يساء فيه إلى مقامه الشريف ، فيلتبس لمن أساء العذر ، ولا يكتفي ﷺ بذلك ، بل يقرّر قاعدة قانونيّة أخلاقيّة ، ونفسيّة واجتماعيّة عامّة ، تعلّي من شأن صاحب الحقّ ، وتحترم موقفه ، وتؤيّد في جرأته في المطالبة : (إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً) ، ثمّ لم يكتفِ صلوات ربّي وسلامه عليه بذلك ، بل أمر أصحابه أن يعطوا صاحب الحقّ زيادة عن حقه : (فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً) ، فهل رأيت أروع وأرفع من هذه الصورة من صور التوازن النفسيّ وسعة الصدر .! وهل يطبق مثل ذلك أحد غير النبيّ المصطفى ﷺ ؟!

ومن النماذج الدالّة على أتران شخصيته ﷺ : موقفه ﷺ في قصّة الإفك :

فقد كان ﷺ يعلم في قرارة نفسه طهارة زوجه الحصان ، أمّ المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها ، ممّا رُميت به من فرية شنيعة ، وهو يعلم فضلها وتقواها ، كما يعلم أنّ من يتولّى كبر هذا الإفك والإثم المنافقون ورأسهم ، كما يعلم مقاصدهم ممّا يفترون ، وكلّنا يعلم منزلة أمّ المؤمنين ، السيّدة عائشة في نفسه .. ومع ذلك كلّه فقد صبر ﷺ وتريّث ، ولم يندفع بمشاعره وعاطفته ، ولم يتّخذ أيّ موقف بناءً على ما لديه من علم ومعرفة ، وانتظر حكم الله تعالى ، أدباً مع الحقّ جلّ وعلا ، والتزاماً بما يملّيه أدب العبوديّة ، ومقام النبوة والرسالة (٢) .

(١) - رواه البخاريّ في كتاب الوكالة برقم /٢١٤٠/ ومسلم في كتاب المساقاة برقم /٣٠٠٣/ .

(٢) - اقرأ في صحيح البخاريّ وصحيح مسلم قصّة الإفك كما تروها السيّدة عائشة رضي الله عنها ، وتأمل ما فيها من الدروس والعبر ، وانظر كيف وجدت السيّدة عائشة في نفسها من موقف النبيّ ﷺ المترّث ، وهو في الحقّ كما ترى باب فريد من أبواب عظمة شخصيته ، ودلائل نبوته .

ومن النماذج الدالة على اتزان شخصيته ﷺ وسمو نفسه أنه لم يكن يدافع عن نفسه اتهامات المشركين الظالمة ، وإنما يعرض الحق ، ويتلو القرآن ، ويدعو إلى الله تعالى ، ويسلم أمره إلى الله ، فيدافع الله عنه ، ويكفيه شر أعدائه وكيدهم ، وبهذا التوازن النفسي السامي كانت تهفو فطرة من أراد الله له الهداية إلى نور الحق غير مبالية بكيد الباطل وافتراءاته .. وللحق نور نفاذ ، لا تضربه حجب الباطل وترهاته ..

أخرج أبو يعلى عن حرب بن سريج قال : حدثني رجل من بلعدوية قال : حدثني جدِّي قال : انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي ، فإذا رجلان بينهما عنزة واحدة ، وإذا المشتري يقول للبائع : أحسن مبايعتي قال : فقلت في نفسي هذا الهاشمي ، الذي قد أضلّ الناس ، أهو هو ؟ قال : فنظرت فإذا رجل حسن الجسم ، عظيم الجبهة ، دقيق الأنف دقيق الحاجبين ، وإذا من ثغرة نحره إلى سرّته مثل الخيط الأسود شعر أسود ، وإذا هو بين طمرين . قال : فدنا منّا فقال : السلام عليكم ، فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال : " يا رسول الله قل له : يحسن مبايعتي ، فمدّ يده وقال : أموالكم تملكون ، إني أرجو أن ألقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم وعرض إلاّ بحقه ، رحم الله أمراً سهلاً البيع ، سهلاً الشراء ، سهلاً الأخذ ، سهلاً العطاء ، سهلاً القضاء ، سهلاً التقاضي ، ثم مضى .

فقلت : والله لأقصّن هذا ، فإنه حسن القول ، فتبعته ، فقلت : يا محمد ! فالتفت إليّ بجميعه فقال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذي أضللت الناس ، وأهلكتهم ، وصددتهم عمّا كان يعبد آبائهم ؟!

قال : ذاك الله . قال : ما تدعو إليه ؟ قال : أدعو عباد الله إلى الله ، قال : فقلت : ما تقول ؟ قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وآتي محمد رسول الله ، وتؤمن بما أنزل عليّ ، وتكفر باللات والعزى ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة . قال : قلت : وما الزكاة ؟ قال : يردّ غنينا على فقيرنا . قال : قلت : نعم الشيء تدعو إليه ، قال : فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إليّ منه ، فما برح حتى كان أحبّ إليّ من ولدي ووالدي ، ومن الناس أجمعين .

قال : فقلت : قد عرفت ، قال : قد عرفت ؟ قلت : نعم ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وآتي محمد رسول الله ، وتؤمن بما أنزل عليّ ؟ قال : قلت : نعم ، يا رسول الله ، إني أرد ماءً عليه كثير من الناس فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه ؟ فإني أرجو أن يتبعوك ، قال : نعم ، فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم ، فمسح رسول الله رأسه " (١) .

وأما شجاعته عليه السلام ، وعظيم هيئته عليه السلام ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب القلب الكبير ، الذي وسع قلبه الكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، والصديق والعدوّ ، والفظّ الغليظ ، والجاهل الجاني ، وكان عظيم المهابة في قلب كلّ من رآه ، قد توجّه الله تعالى تاج العزّة والكرامة ، وكساه حُلّة البهاء والفخامة ، كما جاء في وصفه عليه السلام على لسان هند بن أبي هالة : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخمًا مفخمًا ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر . ووصفه سيّدنا عليّ عليه السلام بقوله : " من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه " (٢) .

(١) - " الرسول صلى الله عليه وسلم " للشيخ سعيد حوى ١/١٢٢ .

(٢) - رواه الترمذيّ في كتاب المناقب برقم ٣٥٧١ .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إمعان النظر إليه لقوة مهابته في القلوب، وعظيم وقاره في النفوس، ومن ثمّ فلم يدقّ في وصفه إلاّ صغارهم، أو من كان تحت تربيته قبل النبوة، كهند ابن أبي هالة، وسيّدنا عليّ رضي الله عنه. وقال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه من المشركين، بعدما رجع من مفاوضة النبي صلى الله عليه وآله عند الحديبية: " .. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له " (١).

ومن المواقف الدالة على شجاعة قلبه صلى الله عليه وآله ما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكّر النبي صلى الله عليه وآله، فقال، كان أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ليلة فأنطلقوا قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، ما عليه سرج، في عنقه السيف، وهو يقول: (يا أيها الناس لن تُراعوا، يرُدُّهم، ثمّ قال للفرس: وجدناه بحراً، أو إنه لبحر)، وكان فرساً لأبي طلحة يبطأ، فما سبق بعد ذلك اليوم " (٢).

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل فكلّمه، فجعل تُرعدُ فرائضه، فقال له صلى الله عليه وآله: (هوّن عليك فإنّي لستُ بمليك إنّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكلُ القديد) (٣).

وعن عبد الله بن حسنّ العنبري قال: حدّثني جدّاي صفيّة ودحيّة ابنتا عليّة، قال موسى بنت حرملة: وكأنا ربيّتي قليلة بنت مخرمة رضي الله عنها، وكانت جدّة أبيهما أنّها أخبرتهما: " أنّها رأت النبي صلى الله عليه وآله وهو

(١) - السيرة النبوية للشيخ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ٣٣٠/٢.

(٢) - رواه ابن ماجة في كتاب الجهاد برقم ٢٧٦٢/.

(٣) - رواه ابن ماجة في كتاب الأطعمة برقم ٣٣٠٣/.

قَاعِدُ الْقُرْفُصَاءَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمُخْتَشِعَ فِي الْجُلْسَةِ أُرْعِدْتُ مِنْ الْفَرْقِ ^(١) . وفي رواية زيادة : فقال رجل : يا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُرْعِدْتَ الْمُسْكِينَةَ ، قَالَتْ قِيلَةٌ : فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ولم ينظر إليّ ، وأنا عند ظهره : (يا مُسْكِينَةُ عَلَيْكَ السَّكِينَةُ) ، فَلَمَّا قَالَهَا أَذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ دَخَلَ قَلْبِي مِنَ الرَّعْبِ " .

إنَّ كُلَّ حَدَثٍ مِنْ أَحْدَاثِ السَّيْرَةِ الْعَطْرَةِ ، أَوْ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِهَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ عِدَّةٍ زَوَايَا أَوْ وَجُوهِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ تَجَدُّ فَدًّا مُتَأَلِّقًا ، يَحْمِلُ الدَّلَائِلَ الْقَاطِعَةَ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَإِمْدَادِ اللَّهِ لَهُ بِأَقْدَسِ عَنَايَةٍ ..

وقد أعطى الله تعالى نبيه ﷺ هذه المهابة تأييداً للحقّ الذي بعث به ، وخصّيصاً من خصائص النبوة الخاتمة ، وهي صفة من جلال القرآن العظيم ، الذي كان يتنزّل عليه صباح مساء ، وهو ﷺ خير من تلاه ووعظ به وبلغه .. وقد كان شغله وديدنه ، واختلط بلحمه ودمه ، وتلك الهيبة من جلال الله تعالى ومحبته ، الذي اصطفاها على العالمين ، وجعله خير المرسلين ، وهي من نوع النصر بالرعب الذي خصّ به النبيُّ ﷺ ، كما في الحديث الصحيح ^(٢) .

(١) - رواه أبو داود في كتاب الأدب برقم /٤٢٠٧/ .

(٢) - الذي رواه البخاري في كتاب التيمّم برقم /٣٢٣/ ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم /٨١٠/ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) .

وقد كانت هيئته ﷺ قوّة للحقّ وسنداً ، في وجه زيف الباطل وطفئانه ، وبغيه وعدوانه ، فقد ثبت في السيرة الشريفة أنّ بعض المشركين في مناسبات مختلفة أرادوا البطش بالنبي ﷺ ، فوقفت مهابته ﷺ سداً منيعاً في وجههم ، وباعوا بالخزي والصغار ، والذلّ والعار ، واعترف بعضهم بما رأى ، وما ألقى في قلبه من الخوف .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ ، فَتَعَاقَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى ، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ ، لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ ، فَأَقْبَلْتُ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا تَبْكِي ، حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيْبَهُ مِنْ دِمِكَ ، فَقَالَ : يَا بَنِيَّ أَرِنِي وَضُوءًا ، فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : هَا هُوَ ذَا ، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ ، وَسَقَطَتْ أَدْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا ، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ ، فَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا ، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةً إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا ^(١) .

فهل عرف الناس أشجع منه ﷺ قلباً ؟! إنه يُخَبِّرُ أنّ القومَ يَبْتَئُونَ له الغدر ، ويعزمون على قتله ، فيقصدتهم في مجتمعاتهم ، ويقف أمامهم بمفرده ، ليس له ظهير سوى ربّه ، وكفى بالله وليّاً ، وكفى بالله نصيراً ، فيسقط في

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٣٦٢٦/ .

أيديهم ، ويحبسهم بقوة الله جلّ وعلا بقبضة من تراب ، فتكون إرهاباً
لقتل عتاتهم في غزوة بدر ..

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه :
مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ
عَدَاوَتِهِ قَالَ : " حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ ، سَفَهُ
أَحْلَامَنَا ، وَشَتَمَ آبَاءَنَا ، وَعَابَ دِينَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَسَبَّ آلِهَتَنَا ، لَقَدْ
صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَوْ كَمَا قَالُوا ، قَالَ : فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ طَلَعَ
عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا
بِالْبَيْتِ ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ ، قَالَ : فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي
وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَضَى ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي
وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَضَى ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَعَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَقَالَ : تَسْمَعُونَ يَا
مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالدَّبْحِ ، فَأَخَذْتُ
الْقَوْمَ كَلِمَتَهُ ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَانَمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَقِيعٌ ، حَتَّى إِنَّ
أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفُؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ ، حَتَّى إِنَّهُ
لَيَقُولُ : انصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، انصَرِفْ رَاشِدًا ، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا ،
قَالَ : فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ ، وَأَنَا
مَعَهُمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا
بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،
فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذًا

وَكَذَآ؟ لِمَا كَانَ يَلْعَنُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهِتِهِمْ وَدِينِهِمْ ، قَالَ : فَيَقُولُ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ
 بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، قَالَ : وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَنْكِي :
 " أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللَّهُ ؟! ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ
 لِأَشَدِّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَعَتْ مِنْهُ قُطًّا " (١) .

ففي سبيل نصره الحق ، ونشر نور الله في الأرض يأتي التأييد الإلهي في
 كل موقف إعزازاً للنبي ﷺ ، وخزياً لأعدائه ، وتأتي الهيبة النبوية سنداً للحق
 في وجه انتفاش الباطل وطغيانه ، وبغيه وعدوانه : ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَكَدَّ
 نَصْرَهُ ۝ ١٠ ﴾ التوبة .

وقال أبو جهل مرةً لأصحابه من المشركين : يا معشر قريش ، إنَّ
 محمداً قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا ، وشم آباءنا ، وتسفيه أحلامنا ،
 وسب آهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ، فإذا سجد في صلاته
 فدخلت به رأسه ، فليصنع بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ،
 وغدا رسول الله يصلي بين الركنتين : الأسود واليماني ، وغدت قريش
 فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ، فلما سجد رسول الله احتمل أبو جهل الحجر ،
 ثم أقبل نحوه متلصصاً ، حتّى إذا دنا منه رجع منبهتاً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد
 ييست يده على حجره من الخوف ، حتّى قذف الحجر من يده ، فقام
 إليه رجال من قريش ، فقالوا له : ما بك يا أبا الحكم ؟! قال : قمت
 إليه لأفعل ما عزمت عليه البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي فحل من

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٦٧٣٩/ .

الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرتة ، ولا أنيابه لفحل قط ،
فهم أن يأكلني ! " ..

ومرة أخرى قال أبو جهل : إن الله عليّ إن رأيت محمداً ساجداً لأطأ
عنقه ، ولأعقرن وجهه بالتراب ، فأتى رسول الله ﷺ ليأطأ رقبته ، فما
فجئهم إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، ف قيل له : ما لك ؟!
فقال : إن بي وبينه خندقاً من نار ، وهولاً ، وأجنحة ، فقال النبي ﷺ :
(لو دنا مني لاختطفته الملائكة) .

وقد كان حريّاً به بمثل هذه المواقف أن يذعن للحق ، ويطامن من
كبريائه ، وبغيه وعتوه ، ولكن كبر الطغاة يجعل شقوتهم تغلب عليهم حتى
يكونوا مثلاً في الغابرين . وصدق فيه قول النبي ﷺ : (كَانَ هَذَا فِرْعَوْنَ
هَذِهِ الْأُمَّةِ) ^(١) .



(١) - رواه أحمد في المسند من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه برقم /٣٦٣٣/ .

الفصل الثالث

فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم

وما آتاه الله تعالى من جوامع الكلم

وتناول القول في هذا الفصل في مبحثين :

المبحث الأول : فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم .

المبحث الثاني : نماذج من جوامع كلمه ﷺ .

المبحث الأول

فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم

وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلّ الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، وفصاحة لفظ ، وجزالة قول ، وصحّة معان ، وقلة تكلف ، وأوتي جوامع الكلم ، وخصّ ببدايع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كلّ طائفة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتّى كان كثير من أصحابه يعجبون منه ، ويسألونه في غير موطن عن شرح كلامه ، وتفسير قوله ، ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحقّقه .

وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقبال حضرموت ، وملوك اليمن ، وعظماء نجد ، بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ ، وما انتهجته من طرق البلاغة ، ليبين للناس ما نزل إليهم ، وليحدث الناس بما يعلمون .

لقد كان ﷺ أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأوجزهم لفظاً ، وأقواهم حجّةً ، قد آتاه الله الحكمة وفصل القول والخطاب ، وفوّاح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، كلامه كله يصدق عليه أنه جامع مانع ، سهل ممتنع ، جزل فصل ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، قد عصمه الله عن قول الشعر وقرضه ، رحمة بالعباد ، كيلا يلتبس عليهم ما لا يلتبس .

وفي ذلك يقول ﷺ : (أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ) ، وقال : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر) .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : (أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ ، قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ، أُوتِيَتْ فَوَاحِ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمُهُ وَجَوَامِعُهُ ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَتُجَوِّزُ بِي ، وَعُوفِيَتْ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، أَجِلُّوا حَلَالَهُ ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ (١) .

ولا عجب أن يؤتيه الله فوواح الكلم وخواتمه وجوامعه إذ القول البليغ الفصيح أداة نصره الحق وتأييده ، ووسيلة الدعوة إلى الله بالحجة البالغة ، والحكمة البينة ، والموعظة الحسنة ، وهل يتصور أو يعقل أو يقبل : أن يكون الباطل أقوى حجّةً ، وأفصح بياناً من دعاة الحق ، الذين اصطفاهم الله لوجيه وتبليغ رسالاته ؟!

(١) - رواه أحمد في مسند المكثرين برقم /٦٣١٨/ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمًا كَالْمُودِّعِ فَقَالَ ...

وقد أجمع العلماء والأدباء ، وأئمة اللغة المصانيع على أنّ فصاحة النبي ﷺ وبلاغته ما فوقها إلا بيان القرآن وإعجازه :

يقول إمام نخاة البصرة ، علامة الأدب ، وناقد الشعر يونس بن حبيب :
" ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ " (١) .

ويقول الإمام الزمخشريّ في مطلع كتابه : " الفائق في غريب الحديث " :
" هذا اللسان العربيّ كأنّ الله عزّت قدرته مخضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة ، وأوفر سلام ، فما من خطيب يقاومه إلاّ نكص مفكّك الرجل ، وما من مصقع يناهزه إلاّ رجع فارغ السجل ، وما قرن بمنطقه منطلق إلاّ كان كالبرذون مع الحصان المطهّم ، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلاّ أشبه الوضع في نقبة الأدهم " .

ويقول القاضي عياض بن موسى اليحصبيّ السبتيّ : " وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فقد كان النبيّ ﷺ من ذلك بالمحلّ الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحّة معان ، وقلة تكلف " .

لقد " أوتي ﷺ جوامع الكلم ، وخصّ ببديع الحكم ، وعلمّ السنة العرب ، فكان يخاطب كلّ أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في

(١) - الضبيّ بالولاء ، أبو عبد الرحمن يعرف بالنحويّ ، أخذ عنه سيبويه والكسائيّ والفراء وغيرهم من الأئمة ، وكان إمام نخاة البصرة في عصره ، وكانت حلقاته في البصرة يرتادها طلاب العلم ، وأهل اللغة والأدب ، ووفود البادية وفصحاء العرب ، يقول أبو عبيدة : " اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملاً كلّ يوم ألواحي من حفظه " ، من مؤلفاته : " معاني القرآن " و " النوادر " و " اللغات " توفيّ سنة ١٨٢/ ، وانظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ٦٤/٢٠ ، والأعلام للزركليّ ، وقد نقل عنه هذه الكلمة الجاحظ في البيان والتبيين ، ١٩/٢ .

منزِع بلاغتِها ، حتّى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه ، وتفسير قوله ، ومن تأمل ذلك وسيره ، علم ذلك وتحقّقه " (١) .

ويقول الإمام ابن الأثير في مقدّمة كتابه : " النهاية في غريب الحديث والأثر " : " كان رسول الله ﷺ أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأعذبهم نطقاً ، وأسدّهم لفظاً ، وأبينهم لهجة ، وأقومهم حجة ، وأعرفهم بمواقع الخطاب ، وأهداهم إلى طرق الصواب ، تأييداً إلهياً ، ولطفاً سماوياً ، وعناية ربّانية ، ورعاية روحانيّة ، حتّى لقد قال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وسمعه يخاطب وفد بني نهد : " يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟! " ، فقال ﷺ : (أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد) ، فكان ﷺ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم ، كلاًّ منهم بما يفهمون ، ويحادثهم بما يعلمون ، ولهذا قال ﷺ : (أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم) ، فكأنّ الله عزّ وجلّ قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه ، وجمع فيه من المعارف ما تفرّق ، ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه .. " (٢) .

ويقول الدكتور عصام قصبجي : " فإذا كان البليغ من يؤلّف بين نور القلب ونور اللسان ، فلا يكون ما يقوله كلاماً من الكلام ، وإنّما يكون روحاً من الروح ، ولا يكون حروفاً تنظم ، وإنّما يكون قلوباً تلهم ، فذلكم هو الرسول الأفصح الأبلغ رسول الله ﷺ : تكلم فأوجز ، وأشار فأوحى ، وكنتي فأوضح ، وأوماً فأعلم ، ورمز فألهم ، وشبه فأحكم . فليت شعري

(١) - الشفا ١/١٧٧ .

(٢) - النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/١ .

أين الشعر أم أين السحر من حديث كآته تسييح الفلك ، أو ترانيم الوجود ، ينساب في الأفهام قبل الأسماع ، وفي القلوب قبل الأفهام ! طوبى لقلب أشرب برد حديثه كوثرأ عذباً ، حتّى عرج على إيقاع الغبطة إلى سدرة المنتهى " (١) .

أجل ، لقد كان النبي ﷺ أبلغ العرب قاطبة ، وأفصح من نطق بالضاد ، وعلم العباد ، ولكنّ هذه الحقيقة البدهية تحتاج إلى بسط بيانها ، واستشعار حقيقتها ، واستجلاء طرف من أسرارها ، وقد تحدّث عن بعض حقائقها وأسرارها أديب العربيّة مصطفى صادق الرافعي فقال :

" هذه هي البلاغة الإنسانيّة التي سجّدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع ، وهي من الإحكام كآتها مصنوعة ، ولم يتكلّف لها ، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

" ألفاظ النبوة يعمرها قلب متّصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي الجليّ ، ولكنها جاءت من سبيله .. محكمة الفصول حتّى ليس فيها عروة مفصولة ، وكأّما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلّم ، وإّما هي في سموّها وإجادتها مظهر من بلاغته وفصاحته ﷺ .. إن خرجت في الموعظة قلت : أنين من فؤادٍ مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت : صورة بشرية من الروح .. وهي البلاغة النبويّة ، تعرف الحقيقة فيها كآتها فكر من أفكار الخليفة ، وتحيء بالمجاز الغريب ، فتري من غرائب أنّه مجاز في حقيقة ، وهي من البيان في إيجاز ، تزدّد فيه عين البليغ فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين .. على أنّه سواء في سهولة إطماعه ، وفي صعوبة امتناعه ، إن أخذ أبلغ الناس في ناحيته لم يأخذ

(١) - نقلاً عن كتاب : " في ظلال الحديث النبوي " ص/١٦ / للدكتور نور الدين عتر .

بناصيته ، وإن أقدم على غير نظرٍ فيه رجع مبصراً ، وإن جرى في معارضته انتهى مقصراً " (١) .

وقد حاول الرافعي استجلاء بعض جوانب الفصاحة النبوية ، واكتشاف بعض أسرارها ، على أنّ الإحاطة بذلك ليست في وسع بشر ، ويبقى الباب مفتوحاً لكلّ أديب مجتهد ، ليدلي بدلوه ، يقول رحمه الله :

" أمّا فصاحته ﷺ فهي من السمات التي لا يؤخذ فيه على حقّه ، ولا يتعلّق بأسبابه متعلّق ، فإنّ العرب وإن هدّبوا الكلام وحذقوه ، وبالغوا في إحكامه وتجويده ، إلّا أنّ ذلك قد كان منهم عن نظر متقدّم ، وروية مقصودة ، وكان عن تكلف يُستعان له بأسباب الإجادة التي تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم ، فيشبهه أن يكون الكلام مصنوعاً مقدّراً ، على أنّهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب ، ومن حذف في موضع إطناب ، وإطناب في موضع ، ومن كلمة غيرها أليق ، ثمّ هم في باب المعاني ليس لهم إلّا حكمة التجربة ، وإلّا فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض ، قلّ ذلك أو كثر ، والمعاني هي التي تعمر الكلام ، وتستتبع ألفاظه ، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه ، وعلى مقدارها ، وعلى وجه تأديتها يكون مقدار الرأي فيه ، ووجه القطع به " .

" بيد أنّ رسول الله ﷺ كان أفصح العرب ، على أنّه لا يتكلّف القول ، ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة ، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده ، ثمّ لا يعرض له في ذلك سقط ، ولا استكراه ، ولا تسترّله الفجاءة ، وما ييده من أغراض الكلام ، عن الأسلوب الرائع ، وعن النمط الغريب ، والطريقة المحكمة ، بحيث لا يجد النظر إلى

(١) - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص/ ٣١٢/ باختصار يسير .

كلامه طريقاً ، يتصفح منه صاعداً أو منحدرأ ، ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام ، وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة ، والتسديد ، وبراعة القصد ، والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية .

وإنّ كلامه ﷺ لكما قال الجاحظ : " هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونزّه عن التكلف .. استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشيّد بالتأييد ، ويُسرّ بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، ويُنّ حُسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدؤ الخُطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتئم إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهميز ، ولا يلمز ، ولا يُعطى ، ولا يعجل ، ولا يُسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه ﷺ .. ولعلّ بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلم يظنّ أنّا قد تكلفنا له في الامتداح والتشريف ، ومن التزيين ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلاً ، والذي جرّم التزيّد عند العلماء ،

وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذّابين عند الفقهاء ، لا يظنّ هذا إلاّ من ضلّ سعيه .. " .

ولا نعلم هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلاّ توفيقاً من الله وتوقيفاً ، إذ ابتعثه للعرب ، وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون على ذلك في تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات ، وعلى اختلاف مواطنهم ، فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجاني والمضطرب ، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقته ، إلى ما كان من اشتراك اللغات ، وانفرادها بينهم ، وتخصّص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب ، إلاّ من خالطهم ، أو دنا منهم دنو المأخذ .

فكان ﷺ يعلم كلّ ذلك على حقّه ، كأثما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كلّ قوم بلحنهم ، وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلاّ أفصحهم خطاباً ، وأسدّهم لفظاً ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب ، ولو عرف لقد كانوا نقلوه ، وتحدثوا به ، واستفاض فيهم .

ومثل هذا لا يكون لرجل من العرب إلاّ عن تعليم وتلقين ، أو رواية عن أحياء العرب ، حيّاً بعد حيّ ، وقبلاً بعد قبيل ، حتّى يفلي لغاتهم ، ويتبع مناطقهم ، مستفرغاً في ذلك متوقفاً عليه ، وقد علمنا أنّه ﷺ لم يتبع له شيء ممّا وصفنا ، ولا تهياً لأحد من سائر قومه على ذلك الوجه ، علماً ليس بالظنّ ، وبقيناً لا مساغ للشبهة فيه ، إذ ترادفت به طرق الأخبار المتواترة ، وكان مصداقه من أحوال العرب أنفسهم ، فما عرف أنّ أحداً منهم تقصص اللغات ، وحفظ ما بينها من فروق الأوضاع ، واختلاف

الصيغ ، وأنواع الأبنية ، واستقصى لذلك ، يستظهر به عليهم ، أو ينتحله فيهم ، بل كانت هذه الأسباب مقطوعة منهم ، لا تجد في الطبيعة ما يمتدّ له بها ، أو ينميها ، أو يجعل لها عندهم شأنًا ، أو يغييها حاجة من الحاجات الباعثة عليها ، فليس إلّا أن يكون ما خصّ به النبي ﷺ من ذلك قد كان توفيقاً وإلهاماً من الله ، أو ما هذه سبيله ، مما لا ننفذ في أسبابه ، ولا نقضي فيه بالظنّ ، فقد علّمه الله من أشياء كثيرة ، ما لم يكن يعلم ، حتّى لا يعيا بقوم إن وردوا عليه ، ولا يحصر إن سألوه ، ولا يكون في كل قبيل إلّا منهم ، لتكون الحجّة به أظهر ، والبرهان على رسالته أوضح ، وليعلم أنّ ذلك له خاصّة من دون العرب ، فهو يفي بهم في هذه الخصلة البيّنة ، كما يفي بهم في خصال أخرى كثيرة . فهذه واحدة .

وأما الثانية ؛ فقد كان ﷺ في اللغة القرشيّة التي هي أفصح اللغات وألّنها بالمنزلة التي لا يدافع عليها ، ولا ينافس فيها ، وكان من ذلك في أقصى النهاية ، وإنّما فضلهم بقوة الفطرة ، واستمرارها ، مع صفاء الحسّ ، ونفاد البصيرة ، واستقامة الأمر كلّ ، بحيث يصرفّ اللغة تصريفاً ، ويديرها على أوضاعها ، ويشقّق منها في أساليبها ومفرداتها ، ما لا يكون لهم إلّا القليل منه ، لأنّ القوة على الوضع والكفاية في تشقيق اللغة ، وتصاريف الكلام ، لا تكون في أهل الفطرة مزاولة ومعاناة ، ولا بعد نظر فيها ، وارتياض لها ، إنّما هي إلهام بمقدار ، تهيّء له الفطرة القويّة ، وتعين عليه النفس المجتمعة ، والذهن الحادّ ، والبصر النفاذ ، فعلى حسب ما يكون للعربيّ في هذه المعاني ، تكون كفايته ، ومقدار تسديده في باب الوضع .

وليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات ، وأعطاه الخالص منها ، وخصّه بجملتها ، وأسلس له مأخذها ، وأخلص له أسبابها كالنبيّ ﷺ ،

وماذا عسى أن يكون وراء ذلك في باب الإلهام ، وجهام الطبيعة ، وصفاء الحاسة ، وثقوب الذهن ، واجتماع النفس ، وقوة الفطرة ، ووثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض .

ولا يذهبن عنك أنّ للنشأة اللغوية في هذا الأمر ما بعدها ، وأنّ أكبر الشأن في اكتساب المنطق واللغة للطبيعة والمخالطة والمحاكاة ، ثمّ ما يكون من سموّ الفطرة وقوتها ، فإنّما هذه سبيله : يأتي من ورائها ، وهي الأسباب إليه ، وقد نشأ النبي ﷺ وتقلّب في أفصح القبائل ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً ، فكان مولده في بني هاشم ، وأخواله في بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتروّجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو ، وهم الأوس والخزرج من الأنصار ، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة ، واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ، ولذا قال ﷺ : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر)^(١) ، وهو قول أرسله في العرب جميعاً ، والفصاحة أكبر أمرهم ، والكلام سيّد عملهم ، فما دخلتهم له حميّة ، ولا تعاضمهم ، ولا ردّوه ، ولا غصّوا منه ، ولا وجدوا إلى نقضه سبيلاً ، ولا أصابوا للثمة عليه طريقاً ، ولو كان فيهم أفصح منهم لعارضوه به ، ولأقاموه في وزنه ،

(١) - هم بنو سعد بن بكر (وقد ذكرهم المؤلّف في الجزء الأول في " أفصح القبائل ") ، وكانوا من العرب الضاربة حول مكة ، وكان أطفال القرشيين يبتدون فيهم ، وفي غيرهم يطلبون بذلك نشأة الفصاحة ، ولا يزال كبراء مكة إلى اليوم يرسلون أحداً منهم إلى أماكن هذه القبائل من البادية ، وخاصة إلى قبيلة عدوان في شرق الطائف ، وهي قرية من بني سعد ، وإنّما يطلبون بذلك إحكام اللهجة العربية ، وصحة النشأة ، وحرية النزعة ، وما إليها مما هو الأصل في هذه العادة ، يتوارثونها في التربية العربية من قديم .. والرواة جميعاً على أن بني سعد بن بكر خصّوا من بين قبائل العرب بالفصاحة ، وحسن البيان .

ثم لجعلوا من ذلك سبباً لنقض دعوته ، والإنكار عليه ، غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوها ، وأشرف مذاهبها ، ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم ، ولا يتعلّقون به ، ولا يطبقونه ، وأدنى ذلك أن يكون قوي العارضة ، مستجيب الفطرة ، ملهم الضمير ، متصرّف اللسان ، يضعه من الكلام حيث شاء ، لا يستكره في بيانه معنى ، ولا يندّ في لسانه لفظ ، ولا تغيب عنه لغة ، ولا تضرب له عبارة ، ولا ينقطع له نظم ، ولا يشوبه تكلف ، ولا يشقّ عليه منزع ، ولا يعتريه ما يعترى البلغاء في وجوه الخطاب ، وفنون الأقاويل ، من التخاذل ، وتراجع الطبع ، وتفاوت ما بين العبارة والعبارة ، والتكثير لمعنى بما ليس منه ، والتحيف لمعنى آخر بالنقص فيه ، والعلو في موضع ، والنزول في موضع ، إلى أمثال أخرى لا نرى العرب قد أقرّوا له بالفصاحة إلّا وقد نزهه ﷺ عن جميعها ، وسلم كلامه منها ، وخرج سبكه خالصاً لا شوب فيه ، وكأثما وضع يده على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه ، ولو هم اطلعوا منه على غير ذلك ، أو ترامى كلامه إلى شيء من أضداد هذه المعاني ، لقد كانوا أطالوا في ردّ فصاحته ، وعرضوا ، ولكان ذلك ماثوراً عنهم ، دائراً على ألسنتهم ، مستفيضاً في مجالسهم ، ومناقلاتهم ، ثم لردّوا عليه القرآن ، ولم يستطع أن يقوم لهم في تلاوته وتبيينه ، ثم لكان منهم من يعيب عليه في مجلس حديثه ، ومحاضرة أصحابه ، أو ينتقص أمره ، ويغض من شأنه ، فإنّ القوم خلّص ، لا يستحيون إلّا لأفصحهم لساناً ، وأبينهم بياناً ، وخاصة في أول النبوة ، وحدثان العهد بالرسالة ، فلمّا لم يعترضه شيء من ذلك ، وهو لم يخرج من بين أظهرهم ، ولا جلا عن أرضهم ، ورأينا هذا الأمر استمرّ على سنّته ، واطّرد إلى غايته ، وقام عليه الشاهد القاطع من أخبارهم ، علمنا قطعاً وضرورة أنّه ﷺ كان أفصح العرب ، وأفياً

بغيره ، كافياً من سواه ، وآته في ذلك آية من آيات الله لأولئك القوم ، و :
﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١٧) البقرة " (١) .

ومن فصاحته ﷺ ، وكمال عقله : تأثير وعظه في القلوب ، فقد كان تأثيراً بليغاً عظيماً ، فكم كان سبباً في كسر غلواء العصبية ، وتحطيم عادات الجاهلية ، وتهذيب الأخلاق العvisية ، وتأليف القلوب على الإيمان بالله ورسوله ، والحب في الله تعالى ، والجهاد في سبيله ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، تطفح بها رياض السيرة النضرة ، وتضوع منها أنسامها العطرة .

فمن ذلك : مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ ﷺ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قَالَ : (يَا حَكِيمُ ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) .

قَالَ حَكِيمٌ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرُزُّ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْتِي أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ﷺ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنِّي أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرَضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْتِي أَنْ يَأْخُذَهُ ، فَلَمْ يَرْزُ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوفِّيَ " (٢) .

(١) - " تاريخ آداب العرب " للرافعي ٢/ ٢٨١ - ٢٨٧ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم /١٣٧٩ ، ومسلم في كتاب الزكاة برقم /١٧١٧ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا أَمْرٌ مِنْ قَوْمِي ، وَمَا أَنَا ؟ قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَنَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ : قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَتَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةُ بَلَعْتَنِي عَنْكُمْ ، وَجِدَةُ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالاً فَهَذَا كُمْ اللَّهُ ، وَعَالَةٌ فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ، وَأَعْدَاءُ فَأَلَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، قَالُوا : بَلَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : (أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ ، أَتَيْنَا مُكَدِّباً فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيداً فَأَوْيْنَاكَ ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأْلَفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسَلِّمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ ،

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ
النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ
الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ) ، قَالَ : فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى
أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ، ثُمَّ انْصَرَفَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَفَرَّقْنَا (١) .

ومن النماذج الرائعة الدالة على رفعة الخطاب النبوي ، وسمو ما
اتصف به النبي ﷺ من قوة الحجة في الحوار ، والجمع بين الإقناع العقلي ،
والتأثير العاطفي ، والهيمنة الروحية ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ :
" إِنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزَّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ
عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ ، قَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ ﷺ : ادْنُ ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ :
فَجَلَسَ ، قَالَ : أَتُحِبُّهُ لَأُمِّكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : وَلَا
النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لَأُمَّهَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفُتَحِبُّهُ لَابْنَتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفُتَحِبُّهُ لَأُخْتِكَ ؟
قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ،
قَالَ : أَفُتَحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : وَلَا
النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ، قَالَ : أَفُتَحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي
اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ ، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ،
وَقَالَ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ) ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ
ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ " (٢) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم ١١٣٠٥ / .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم ٢١١٨٥ / .

لقد جاءه هذا الشاب يطلب منه أن يأذن له بالزنى ، والزنى فعل قبيح مستهجن ، دنيء وضيع ، يدلّ على خسة مرتكبه ، وتفاهة فاعله ، وقد يأنف من التصريح به من يفعله ، ويغرق في قاذوراته ، فكيف تجرّأ هذا الشاب على أن يطلب من النبيّ ﷺ أن يأذن له به ؟ ولم تمنعه هيبة النبيّ ﷺ من ذلك ؟ فهلاً كان ذلك من غير النبيّ ﷺ ؟ من بعض أصحابه ، ولو من كبارهم ؟! إنّ هذا الطلب المباشر من النبيّ ﷺ يدلّ على شدة توقّد الغريزة في نفس هذا الشاب ، أو على أنّه قد اعتاد في جاهليّته عليه ، فهو لا يستطيع عنه فكاكاً .. كما يدلّ على قرب النبيّ ﷺ من أصحابه ، وأنهم كانوا يجدون عنده الملاذ الآمن لطرح مشكلاتهم ، دون تهيّب ولا تحفّظ ..

لقد أدناه منه النبيّ ﷺ دنواً شديداً ، وهذا ما يحمل دلالات متنوّعة من الشفقة والرحمة ، إلى المودة وبثّ الطمأنينة ، وإشعار هذا الشاب بالأنس بالنبيّ ﷺ ، ليكون التلقّي عنه على أكمل وجه ، وأقوى تأثير .. ثمّ حاوره النبيّ ﷺ ذلك الحوار العقليّ العاطفيّ ، الذي أثمر أطيب النتائج ، حتّى قام ذلك الفتى من مجلس النبيّ ﷺ وليس شيء أبغض إليه من الزنى .

فما أعذب هذا الأسلوب النبويّ وما أرحمه ؟! وما أرقّه وألطفه ؟! فهل عرف العالم كلّه طبيعاً نفسياً ، ومرشداً روحياً مثل محمّد بن عبد الله ﷺ ؟ ألا فليتخذ المؤمنون المتّقون ، المحبّون لرسول الله ﷺ ، والدعاة إلى الله ، المجتهدون الموقّقون ، من هذا الأسلوب منهل تربية ، ومنهج عمل ، وليعلم العالم كلّه أنّ محمّداً إن هو إلّا رسول الله وخاتم النبيّين ، ورحمة الله للعالمين .

ومن النماذج الرائعة الدالّة على فصاحته ﷺ وقوّة حجّته ، وإفحامه لخصومه : ردّه على أبي سفيان يوم أحد ، مع ما أصيب به ﷺ من الأذى وشدة الجراح .

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ : جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ ، فَقَالَ : (إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ) ، فَهَزَمُوهُمْ قَالَ : فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ ، قَدْ بَدَتْ خِلَاجُهُنَّ وَأَسْوَقُهُنَّ ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ ، الْغَنِيْمَةُ ، أَيُّ قَوْمِ الْغَنِيْمَةِ ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ : أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟! قَالُوا : وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ ، فَلَنُصَيِّبَنَّ مِنَ الْغَنِيْمَةِ ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وَجُوهُهُمْ ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ ، فَذَلِكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً : سَبْعِينَ أَسِيرًا ، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا ، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ : كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءَ كُلَّهُمْ ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ ، قَالَ : يَوْمَ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِحَالٌ ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونِ فِي الْقَوْمِ مِثْلَهُ لَمْ أَمُرْ بِهَا ، وَلَمْ تَسْأَلْنِي ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ : أَعْلُ هُبْلٍ ، أَعْلُ هُبْلٍ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أَلَا تُجِيبُوا لَهُ ؟ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ ، قَالَ : إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَلَا تُجِيبُوا لَهُ ؟ قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا ، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ) ^(١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨١٢ / .

المبحث الثاني

نماذج من جوامع كلمه ﷺ

الأحاديث التي هي من جوامع كلمه ﷺ لا يحصيها باب ، ولا يجمعها كتاب .. ولن يقدر أحد على إحصائها أو ستقصائها ، وهي وجيزة الألفاظ ، غزيرة المعاني ، وافية المقاصد .. وقد لا يتبين ذلك لكثير من الناس في هذا العصر ، لفقد النشأة اللغوية السليمة ، وفساد الذائقة اللغوية والأدبية ، وطغيان عجمة الأساليب على العقول .. ولكنّ المقارنة العابرة بادي الرأي بين أساليب الناس مهما علا كعبهم في اللغة والأدب ، وبين البيان النبويّ البليغ الوجيز يجد المقارن الفرق جلياً واضحاً ، ومن لم يجد ذلك ويتذوّقه فليس من العربيّة وشأنها في شيء ..

وقد ألّف الناس في جوامع كلمه ، وحكمه المأثورة الدواوين ، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، وهي ممّا لا يُوازى به شيء من فصاحة الفصحاء ، ولا بلاغة البلغاء ، فمن ذلك قوله ﷺ :

- ١ - (الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ ، يَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، يَرُدُّ مُشِدَّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ ، وَمُتَسَرِّهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ) ^(١) .
- ٢ - (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَّيْتَ) ^(٢) .

(١) - رواه أبو داود في كتاب الجهاد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ ، برقم /٢٢٧١/ .

(٢) - رواه البخاريّ في كتاب المناقب برقم /٣٤١٢/ ، ومسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب برقم /٤٧٧٥/ عَنْ أَنَسٍ ﷺ .

وفي رواية الترمذي : (المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت) (١) .

٣ - (الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) (٢) .

٤ - (إن المستشار مؤتمن) ، وفيه يقول النبي : (إن الله لم يبعث نبياً ، ولا خليفة إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالاً ، ومن يوق بطانة السوء فقد وقى) (٣) .

٥ - (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم أفسد لها ، من حرص المرء على المال والشرف لدينه) (٤) .

٦ - (سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين) (٥) .

٧ - (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم كذلك ، قالوا : يا رسول الله وأين هم ؟ قال : بينت المقدس ، وأكناف بيت المقدس) (٦) .

(١) - في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ برقم /٢٣٠٧/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧٧٥/ عن أبي هريرة ؓ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ برقم /٢٢٩٢/ عن أبي هريرة ؓ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٤) - رواه أحمد برقم /١٥٢٢٤/ عن كعب بن مالك ؓ .

(٥) - رواه البخاري في كتاب بدء الوحي برقم /٦/ ، وهو جزء من نص رسالة النبي ﷺ إلى ملوك العالم ورءسائه .

(٦) - رواه أحمد عن أبي أمامة ؓ برقم /٢١٢٨٦/ .

٨ - (إِنَّ لِلْمُتَفَقِّينَ عِلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا : تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةً ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةً ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ ، وَلَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا ، مُسْتَكْبِرِينَ ، لَا يَأْلَفُونَ ، وَلَا يُؤْلَفُونَ ، خُسْبٌ بِاللَّيْلِ ، صُخْبٌ بِالنَّهَارِ) ^(١) .

٩ - (الْمُؤْمِنُ مُأَلَفَةٌ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ ، وَلَا يُؤْلَفُ) ^(٢) .

١٠ - (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْعَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الثَّرَثَارُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيِّهُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ ؟ قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ) ^(٣) .

١١ - (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) ^(٤) .

١٢ - (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غَنَى ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُعْنِهِ اللَّهُ) ^(٥) .

١٣ - (إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ ، الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِوَجْهِهِ وَهَوْلَاءَ بِوَجْهِهِ) ^(٦) .

(١) - رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم /٧٥٨٥/ .

(٢) - رواه أحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه برقم /٢١٧٧٣/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم /١٩٤١/ عن جابر رضي الله عنه وقال : وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /٩/ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رضي الله عنه .

(٥) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم /١٣٣٨/ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه .

(٦) - رواه البخاري في كتاب الأحكام برقم /٦٦٤٣/ ، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧١٥/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

١٤ - (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (١) .

١٥ - (إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً ، أَوْ يَمْحُوهَا ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ) (٢) .

١٦ - (اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (٣) .

١٧ - (اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّعْ ، فَإِنَّ الشُّعْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) (٤) .

١٨ - (الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَأُضِيعَ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ) (٥) .

١٩ - (اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاها ، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاها ، إِنَّ أَحْيَيْتَهَا فَاخْفِظْهَا ، وَإِنْ أَمَتَهَا فَاغْفِرْ لَهَا ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَاقِبَةَ) (٦) .

٢٠ - (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ) (١) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب البرِّ والصلة عن رسول الله برقم /١٩١٠/ عَنْ أَبِي دُرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) - رواه الدارمي في كتاب الرقاق برقم /٢٦٦٧/ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الأذان برقم /٧٩٠/ ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : عَلِّمْنِي دُعَاءَ أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ : قُلْ .

(٤) - رواه مسلم في كتاب البرِّ والصلة والآداب برقم /٤٦٧٥/ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٥) - رواه ابن ماجه في كتاب الأدب برقم /٣٦٥٣/ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٦) - رواه أحمد /٥٢٤٥/ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

٢١ - (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّ تُعْطِيَ الْفَضْلَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَلَا يُلُومُ اللَّهُ عَلَى الْكَفَافِ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) (٢) .

٢٢ - (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) (٣) .

٢٣ - (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ .. وَفِي آخِرِهِ : رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (٤) .

٢٤ - (يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهَ ، وَكُلَّ يَمِينِكَ ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ) (٥) .

٢٥ - (إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ، قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) (٦) .

٢٦ - (اَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُجِبَّكَ اللَّهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُجِبُّوكَ) (٧) .

(١) - رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه أحمد عن الحسين عليّ ، والعسكري عن عليّ ، والطبراني عن زيد بن ثابت أربعتهم رفعوه ، وقد أوضحه السخاوي في تخريج الأربعين ، انظر كشف الخفاء ٣٧٧/٢ .

(٢) - رواه أحمد /٨٣٨٨/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ ..

(٣) - رواه مالك والشافعي عنه ، عن يحيى المازني مرسلًا ، وأحمد وعبد الرزاق ، وابن ماجه والطبراني عن ابن عباس وفي سنده جابر الجعفي ، وأخرجه ابن أبي شيبة والدارقطني عنه ، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة وجابر وعائشة وغيرهم انظر كشف الخفاء ٤٩١/٢ .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم /٢٤٤٠/ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٥) - رواه البخاري في كتاب الأطعمة برقم /٤٩٥٧/ ، ومسلم في كتاب الأشربة برقم /٣٧٦٧/ عن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه .

(٦) - رواه البخاري في كتاب العلم برقم /٥٧/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

(٧) - رواه ابن ماجه في الزهد برقم /٤٠٩٢/ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه .

٢٧ - (يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ : الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَأَطْمَأَنَّ
إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَالْإِيمَانُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ
وَأَفْتَوْكَ) ^(١) .

٢٨ - (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ..) ^(٢) .

٢٩ - (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى) ^(٣) .

٣٠ - (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) ^(٤) .

٣١ - (أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ) ^(٥) .

٣٢ - (الْحَرْبُ خَدَعَةٌ) ^(٦) .

٣٣ - (إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ : اللَّهُمَّ
إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ،
وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ،

(١) - رواه أحمد برقم /١٧٣١٥/ عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٧٨٧/ ، ومسلم في كتاب الرضاة برقم /٢٦٧١/ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الجنائز برقم /١٢٠٣/ ، ومسلم في كتاب الجنائز برقم /١٥٣٤/
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب الفتن برقم /٢١٠٠/ ، والنسائي في كتاب البيعة برقم /٤١٣٨/
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

(٥) - رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /٤٤/ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /١٢/
، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٦) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم /٢٨٠٥/ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير
برقم /٣٢٧٣/ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ،
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١) .

٣٤ - (مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ
يَشْكُرِ اللَّهَ ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ،
وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ) (٢) .

٣٥ - (سَدُّوْا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ ،
قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَذْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ) (٣) .

٣٦ - (ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًا
مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَذُنُوبًا مُؤْتَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ
بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ
عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ) (٤) .

٣٧ - (اتَّقُوا النَّارَ ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) (٥) .

(١) - رواه أحمد برقم ١٦٤٩١/ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم ١٧٧٢١/ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٥٠٤٣/ ، والبخاري في الرقاق
برقم ٥٩٨٣/ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ برقم ٢٩٨٤/ ، وَقَالَ : هَذَا
حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، ورواه أبو داود في الملاحم برقم ٣٧٧٨/ وابن ماجة في الفتن برقم
٤٠٠٤/ ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : وَزَادَنِي غَيْرُ
عُتْبَةَ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِثْلًا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ : بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ .

(٥) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم ١٣٢٨/ ، ومسلم في كتاب الزكاة برقم ١٩٦٠/
عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

- ٣٨ - (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ ، وَوَادَ الْبَنَاتِ ، وَمَنَعَ وَهَاتِ ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) (١) .
- ٣٩ - (.. الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (٢) .
- ٤٠ - (إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَسِحْرًا) (٣) .
- ٤١ - (الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ) (٤) .
- ٤٢ - (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ) (٥) .
- ٤٣ - (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ) (٦) .
- ٤٤ - (إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمَةً) (٧) .
- ٤٥ - (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) (٨) .

-
- (١) - رواه البخاري في كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس برقم /٢٢٣١/ ، ومسلم في الأقضية برقم /٣٢٣٧/ عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه .
- (٢) - رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /٤٨/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٩/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .
- (٣) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٧٤٩/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه .
- (٤) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /٨٢/ عَنْ تميم الدَّارِيِّ رضي الله عنه .
- (٥) - رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله برقم /٢٨٩٥/ عَنْ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
- (٦) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٦٥٢/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٥٣/ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه .
- (٧) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٦٧٩/ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ رضي الله عنه .
- (٨) - رواه البخاري في كتاب بدء الوحي برقم /١/ ، ومسلم في كتاب الإمارة برقم /٣٥٣٠/ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه .

٤٦ - (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقَتَالُهُ كُفْرٌ) ^(١) .

٤٧ - (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عِظْنِي وَأَوْجِزْ فَقَالَ : إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا ، وَاجْمَعْ الْإِيَّاسَ مِمَّا فِي يَدَيْ النَّاسِ) ^(٢) .

٤٨ - (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) ^(٣) .

٤٩ - (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) ^(٤) .

٥٠ - (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) ^(٥) .

٥١ - حَدَّثَ الْمُغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشُّكْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ : انْطَلَقْتُ إِلَى الْكُوفَةِ لِأَجْلِبَ بَعَالًا ، قَالَ : فَأَتَيْتُ السُّوقَ وَلَمْ تُقَمْ ، قَالَ : قُلْتُ لِصَاحِبِ لِي : لَوْ دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ ، وَمَوْضِعُهُ يَوْمِيذٍ فِي أَصْحَابِ التَّمْرِ ، فَإِذَا فِيهِ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ ، يُقَالُ لَهُ : ابْنُ الْمُتَنَفِّقِ ، وَهُوَ يَقُولُ : وَصِفَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَلِّيَ ، فَطَلَبْتُهُ بِمَنَى ، فَقِيلَ لِي : هُوَ بِعَرَفَاتٍ ، فَأَتَيْتُهُ إِلَيْهِ ، فَزَاحَمْتُ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ

(١) - رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /٤٦/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٩٧/ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٢٤٠٠/ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ .

(٣) - رواه أبو داود في كتاب اللباس برقم /٣٥١٢/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ .

(٤) - رواه أحمد في المسند برقم /٤٢٦٩/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ ، وَلَا يَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ الْإِكْرَاهَ عَلَى الدَّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ جِهَادُ أَهْلِ الشَّرْكِ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَحُولُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ الدَّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ أَرَادُوا .

(٥) - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم /٢٤٤١/ عَنْ أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ ﷺ وَقَالَ : وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

لي : إِيَّاكَ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : دَعُوا الرَّجُلَ أَرَبَ مَا لَهُ ، قَالَ : فَرَأَحَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى خَلَصْتُ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَأَخَذْتُ بِخِطَامِ رَاحِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَوْ قَالَ زِمَامِهَا ، هَكَذَا حَدَّثَ مُحَمَّدٌ ، حَتَّى اخْتَلَفْتُ أَعْنَاقَ رَاحِلَتَيْنَا ، قَالَ : فَمَا يَزَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَوْ قَالَ : مَا غَيَّرَ عَلَيَّ ، هَكَذَا حَدَّثَ مُحَمَّدٌ ، قَالَ : قُلْتُ : نِثْنَانِ أَسْأَلُكَ عَنْهُمَا ، مَا يُنَجِّنِي مِنَ النَّارِ ، وَمَا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، قَالَ : فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ نَكَسَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ ، قَالَ : (لَئِنْ كُنْتُ أَوْجَزْتُ فِي الْمَسْأَلَةِ ، لَقَدْ أَعْظَمْتَ ، وَأَطَوَلْتُ ، فَأَعْقِلْ عَنِّي إِذَا : اعْبُدَ اللَّهُ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، وَأَدِّ الرِّكَاعَةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَصُمْ رَمَضَانَ ، وَمَا تُحِبُّ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكَ النَّاسُ فَافْعَلْهُ بِهِمْ ، وَمَا تَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِإِلَيْكَ النَّاسُ فَدَرِّ النَّاسَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : خَلِّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ) (١) .

٥٢ - (الطَّهُّورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعَ نَفْسِهِ ، فَمُعْتِقُهَا ، أَوْ مُوْبِقُهَا) (٢) .

٥٣ - (الْآنَ حِمِّي الْوُطَيْسُ) (٣) .

٥٤ - (لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) (٤) .

٥٥ - (تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاطْفَرُ بَذَاتِ الدِّينِ ، تَرَبَّتْ يَدَاكَ) (٥) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٥٩٠١/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الطهارة برقم /٣٢٨/ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم /١٦٨٠/ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٦٦٨/ ، ومسلم في كتاب الزهد والرفائق برقم /٥٣١٧/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ .

(٥) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٧٠٠/ ومسلم في كتاب الرضاع برقم /٢٦٦١/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ .

٥٦ - (مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِنِ ، فَإِنَّ مَنْ أَتَى فَقَدْ شَكَرَ ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَهُ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ) ^(١) .

٥٧ - (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) ^(٢) .

٥٨ - (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) ^(٣) .

٥٩ - (نِعْمَتَانِ مَعْبُودٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) ^(٤) .

٦٠ - (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا ، فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ، وَيُعَلِّمُهَا) ^(٥) .

٦١ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ ، وَعِفَّةٌ فِي طَهْرٍ) ^(٦) .

٦٢ - وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) ^(٧) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ برقم ١٩٥٧/ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ يَقُولُ : قَدْ كَفَرَ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم ١٦٤٩١/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم ٥٦٤٩/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

(٤) - رواه البخاري في كتاب الرقائق برقم ١٦٤٩١/ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه .

(٥) - رواه البخاري في كتاب العلم برقم ٧١/ ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا برقم ١٣٥٢/ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه .

(٦) - رواه أحمد في المسند برقم ٦٣٦٥/ .

(٧) - رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٥٠٤٩/ .

٦٣ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) ^(١) .

٦٤ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ : فَرِزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ ، وَزَنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ ، وَالتَّنَفُّسُ تَمْنَى وَتَشْتَهَى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ) .

وفي رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : (.. وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ ، فَرِزَاهُمَا الْبَطْشُ ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ ، فَرِزَاهُمَا الْمَشْيُ ، وَالْفَمُ يَزْنِي ، فَرِزَاهُ الْقَبْلُ ، وَالْأُذُنُ زِنَاهَا الْاسْتِمَاعُ) ^(٢) .

٦٥ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدْقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَابًا) ^(٣) .

وفي رواية : (يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ .. يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ ..)
٦٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ

(١) - رواه البخاري في كتاب الرقاق برقم /٥٩٩٣/ .

(٢) - رواه أبو داود في كتاب النكاح برقم /١٨٤٠/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧١٩/ .

تَصَدَّقْ أَخْفَى ، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا
فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ (١) .

وبابُ الدعاءِ بابُ رَحْبٍ عَجِيبٌ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ ، إِنَّهُ
أَعْظَمُ أَبْوَابِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، إِذْ يَجْمَعُ بَيْنَ أَدَبِ الْعِبَادَةِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ،
الَّذِي لَا يَدَانِيهِ أَدَبٌ وَلَا يَسَامِيهِ ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ ،
وَعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَبَيْنَ ذَلِّ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ، وَالاعْتِرَافِ بِالْفَقْرِ وَالْعِجْزِ ،
وَالضَّعْفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَالافتقارِ الشَّدِيدِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ ،
مَعَ صِدْقِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا ، وَالرَّغْبَةِ فِيهَا ،
وَاجْتِمَاعِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ .

وَاقْرَأْ هَذَيْنِ الدَّعَاءَيْنِ الضَّارِعَيْنِ مِنْ أَدْعِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَدَبَّرْهُمَا ،
تَجِدُهُمَا مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ عَلَى نُبُوَّتِهِ ﷺ ، وَأَنَّهُ مَمْدُودٌ بِوَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى
فِي كُلِّ حَرْفٍ يَنْطِقُ بِهِ :

دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الطَّائِفِ : (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ،
وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ
الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟ أَوْ إِلَى
عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنَّ
عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ،
وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنْ يَجِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ ، أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي
سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ) (٢) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الأذان برقم / ٦٢٠ / ، ومسلم في كتاب الزكاة برقم / ١٧١٢ / .

(٢) - سيرة ابن هشام / ١ / ٤٢٠ / .

ومن دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ في عرفة : عن ابن عباس قال : " كَانَ مِمَّا دَعَا به النَّبِيُّ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَكَانِي ، وَتَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي ، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ ، الْوَجِلُ الْمُسْتَفِيقُ ، الْمُقَرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمَسْكِينِ ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَذَلَّ جَسَدُهُ ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي بِدُعَائِكَ شَقِيئًا ، وَكُنْ بِي رَعُوفًا رَحِيمًا ، يَا خَيْرَ الْمُسْتَوِلِينَ ، وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ » (١) .

لقد فتح النَّبِيُّ ﷺ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بالدعاء آفاقاً من العبوديّة ، لا تخطر على قلب بشر ، وعَلَّمَنَا معاني إِمَانِيَّةٍ ، وَحَقَائِقَ غَيْبِيَّةٍ ، وَأَسْرَاراً مِنْ خَفَايَا النَفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مَا كُنَّا لَنَعْلَمَهَا لَوْلَا أَنْ يَسِّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَحْيِ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ ، بِتِلْكَ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ الْجَامِعَةِ الْمَانِعَةِ ..

عَلَى أَنَّ الْعِبَادِيَّةَ لِلَّهِ فِي الدُّعَاءِ لَمْ تَلْزِمِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْفَافاً مُحَدَّدةً إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الْمُحْصُوصَةِ ، إِنَّهَا تَفْتَحُ لِلْمُؤْمِنِينَ آفَاقاً مِنْ الْجَهْدِ فِي مَنَاجَاةِ اللَّهِ ، وَسُؤَالِهِ وَالتَّذَلُّلِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَيِّ لُغَةٍ كَانَتْ ، حَتَّى بَلُغَةَ الْإِشَارَةِ ، فَالْمُعَوَّلُ عَلَى صَدَقِ الْقُلُوبِ ، وَإِنَابَتِهَا إِلَى اللَّهِ ، إِنَّهَا تَعَلِّمُهُمُ الْإِبْدَاعَ فِي الدُّعَاءِ لَا الْإِبْتِدَاعَ .

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ) (٢) .

(١) - المعجم الصغير للطبراني ٣٠٧/٢ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ٤٩٢٢ / عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً ، وَلِسَاناً صَادِقاً ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ) (١) .

(سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : " اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي ، فَاعْفُرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " قَالَ : وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ ، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا ، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) (٢) .

(اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَفِنِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي ، وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ) (٣) .
(اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّاتِكَ ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُوْهَوْنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا ،

(١) - رواه النسائي في كتاب السهو برقم /١٢٨٧/ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم /٥٨٣١/ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الصلاة برقم /٤٢٦/ ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْقُنُوتِ فِي الْوُثْرِ ، فَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ الْقُنُوتَ فِي الْوُثْرِ فِي السَّنَةِ كُلِّهَا ، وَاخْتَارَ الْقُنُوتَ قَبْلَ الرُّكُوعِ ، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَإِسْحَاقُ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْنُتُ إِلَّا فِي النُّصْفِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَكَانَ يَقْنُتُ بَعْدَ الرُّكُوعِ ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى هَذَا ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ .

وَمَتَّعَنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُورَتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا ، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا) (١) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الْأَحَبِّ إِلَيْكَ ، الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أُعْطِيتَ ، وَإِذَا اسْتَرْجِمْتَ بِهِ رَجِمْتَ ، وَإِذَا اسْتَفْرِجْتَ بِهِ فَرَّجْتَ ، قَالَتْ : وَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : يَا عَائِشَةُ هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَلَّنِي عَلَى الْاسْمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ؟ قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَعَلِمْنِيهِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكَ يَا عَائِشَةُ ، قَالَتْ : فَتَنَحَّيْتُ ، وَجَلَسْتُ سَاعَةً ، ثُمَّ قُمْتُ ، فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِمْنِيهِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكَ يَا عَائِشَةُ أَنْ أُعَلِّمَكَ ، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْأَلِينَ بِهِ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا ، قَالَتْ : فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ قُلْتُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهُ ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي " ، قَالَتْ : فَاسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : (إِنَّهُ لَفِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتَ بِهَا) (٢) .



(١) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ برقم /٣٤٢٤/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء برقم /٣٨٤٩/ .

الفصل الرابع

عظمة أخلاقه ﷺ في التعليم

وسرفته في الدعوة إلى الله تعالى

لقد كانت حياة النبي ﷺ حياة تربية وتعليم ، وتأديب وتهذيب ، وحسبنا على ذلك شاهداً أنه ﷺ بعث في أمة أمّية ، تعبد الأصنام ، وتسفك الدماء ، وتعندي على الأعراض ، ويظلم القويّ الضعيف ، ويشدون البنات خشية العار ، ويشربون الخمر ، ويغشون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، قد ارتهنت عقولهم للخرافات والأساطير .. فلم يزل ﷺ يعلمهم ويربيهم ، ويتعهدهم بمبادئ الحق ، وآداب الهدى ، حتى صار منهم أئمة مهديّون ، أتقياء موحدون ، علماء حكماء ، حلماء رحماء ، وكانوا من قبل أعداء متخاصمين ، فأصبحوا إخواناً في الله متحابين ، متعاطفين متراحمين ، يؤثر أحدهم أخاه على نفسه ، ويؤثر دين الله على كلّ شيء في حياته ، يأمرّون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، في عقيدتها وعبادتها ، وعلمها وعملها ، وأخلاقها وسلوكها ، وعدلها بين الناس وحسن علاقاتها ..

وإنّ من أبرز خصائص رسول الله ﷺ أنّه نبيّ أمّيّ بعث في أمة أمّية ، ولكنّ هذا الأمّيّ الذي لم يقرأ كتاباً ، ولم يتعلّم على يد أحد من البشر جاء بعلوم شتى ، شملت جميع جوانب الحياة ، سبق بها العصر الذي كان فيه بقرون عديدة ، وحارت بها ألباب العلماء والحكماء والفلاسفة ، ممّا وضع الناس جميعاً أمام بيّنة عقلية واضحة ، وحجّة ملموسة : أنّ العلوم التي جاء

بها هذا النبي الأمي : إن هي إلا وحي من الله تعالى ، وفتح وعطاء من مالك الملك ، عالم الغيب والشهادة ..

ولقد أراد الله تعالى لأمة الرسالة الخاتمة : أن تكون أمة علم وتعليم ، يبدأ تعليمها من نور الوحي ، ويتصل بالله تعالى ، وتحمل رسالة الإنقاذ للإنسانية كلها ..

وإنّ البدء بالتعليم هو المنطلق الأول ، الذي لا يستقيم أي جانب من جوانب الحياة الإنسانية إلا به ، ولا ينحط الإنسان ، ولا تنحط أمة من الأمم ، ولا تضل الإنسانية وتنحبط إلا من التفريط في العلم الصحيح أو الانحراف عن سبيله : إما إلى جهل وتخلّف ، أو إلى علم منقطع عن غايته المثلى وأهدافه ، يضرّ الإنسان ولا ينفعه .

فالأمة بلا علم متّصل بنور الحقّ ، يوضّح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كلّ فرد من أفرادها واجبه ومسئوليّاته : الدنيويّة والأخرويّة ، تصبح أمة فوضويّة تائهة ، تصرفاتها غير متوقعة ولا منضبطة ، ولكلّ فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر ، وعادات وتصورات تختلف عن عاداته وتصوراته .. فكيف تفلح أمة ، أو تستقيم حياتها إذا كانت على هذه الصورة ؟! أو كان على ذلك أيّ فرد من أفرادها ؟!

وإنّ الظاهرة المتميّزة التي نجدها في حياة سيّدنا محمد ﷺ : أنّه عليه الصلاة والسلام بدأ بتشكيل أمة جديدة ، كانت لها كلّ مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقيّة والتشريعيّة والدستوريّة واللسانية ، فكان الفرد فيها ينبتُ عن صلته بأيّ عالم غير عالم هذه الأمة ، بعدما ينصهر انصهاراً تاماً في بوتقة الإسلام ، وتّضح له غايته ومصيره ، ثمّ ينطلق في اتجاه واضح بيّن ، لا يزيغ عنه ولا يحيد .

ولقد وضّح النبي ﷺ لكلّ فرد مهمّته ، وربّاه على أدائها ، ووضّح للجميع المهمّة الكبرى لهم في حياتهم ، ورسم لهم الطريق لبلوغها ، وعرفهم بكلّ شيء في كلّ جانب من جوانب الحياة ، كيلا تلتبس عليهم السبل ، ولا تزلّ بهم قدم ، وقادهم في هذا الطريق بنفسه ورعايته مدّة ، ثم تركهم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها ، ومضى إلى ربّه ، فانطلقوا بعده لم يغيّروا ، ولم يبدّلوا ، فكان من آثارهم ما كان ، مما لا يخفى على كلّ عاقل منصف ..

ومن كان يظنّ أنّ معاقل الوثنيّة في الجزيرة العربيّة تدكّ خلال هذا الزمن القياسيّ ، وتصبح معقل التوحيد الخالص ، ومناره لأشعّة الهدى ؟! ومن كان يظنّ أنّ العرب الذين كانوا أشدّ الناس تفاخراً بالأحساب والأنساب يصبحون أكثر الأمم اعترافاً بالمساواة وتطبيقاً لها ؟!

ومن كان يظنّ أنّ العرب الذين كانوا مولعين بالخمر أشدّ الولوع بتركونها بعد التحريم طواعية ، ويتخلّون عنها حبّاً لله وتعبداً ؟!

لقد حدث ذلك كلّه في مدّة وجيزة ، كانت مثار عجب العلماء والمؤرّخين ، ودهشة المفكرين والباحثين .. وإنّها لمعجزة الرسالة الخاتمة ، التي إعجازها في تغيير النفوس ، لا يقلّ عن إعجازها في خرق النواميس .

ولقد كان للنبي ﷺ في تربية الأمّة أرقى الوسائل والأساليب ، التي لا عهد للبشر بها في ذلك العصر ، فقد كان يربّيهم تارة بالقدوة ، وتارة بالقول ، وتارة بالعمل ، وتارة بهما معاً .. وكان ينميّ فيهم حبّ الله تعالى وخوفه ، وخشيته ومراقبته ، والإخلاص لوجهه ، وابتغاء مرضاته ^(١) .

ولم تكن تربيته قاصرةً على فئةٍ دون أخرى في المجتمع ، بل كان يتعهّد الرجال والنساء ، والأطفال والأرقاء ، وأهل الحاضرة والبادية ، وكان

(١) - انظر السيرة النبويّة للشيخ محمد محمّد أبو شهبة ٦٣٠/٢ بتصرّف وزيادة .

يترَفَّق بهم ، ويتدرَّج معهم ، ولا يعتنهم ، ولا يرضى لهم العنت ، ويحثهم على التعلُّم والتعليم ، ويضرب لهم الأمثال ، ويسوق لهم المواعظ والحكم ، ويقصّ عليهم أحسن القصص الحقّ ، ويكثر لهم من إلقاء الأسئلة عليهم ، ليشحذ أذهانهم ، ويحفز نفوسهم لتلقّي العلم ، وحفظه ووعيه .

ولقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ التعليم الدائم المستمرّ ، ووجّه طاقات المجتمع إلى التعلُّم والتعليم ، والتبليغ عنه ﷺ ولو آية ، ورفع مكانة طلب العلم إذ جعله فريضةً ، وجعل العلماء ورثة الأنبياء ، ففي الحديث الشريف : عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ : قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ وَهُوَ بِدِمَشْقَ ، فَقَالَ : مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي ؟ فَقَالَ : حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : مَا جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ ، قَالَ : فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ .. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) (١) .

ورفع ﷺ من شأن الدعاة المصلحين ، والهداة المرّبين ، إذ قال لعليّ ﷺ : (.. فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ) (٢) .

(١) - رواه الترمذيّ في كتاب العلم عن رسول الله ﷺ برقم ٢٦٠٦/ ، وأبو داود في كتاب العلم برقم ٣٦٥٧/ .

(٢) - رواه البخاريّ في كتاب المناقب برقم ٣٤٢٥/ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم ٤٤٢٣/ .

وإنَّ أعظم أسلوب جاء به النبي ﷺ لنشر العلم بين فئات الأمة على اختلاف مستوياتها : هو تحويل التعليم إلى مسئولية دينية اجتماعية ، تُطالب بها كل فئة متعلّمة ، مهما تكن درجة تعليمها ، تجاه من يجاورها أو تختلط به ، ، وقد جاء ذلك في حديث واضح كلّ الوضوح ، يقرّر هذه الحقيقة ويؤكدّها : عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " خطب رسول الله ﷺ ذات يوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر طوائف من الناس ، وأثنى عليهم خيراً ، ثم قال : (ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم ؟! ولا يُعلمونهم ؟! ولا يُفطنونهم ؟! ولا يأمرونهم ؟! ولا ينهونهم ؟!)

وما بال أقوام لا يتعلّمون من جيرانهم ؟! ولا يتفقهون ؟! ولا يتفطنون ؟! .

والله ليُعلّمنَّ قومَ جيرانهم ، ويفقهونهم ، ويُفطنونهم ، ويأمرونهم ، وينهونهم ، وليتعلمنَّ قومَ من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتفطنون ، أو لأعاجلنَّهم العقوبة في الدنيا .

ثم نزل فدخل بيته ، فقال قومٌ : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قالوا : نراه عنى الأشعريين ، هم قومٌ فقهاء ، ولهم جيرانٌ جفّاء من أهل المياه والأعراب .

فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قومًا بخير ، وذكرتنا بشرًا ، فما بالنا ؟

فقال : لِيُفقهُنَّ قومَ جيرانهم ، وليفطننَّهم ، وليأمرؤنَّهم ، ولينهوؤنَّهم ، وليتعلمنَّ قومَ من جيرانهم ، ويتفطنون ، ويتفقهون ، أو لأعاجلنَّهم العقوبة في الدُّنيا .

فقالوا : يا رسول الله أَلْفُطْنٌ غَيْرُنَا ؟ فَأَعَادَ قَوْلَهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَعَادُوا قَوْلَهُمْ : أَنْفُطْنٌ غَيْرُنَا ؟ فَقَالَ ذَلِكَ أَيْضاً . فَقَالُوا : أَمَهَلْنَا سَنَةً ، فَأَمَهَلَهُمْ سَنَةً لِيَفْقَهُوهُمْ ، وَيَعْلَمُونَهُمْ ، وَيَفْطَنُونَهُمْ .

ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) المائدة (١) .

يقول الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله في كتابه : " المدخل الفقهي العام " تعليقاً على هذا الحديث : " إِنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَظِيمَ فِي اعْتِبَارِ التَّقْصِيرِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ جُرَيْمَةً اجْتِمَاعِيَّةً يَسْتَحِقُّ مَرْتَكِبُهَا الْعُقُوبَةَ الدِّيُونِيَّةَ ، مَوْقِفٌ لَمْ يَرَوْا التَّارِيخَ لَهُ مِثِلاً فِي تَقْدِيسِ الْعِلْمِ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا بَعْدَهُ ، وَيَدْخُلُ فِي ارْتِكَابِ الْمُنْكَرِ ، وَاسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ التَّعْزِيرِيَّةِ عَلَيْهِ : إِهْمَالُ الْوَاجِبَاتِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَمَنْ جَمَلَتْهَا : التَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ ، فَإِذَا قَصَرَ الْعَالَمُ فِي وَاجِبِ التَّعْلِيمِ ، أَوْ قَصَرَ الْجَاهِلُ فِي تَعَلُّمِ الْقَدْرِ الْوَاجِبِ شَرْعاً مِنَ الْعِلْمِ : اسْتَحَقَّاقَ عُقُوبَةِ التَّعْزِيرِ عَلَى التَّقْصِيرِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (٢) ،

(١) - رواه المنذري في الترغيب والترهيب ٨٦/١ و " مجمع الزوائد " ١٦٤/١ ورواه الطبراني في الكبير ، وقال الحافظ ابن السكن : " إسناده هذا الحديث صالح " ورجَّح أستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله أنه حسن أو يقاربه ، ينظر : " الرسول المعلم وأَسَالِيهِ فِي التَّعْلِيمِ " ص/١٧ .

(٢) - روي بطرق كثيرة ، وقد حَسَّنَهَا الْحَافِظُ الْمَزِّي ، وَحَكَّمَ السِّيُوطِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ بِصَحَّتِهِ ، وَقَدْ جَمَعَ فِي طَرَفِهِ جُزْءاً كَمَا فِي " فَيْضُ الْقَدِيرِ " لِلْمَنَاوِي ٢٦٧/٤ .

ولفظ : " المسلم " هنا يشمل الرجل والمرأة ، لأنّ الحكم منوط بصفة مشتركة هي الإسلام " (١) .

يقول " كارليل " في بيان حال العرب ، ومدى تأثير النبي ﷺ فيهم : " هم قوم يضربون في الصحراء ، لا يؤبه لهم عدّة قرون ، فلمّا جاءهم النبيّ العربيّ أصبحوا قبلّة الأنظار في العلوم والعرفان ، وكثروا بعد القلّة ، وعزّوا بعد الذلّة ، ولم يمض قرن حتّى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم " (٢) .

لقد أثبت التاريخ أنّ رسول الله ﷺ كان معلّماً وأيّ معلّم ، ونظرةً يسيرة إلى ما كانت عليه البشريّة قبل رسول الله ، وإلى ما آلت إليه البشريّة بعد رسالته تعطينا أوضح شاهد ودليل على ثبوت ذلك .

وإذا لاحظنا النماذج المعلّمة الهادية من النوع الإنسانيّ ، التي شاهدها البشريّة بعد الرسول المعلّم ﷺ رأيناها تدلّ أقوى الدلالة على عظم هذا المعلّم المرّبّي الكبير ، الذي تتقاصر أمامه أسماء كلّ الكبار الذين عرفوا وذكروا في عالم التعليم والتربية وتاريخهما .

فأيّ معلّم من المرّين تخرّج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم ، الذي تخرّج به هؤلاء الأصحاب والأتباع ؟ فكيف كانوا قبله ؟ وكيف صاروا بعده ؟ إنّ كلّ واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلّم المرّبّي الفريد الأوحد ، وهذا يذكّرنا بكلمة طيبة جدّاً لبعض الجهابذة الأصوليين ، يقول فيها : " لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزةٌ إلّا أصحابه لكفوه لإثبات نبوّته " (٣) .

(١) - " الرسول المعلّم وأساليبه في التعليم ص/١٨ / للشيخ عبد الفتّاح أبو غدة .

(٢) - نقلاً عن كتاب " الرسول المعلّم وأساليبه في التعليم ص/١١ / للشيخ عبد الفتّاح أبو غدة .

(٣) - ذكرها الإمام القرّافيّ في كتابه الفروق ٤/١٧٠ في آخر الفرق ٢٤٢ ، وانظر " الرسول المعلّم وأساليبه في التعليم ص/١٤ / للشيخ عبد الفتّاح أبو غدة .

وإذا كانت رسالة رسول الله ﷺ كلها علم وتعليم ، وتربية وتزكية ، فلن نستطيع أن نقدّم هنا إلا شذرات معبرة ، وقطوفاً مثمرة .. وإلا ففي كل حركة من حركات السيرة العطرة بصمة تعليمية ، ولمسة تربوية ، وصلى الله على معلّم الخير ، القائل : (إنما بعثت معلّماً) (١) .

فعندما خيّر النبي ﷺ نساءه " .. فبدأ بعائشة ، فقال : يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أَحِبُّ أَنْ لَا تُعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبِيكَ ، قَالَتْ : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ ، قَالَتْ : أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبِي ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخَيِّرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ ، قَالَ : (لَا تَسْأَلْنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْعِنِّي مُعْتَنًا وَلَا مُتَعِنًّا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا) (٢) .

ويستفاد من هذا الحديث أنّ التعليم الحقّ والتيسير قرينان ، ويقول الإمام الغزالي رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث : " وفي إبهامه ﷺ ، وعدم مصارحته ومواجهته لعائشة بالزجر إشعاراً بأنّ من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلّم المتعلّم عن سوء الأخلاق باللطف والتعريض ما أمكن ، من غير تصريح ، وبطريق الرحمة من غير توبيخ ، فإنّ التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ، ويُهيج الحرص على الإصرار " (٣) .

ومّا يؤكّد رفقته ﷺ في التعليم ، ورحمته بالمتعلّمين ما جاء في الحديث عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَنَحْنُ شَبَبَةٌ

(١) - رواه ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص في المقدمة ٨٣/١ ، والدارمي في سننه ، في حديث طويل ، وفي سننه ضعف ، ويشهد له حديث مسلم التالي .

(٢) - رواه الإمام مسلم في كتاب الطلاق برقم ٢٧٠٣/ .

(٣) - نقلاً عن كتاب " الرسول المعلّم وأساليبه في التعليم ص/ ١١ / للشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

مُتَقَارِبُونَ ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا ، فَظَنَّ أَنَا قَدْ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا ، فَسَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا ، فَأَخْبَرَنَا ، فَقَالَ : (ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ ، وَعَلِّمُوهُمْ ، وَمُرُوهُمْ ، فَلِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ، ثُمَّ لِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ) (١) .

ومن أروع الأمثلة والنماذج الدالة على رفيقه ﷺ في التعليم ، والدعوة إلى الله تعالى ما جاء في الحديث عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَائْكُلْ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْفُلُونَ إِلَيَّ ؟! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي سَكَتُ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَإْيِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي (٢) ، وَلَا ضَرَبَنِي ، وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ : (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُفَّانَ ، قَالَ : فَلَا تَأْتِيهِمْ ، قَالَ : وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ، قَالَ : ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدُّهُمْ ، قَالَ : قُلْتُ : وَمِنَّا رِجَالٌ يَخْطُونَ ، قَالَ : كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ ، فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاكَ ، قَالَ : وَكَأَنْتَ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أُحُدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ ، فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ

(١) - رواه البخاري في كتاب الأذان برقم /٥٩٥/ ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة

برقم /١٠٨/ وهذا لفظ مسلم .

(٢) - أي : ما نهزني .

ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ ، لَكِنِّي صَكَّكُهَا صَكَّةً ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَمَ ذَلِكَ عَلَيَّ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقْتُهَا ؟ قَالَ : اثْنَيْي بِهَا ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا ، فَقَالَ لَهَا : أَيْنَ اللَّهُ ؟ قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ قَالَ : مَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : أُعْتِقْتُهَا فَإِنَّهَا مُؤَمِّنَةٌ (١) .

وعلق الإمام النووي رحمه الله على هذا الحديث بقوله : " وفيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق ، الذي شهد الله تعالى له به ، ومن رفعه بالجاهل ، ورأته بأمته ، وشفقته عليهم ، وفيه التخلُّق بخلق الله ﷺ في الرفق بالجاهل ، وحسن تعليمه ، واللفظ به ، وتقريب الصواب إليه " .

ويشبه هذا الحديث ما جاء من رفعه ﷺ ولطفه في تعليم الجاهل ، وتحمل أذاه : ما رواه أنسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَغْرَابِيُّ فَقَامَ يُبُولُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَهْ مَهْ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا تُزِرْمُوهُ ، دَعُوهُ ، فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ ، وَلَا الْقَدَرِ ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ) (٢) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : دَخَلَ أَغْرَابِيُّ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ :

(١) - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة برقم

/٨٣٦/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الطهارة برقم/٤٢٩ .

لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسِعاً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَاسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ ، أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ دَلُوءاً مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجَلاً مِنْ مَاءٍ) (١) .

والتعليم الحق هو الذي يكون مبعثه ودافعه : الرحمة والرفق بعباد الله ،

والاجتهاد في نصحتهم ، ونشر دين الله وتبليغ رسالته : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ

لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٣١٤) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً ، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ ، فَقَالَ : يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا ، سَأَبْلُهَا بِبِلَالِهَا) (٢) .

زاد في رواية الترمذي في كل مرة : (.. فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً) (٣) .

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ رَجُلٍ قَالَ : قُلْتُ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ ، قَالَ : نَعَمْ ، لَمَّا بَلَغَنِي خُرُوجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَرِهْتُ خُرُوجَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً ، خَرَجْتُ حَتَّى وَقَعْتُ نَاحِيَةَ الرُّومِ ، وَقَالَ يَعْني يَزِيدُ : يَبْعُدَادُ ، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى قَيْصَرَ ، قَالَ : فَكَرِهْتُ مَكَانِي ذَلِكَ

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٦٩٥٧/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /٣٠٣/ .

(٣) - في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله برقم /٣١٠٩/ .

أَشَدُّ مِنْ كَرَاهِيَّتِي لِخُرُوجِهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَوْ لَا أَتَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَضُرَّنِي ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَلِمْتُ ، قَالَ : فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُهُ ، فَلَمَّا قَدِمْتُ قَالَ النَّاسُ : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي : يَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، أَسْلِمَ تَسْلَمٌ ، ثَلَاثًا ، قَالَ : قُلْتُ : إِنِّي عَلَى دِينٍ ، قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي ؟! قَالَ : نَعَمْ ، أَلَسْتَ مِنَ الرُّكُوسِيَّةِ ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ ، قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ ، قَالَ : فَلَمْ يَعُدْ أَنْ قَالَهَا ، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا ، فَقَالَ : أَمَّا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْتَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، تَقُولُ : إِنَّمَا اتَّبَعُهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟ قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ ، حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، قَالَ : قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، وَلَيَبْدُلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظُّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّلَاثَةُ ، لَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا " (١) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (سَيَأْتِيَكُمُ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ : مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (وَاقْنُوهُمْ) قُلْتُ لِلْحَكَمِ : مَا اقْنُوهُمْ ؟ قَالَ : عَلَّمُوهُمْ " (٢) .

(١) - رواه أحمد في أول مسند الكوفيين برقم /١٧٥٤٨/ .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب المقدمة برقم /٢٤٣/ .

ومن المواقف الدالة على عظمة أخلاقه ﷺ في التعليم ، ورفقه في الدعوة إلى الله : حسن استقباله لوفد عبد القيس ، وتعليمهم وحسن ضيافتهم : عَنْ شِهَابِ بْنِ عَبَّادٍ : أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ وَهُوَ يَقُولُ : قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَشْتَدَّ فَرَحُهُمْ بِنَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الْقَوْمِ ، أَوْسَعُوا لَنَا فَفَعَدْنَا ، فَرَحَّبَ بِنَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَدَعَا لَنَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ : مَنْ سَيِّدُكُمْ وَزَعِيمُكُمْ ؟ فَأَشْرَفْنَا جَمِيعًا إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ عَائِذٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَهَذَا الْأَشَجُّ ؟ فَكَانَ أَوَّلَ يَوْمٍ وَضِعَ عَلَيْهِ هَذَا الْاسْمُ ، لِضَرْبَةِ بَوَاجِهِ بِحَافِرِ حِمَارٍ ، فَقُلْنَا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَتَخَلَّفَ بَعْدَ الْقَوْمِ ، فَعَقَلَ رَوَاجِلَهُمْ ، وَضَمَّ مَتَاعَهُمْ ، ثُمَّ أَخْرَجَ عَيْتَهُ ، فَأَلْقَى عَنْهُ ثِيَابَ السَّفَرِ ، وَلَبَسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ بَسَطَ النَّبِيُّ ﷺ رِجْلَهُ وَاتَّكَأَ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ الْأَشَجُّ أَوْسَعَ الْقَوْمُ لَهُ ، وَقَالُوا : هَاهُنَا يَا أَشَجُّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَاسْتَوَى قَاعِدًا ، وَقَبَضَ رِجْلَهُ : هَاهُنَا يَا أَشَجُّ ، فَفَعَدَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَوَى قَاعِدًا ، فَرَحَّبَ بِهِ ، وَالْطَّفَهُ ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ بِلَادِهِ ، وَسَمَّى لَهُ قَرْيَةَ الصَّفَا ، وَالْمُشَقَّرِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ قُرَى هَجَرَ ، فَقَالَ : يَا أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِأَسْمَاءِ قُرَانَا مِنَّا ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ وَطِئْتُ بِلَادَكُمْ ، وَفُسِحَ لِي فِيهَا ، قَالَ : ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ ، فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِكُمْ شِعَارًا وَأَبْشَارًا ، أَسْلَمُوا طَائِعِينَ ، غَيْرَ مُكْرَهِينَ ، وَلَا مَوْثُورِينَ ، إِذْ أَبِي قَوْمٌ أَنْ يُسَلِّمُوا ، حَتَّى قُتِلُوا ، فَلَمَّا أَنْ قَالَ : كَيْفَ رَأَيْتُمْ كَرَامَةَ إِخْوَانِكُمْ لَكُمْ ، وَضِيَافَتَهُمْ إِيَّاكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ إِخْوَانٍ ، أَلَاؤُوا فَرَشَنَا ،

وَأَطَابُوا مَطْعَمَنَا ، وَبَاتُوا ، وَأَصْبَحُوا يُعَلِّمُونَنَا كِتَابَ رَبِّنَا ، وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا ،
فَأَعْجَبَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَفَرِحَ بِهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَجُلًا رَجُلًا ، يَعْرِضُنَا عَلَى
مَا تَعَلَّمْنَا وَعَلِّمْنَا ، فَمِمَّا مَنْ تَعَلَّمَ التَّحِيَّاتِ وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالسُّورَةَ ،
وَالسُّورَتَيْنِ ، وَالسُّنَّةَ ، وَالسُّنَّتَيْنِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ : هَلْ مَعَكُمْ
مِنْ أَزْوَادِكُمْ شَيْءٌ ؟ فَفَرِحَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، وَابْتَدَرُوا رِحَالَهُمْ ، فَأَقْبَلَ كُلُّ
رَجُلٍ مَعَهُ صُبْرَةٌ مِنْ تَمْرٍ ، فَوَضَعَهَا عَلَى نِطْعٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَوْمَأَ بِجَرِيدَةٍ فِي
يَدِهِ كَانَ يَخْتَصِرُ بِهَا ، فَوْقَ الدَّرَاعِ وَدُونَ الدَّرَاعَيْنِ ، فَقَالَ : أَتَسْمُونَ هَذَا
التَّغْضُوضَ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى صُبْرَةٍ أُخْرَى فَقَالَ : أَتَسْمُونَ هَذَا
الصَّرْفَانَ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى صُبْرَةٍ فَقَالَ : أَتَسْمُونَ هَذَا الْبَرْنِيَّ ؟
فَقُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُ خَيْرُ تَمْرِكُمْ ، وَأَنْفَعُهُ لَكُمْ ، قَالَ : فَرَجَعْنَا مِنْ
وِفَادَتِنَا تِلْكَ فَأَكْثَرْنَا الْعُرْزَ مِنْهُ ، وَعَظُمَتْ رَغَبَتُنَا فِيهِ ، حَتَّى صَارَ عَظْمُ
نَخْلِنَا وَتَمْرِنَا الْبَرْنِيَّ قَالَ : فَقَالَ الْأَشْجُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَرْضَنَا أَرْضُ
ثَقِيلَةٍ وَخِمَةٍ ، وَإِنَّا إِذَا لَمْ نَشْرَبْ هَذِهِ الْأَشْرِبَةَ ، هَيْجَتُ أَلْوَانُنَا ، وَعَظُمَتْ
بُطُونُنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ ،
وَلْيَشْرَبْ أَحَدُكُمْ فِي سِقَائِهِ ، يُلَاثُ عَلَى فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَشْجُ : يَا أُمِّي
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَخِصْ لَنَا فِي هَذِهِ ، فَأَوْمَأَ بِكَفِّهِ ، وَقَالَ : يَا أَشْجُ إِنْ
رَخِصْتُ لَكُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ ، وَقَالَ بِكَفِّهِ هَكَذَا ، شَرِبْتُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ ،
وَفَرَّجَ يَدَيْهِ وَبَسَطَهَا ، يَعْنِي أَعْظَمَ مِنْهَا ، حَتَّى إِذَا تَمَلَّ أَحَدُكُمْ مِنْ شَرَابِهِ ،
قَامَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ فَهَزَرَ سَاقَهُ بِالسَّيْفِ ، وَكَانَ فِي الْوَفْدِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَصْرِ ،
يُقَالُ لَهُ : الْحَارِثُ ، قَدْ هُزِرَتْ سَاقُهُ فِي شُرْبِ لَهْمٍ ، فِي بَيْتٍ تَمَثَّلُهُ مِنْ

الشَّعْرَ ، فِي امْرَأَةٍ مِنْهُمْ ، فَقَامَ بَعْضُ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ فَهَزَرَ سَاقَهُ بِالسَّيْفِ ،
قَالَ : فَقَالَ الْحَارِثُ : لَمَّا سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَعَلْتُ أُسْدِلُ ثَوْبِي ،
لَأُعْطِيَ الضَّرْبَةَ بِسَاقِي ، وَقَدْ أَبْدَاهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ (١) .

وأخرجه عبد الرزاق عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ ، قال : كُنَّا جُلُوساً
عند النّبيّ ﷺ فقال : (جاءكم وفد عبد القيس ، ولا نرى شيئاً ، فمكثنا
ساعة ، فإذا قد جاءوا ، فسلموا على النّبيّ ﷺ .. ثم أمر بكلّ رجل منهم
رجلاً من المسلمين ، ينزله عنده ، ويقرئه ، ويعلمه الصلاة ، فمكثوا جمعة ،
ثم دعاهم فوجدهم قد كادوا أن يتعلّموا ، وأن يفهموا ، فحوّلهم إلى
غيرهم ، ثم تركهم جمعة أخرى ، ثم دعاهم فوجدهم قد قرأوا وتفهموا ،
فقالوا : يا رسول الله قد اشتقنا إلى بلادنا ، وقد علّم الله خيراً وفقهنا ،
فقال : ارجعوا إلى بلادكم ..) (٢) .

وفي الصحيح عن ابن عباسٍ أنّ النّبيّ ﷺ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ : (إِنْ
فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ) (٣) .

وقال أبو داود (٤) حَدَّثَنِي أُمُّ أَبَانَ بِنْتُ الْوَارِعِ بْنِ زَارِعٍ عَنْ جَدِّهَا
زَارِعٍ ، وَكَانَ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ : لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَّبَادِرُ مِنْ
رَوَاحِلِنَا فَتَقَبَّلُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلُهُ قَالَ : وَانْتَظَرُ الْمُنْذِرُ الْأَشَجَّ حَتَّى أَتَى عَيْتَهُ
فَلَيْسَ ثَوْبِيهِ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : (إِنْ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ

(١) - رواه أحمد في المسند برقم ١٧١٦٢/ وقال المنذريّ : إسناده صحيح ، وقال الهيثمي
(١٧٨/٨) : ورجاله ثقات .

(٢) - انظر حياة الصحابة ١٨٤/٣ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٤/ ، والترمذيّ في كتاب البرّ والصلة عن رسول الله
برقم ١٩٣٤/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

(٤) - في كتاب الأدب برقم ٤٥٤٨/ .

وَالْأُنَاثَةُ) ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أُنْخَلَقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا ؟ قَالَ : (بَلَّ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

ولقد أجمع المربون على أن أهدى سبل التربية والتعليم، وأقوم مناهج الحكمة ألا يقنع المربي باقتلاع رذيلة ، حتى يغرس مكانها فضيلة ، وألا يرضى بهدم منكر حتى يبني على أنقاضه معروفاً ، وأن يكون تعليمه بسيرته وسلوكه ، قبل أن يكون تعليمه بكلامه ، وأن يتدرّج في تعليم المتعلّم ، فلا يلقي عليه بالمسائل الكثيرة في المجلس الواحد ، كما لا يحمله من مسائل العلم ما لا يناسب سنّه أو قدرة عقله .. وكلّ ذلك كان من أسلوب سيّد المرسلين والمربين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكان شأنه في تربيته وتعليمه ، ودعوته إلى الحقّ ، وهدايته إلى الرشيد ، وما جاء به من منهج ربّانيّ شامل ، منذ بعثه الله ليتمّم مكارم الأخلاق .

وتمتّزج التربية بالتعليم في رسالة الإسلام ، وفي سيرة النبي ﷺ وهدية حتى لا يكاد المرء يميّز بينهما ، كما تمتّزج الدعوة إلى الله تعالى بالتربية والتعليم ، حتى يصحّ أن يقال عنهما : إنهما وجهان لعملة واحدة .

فمن أساليبه ﷺ الرفيعة في التعليم: التعليم بالقُدوة والسلوك العملي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : (مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ .!؟) أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيَتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ ؟! فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَخَّعْ عَنْ يَسَارِهِ ، تَحْتَ قَدَمِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا : وَوَصَفَ الْقَاسِمُ : فَتَقَلَّ فِي ثَوْبِهِ ، ثُمَّ مَسَحَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ) .

وَزَادَ فِي رَوَايَةٍ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرُدُّ تَوْبَهُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ (١) . وَزَادَ فِي رَوَايَةٍ : (فَقَالَ : أَرُونِي عَجَباً ، فَقَامَ فَتَنَى مِنَ الْحَيِّ يَشْتَدُّ إِلَى أَهْلِهِ ، فَجَاءَ بِخُلُقٍ فِي رَاحَتِهِ ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ الْعُرْجُونِ ، ثُمَّ لَطَخَ بِهِ عَلَى أَثَرِ النَّخَامَةِ ، فَقَالَ جَابِرٌ : فَمِنْ هُنَاكَ جَعَلْتُمْ الْخُلُقَ فِي مَسَاجِدِكُمْ ..)

وَكَانَ مِنْ رَحِمَةِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَأَمَنَهُ : التَّدَرُّجُ فِي التَّعْلِيمِ ، فَكَانَ يَقْدِمُ الْأَهَمَّ فالأَهَمَّ ، وَيَعْلَمُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ ، لِيَكُونَ الْعِلْمُ أَقْرَبَ تَنَاوُلًا ، وَاثْبَتَ عَلَى الْفَوَادِ عِلْمًا وَفَهْمًا ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَآتِقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (٢) .

وَقَدْ كَانَ التَّدَرُّجُ مِنْهُجِ الصَّحَابَةِ فِي التَّلْقِي ، حَتَّى فِي تَلْقِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، مَعَ مَا عَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ ، وَعَظِيمِ رَغْبَتِهِمْ فِي تَلْقِي الْقُرْآنِ ، فَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ الْمَقْرِي قَالَ : حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى ، حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، قَالُوا : فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ (٣) .

(١) - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم /٨٥٥/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم /١٤٠١/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٢٧/ .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٢٣٨٤/ .

ومن رحمته ﷺ بالمعلمين : تعهدهم بين الحين والآخر ، كيلا يملوا
 أو يسأموا ، عَنْ شَقِيقٍ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ بَابِ عَبْدِ اللَّهِ نَنْتَظِرُهُ ، فَمَرَّ بِنَا
 يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ النَّخَعِيُّ ، فَقُلْنَا : أَعْلِمُهُ بِمَكَانِنَا ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ
 خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ : إِنِّي أُخْبِرُ بِمَكَانِكُمْ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ
 إِلَّا كَرَاهِيَةً أَنْ أُمْلِكُكُمْ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ
 مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا (١) .

ومن رحمته ﷺ بالمعلمين : اللطف لهم في القول ، والتشويق قبل
 اللقاء العلم أو الموعظة ؛ والتشويق يكون بأساليب كثيرة ، لعل أهمها
 الجذب العاطفي نحو المعلم ، ليكون تلقى المتعلم منه أوثق وأتم : عَنْ أَبِي عَبْدِ
 الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ عَنِ الصُّنَابُحِيِّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ؓ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ
 بِيَدِهِ وَقَالَ : (يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَقَالَ :
 أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى
 ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) ، وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذَ الصُّنَابُحِيِّ ،
 وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابُحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ (٢) .

وزاد أحمد في روايته : قَالَ : (يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ :
 يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ ..) وفي آخره : وَأَوْصَى أَبُو عَبْدِ
 الرَّحْمَنِ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ (٣) .



(١) - رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم /٥٠٤٧/ .

(٢) - رواه أبو داود في كتاب الصلاة برقم /١٣٠١/ ، والترمذي برقم /٢٣٩٣/ وابن حبان
 برقم /٢٥١٤/ وأحمد .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم /٢١١٠٣/ .

الفصل الخامس

عبادته ﷺ

(.. أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُومًا .!؟)

لقد كان رسول الله ﷺ سَيِّدَ العابدين الخاشعين ، وسَيِّدَ الذاكرين الضارعين ، وإمامَ المتقين ، وقُدُوةَ الأولياء والعارفين ، وكان أعرفَ الناسِ بالله ، وأشدَّهم منه خشيةً ، وأعلمهم بكماله وجلاله ، وأسمائه وصفاته .. فلا عجبَ أن يَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، وأن يَكُونَ ذَاكِرًا لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، دَائِمَ الدُّعَاءِ وَالضَّرَاعَةِ لِلَّهِ ، لَا يَرْجُو غَيْرَهُ ، وَلَا يَخْشَى سِوَاهُ .

ولقد أعطى النبي ﷺ للعبادة مفهوماً واسعاً ، لا يقف بها عند العبادات الخاصة ، من صلاة وصيام ، وذكر وتلاوة للقرآن ، وإنما كلَّ نشاط إنسانيٍّ مشروع ، يبتغى به وجه الله تعالى ، ويكون وفق دين الله ومنهجه ، فهو عبادة مُقَرَّبَةٌ إِلَى اللَّهِ ، وربَّما كانت أَرْجَحُ فِي مِيزَانِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ الْخَاصَّةِ النَّافِلَةِ ، الْقَاصِرَةِ عَلَى فَاعِلِهَا .. إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ الْمَفْهُومَ السَّلْبِيَّ الرَّهْبَانِيَّ لِلْعِبَادَةِ ، الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ رَهِينَةَ ضَيْقِهِ ، وَسُوءِ فَهْمِهِ ، فَيَقْطَعُهُ عَنِ الْحَيَاةِ وَالْمُجْتَمَعِ ، لِيَعِيشَ وَحْدَهُ ، وَيَمُوتَ وَحْدَهُ .. وَرَبَّمَا تَسَلَّلَتْ إِلَى قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ أَمْرَاضٌ خَبِيثَةٌ مَهْلِكَةٌ ، مَحْبُطَةٌ لِلْعَمَلِ مَفْسُودَةٌ ، كَالْعَجَبِ وَالْغُرُورِ ، وَالْإِدْلَالِ بِالْعَمَلِ ، وَاحْتِقَارِ الْآخَرِينَ ، كَهَذَا الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِفُلَانٍ مِنَ النَّاسِ ، فَأَحْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُ ، وَغَفَرَ لَذَلِكَ الْعَاصِي ، أَوْ كَالْمَغْرُورِ بِنَفْسِهِ ، الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ..

وقد جاء في السنّة ما يثبت هذه الحقيقة ويؤكدّها ، من ذلك ما جاء في الحديث عَنْ تَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ : دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى ذَاتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قَالَ أَبُو قَلَابَةَ : وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قَلَابَةَ : وَآيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ ، يُعْفُهُمْ ، أَوْ يَنْفَعُهُمْ اللَّهُ بِهِ وَيُعْجِبُهُمْ ؟ . (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (دِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتُهُ عَلَى أَهْلِكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتُهُ عَلَى أَهْلِكَ) . (٢) .

وكان ﷺ يصوم حتّى يقول أهله : لا يفطر ، ويفطر حتّى يقول أهله : لا يصوم ..

وكان ﷺ أحبّ العمل إليه ما داوم عليه صاحبه ، وكان إذا عمل عملاً أثبته ، إلّا إذا خشي أن يفرض على أمته ..

أما عبادة النبي ﷺ الخاصة فقد كانت والله عجباً ، لا ينقضي منه العجب ! ! إلّا عندما يعلم المؤمن ويوقن أنّ الله تعالى قد أمدّ نبيّه ﷺ بطاقة نفسيّة وجسميّة خارقة ، لا تُدانيها طاقة أحد من البشر .. وهذا ما قرّره العلماء وأثبتوه ، ودلّلوا عليه من وقائع السيرة الشريفة ، وتشهد به بما لا يدع مجالاً للريب أخبار عبادته ﷺ من صلاة وقيام لليل وصيام ، مع ما يقوم به من مسؤوليّات جسيمة خلال النهار ، وهو ما سيّضح لنا من استعراض النصوص التالية :

(١) - رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /١٦٦٠/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /١٦٦١/ .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدَمَاهُ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأْخَرُ ؟ قَالَ : (أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا .!؟) ، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ، ثُمَّ رَكَعَ ^(١) .

وَعَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ : كَيْفَ كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ كَانَ يَخْصُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ ؟ قَالَتْ : لَا ، وَأَيْكُمُ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ .!؟) ^(٢) .

وانظر إلى هذا التعبير الجميل الموحى منها رضي الله عنها ، وكأنها خشيت أن تُحدِّثَ بعضَ الناس نفوسهم أنهم يقدرُون على مثلِ عمله ﷺ ، فبادرتُ إلى تبديد هذا الوهم العرور بقولها : " وَأَيْكُمُ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ .!؟ " ، إِنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُومُ بهذه العبادة الجاهدة الدائبة ، وفي الوقت نفسه يقوم بشئون أهله ؛ فيداعب الأطفال ، ويؤنس النساء ، ويسير شئون دولة الإسلام كبيرها وصغيرها ، ويجمع بين مصالح الدنيا والآخرة كلّها ، ويلبِّغ رسالة ربّه ، ولا يُفَرِّطُ في شيء منها ، وله من الخشوع ، ومن حسن الأداء للعمل ، ما لا يطمح بشر إلى بلوغه .

وَعَنْ مُسْلِمِ بْنِ مَخْرَاقٍ قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ نَاسًا يَقْرَأُ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، فَقَالَتْ : أَوَّلِكَ قَرَأُوا وَلَمْ يَقْرَءُوا ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ اللَّيْلَةَ التَّمَامَ ، فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، وَسُورَةَ آلِ

(١) - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن برقم / ٤٤٦٠ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم / ٢٥١٧٠ .

عِمْرَانَ ، وَسُورَةَ النَّسَاءِ ، ثُمَّ لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِشْشَارٌ إِلَّا دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغِبَ ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ إِلَّا دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَعَاذَ ^(١) .
وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (حُبُّ إِلَهِي مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) ^(٢) .

وقد خاطبه الله تعالى بقوله : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَزْمُلُ ۝١ قُرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾
نُصْفَهُ ، أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ الْمَزْمُلُ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ ﴾ الإسراء ، فَكَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ بِحَقِّهِ عَزِيمَةً ، يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ آخِرَهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ ، وَرَبَّمَا قَامَ نُصْفَهُ ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ نُصْفِهِ ، أَوْ ثَلَاثَهُ ، وَمَا كَانَ ﷺ يَدْعِي قِيَامَ اللَّيْلِ بِحَالٍ ..

وانظر إلى هذه الصور العجيبة من قيامه ﷺ لليل ، واجتهاده وجلده في

عبادة ربه : عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقُلْتُ : يَرْكُوعٌ عِنْدَ الْمِائَةِ ، ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْتُ : يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ ، فَمَضَى ، فَقُلْتُ : يَرْكُوعٌ بِهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ ، فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ ، فَقَرَأَهَا ، يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا ، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ، ثُمَّ قَالَ ، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ،

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٣٧٢٩/ .

(٢) - رواه النسائي في كتاب عشرة النساء برقم /٣٨٧٩/ .

رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا ، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ، فَكَانَ سُجُودَهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ (١) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : بَتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مِثْمُونَةً ، فَتَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ، ثُمَّ رَقَدَ ، فَبَقِيتُ لَأَرْقُبَ كَيْفَ يُصَلِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : فَقَامَ فَبَالَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ ، ثُمَّ نَامَ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ فَأَطْلَقَ شِبَاقَهَا ، ثُمَّ صَبَّ فِي الْجَفْنَةِ أَوْ الْقَصْعَةِ ، فَأَكَبَهُ يَدَيْهِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَضُوءًا حَسَنًا بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ ، فَتَكَامَلْتُ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةِ رَكْعَةً ، ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ ، وَكُنَّا نَعْرِفُهُ إِذَا نَامَ بِنَفْخِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى ، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ أَوْ فِي سُجُودِهِ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وَفِي سَمْعِي نُورًا ، وَفِي بَصَرِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا ، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا ، وَأَمَامِي نُورًا ، وَخَلْفِي نُورًا ، وَفَوْقِي نُورًا ، وَتَحْتِي نُورًا ، وَاجْعَلْ لِي نُورًا ، أَوْ قَالَ : وَاجْعَلْنِي نُورًا ، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا (٢) .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ : (وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ ، لَا إِلَهَ لِي إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي ، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ، لَا

(١) - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٩١/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٧٩/ .

يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا رَكَعَ قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي ، وَمُخِّي وَعِظَامِي ، وَعَصْبِي ، وَإِذَا رَفَعَ قَالَ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ ، مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمِثْلَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَمِثْلَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ ، فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، وَإِذَا سَلَّمَ مِنْ الصَّلَاةِ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (١) .

وانظر إلى موقف سيد العابدين ﷺ يوم بدر ، كيف استغاث بربه ، وتضرّع إليه ، وتذلل بين يديه ، فأغاثه الله ، واستجاب دعاءه ، وأمدّه بألف من الملائكة الكرام ، على رأسهم جبريل عليه السلام ، يقاتلون عن يمينه وشماله ، وكانوا بشرى بنصر الله تعالى له وتأيده ..

روى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل ، فإذا هو ساجد يقول : " يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ " لا يزيد عليها ، فرجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً ، فذهبت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً ، حتى فتح الله على يده " (٢) .

(١) - رواه أبو داود في كتاب الصلاة برقم /٦٤٩/ .

(٢) - كما في البداية والنهاية ٢/٢٧٥ ، ورواه النسائي في اليوم والليلة .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَهُمْ أَلْفٌ ،
 وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ، ثُمَّ مَدَّ
 يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : (اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ،
 اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ ، فَمَا زَالَ
 يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ، مَا دَامَ يَدَيْهِ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ
 أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاؤَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ
 اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
 ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُُمِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴿١﴾ ۝ الْأَنْفَال ، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَيْنَمَا
 رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ ، إِذْ سَمِعَ
 ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ : أَقْدِمَ حَيْزُومُ ، فَنَظَرَ إِلَى
 الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ ، وَشَقَّ وَجْهُهُ ،
 كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ
 سَبْعِينَ ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ ..) (١) .

وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَا كَانَ فِيْنَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرُ الْمُقْدَادِ ، وَلَقَدْ
 رَأَيْنَا وَمَا فِيْنَا إِلَّا نَائِمٌ ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، يُصَلِّي وَيُنْكِي
 حَتَّى أَصْبَحَ (٢) .

(١) - رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم ٣٣٠٩ / .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم ٩٧٣ / .

وتصوّر معي أخي المؤمن رأس الدولة ، وقائد الأمة ، وهو يحيي الليل كله ضارعاً باكياً بين يدي ربه ، يدعو ويستغيث ، ويلجّ على ربه في الدعاء ، ويستغرق في مناجاته عن كل ما حوله ، وانظر مدى تحمّله ﷺ للمسئولية عن هذا الدين ، وعن الأمة التي يقودها ، ويربّيها على عينه ويرعاها ..

واقراً هذا الحديث المؤثر لترطفاً من منزلة العبودية الرفيعة التي بلغها النبي ﷺ ، وكيف تلقّاها عنه أصحابه الكرام ﷺ ، وتربّوا على مائدتها ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ..

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ : احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ ، عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، حَتَّى كِدْنَا نَرَأَى قَرْنَ الشَّمْسِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيعاً ، فَتَوَبَّ بِالصَّلَاةِ ، وَصَلَّى وَتَحَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ : كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِكُمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ : إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي ، فَتَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَتَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي يَا رَبِّ ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي رَبِّ ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ ، وَعَرَفْتُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ فِي الْكَفَّارَاتِ ، قَالَ : وَمَا الْكَفَّارَاتُ ؟ قُلْتُ : نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرْبَاهَاتِ ، قَالَ : وَمَا الدَّرَجَاتُ ؟ قُلْتُ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَلِينُ الْكَلَامِ ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، قَالَ : سَلْ ، قُلْتُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ

مَفْتُونٍ ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ) ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّهَا حَقٌّ ، فَادْرُسُوهَا ، وَتَعَلَّمُوهَا (^(١)) .

واسمع إلى جميل مناجاته ﷺ لربه تبارك وتعالى بهذه الكلمات الضارعة ، الجامعة لحقائق الألوهية ، وأدب العبودية : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ : فَرِعْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَفَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَمَدَدْتُ يَدَيَّ ، فَوَقَعَتْ عَلَى قَدَمَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُمَا مُتَّصِيَانِ ، وَهُوَ سَاجِدٌ ، وَهُوَ يَقُولُ : (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمَعَافَاتِكَ مِنْ عِقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَتَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) ^(٢) .

وانظر إلى القلب الموصول بالله وتعظيمه ، والأدب معه في مجالسه : عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ : (رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَثُبِّ عَلَيَّ ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ) ^(٣) .

وكان ﷺ يذكر الله على جميع أحيانه ، وعلم أصحابه وأمته أن يذكروا الله في كلِّ حال ومناسبة ، وعلمنا لكلِّ حركة ذكراً ودعاءً ، وأوصى من طلب منه وصية بقوله : (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله) .

وكان ﷺ أعرف الناس بالله ، وأخشاهم لله ، وَأَتَقَاكُمْ لَهُ : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ : جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا ، فَقَالُوا : وَآيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، قَدْ غَفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَا أَنَا

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢١٠٩٣/ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٣١٧٦/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ برقم /٣٣٥٦/ ، وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ برقم /١٢٩٥/ .

فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا ؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي سَتَيْتِي فَلَيْسَ مِنِّي (١) .

إن معرفة محمد ﷺ بالله لا تسبقها معرفة في الأولين والآخرين ، ولا تدانيها .. لأنها معرفة تتبع من شهود لا يخبو سناه ، ولا يغيم ضحاه .. والمسلم المتأسّي برسول الله ﷺ يحسّ أن لهذه المعرفة خاصّة تبدو في حديثه ﷺ في كلّ موقف ومناسبة ، فهي واضحة صادقة ، حارة نقّاذة ، لا غموض فيها ولا افتعال ، سواء في حديثه ﷺ عن الله سبحانه ، أو في ربط العباد به ، وتربيتهم على عبوديته .

وللكلام الإنسانيّ درجة حرارة معيّنة ، يموت دونها ، فلا يترك أثراً ، ولا يبلغ هدفاً ، وعندما يذكر محمد ﷺ ربّه راغباً أو راهباً يشتدّ النبض في الكلمات المناسبة ، وتحتدّ العاطفة في المشاعر الحارة ، فلا يملك قارئ أو سامع إلا أن يخشع ويستكين لله ربّ العالمين " (٢) .

وتما يدلّ على عظيم معرفته بالله تعالى ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي دُرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أُطْتُ السَّمَاءَ ، وَحَقَّقْتُ لَهَا أَنْ تُنْطَ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعُ جَبْهَتِهِ سَاجِداً لِلَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً ، وَمَا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى

(١) - رواه البخاريّ في كتاب النكاح برقم /٤٦٧٥/ .

(٢) - " فنّ الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء " الشيخ محمد الغزاليّ ص /١٦/ .

الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ) ، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه : " وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ " ^(١) .

وَكَانَ رضي الله عنه مِنْ هَدْيِهِ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ أَنْ يَفْزَعَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ : جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْأَرْضِ ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) ^(٢) .

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ : (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ) ^(٣) .

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الْأَمْرُ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : (سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدَّعَاءِ قَالَ : (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ) ^(٤) .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ : اللَّهُمَّ رَحِّمْتِكَ أَرْجُو ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) ^(٥) .

وَفِيهَا أَيْضاً عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(١) - رواه الترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ برقم /٢٢٣٤/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الكرب برقم /٥٩٨٥/ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب دعاء الكرب برقم /٤٩٠٩/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ برقم /٣٤٤٦/ .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ باب ما جاء ما يقول عند الكرب برقم /٣٣٥٨/ .

(٥) - رواه أبو داود في كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح برقم /٤٤٢٦/ .

أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِيهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ ، أَوْ فِي الْكَرْبِ : (اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) . وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُا تُقَالُ سَبْعَ مَرَّاتٍ ^(١) .

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمْتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمِّيتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي ، وَتُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا) ^(٢) .

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (دَعْوَةُ ذِي التَّوْنِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ : (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطَّ إِلَّا أُسْتَجِيبَ لَهُ) ^(٣) . وَفِي رِوَايَةٍ : (إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَلِمَةٌ أَخْبَى يُوسَسَ ..) .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ فَقَالَ : (يَا أَبَا أُمَامَةَ مَالِي أَرَاكَ فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ ؟ ! " فَقَالَ : هُمُومٌ لَزِمْتَنِي ، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : (أَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ

(١) - رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب في الاستغفار برقم /١٣٠٤/ .

(٢) - رواه أحمد في السند برقم /٣٥٢٨/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في عقد التيسيع باليد برقم /٣٤٢٧/ .

أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ ، وَقَضَىٰ دَيْنَكَ ؟) قَالَ : قُلْتُ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : (قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أُمْسَيْتَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ) ، قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي ، وَقَضَىٰ عَنِّي دَيْنِي " (١) .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ ، وَإِذَا أُمْسَيْتَ : يَا حَيَّ يَا قَيُّومَ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ، أَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةٌ عَيْنٍ) (٢) .

وَذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِأَبْوَابِ عِبَادَتِهِ ﷻ ، وَمَنْ طَالَعَ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ السِّيَرَةِ وَالسُّنَنِ مِنْ أَدْعِيئِهِ وَأَذْكَارِهِ ﷻ ، الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ ، ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ إِلَّا عَنْ مَتَفَرِّغٍ لِلْعِبَادَةِ ، مُنْقَطِعٍ لِلتَّبَتُّلِ ، لَا يَعْرِفُ طِيلَةَ يَوْمِهِ سِوَاهَا ! وَتَتَمَلَّكُ الْإِنْسَانَ الدَّهْشَةُ عِنْدَمَا يَعْلَمُ أَنَّهَا قَدْ صَدَرَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، الَّذِي مَلَأَ كُلَّ سَاحَاتِ الْحَيَاةِ ، وَهَيَّمَنَ عَلَيْهَا بِهَدْيِهِ وَجِهَادِهِ .. وَلَا عَجَبَ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ..

فَقَدْ كَانَ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَيَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ عَلَىٰ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْيَانِهِ .. وَيُحِثُّ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ دَوَامِ الذِّكْرِ ، وَالْأَخْذِ مِنْهُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَالِإِكْتِثَارِ مِنْهُ ، وَالِاجْتِهَادِ فِيهِ ..

(١) - رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ بَابُ فِي الاسْتِعَاذَةِ بِرَقْمِ / ١٣٣٠ / .

(٢) - رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٥/٥٦ / وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا ، يَقُولُ : (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي إِثْمًا ، أَوْ أَجْرَهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَنَامَ) (١) .

ولا يفوتك أن تلاحظ أنّ هذا الدعاء على طوله كان يُعلّم لأطفال الصحابة رضي الله عنهم ، فما أعظم الخير المرجى ممن ينشأ هذه النشأة الصالحة المباركة !

ومن كمال عبودية النبي ﷺ ومعرفته بربه أنّه ﷺ كان يدعو بخوامع الدعاء ، التي تغني عن الإطالة بغير فائدة : عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ : صَلَّى عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ﷺ بِالْقَوْمِ صَلَاةً أَخْفَهَا ، فَكَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا ، فَقَالَ : أَلَمْ أَتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ فِيهَا بِدُعَاءٍ ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بِهِ : (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيَيْنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي ، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَكَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بِالْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إِلَيَّ لِقَائِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ، وَفِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرَبِّنَا الْإِيمَانَ ، وَاجْعَلْنَا هَذَاهُ مُهْتَدِينَ) (٢) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم ٦٣٠٩/ .

(٢) - رواه النسائي في كتاب السهو برقم ١٢٨٩/ .

وفي رواية : (.. وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِكَ ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ..) .

وَعَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى ، وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ : مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، لَوْ وَزِنْتُ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَرِضَا نَفْسِهِ ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) .

وفي رواية عنها قَالَتْ : مَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْعِدَاةِ ، أَوْ بَعْدَ مَا صَلَّى الْعِدَاةَ ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ : (سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ) ^(١) .

وفي رواية الترمذي : (أَلَا أَعْلَمُكُمْ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهَا ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ) ^(٢) .

" ... لقد كان محمد ﷺ عامر القلب بربه ، عميق الحس بعظمته ، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ، وبربّ العباد " ^(٣) ، فلا ريب أن الموعظة

(١) - رواه مسلم في صحيحه ٢٥٨/١٣ .

(٢) - ٤٦٧/١١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٣) - " فنّ الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء " الشيخ محمد الغزالي ص/١٨ .

عندما كانت تصدر عن قلبه الشريف تفعل فعلها العجيب في أعماق
القلوب ، فترقّ وتصفو ، وتقبل على الله تعالى ، وتشهد الآخرة وعوالمها ،
وكأنّها تراها رأي العين ، وتعيش في جوّ من الروحانيّة الخالصة ، تتضاءل
أمامها الدنيا بما فيها ، وهذا ما عبّر عنه بعض أصحاب النبي ﷺ ، كما جاء
في الحديث عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيْدِيِّ قَالَ : وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ
لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ :
سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟! قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ
وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا
الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ
هَذَا ، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قُلْتُ : نَافَقَ
حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ
نَكُونُ عِنْدَكَ نُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ
عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ ، نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وَفِي
الذِّكْرِ ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرْشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ
سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) (١) .

وَعَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ
صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ،
فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودِّعٌ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : (

(١) - رواه مسلم في كتاب التوبة برقم /٤٩٣٧/ .

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، فَإِنَّهُ مَنِ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بَسْطَتِي وَسُنَّتِي الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ (١) .

وأخبر هذا الفصل عن عبادة النبي ﷺ ، وصدق عبوديته وضراعته إلى الله تعالى بهذا الدعاء النبوي الجامع : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ ، تَهْدِي بِهَا قَلْبِي ، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ، وَتُلْمُ بِهَا شَعْيِي ، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي ، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي ، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي ، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي ، وَتَرُدُّ بِهَا أَلْفَتِي ، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا ، لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ ، وَرَحْمَةً أَتَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ ، وَنُزُلَ الشُّهْدَاءِ ، وَعَيْشَ السُّعْدَاءِ ، وَالتَّصَرُّعَ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي ، وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي ، وَضَعُفَ عَمَلِي افْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ ، فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الْأُمُورِ ، وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ ، كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ ، أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ ، اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ نَيْتِي ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي ، مِنْ خَيْرٍ وَعَدَّتُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ ، فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ ، وَأَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ ذَا الْحَبْلِ الشَّدِيدِ ، وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ، وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ ، مَعَ الْمُقَرَّرِينَ

(١) - رواه الترمذي في كتاب العلم عن رسول الله ﷺ برقم / ٢٦٠٠ / ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَرواه أبو داود في كتاب السنة برقم / ٣٩٩١ / ، وَالْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ يُكْنَى أَبَا نَجِيعٍ ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴾ (١٢) التوبة .

الشُّهُودِ ، الرُّكْعَ السُّجُودِ ، الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ ، غَيْرَ ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، سِلْمًا لَأَوْلِيَائِكَ ، وَعَدُوًّا لَأَعْدَائِكَ ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ ، اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الْإِجَابَةُ ، وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَلْبِي ، وَنُورًا فِي قَبْرِي ، وَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَنُورًا مِنْ خَلْفِي ، وَنُورًا عَنْ يَمِينِي ، وَنُورًا عَنْ شِمَالِي ، وَنُورًا مِنْ فَوْقِي ، وَنُورًا مِنْ تَحْتِي ، وَنُورًا فِي سَمْعِي ، وَنُورًا فِي بَصَرِي ، وَنُورًا فِي شَعْرِي ، وَنُورًا فِي بَشَرِي ، وَنُورًا فِي لَحْمِي ، وَنُورًا فِي دَمِي ، وَنُورًا فِي عِظَامِي ، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُورًا ، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا ، وَاجْعَلْ لِي نُورًا ، سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ ، سُبْحَانَ الَّذِي لَيْسَ الْمَجْدُ وَتَكْرَّمُ بِهِ ، سُبْحَانَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلَّا لَهُ ، سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنَّعَمِ ، سُبْحَانَ ذِي الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ ، سُبْحَانَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (١) .

وبعد ؛ فقارن بين سيرة النبي ﷺ وهدية في عبادته ، وبين قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١١٣) الأنعام ، ألا ترى أنَّ صورته وسيرته هي المرأة التي انطبعت فيها آيات التنزيل العزيز ، لتكون مصداق وصف الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) .



(١) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ برقم ٣٣٤١/ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

الفصل السادس

عيشة ﷺ وزهده

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : إثاره ﷺ حال الفقر على الغنى

المبحث الثاني : صفة عيشه ﷺ وعيش أهل بيته .

المبحث الثالث : صفة سكنه ﷺ وسكن أزواجه .

المبحث الرابع : الحجرات النبوية الشريفة معلم من معالم النبوة

وآياتها البينات .

وهذا الفصل باب عظيم من دلائل نبوته ﷺ ، وعظمة شخصيته ، لا يسع عقلاً يحترم عقله أن يتنكر له ، أو يجهل دلالاته وأبعاده ، إذ كيف يتأتى لمن يرفع لواء دعوة ، يريد من ورائها حظوظ الدنيا العاجلة ، من المال والجاه ، والنعمة والرفاهية ، ثم يحصل له ما يريد على أتم الوجوه وأرفعها ، ويكون ما يريد طوع بنانه ، فيعرض عن ذلك ، ويزهد فيه ، ولا يباله أدنى مبالاة ؟! فلا بد أن غاية مثل هذا الإنسان أرفع من ذلك وأنبل ، وأجل وأعظم ..

إذ إن من أجلى مظاهر عظمة شخصية النبي ﷺ : حياته الخاصة في أهله ، من حيث مأكله ومشربه ، وملبسه ومسكنه ، فقد كان ﷺ متقللاً

من الدنيا ، زاهداً برغد عيشها ، لا يمدّ عينيه إلى شيء من زينتها ..
وتتجلّى عظمة شخصيّة النبي ﷺ فيما كان عليه من عيش : أنّ
زهده ﷺ في الدنيا ، وتقلّله منها كان اختياراً منه ﷺ لا اضطراراً ؛ فقد
خيّره الله تعالى بين حال الفقر والغنى ، وحال الملك أو التجردّ منه ،
فاختار الفقر ، والتجرّد من الملك ، إيثاراً للآخرة على الدنيا ، ولئلاّ يظنّ
أحد أنّه يبتغي بدعوته شيئاً من عرضها ، أو مطمعاً من مطامعها ..

وحقيقة الزهد في الدنيا إنّما هو الترفع عن زخرفها وزينتها ،
والتعلّق بالآخرة وما فيها ، فالزهد الحقيقيّ في الدنيا يقترن به الإقبال
الصادق على الآخرة والاستعداد لها ، وينشأ عن ذلك كفّ النفس عن
التوسّع بمباحات الدنيا ؛ من مأكّل ومشرب ومسكن ، إيثاراً للآخرة
واهتماماً بها ، وتنزّهاً أن يكون الإنسان عبد أهوائه ، وأسير شهواته
وملذّاته ، لا تحرماً لما أحلّ الله من الطيّبات ، التي ينالها بكسب طيّب ..

وقد كان زهدُ رسول الله ﷺ زهدَ القادر المُستطيع ، فقد أُوتِي
مفاتيح خزائن الأرض ، وأُحلّت له الغنائم ، وخصّ بالخمس منها ، وما
أفاء الله عليه بغير قتال ، فما استأثر بشيء من ذلك لنفسه أو لأهل بيته ،
وإنّما أثر به محاوٍج أصحابه ، وبذله في مصالح الدعوة ومقاصدها .

وما أكثر الذين يرون أنّ عظمتهم بين الناس ورفعتهم لا تكون إلّا
بكثرة الخدم والحشم ، وجمع المال والنشب ، والتباهي بمظاهر الدنيا
وزينتها ، والترفّع على الناس ، والاحتجاب عنهم .. وقد علّم النبي ﷺ
الإنسانيّة بحياته وسيرته أنّ العظمة الحقيقيّة غير ذلك كلّ ..

إنّها عظمة المعاني التي تملأ نفس الإنسان ، وتمثّل في حياته

وسلوكة .. عظمة الإيمان بالله تعالى والاتصال به ، والتوكل عليه ،
والتسليم في كل شأن له .. وعظمة النفس التي تعيش لهذه المعاني ، ولا
تتحرك إلا بها ..

فكم من أصحاب المبادئ الأرضية والفلسفات الوضعية من أعلن
للناس شعارات برّاقة ، وأظهر الصدق والإخلاص في التجرد إلى ما يدعو
إليه ، وعندما لاح له بريق الدنيا ، بذهبا وفضتها ، وجاهها وزخرفها ،
وعزّها وسلطانها ، تنكّر لتلك الدعوة المثالية ، ونسي الشعارات التي
كان يرفعها ، والمبادئ التي يتحمّس لها ، وظهرت خفايا النوايا وراء تلك
البرّاقة .. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وهي شاهدة ماثلة ..

وهذا فرق جوهري بين دعوة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ،
ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين الصادقين ، وبين الدعوات الدنيوية
الظاهرة ، أو الخفية المشبوهة .. وما أكثر الدعاوى الكاذبة ! وزينة الدنيا
فضّاحة ..

لقد كان النبي ﷺ في عنفوان الشباب وقوّته يوم تزوّج خديجة
رضي الله عنها ، وكان من حسن عشرتها معه ، وبرّها ووفائها أنّها
وضعت أموالها بين يديه ، لا تحجب عنه منها شيئاً ، ومع ذلك فلم
يعرف عنه ﷺ أنّه ظهر يوماً من الأيام بمظهر التنعم والترّفه ، ولباس الزينة ،
أو الإنفاق على رغباته ، كما يولع أكثر الشباب بمثل سنّه .. ومضى
على هذه السيرة حياته كلّها

وقد يستطيع الإنسان أن يتقلّل من الدنيا إلى أدنى حدّ ممكن إذا
كان عزباً لا يعرف مسؤوليّة أُسريّة ولا اجتماعيّة ، ولا تعرفه .. أمّا أن

يتقلّل من الدنيا وتحت عصمته ومسئوليّة رعايته تسع زوجات ، قد أتت
كثيرات منهنّ من بيئة غنى وعيش رغد ، فيصبرن معه على شظف
العيش ، ويرضينّ بالعيش معه على مثل هذه الحال ، فهذا ولا شكّ باب
من العظمة لا يدانيه باب ..



المبحث الأول

إيثاره ﷺ حال الفقر على الغنى

لقد جاءته الدنيا وهي راغمة فآثر بها

محاوئج أمته ، وطوى على الجوع مع نسائه .

إنَّ العظماء حقاً هم الذين يستعلون على الضرورة آثاً كآثت ، أمام المبادئ التي يعيشون لها ، ويجاهدون في سبيلها ..

أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عِزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بِطَحَاءِ مَكَّةَ ذَهَباً ، فَقُلْتُ : لَا يَارَبَّ ! وَلَكِنْ أَشْبَعَ يَوْماً ، وَأَجُوعُ يَوْماً ، فَإِذَا جِئْتُ تُضَرَّعْتُ إِلَيْكَ ، وَدَعَوْتُكَ ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمْدُكَ وَشَكَرْتُكَ) (١) .

وعن ابن عمر ﷺ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَخَيَّرَهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ ، وَلَمْ يَرِدِ الدُّنْيَا .

وعن ابن طاوس عن أبيه قال : بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَلِكٌ لَمْ يَعْرِفْهُ فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيّاً عَبْدًا ، أَوْ نَبِيّاً مُلْكًا ، فَإِشَارَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنْ تَوَاضَعَ ، قَالَ : نَبِيّاً عَبْدًا) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ أَتَّخَذْتَ فِرَاشاً أَوْ ثَرَةً مِنْ هَذَا فَقَالَ : (مَا لِي

(١) - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد برقم /٢٢٧٠/ وأحمد في المسند برقم /٢١١٦٦/ والبيهقي في شعب الإيمان ٢١/٣٤٣ .

وَلِلدُّنْيَا مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا (١) .

وكان ﷺ إذا رأى شيئاً يعجبه قال : (لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ) ، قَالَ شُعْبَةُ : أَوْ قَالَ : (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ ، فَأَكْرَمُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ) (٢) .

وعن مجاهد أنه قال : كان النبي ﷺ يظهر من التلبية : (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ ، لَا شَرِيكَ لَكَ) قال : حتى إذا كان ذات يوم ، والناس يصرفون عنه كأنه أعجبه ما هو فيه ، فزاد فيها : (لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ) .

قال الإمام البيهقي : " وهذه كلمة صدرت من رسول الله ﷺ في أنعم حاله يوم الحج بعرفة ، وفي أشدّ حاله يوم الخندق (٣) .

وقد يتبادر سؤال إلى ذهن بعض الناس : وما الفرق بين أن يختار النبي ﷺ أن يكون عبداً نبياً ، أو يكون ملكاً نبياً ؟

" ولا ريب أنّ هناك فرقاً بين مقام الملكية والعبودية ، فإنّ مقام الملكية يتطلب اتّخاذ الجنود ، واتّخاذ الحجاب والخيول ، واتّخاذ الخدم والقصور ، ويتطلّب الانتقام ممّن يتعرّض بالأذى لنفس الملك .

(١) - رواه أحمد برقم ٢٦٠٨ / .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المناقب باب دعاء النبي : أصلح الأنصار والمهاجرة برقم ٣٥٨٤ / ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب وهي الخندق برقم ٣٣٦٨ / وهذا لفظه .

(٣) - هذه الآثار رواها البيهقي في السنن الكبرى ٤٨ / ٧ .

وأما مقام العبودية فإنه يقتضي أن يخدم نفسه ، وأن يكون في معونة أهله ، تواضعاً منه ﷺ ، ويقتضي العفو والصفح عمن آذاه في نفسه ﷺ ، أما إذا انتهكت حرمة الله تعالى فينتقم الله تعالى " (١) . هذا من حيث الفرق الظاهر ، وهناك ملحظان آخران يراهما الكاتب أهم من ذلك :

الأول : أن النبي ﷺ لو اختار مقام الملكية مع النبوة والرسالة لربما ادعى بعض المدعين أن ما تحقق له من انتصارات على أعدائه إنما هو لما كان عليه من قوة الملك والسلطان ، لا بسبب تأييد الله له بما خصه من نبوة ورسالة ، وربما ادعى آخرون أنه جاء بما جاء به ليصل إلى الملك والسلطان ، الذي حصل له ، ولتكون له الرئاسة على الناس .

الملحظ الثاني : أن عظمة شخصية النبي ﷺ تتجلى في مقام العبودية أكثر ، إذ هو عبد نبي ، وله من الهيبة والتعظيم في النفوس ما يغني عن قوة الملوك وسلطانهم ، ويزلزل تيجان الملوك ، وتخضع له الأكاسرة ، ويقف على باب العظماء خاشعين متأدبين ، ويتمنى العظماء والملوك أن يحظوا بشرف خدمته ، والمثول بين يديه ، وهذا هو الإعجاز بشخصيته ﷺ ..

فيتبين من ذلك أن مقام العبودية لرسول الله ﷺ قد انطوى فيه مقام الملكية ، وسما عليه ، وهذا من غير المألوف في حياة الناس وأوضاعهم .. وما مقام الملكية إلى العبودية النبوية إلا كالوهم الخادع ، والسراب الكاذب .. ولا شك أن رسول الله ﷺ هو أعظم من تحقق بمقام العبودية لله تعالى ، وخير من كملت له مراتبها العلية ، وقد شرفه الله عز وجل بهذا الوصف في

(١) - انظر : " سيدنا محمد رسول الله ﷺ " للشيخ عبد الله سراج الدين ، ص / ١٧٤ .

مناسبات عديدة من كتابه ، منها قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝١ ﴾ الكهف ، وقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ ۚ لِنُزَيِّنَ مِنْهُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١ ﴾ الإسراء ، وقوله عز من قائل : ﴿ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١ ﴾ الأنفال .

وقد أكرم الله تعالى أمة مُحَمَّد ﷺ بشدة التعظيم والتوقير للنبي ﷺ ، والأدب معه ، ومع ذلك فهي لم تخرج به عن أشرف وصف له ، وهو العبودية لله تعالى ، كما فعل غيرها من الأمم ، وهذا من تكريم الله جلّ وعلا لنبيه ﷺ ، ورفعة قدره عنده .

هذا وقد صحّح النبي ﷺ مفهوم الناس عن الغنى وحقيقته ، كيلا يخدع الناس بالمظاهر عن الحقائق ، جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) (١) .

فكم من فقير ذات اليد ، ولكنه غني القلب ، عزيز النفس ، بما هو عليه من تعظيم النعمة ، وعفة النفس ، والرضا بما قسم الله له ؟! وكم ممن لا تحصى أمواله ، ولا تُعدّ مقتنياته ، تراه لا تهدأ شكواه ولا تفتر ، ولا تشبع نفسه ولا تقنع ، ولا يكفّ جشعه عن أيّ مطمع ، فهو من خوف الفقر في بؤس وفقر ، وشتات أمر .!؟

(١) - رواه البخاري في كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس برقم ٦٠٨١/ ومسلم في كتاب الزكاة باب لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ برقم ١٧٤١/ .

طرف من الحكمة في اختيار النبي ﷺ حال الفقر على الغنى :

لقد اختار رسول الله ﷺ حال الفقر والتقلل من الدنيا والزهد فيها ، مع ما أفاء الله عليه ، وخصه به من خُمس الغنائم ، وما يأتيه من الفيء بغير حرب أو قتال ، فكان ﷺ يردّ أكثر ذلك على أصحابه ، ويؤثرهم على أهل بيته ، فيواسي فقراءهم ، ويسدّ حاجة محتاجهم ، ويعين غارمهم ، ويكرم الوفد القادم عليه ، ويتألف قلب بعض الناس على الإسلام ، وأمثلة ذلك لا تحصى .. وكلّ ذلك لحكم تشريعية وتربوية ودعوية جليّة ، لا مجال لبسطها هنا ، ولكننا نُشير إلى طرفٍ منها :

١ - فمن هذه الحكم أنّ حال الفقر أقرب إلى التحقق بذلّ العبوديّة والافتقار إلى الله من حال الغنى .

٢ - أنّ التجردّ عن أسباب القوّة الظاهرة ، من الغنى وبسطة العيش أبلغ في الإعجاز للبشر عندما يرون انتصارات النبيّ ﷺ المبهرة ، على أعدائه في كلّ ميدان .

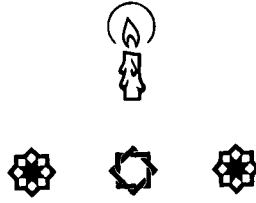
٣ - مواساة الفئة العظمى من أمته ، وهي ولاشكّ فئة الفقراء والمحتاجين على مرّ العصور والأجيال ، إذ يجدون في أحوال نبيّهم ﷺ ما يُصبرهم على لأواء الفقر والفاقة ، ويدعوهم إلى التأسّي به ﷺ ، ويثّ في قلوبهم الطمأنينة والرضا عن الله تعالى .

عن الحسن ﷺ قال : " خطب رسول الله ﷺ فقال : (والله ما أُمسى في آل مُحمّد صاع من طعام ، وإنّها لتسعة أبيات) والله ما قالها استقلالاً لرزق الله سبحانه وتعالى ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمته " (١) .

(١) - رواه الديلميّ في السيرة ، كما في الأنوار المحمّدية ص/٢٣٩ .

٤ - الإعلاء من شأن الغنى الحقيقي الذي عرفه ﷺ بأنه غنى النفس ،
وليس عن كثرة العرض ، وأنه أولى بالنظر والاعتبار من جمع حُطام الدنيا ،
والتفاخر بزينتها ، والنفس لا تشبع ، ولا تقنع .

٥ - تربية الأمة تربية عملية على الاهتمام بالمقاصد العظيمة التي جاء
النبي ﷺ لتحقيقها في حياة الناس ، وحشد الطاقات والجهود لبلوغها ،
وتسخير متاع الدنيا لخدمتها ، ورفع البشرية إلى مستوى التحقق بها ، وبيان
أن هذه المقاصد لا تقتضي بالضرورة أن تكون الأمة ذات رَغد في العيش ،
وسعة في أسباب الدنيا ، بل إنّ الأمة كلّما أخذت بأسباب الترف والرفاهية
ابتعدت عن تلك المقاصد الشريفة والغايات النبيلة .



المبحث الثاني

صفة عيشه ﷺ وعيش أهل بيته

إِنَّ قِلَّةَ ذَاتِ الْيَدِ هُوَ الْحَالُ الْغَالِبُ عَلَى حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَحَيَاةُ أَزْوَاجِهِ مَعَهُ ، وَإِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ مَطْعَمِ الدُّنْيَا أَوْ مَشْرَبِهَا فَهُوَ حَظُّ الْمَقْلِّ ، الَّذِي لَا تَصْبِرُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ النِّسَاءِ ، وَلَا يَطِيبُ بِهِ عَيْشُهَا ..

وَالَيْكَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ الَّتِي تُعْطِيكَ صُورَةً عَنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَيَاةِ أَزْوَاجِهِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ صَبَرْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ عَلَى شُطْفِ الْعَيْشِ ، وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذِي أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا لِي وَلَيْلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ دُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ) (١) .
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " لَقَدْ تُوفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا فِي رَفِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ دُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفِي لِي ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ فَكَلَّمْتُهُ فَقَنِي " (٢) .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : " خَرَجْتُ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ أَخَذْتُ إِهَابًا مَعْطُوبًا ، فَحَوَّلْتُ وَسْطَهُ ، فَأَدْخَلْتُهُ عَنْقِي ، وَشَدَدْتُ وَسْطِي فَحَزَمْتُهُ بِخُوصِ النَّحْلِ ، وَإِنِّي لَشَدِيدُ الْجُوعِ ، وَلَوْ كَانَ فِي

(١) - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم / ٢٣٩٦ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر برقم / ٦٠٨٦ / ومسلم في كتاب الزهد والرقائق برقم / ٥٢٨١ .

بَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَعَامَ لَطَعِمْتُ مِنْهُ ، فَخَرَجْتُ أَلْتَمِسُ شَيْئاً ، فَمَرَرْتُ بِيَهُودِيٍّ فِي مَالٍ لَهُ ، وَهُوَ يَسْقِي بِبَكْرَةٍ لَهُ ، فَاطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ ثُلْمَةٍ فِي الْحَائِطِ ، فَقَالَ : مَا لَكَ يَا أَعْرَابِيٌّ ؟ هَلْ لَكَ فِي كُلِّ ذَلْوٍ بِتَمْرَةٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَافْتَحَ الْبَابَ حَتَّى أَدْخُلَ ، فَفَتَحَ فَدَخَلْتُ فَأَعْطَانِي ذَلْوَهُ ، فَكَلَّمَا نَزَعْتُ ذَلْواً أُعْطَانِي ثَمْرَةً ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأْتُ كَفَّيْ أَرْسَلْتُ ذَلْوَهُ ، وَقُلْتُ : حَسْبِي فَأَكَلْتُهَا ، ثُمَّ جَرَعْتُ مِنَ الْمَاءِ ، فَشَرِبْتُ ، ثُمَّ جِئْتُ الْمَسْجِدَ ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِ " (١) .

وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة ؓ قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً ، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين » (٢) .

وعن أبي نصر قال : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : إني لجالسة مع رسول الله ﷺ إذ أهدى له أبو بكر رجل شاة فإني لأقطعها مع رسول الله ﷺ في ظلمة البيت ، فقال لها قائل : يا أم المؤمنين : أما كان لكم سراج ؟ فقالت : « لو كان لنا ما نسرج به أكلناه » .

وعن مسروق قال : بكت عائشة رضي الله عنها وبيني وبينها حجاب ، فقلت : يا أم المؤمنين ، ما يبكيك ؟ قالت : « يا بني ، ما ملأتُ بطني من الطعام فشئتُ أن أبكي إلا بكيتُ ، أذكرُ رسولَ الله ﷺ ، وما كان فيه من الجهد ، ما جمع رسولُ الله ﷺ طعامَ بُرٍّ في يومٍ مرتين حتى لحقَ برَّه » (٣) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم/٢٣٩٧ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) - تهذيب الآثار للطبري ٤٩٥/٥ .

(٣) - المرجع السابق ٤٩٧/٥ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيَّ
قَالَ : (هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ فَإِذَا قُلْنَا : لَا قَالَ : (إِنِّي صَائِمٌ) ^(١) .

فهل يستطيع أحد من البشر أن يتحمل من الدنيا أكثر من ذلك . ؟

ولم يكن في بيوت أزواج النبي ﷺ خادَمٌ يكفيهم مِثْونَةَ العمل
والخدمة ، فكان رسول الله ﷺ يعينُ أهله ويخدمهم ، ولا تمنعه أعباء الدعوة
الجسيمة ومسئولياتها من ذلك .

عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ : مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟
قَالَتْ : " كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ
خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ " ^(٢) .

وَعَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قِيلَ لِعَائِشَةَ : " مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي
بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : كَمَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَرْقُعُ ثَوْبَهُ " ^(٣) .



(١) - رواه أبو داود في كتاب الصوم برقم /٢٠٩٩/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب من كان في حاجة أهله ، فأقيمت الصلاة فخرج
برقم /٦٤٤/ .

(٣) - رواه أحمد برقم /٢٣٦٠٦/ .

المبحث الثالث

صفة سكنه ﷺ وسكن أزواجه

لو شاء أن يَلْتَمِسَ حُجَّةً لِسَعَةِ الدارِ وكثرةِ الغُرُفَاتِ ،
ووفرةِ المرافقِ ، لوجدَ من الأَعْذارِ ما يُبَدِّدُ ذلكَ : من كثرةِ
الضيفِ ، وقُدومِ الوُفدِ ، ومُلْتَقَى الصُحبِ ، ومَجْلِسِ القِيَادَةِ ،
ومُحْتَقَى الرِّحْمِ والقَرَابَةِ .

كانت مساحة المسجد النبوي الذي بناه النبي ﷺ سبعين ذراعاً في ستين
ذراعاً ، وجعلت سواريه من الخشب ، وجعل في وسطه رحبة .
ولما تمَّ بناء المسجد النبوي الشريف قام النبي ﷺ ببناء بيتين لزوجتيه ،
وكان للنبي ﷺ وقتئذٍ زوجتان : السيِّدة عائشة ، والسيِّدة سودة بنت زمعة ،
وكانت السيِّدة سودة بنت زمعة القرشيَّة أوَّل من تزوّج بها النبي ﷺ بعد
خديجة ، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر ، حتّى دخل بعائشة .
وذكر الواقدي عن ابن أخي الزهريّ عن أبيه قال : تزوّج رسول الله
ﷺ بسودة رضي الله عنها في رمضان سنة عشر من النبوة ، وهاجر بها
وماتت بالمدينة سنة أربع وخمسين ، وأمّا السيِّدة عائشة رضي الله عنها ، فقد
تزوَّجها النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وهاجر بها أبواها ، ثمَّ
دخل بها رسول الله ﷺ في شوال سنة اثنتين منصرفه عليه الصلاة والسلام
من غزوة بدر ، وهي ابنة تسع .

فبنى لهما بيتين على غرار المسجد ، وعلى نعته من لبن وجريد النخل ،

مستورين بمسوح الشعر ، وكان لبيت عائشة رضي الله عنها مصراع واحد من عرعر أو ساج ، وهما نوعان من الخشب ، ثم صار له بابان ، فإنهم لما صلّوا على النبي ﷺ دخلوا من باب أرسالاً أرسالاً ، فصلّوا عليه ، ثم خرجوا من الباب الآخر .

والبيت في عرفهم يطلق على الغرفة في عرفنا ، فلم يكن البيت النبويّ قصرًا من القصور الفارهة ، أو بيتاً من البيوت الواسعة ، ذات الغرف الكثيرة ، والساحات المتعدّدة ، والمداخل المختلفة ، والحدائق الغناء ، والزخارف والنقوش ، وإنما كان بيتاً مفصّلاً على قدر الضرورة ، وربما ينقص عنها ولا يزيد !.

وأما فرش بيت النبي ﷺ فكان عجباً من العجب .. يصوّر حاله أحسن تصوير ما قاله عن نفسه صلوات الله وسلامه عليه ، كما روى عنه عبّء الله ﷺ قال : نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَرُ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً فَقَالَ : (مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا !. مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلْتُ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) ^(١) .

كان فرش بيته ﷺ سريراً من جريد النخل فيه سعه ، وكان ﷺ يضطجع عليه ، وإذا اعتكف في مسجده جلس عليه كذلك .

وتقول السيّدة عائشة رضي الله عنها في ذكر السرير : " ربما رأيت رسول الله ﷺ يصلّي بالليل ، وأنا على السرير بينه وبين القبلة ، فتكون لي الحاجة فأنسلّ من قبل رجل السرير ، كراهية أن استقبله بوجهي .

ولم يكن هذا السرير مريحاً في النوم ، فقد دخل عمر ﷺ مرّة على رسول الله ﷺ فرأى أثر الشريط بجانب النبي ﷺ ، فبكى عمر ﷺ ، فقال له

(١) - رواه الترمذي في كتاب الزهد برقم ٢٢٩٩/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ قال : يا رسول الله ! ذكرتُ كسرى
وقيصرَ يجلسونَ على سرر الذهب ، ويلبسون السندس والإستبرق !
فقال : أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ، ولهم الدنيا ؟!
قال : وفي البيتِ أهبٌ ^(١) لها ريح ، فقال : لو أمرت بهذه فأخرجت .
فقال : لا ، متاع الحيّ " يعني الأهل .

وكان لرسول الله ﷺ فروة مدبوعة يصلي عليها ..
وكان من جملة فرش البيت أيضاً حصيرة تقول عنها السيّدة عائشة
رضي الله عنها : كانت لنا حصيرة نبسطها بالنهار ، ونتحجّرها بالليل .
وكان في فرش بيت النبيّ بساط يضطجع عليه ، تصفّه السيّدة عائشة
رضي الله عنها فتقول : كان ضجاعُ رسول الله ﷺ من آدم حشوه ليف ،
كما كانت وسادته كذلك ، وكان يدفعها للزائر ليتكئ عليها ، كما في قصّة
إسلام عديّ بن حاتم ؓ .

ثمّ كان النبيّ ﷺ كلّما أحدث زوجة بنى لها حجرة وأسكنها فيها
حتّى صار له تسع زوجات ، وتسع حجرات ، وتمتدّ هذه الحجرات ما بين
بيت السيّدة عائشة رضي الله عنها وإلى جهة اليسار ، وكانت أبوابها شارعة
في المسجد .

ويصف لنا عمران بن أبي أنس ؓ الحجرات الشريفة فيقول : كان
منها أربعة أبيات بلبن لها حُجْرٌ من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد
مُطَيّنة لا حُجْرَ لها ، وعلى أبوابها مسوح الشعر ، وذرعتُ السّتر ، فوجدته
ثلاثة أذرع في ذراع .

ولم يكن للنبيّ ﷺ بواب على باب حجراته أو حاجب يمنع الناس من

(١) - جمع إهاب وهو الجلد .

لقاء رسول الله ﷺ والحديث إليه ، كما في قصة المرأة المصابة التي رواها أنس بن مالك رضي الله عنه قال مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبرٍ فقال : (اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي) قالت : إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي ، وَلَمْ تُعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ ، فَقَالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ ، فَقَالَ : (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى) (١) .

وكان عدد من الصحابة رضي الله عنهم يتنافسون عن حبٍّ ورغبة في خدمة النبي ﷺ في ساعات الليل والنهار ، وينتظرون إشارته وتوجيهه .

وأما مساحة الحجرات الشريفة ، فقد جاء عن داود بن قيس قال : " رأيت الحجرات من جريد النخل مغطى من خارج بمسوح الشعر ، وأظنَّ عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أذرع أو سبعة ، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظنَّ سمكه بين الثمان والسبع .

ويصفها لنا الحسن البصري رضي الله عنه وهو الذي تربى في حجر السيدة أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ، فيقول : " كنت أدخل بيوت رسول الله ﷺ وأنا غلام مراهق ، وأنال السقف بيدي ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حجره من أكسية من خشب عرعر " .

وكان للنبي ﷺ خارج الحجرات تنور مشترك بينه وبين بعض الأنصار ، للخبز وما في معناه .

قال عطاء الخراساني : أدركت حجرات أزواج النبي ﷺ من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ، يأمرنا بهدم حجر أزواج النبي ﷺ ، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم .

(١) - رواه البخاري في كتاب الجنائز باب زيارة القبور برقم /١٢٢٣/ .

قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيّب رضي الله عنه يقول : " والله لو ددت أنّهم تركوها على حالها ، ينشأ ناشئ من المدينة ، ويقدم قادم من الآفاق ، فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته ، ويكون ذلك ممّا يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر بها .

وقال عمران بن أبي أنس ، لما سمع كلام عطاء : فلقد رأيتني في المسجد ، وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وآله : أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو أمامة بن سهل ، وخارجة بن زيد ، وإنّهم ليكون ، حتّى أخضّل لحاهم الدمع .

وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تُركت حتّى ينقصَ الناس من البنيان ، ويروا ما رضي الله لنبيه صلى الله عليه وآله ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده .



المبحث الرابع

الحُجُرَاتُ النبويةُ الشريفةُ مبنىٌ ومعنىٌ ، رمزاً ورسالةً

ومعلماً من معالم النبوة وآياتها البينات

وقفةٌ مُحِبٌّ أمامَ الحُجُرَاتِ النبويةِ الشريفةِ

إنّها مسكن الحبيب .. وللمحبّين أمام مسكن الحبيب وقفات وتأمّلات ، ومشاعر وذكريات ، قد لا ينتبه إليها كثير من الناس ، ولا يهتمّون باستثارتها .. ولكنّ المحبّين شأنهم آخر دائماً .. فكيف إذا كان الوقوف أمام مسكن الحبيب الأعظم .؟ وكيف إذا كانت الذكريات تتّصل بأعظم دين ، وخير رسالة .؟!

أين في هذه الحجرات الزخرفة والزينات .؟ أين مظاهر القوة والآبهة ، والسلطان والعظمة .؟ أين الخدم والحشم ، وأواني المشرب والمطعم .؟ أين الأنوار المبهرة ، والعطور الفاخرة ، والستائر الزاهرة .؟ إنك آيتها الحجرات الشريفة أرفع من ذلك وأجلّ .. إنك الزينة الحقّة لأهل القلوب والأرواح .. فقف معي أيّها المحبّ ! مصلياً على الحبيب مسلماً ، متدبراً متأملاً .. قف معي بقلبك وروحك ، وعقلك ولُبّك ..

فقد وقف قبلي وقبلك دُون عظمةِ هذه الحُجُرَاتِ الشريفة المباركة .. على مرّ القرون والأجيال : العظماء والملوك ، والأغنياء والكُبراء ، والعلماء والحكماء ، كما وقف العابدون الأتقياء .. كلٌّ وقف متأملاً معتبراً ، متواضعاً خاشعاً ، يتملّى هذا الموضع المبارك من الأرض ، الذي علّم الدنيا كيف تكون العظمة الحقّة ، وكيف تتسامى مجرّدة عن زخرف الدنيا وزينتها ، ولكنها تملك من زينة الحقّ ما يجعلها نفحة من نفحات الخلود الزكيّة .. تمنح

الحياة سرّ وجودها ، وشرف غايتها ، ومتعة أنسها ، وتربط الدنيا بالآخرة ، في اتصال وثيق تمنحني به عوامل القطيعة والفناء .. ويحسّ من يعيشه انجذاباً نحو الآخرة ، وكأنّ الانتقال إليها رحلة سياحة ممتعة محببة ، إلى متنزه من متنزهات الدنيا ، التي تتطلّع إليها النفوس ، وتتمنى لو تحظى منها بوصلٍ أو تفوز .. إنّها تعلّم الناس سرّ العظمة الحقيقيّة ، التي تتجرّد عن زينة الدنيا وسلطانها ، ولكنها تملك زينة الحقّ وسلطانها ، وهيئته وتأثيره .. فلا يقف أمامها شيء ، ولا تغلبها قوّة ..

هذه الحجراتُ تلالأت في جنباتها أنوارُ الوحي صباح مساء ، وحطّت على تربتها المباركة أجنحة جبرائيل والملائكة الكرام عليهم السلام آناء الليل وأطراف النهار ، ورفرفت حولها هائمة ، زائرة لساكنها ﷺ ، مسلّمة عليه مباركة .. واشترّبت إليها قلوب صفوة الرجال ، وتعلّقت بها الأبصار .. ووقف على بابها العظماء ، يتنافسون في نيل بركاتها ، ويلتمسون الخطوة بشرف الخدمة لسيد الرسل والأنبياء ﷺ ..

هذه الحجراتُ شهدت قيام النبي ﷺ من الليل حتّى تفتّرت قدماه ، وشهدت خلوته بالليل مع ربّه .. ومناجاته لربّه ودعاءه ، وشهدت حبه وأشواقه ، وتضرّعه وبكائه ، وشهدت حولها حلق العلم والقرآن ، ومجالس الذكر ونفحات الإيمان ، وشهدت استقباله ﷺ لأصحابه رجالاً ونساءً ، وتذكيرهم ووعظهم ، ومجالسته إياهم وموائستهم ، وحلّه لمشكلاتهم في أدقّ شئون حياتهم ، وشهدت مجالس شوره مع خيار الصحب الكرام .. كما شهدت استقبال الوفود ودعوتهم إلى الله تعالى ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ..

هذه الحجراتُ المباركة شهدت حياة النبي ﷺ الخاصّة ، الزاهدة المتواضعة مع نسائه ، يخدم نفسه ، ويخدم أهله .. يصبر على الجوع ، ويطوي أياماً ، ويطوين معه رضي الله عنهنّ راضيات قانعات ، بعد أن اخترن الله

ورسوله والدار الآخرة ، يمرّ عليهنّ الهلال والهِلال ، ولا توقد في بيوتهنّ نارٌ .. ليس لهم من طعام إلاّ الأسودان التمر والماء ..

هذه الحجراتُ شهدت أخلاق النبي ﷺ الكريمة مع نسائه .. يقدر مشاعرهنّ ، ويرحم ضعفهنّ ، ويتلطّف بهنّ ، ويداعبهنّ ويطيّب خاطرهنّ ، ويُحسن معاملتهنّ ، ويعدل بينهنّ ، ويرين ما هو عليه من الهدى في كلّ شأن ، فيقتدين به ، ويعلمن الناس ، وينقلن ما يشهدن إليهم ..

هذه الحجراتُ الشريفة المباركة بلسمّ لقلوب الفقراء ، ووخزة ضمير لقلوب الأغنياء .. لا يزال يجد فيها الأولون عزاءهم عن شظف الحياة ، فيصرون على لأوائها ، ويتجلّدون على شدائدّها ، ويرونها بينهم وبين نبيهم المصطفى ﷺ حبلاً موصولاً ، ونسباً وثيقاً ، تمسح جراحهم ، وتسكب الطمأنينة والرضا في قلوبهم .. ولا يزال يجد فيها الآخرون ما يشعّرههم بضعف نفوسهم ، ودنو مطالبهم ، وما يحثّهم على السموّ عن حطام الدنيا الزائف الزائل ، وآثها ليست في موازين السماء بشيء مذكور ، إن لم تتصل بجبل الله وسببه ، فتكون في خدمة دينه ، وابتغاء مرضاته ، ولو كان في حيازتها ، وجمعها لذاتها ما يرفع الإنسان عند الله أو يعزّه لكان أولى الناس بذلك رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار ، وصحابته الكرام ..

هذه الحجرات كانت دار الفتوى والقضاء ، يستقبل فيها النبي ﷺ أصحابه الكرام رجالاً ونساءً ، في الليل والنهار ، يستفتونه في شئون دينهم ، ويستشيرونه في أمور دنياهم ، ويحتكمون إليه ، فيستمع إليهم ، ويعطيهم من وقته وفكره ، وهديه وتوجيهه ، ويقضي بينهم بالحقّ ، وما يرضي الله ..

كانت دار المودة والرحمة ، والتعليم للأمة : كيف يكون تعامل الأزواج مع نسائهم ، وكيف يقوم بناء الأسرة في دين الله وشريعته : تواضع وخفض جناح ، وخدمة في كلّ شأن ، ورحمة إنسانية وارفّة الظلال ، وبرّ وصفاء ، وأنس وتلطّف ، ومداعبة سامية ، وأداء للحقوق ، وعدل بين الزوجات ،

وحفظَ لِحُرَمَاتِ اللَّهِ ..

وكانت مدرسة تَرْبُويَّة ، تَخَرَّجَتْ فِيهَا أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُنَّ عَلَى يَدِ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ، بَعْدَ أَنْ عَايَشْنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي كُلِّ شَأْنٍ ، وَتَلَقَّيْنِ عَنْهُ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ ، وَنَقَلْنَ ذَلِكَ إِلَى الْأُمَّةِ بِكُلِّ وَعْيٍ وَأَمَانَةٍ ، وَدَقَّةٍ وَحَصَافَةٍ ..

وكانت محرابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي اللَّيْلِ ، وَمَوْطِنَ خُلُوتِهِ مَعَ رَبِّهِ .. يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ طَوِيلًا ، وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ، وَيَطِيلُ الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ ، وَالْبُكَاءَ وَالْخُشُوعَ ، وَيُنَاجِي رَبَّهُ ، فَتَرَقُّ لِنَجْوَاهُ نَسَاؤُهُ الطَّاهِرَاتِ ، وَيَشْفُقْنَ لِحَالِهِ ، وَيَسْأَلْنَهُ التَّخْفِيفَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ مِنْ ذَنْبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُنَّ : (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا !) .

هَذِهِ الْحُجُرَاتُ الشَّرِيفَةُ الْمُبَارَكَةُ تُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ ، وَتَجْعَلُ الْمَلَائِكَةَ الْأَطْهَارَ تَغْبِطُ الْمُحِبِّينَ الْأَصْفِيَاءَ .. فَأَيْنَ أَنْتَ أَيُّهَا الْوَاقِفُ أَمَامَ هَذِهِ الْحُجُرَاتِ مِنْ تِلْكَ الْأُمْنِيَّاتِ ؟!

إِنَّهَا لَجَسَدُ الْأُمَّةِ الْقَلْبُ النَّابِضُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَالنَّبْعُ الثَّرَّ الْفَيَاضُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ ، وَالْحُبِّ وَالْحَنَانِ ، إِنَّهَا الدَّوْحَةُ الْبَاسِقَةُ الطَّيِّبَةُ ، الَّتِي تَوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..

أَخِي الْمُسْلِمُ ! أَخِي الْحَبِّ ! إِذَا وَقَفْتَ عِنْدَ هَذِهِ الْحُجُرَاتِ ، فَتَذَكَّرَ مَا قَدَّمَتْهُ هَذِهِ الْحُجُرَاتُ الْبَعِيدَةُ عَنْ زَخْرَفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ خَيْرٍ وَهَدًى ، وَمَا ضَمَّتْ ثَرَاهَا الطَّيِّبَ الْمُبَارَكُ ، مِنْ جَسَدٍ أَطْهَرَ مَخْلُوقٍ عَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، وَعَبْدَهُ أَخْلَصَ الْعِبَادَةِ ، وَبَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ ، وَاجْتَهَدَ فِي نَصْحِ أُمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْظَمَ الْجِهَادِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ .. وَتَجَرَّدَ فِي عِبَادَتِهِ لِلَّهِ عَنْ كُلِّ بَهْرَجٍ مِنْ بَهَارِجِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ..

ضَمَّ ثَرَاهَا هَذَا الْجَسَدُ الْمُبَارَكُ ، فَلَا عَجَبَ أَنْ كَانَ أَشْرَفَ بَقْعَةٍ فِي الْوُجُودِ وَأَكْرَمَهَا ، وَأَسْنَاهَا وَأَزْكَاهَا ..

تذكّر ذلك أخي المسلم ! واعقد بها صلتك الصادقة المخلصة ، لتكون
معها على مثل عهد الجنديّ مع قائده ، وحماسة المحبّ لحبيبه ، ووفاء العبد
لسيّده ، ولتكن خفقات قلبك صفاءً للودّ وتأجيحاً ، وتجديداً للعهد وتأبيداً :

﴿ .. وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٠) الفتح .

غُضّ أخي المؤمن طرفك ، وأسبل من عينيك دمعاً حسرةً وندم ،
وحبّ وحنين ، وعش بقلبك تلك الذكريات ، فربّما قرّب الحبّ والشوق
من كان بعيد الدار ، كثير الأوزار ، مشتّت الأفكار ، وربّما كان الحبّ
والشوق نعم العزاء ، لمن فاته وردّ الصفاء وكريم اللقاء ..



الفصل السابع

صورة جامعة شاملة عن شخصيته العظيمة وشمائله الكريمة

عظمة الشخصية النبوية :

إنّ الناظر في التاريخ الإنساني القديم والحديث ، وسير الأنبياء والرسل ، والملوك والأمراء ، وأصحاب المذاهب والدعوات ، يجد أنّهم يتمتّعون بشخصيّات قويّة ، تفرض آراءهم على من حولهم ، وتجعل كلامهم مسموعاً ، وأمرهم مطاعاً .

وقد يكون من أسباب هذه الشخصية القويّة : التجبّر والتكبر ، والبطش بمن يخالفهم ، أو يحاول أن يخالفهم في الآراء ، أو يساميهم في المركز والسلطان ، وقد يكون من أسبابها ما يكون عليه الإنسان من بسطة في الجسم ، وما يمتاز به من قوّة وشجاعة وبطولة ، ولا سيّما في الحروب ، وعند لقاء الأبطال .

وقد يكون مبعثها ما أسبغ الله على صاحبها من هبة ووقار ، وما يمتاز به من عظمة الخلق ، وما يتحلّى به من الفضائل ، التي تفرض احترامه على الناس ، وما يتمتّعون به من عدل ورحمة ، وبرّ وإحسان ، وقد يكون مبعثها أنّه من بيت عريق ، يتوارث أصحابه المجد صاغراً عن كابر .. إلى غير ذلك من الأسباب والبواعث .

ورسل الله عليهم الصلاة والسلام قد أضافى الله عليهم من الهبة والوقار ، والكمال الخلقيّ والخلقيّ ، واختارهم من خيار الناس وأشرفهم ، وجعل لهم شخصيّات عظيمة مهيبة .

وفي الذروة من كمال الشخصية وعظمتها نبينا محمد ﷺ ، فقد حاز
ﷺ من الشرف ، وكرم النسب ، وزكاء الأصل ، وجمال الجسم وكماله ،
وعظمة الأخلاق ما لم يحزه أحد قط .

لقد كانت له شخصية فذة فريدة ، مع ما كان عليه من رقة القلب ،
ولين الجانب ، وسماحة النفس ، والحياء الفائق ، حتى إنه كان أشدّ حياءً من
العذراء في خدرها ، وكان يبغض العجب والغرور ، والتجبر على الناس
والتكبر . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولم يكن النبي ﷺ يتخذ من عظمة شخصيته ، وما يعلوه من الهيبة
والوقار وسيلةً إلى فرض سيطرته على الناس وتخويفهم ، أو الخطّ من
أقدارهم ، أو استخدامهم في مصالحه الخاصة ، وإنما كان على العكس من
ذلك .. كان متواضعاً لجميع الناس ، قريباً منهم ، يخدم نفسه ، ويخدم أهله ،
ويجالس الضعفاء والمساكين ، ويواسطهم ويؤانسهم ، ويداعب الأطفال
ويعمازحهم ، ويخفف من رعب من أدركته الهيبة النبوية فحاف وارتعد ،
فيهدي نفسه ، ويطمئن قلبه .. إنه ليس بملك ، ولم يتخذ شيئاً من آبهة
الملوك وتعظيمهم ، ولكنّ الملوك تهابه ، وتقف متواضعة ببابه .. إنه سيّد
الأولين والآخرين ، والرحمة المهداة للعالمين .

إنّ الماء الذي فجره رسول الله ﷺ للإنسانية بإذن الله ، عذباً زلالاً ،
صافياً رقيقاً ، لا يزال كأوّل عهده بنور السماء يفيض بالخير ، يحيي
القلوب ، ويسعد المجتمعات ، ويغيث كلّ من يرد منهله ، وينفي إلى ظله ..
ولقد حبا الله نبيه ﷺ التأيد والعزّ المكين ، والنصر المبين ، وبشره أوّل

عهده بالنبوة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ﴿٥﴾

الضحى ، ورفع له ذكره في العالمين ، فالثناء المحمود عليه كل آن ، وبكل لسان : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ الشرح ، فهل ترى عطاء الله أوسع من عطاء الله له في حياته ، وخلال هذه القرون المتطاولة ؟!

وأخزى الله عدوه ، وكفته وكفاه شره فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ الحجر ، وقطع أثر مبغضه اللئيم فقال سبحانه : ﴿

إِن شِئْنَا لَكُ هُوَ الْآبِتُ ﴾ الكوثر .

صفة رسول الله ﷺ في التوراة :

لقد عرف الله أهل الكتاب في كتبهم ، بأخلاق النبي ﷺ ، وأهم شمائله وصفاته ، ليكونوا على بينة من أمره إذا بعث ، فيؤمنوا به ويتبعوه ، ففي الحديث الصحيح عن عطاء بن يسار قال : لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ، قَالَ : أَجَلَ وَاللَّهِ ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَطْرٍ ، وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا ، وَأَذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب البيوع برقم /١٩٨١/ ، غُلف : كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلَافٍ ، سَيْفٌ أَغْلَفُ ، وَقَوْسٌ غُلْفَاءُ ، وَرَجُلٌ أَغْلَفُ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَخْتُونًا .

فانظر أيّها العاقل هذه الدلائل القاطعات ، والآيات البيّنات بعين
الوعي والبصيرة ، وإيثار الصدق وحبّ الحقيقة تكن من أهل السعادة
والزيادة !.

واعلم أخي المؤمن وفقنا الله وإياك : أنّه مهما تعدّدت جوانب العظمة
في حياة الرسول ﷺ وتحدّث الناس عنها ، وأفردوها بالبحث والعناية فإن
مردّها جميعاً إلى العظمة النفسيّة التي جبله الله عليها ، وأودعها في فطرته ،
وجعله سيّد ولد آدم بما خصّه من خصائص ، وما حباه من مكرّمات ، وقد
أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ
قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ
يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام .

وإنّ عظمة محمّد ﷺ تتجلّى في أخلاقه الشريفة ، وشمائله
الكريمة ، التي انبثق عنها كلّ ما اتّصل بشخصيّته من فضائل ومكارم ،
وثمرات طيّبة مباركة ، ودلّ عليها ما جاء به ﷺ من مبادئ سامية ،
وقيم رفيعة ، وما قام به من أعمال جليلة ، وتغيّر عظيم في حياة
الأمّة التي بعث فيها ، ثمّ الإنسانيّة كلّها ، حتى تحقّق فيه بصدق أنّه
أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم ، كما أخرج للناس
جيلاً قيادياً صالحاً ، قاد البشريّة بشريعة الله ، وأقام فيهم موازين الحقّ
والعدل ، وأنشأ حضارة إنسانيّة فاضلة سعدت بها البشريّة قروناً
متطاولة ..

وإن خصال الكمال والجمال في البشر نوعان :

- النوع الأول : ضروريّ دنيويّ اقتضته الجبلة وضرورة الحياة

الدنيا ، وليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب ، ككمال الخلقة ، وجمال الصورة ، وقوّة العقل ، وصحّة الفهم ، وفصاحة اللسان ، وقوّة الحواسّ وسلامة الأعضاء ، وشرف النسب وعزّة القوم ..

ويلحق بهذا النوع ما تدعو إليه ضرورة الحياة ، من المأكل والمشرب ، والملبس والسكن ، والنوم والمنكح ، والمال والجاه .

وقد تلحق هذه الخصال الأخيرة بالنوع الثاني إذا قصد بها التقوى ، ومعونة البدن على سلوك طريق الآخرة ، وكانت بمحدود الحاجة ووفق الشريعة .

- والنوع الثاني : مكتسب دينيّ ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب إلى الله زلفى ، كالأخلاق العلية والآداب الشرعيّة : من الدين والعلم ، والحلم والصبر ، والشكر والعدل ، والعفة والجود ، والعفو والشجاعة ، والحياء والمروءة ، والرفق والرحمة ، وحسن الخلق ولطف المعاشرة ..

وقد يكون لبعض الناس من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة ، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها .

فإذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرنا ، ووجدنا الواحد من الناس يشرف بواحدة منها أو اثنتين ، حتّى يعظم بين الناس قدره ، ويضرب باسمه المثل ، فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال ، إلى ما لا يأخذه عدّ ، ولا يعبر عنه مقال ، ولا ينال بكسب ولا حيلة ، إلّا بتخصيص الكبير المتعال ؛ مما خصّ الله به نبينا ﷺ ، من فضيلة

النبوة والرسالة ، والخلة والمحبة ، وختم النبوة به وعموم دعوته ، وإعطائه الشفاعة والوسيلة ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزة النصر ، وإجابة الدعاء ، وإعطاء السؤل وتمام الفضل ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثاني والقرآن العظيم ، والتأييد بالمعجزات ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل ببركته ، وانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج ، والعصمة من الناس ^(١) .
وبالجملة فإنه ﷺ أعلى الناس قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، وأكملهم محاسن وفضلاً .

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ : أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) ^(٢) .

وفي رواية قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ : قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١)) ؟ قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَيَّلَ قَالَتْ : لَا تَفْعَلْ ، أَمَا تَقْرَأُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ ^(٢) الْأَحْزَاب ، فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ ^(٣) .

وفي هذا الفصل نحب أن نقدّم جُملاً موجزة جامعة ، تقدّم للقارئ الكريم صورة متكاملة قدر المستطاع ، عن شخصية هذا النبي المصطفى ﷺ من جميع جوانبها ، وسيأتيك من هذا الإجمال تفصيل وبيان .

(١) - ينظر الشفا للقاضي عياض ٧٧/١ وما بعد ، بتصرّف واختصار .

(٢) - رواه أحمد في المسند / ٢٤١٣٩ .

(٣) - رواه أحمد في المسند / ٢٣٤٦٠ .

فهل عرفت قريش فتىً أظهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشرف نسباً ، وأكرم حسباً ، وأعظم خلقاً من محمد بن عبد الله ﷺ ؟

لقد لقّبه الأمين ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عرفت أحداً من زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفة العظيمة ، واختصّت بها محمداً ﷺ من دونه .

ووصفته زوجه العاقلة الحكيمة ، السيّدة خديجة رضي الله عنها ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة ، خبرت خلالها شخصيته وأخلاقه ، فقالت له أول عهده برسالة السماء ، وقد داخله الخوف مما جرى معه : " كلا ! والله لا يُخزيك الله أبداً ؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " .

ولقد لخص ﷺ الغاية من بعثته ، والأهداف العليا لرسالته بقوله ﷺ : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) .. فهل ترى في شيء من رسالته وهديه ما ينزل عن أكمل الأخلاق ، وأكرم الشّمائل ، وأحسن الآداب ؟ وتأمل هذا التناغم العجيب بين ما وصفه به قومه ، وما وصفته به زوجته ، وما لخص به رسالته ، والغاية من بعثته ..

لقد كان ﷺ دائم السؤال لله عزّ وجلّ ، كثير الضراعة والابتهال ، أن يزيّنه الله بمكارم الأخلاق والآداب ، وكان ﷺ يقول : (اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي) ، فكان خلقه القرآن يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ألا تقرأون القرآن ؟

لقد كان الصورة الحيّة للحقّ الذي بعثه الله به ، واصطفاه لنشره وإحيائه ، وإنّك لن ترى شيئاً من آداب القرآن إلا كانت صبرته العملّة حياةً محمد ﷺ : ﴿ .. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٦﴾
النساء .

لقد كان ﷺ حسن العشرة ، كريم الصنعة ، لئن الجانب ، يحبّ السر ويؤثره ، فما خيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، بعث بالحنيفية السمحة ، وأرسله الله رحمة للعالمين ، وبشرى للمؤمنين .

لقد رفع رسول الله ﷺ همم أمته ليكونوا عندما يحبّه الله لهم ويرضاه ؛ فبين لهم أن الله تعالى يحبّ معالي الأمور ، ويكره سفاسفها .

وكان ﷺ يحبّ بذل المعروف ، ويدعو إلى خصال الخير كلّها ، كإطعام الطعام وإفشاء السلام ، وعيادة المريض ، وتشجيع الجنائز ، وخدمة الضعيف ، وإغاثة اللهفان ، وإجابة الدعوة .

وكان ﷺ يجيب دعوة الحرّ والعبد ، ولا يأنف عن إجابة الضعيف المسكين ، أو العبد أو الأمة .

وكان ﷺ يدعو أصحابه إلى ما يهدى إليه من طعام ، ويؤثرهم على نفسه وأهله ، ويتفقّد أهل الفاقة من أصحابه ، ويحسن إليهم ويواسيهم ، ولا يختصّ دونهم بشيء .

وكان ﷺ يحبّ العفو ، ويسعى في الإصلاح بين الناس ، ويحرص على جمع القلوب على الحقّ والهدى .

وإنّ المجتمعات القبلية هي أشدّ المجتمعات حفاظاً على التقاليد والعادات ، وأعتاها في الخصومة والبغضاء ، وأعصى على التطويع ، وأبعد عن التأليف والتجميع ، ومع ذلك كلّ .. وغيره وغيره .. فقد ذابت بدعوة رسول الله ﷺ عصبية الجاهلية وطغيانها ، وامّحى عنفوانها ونعراتها في مدّة

لا تريد عن عقدين من الزمن ، ما هما إلا كلمحتين من نظر التاريخ ووعيه
وتطوره وتقلب أحداثه .. فهل رأيت عظيماً من عظماء الدنيا كلها استطاع
أن يجمع القلوب النافرة ، والنفوس الجاحمة ، بقوة الحب ، وسلطان الحقائق
الإنسانية الخالدة التي أحكمت بالدين ، ثم فصلت على ثوب الفطرة
فكانت صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟!

فما استطاع أحد أن يجمع القلوب المتنافرة ، ويؤلف بين النفوس
المتباينة كما استطاع ذلك رسول الله ﷺ بإذن الله تعالى وتوفيقه ، ومنته
وعنايته : ﴿ .. هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ الأنفال .

لقد وقف رسول الله ﷺ يعلن إعلاناً لم يكن شعاراً يرفع ، ولا دعوى
يتمنى بلوغها المصلحون ، ولا يبلغونها ، أو يطمح إليها الطامحون ، ولا
ينالونها ، وإنما كانت حقيقة ناصعة ، توّجت جهاد عقدين من الزمن ،
وترجمت انتصار دينه ، ونجاح دعوته ، وأهداف رسالته ، وكأنها صورة
من صور الشكر والثناء على الله تبارك وتعالى بما أنعم وتفضل .. وقف
المصطفى ﷺ ليقول في حجة الوداع : (إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ
مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ ..) ..

فانظر : أكانت تلك شعاراً ودعوى أم أنها حقيقة عليا بلغتها الدعوة . ؟ !
لقد كانت ساعات عمره شهوراً ، وشهوره أعواماً ، وأعوامه تحتضن
أجيالاً ، هي مجمل ما قدر الله من عمر للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها ؛ فكان يجاهد بلسانه وسيفه ، ويرشد أصحابه ويؤدّبهم ، ويعلمهم

الكتاب والحكمة ويزكيهم ، بأقواله وأفعاله وأحواله ، ويأمرهم بالمعروف ،
وينهاهم عن المنكر ..

وكان ﷺ يتقدّم أصحابه في ساحات الوغى ، فما يكون أحد منهم
أقرب إلى العدوّ منه ، وإن الشجاع منهم من يستطيع أن يحاذي به في
ساعات القتال ، وكان يصفّهم للقتال كما يصفّهم للصلاة ، ويحثّهم على
تسوية الصفوف كما تصفّ الملائكة .

وكان ﷺ أشجع الناس ، وأثبت الناس ، وأصبر الناس ..

وكان إذا اشتدّ البأس ، واحمرّت الحديق ، اتقى أصحابه به ، فما
يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه ، وكان يعلن عن نفسه في أرض المعركة
ولا يستتر : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وكان ﷺ ينظّم الجيوش ، ويصدر الأوامر للقوّد ، ويحثّهم على
الصبر والجهاد ، وكان يستشيرهم في كلّ شأن لم ينزل فيه وحي ، وينزل
على ما يراه صواباً من آرائهم ، وكان يدبّر لهم الخطط الحربيّة ، ويدربهم
على القيادة والحزم في أمورهم ..

وكان ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه ،
كأنّه منذر جيش يقول : صبحكم .. مساءكم ..

وكان ﷺ إذا دخل بيته يكون في مهنة أهله : يخدمهم ، ويخدم نفسه ؛
فيرقع ثوبه ، ويخسف نعله ، ويتلطّف في عشرة أهله ، ويحسن معاملتهم ؛
فيداعب الصغير ، ويؤنس الكبير ، ويغضي عن الهفوة ، ويؤلف بين نسائه ،
ويخفّف من غيرتهنّ ، ويمازهنّ ، ويرفق بهنّ ..

وما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً ولا امرأة إلا أن يجاهد في
سبيل الله تعالى .

وكان ربما غفل الخادم عن الأمر يطلبه منه فلا يرضى لأحد من أهله أن يعتقه ، ويقول : (دعوه ، فلو قُدر أمرٌ لكان) .

خدمه أنس بن مالك ﷺ عشر سنين ، " فما قال له لشيء فعله : لم فعلته ؟ ولا لشيء تركه لم تركته ؟ " .

وكان ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة ، لا يشغله عن طاعة ربه شيء ، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة الله تعالى ، والضراعة إليه ، لا يطيق أحد - مهما اجتهد - أن يجاريه في صلاته ودعائه ، وصيامه وعبادته ؛ فكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، وكان يقوم نصف الليل ، أو يزيد عليه ، أو ينقص منه ، ثم يكون في النهار في رعاية أصحابه وتعليمهم ، وفي جهاد الدعوة ، وقيادة الأمة .

وكان ﷺ يصوم حتى يقول أهله : " لا يفطر " لكثرة صيامه ، ويواصل الصوم يومين وثلاثة أيام أو أكثر ، مع ما يتحمل من أعباء جسام .. وينهى أصحابه عن ذلك رحمة بهم ، وشفقة عليهم ، لأنهم ليسوا مثله ، فهو يبيت عند ربه ، يطعمه ربه ويسقيه .

وكان ﷺ أسخى الناس كفاً ، ما سئل شيئاً قط فقال : لا ..

وكان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان ربما يسأل العطاء فلا يجده ، فيقول لسائله ﷺ : (استدن عليّ ، حتى يأتينا مال فنقضيه) .

وكان يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر ، ولم يزل يُعطي المؤلفة قلوبهم ، حتى أحبّوه أعظم الحب ، وأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم .

وكان ﷺ يعطي العطايا الجزيلة ، ويبيت طاوياً هو وأهله ، لم يخص نفسه بشيء ، ولم يحمل إلى بيته درهماً مما يأتيه .

وَكَانَ ﷺ يَغْفِرُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيَصِلُ مِنْ قِطْعِهِ ، وَيُعْطِي مِنْ حَرَمِهِ ،
وَلَمْ يَكُنْ يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا ، وَإِنَّمَا يَغْضِبُ إِذَا انْتَهَكَتْ حُرُمَاتِ
اللَّهِ ، فَإِذَا انْتَهَكَتْ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَقُمْ لَغَضْبِهِ شَيْءٌ .

وَلَقَدْ أَوْذِيَ فِي اللَّهِ تَعَالَى أَشَدَّ الْإِذَاءِ ، فَلَمْ يَدَعْ عَلَى قَوْمِهِ ، وَلَمْ
يَتَطَلَّعْ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ) .

وَعِنْدَمَا نَالَهُ ﷺ مِنْهُمْ أَشَدُّ الْأَذَى عُرضَ عَلَيْهِ عَذَابُهُمْ وَهَلَاكُهُمْ ،
فَقَالَ : (لَا ، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ ، لَا يَشْرِكُ
بِهِ شَيْئاً) .

وَكَانَ ﷺ أَحْلَمَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَأَعْدَلَ النَّاسِ ، وَأَعْفَى
النَّاسِ ، لَمْ تَمَسَّ يَدُهُ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ ..
وَكَانَ ﷺ أَسْمَى النَّاسِ أَدْبَاءً ، وَأَشَدَّهُمْ حَيَاءً ، وَكَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ
الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا ..

وَكَانَ لَا يَثْبِتُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ ، يُغْضِي عَمَّا يَكْرَهُ ، وَيَتَغَافَلُ
عَمَّا لَا يَشْتَهِي .

وَكَانَ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا بِأَكْثَرِ مِنْهَا ، وَيَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ ،
وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ .

وَكَانَ ﷺ يَعْصِبُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ ، وَرَبْمَا عَصَبَ
الْحَجَرَيْنِ ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يَأْكُلُ أَتَمَّ يَوْمَهُ صَائِماً .

وَكَانَ ﷺ يَأْكُلُ مَا حَضَرَ ، وَلَا يَأْكُلُ مَتَكْتِئاً ، وَلَا عَلَى خَوَانٍ ..
وَكَانَ إِذَا تَغَدَّى لَمْ يَتَعَشَّرْ ، وَإِذَا تَعَشَّى لَمْ يَتَغَدَّ ، وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خَبْزِ
الشَّعِيرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَتَالِيَةٍ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، زَهْداً فِي الدُّنْيَا ، وَإِيثَاراً
لِلْآخِرَةِ عَلَى الْأُولَى ، لَا فَقْراً وَلَا بَخْلاً ..

وَكَانَ يَمُرُّ الْهَلَالُ وَالْهَلَالُ وَالْهَلَالُ ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ ، وَمَا يُوْقَدُ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ طَعَامُهُمُ الْأَسْوَدَانِ : التَّمْرُ وَالْمَاءُ .
وَكَانَ ﷺ رُبَّمَا يَأْتِيهِ الضَّيْفُ يَرِيدُ أَنْ يَطْعَمَهُ ، فَيُرْسِلُ إِلَى زَوْجَاتِهِ هَلْ عِنْدَكُنَّ مِنْ طَعَامٍ ؟ فَتَقْسِمُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ لَيْسَ لَدَيْهَا مِنْ طَعَامٍ ، فَيَأْخُذُ الضَّيْفُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ .

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحَالُ اخْتِيَارًا مِنْهُ ﷺ ، فَقَدْ خَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا ، أَوْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا ، وَقَالَ :
(أَجُوعُ يَوْمًا فَاصْبِرْ ، وَأَشْبِعُ يَوْمًا فَأَشْكُرَ) .

وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَظْهَرَهُمْ بَشَرًا ، وَأَكْثَرَهُمْ تَوَاضُعًا ، قَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَشَوَارِدَ الْحُكْمِ ، وَاخْتَصَرَ لَهُ الْكَلَامَ اخْتِصَارًا ..
وَكَانَ ﷺ لَا يَهْوِلُهُ شَيْءٌ مِنْ شُؤْنِ الدُّنْيَا ، إِذَا رَأَى مَا يَعْجَبُ مِنْهَا قَالَ : (اللَّهُمَّ لَا عِيشَ إِلَّا عِيشُ الْآخِرَةِ ..) ، لَا يَمُدُّ عَيْنِيهِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَكَانَ يَقُولُ : (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ ! مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) .

وَكَانَ ﷺ يَلْبَسُ مَا وَجَدَ ، وَيَرْكَبُ مَا تيسَّرَ لَهُ مِنْ فَرَسٍ ، أَوْ بَغْلَةٍ ، أَوْ حِمَارٍ ، أَوْ بَعِيرٍ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ عَبْدَهُ أَوْ غَيْرَهُ ، وَكَانَ يَمْشِي رَاجِلًا ، حَافِيًا أَوْ بِنَعْلَيْنِ أَوْ خَفَيْنِ ، وَرُبَّمَا مَشَى بَغِيرِ رِءَاءٍ ، وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا قَلَنْسُوَةٍ .
وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، وَيَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِحُسْنِ الْمَظْهَرِ ، وَيَكْرَهُ لَهُمُ الرِّثَاةَ ، وَيَكْرَهُ كُلَّ رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ ، وَيَجَالِسُ الْفُقَرَاءَ ، وَيُؤَاكِلُ الْمَسَاكِينَ ، وَيَقْبَلُ عَلَى جَلِيسِهِ حَتَّى يَرَى أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلُ عِنْدَهُ مِنْهُ ، وَيَكْرَهُ أَهْلَ الْفَضْلِ وَيَدْنِيهِمْ ، وَيَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ ، وَيَعْرِفُ لِلنَّاسِ أَقْدَارَهُمْ ، وَيَتَأَلَّفُ أَهْلَ الشَّرَفِ بِالْبَرِّ بِهِمْ ، وَيَصِلُ رَحِمَهُ ، وَلَا يَنْسَاهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُؤْثِرُهُمْ عَلَى مَنْ

هو أفضل منهم ، ويقبل المعذرة ، ولا يجفو في وجه أحد ، قد وسع الناس حلمه وبره ، وفضله وكرمه ..

وكان ﷺ يمازح أصحابه ونساءه ، ويداعب الأطفال غير أنه لا يقول في ذلك كله إلا حقاً ، ولا ينطق إلا صدقاً ، وكان جلّ ضحكته التبسّم ، وربما ضحك من غير قهقهة .

وكان ﷺ متواصل الأحزان ، خشيةً لله وإجلالاً ، وتفكيراً في الآخرة واهتماماً ، وتحملاً لمسئولية الدين والدعوة ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجاني ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، ويشكر المعروف ، ويثني على صاحبه ، ولا يذم شيئاً ولا يعيبه ، ولم يكن ﷺ يذم طعاماً ، ولا يمدحه ، إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه .

وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإذا انتهكت حرمت الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غصّ طرفه ، جلّ ضحكته التبسّم ، ويفترّ عن مثل حبّ الغمام ..

وكان ﷺ لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، ولا يشافه أحداً بما يكره ، وإذا بلغه عن أحد أو قوم ما يكرهه قال : (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ؟) .

وكان ﷺ يخزن لسانه عما لا يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويجمعهم ولا يفرّقهم ، يكرم كريم كلّ قوم ، ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد بشره ..

وَكَانَ ﷺ يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ وَيَحْسَنُ
الْحَسَنَ وَيَصَوِّبُهُ ، وَيَقْبَحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِنُهُ ، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلَفٍ ، لَا يَغْفُلُ
مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمْلَأُوا ، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عِتَادٌ ، لَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا
يَجَاوِزُهُ ، يَلِيهِ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ ، وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعْمَهُمْ نَصِيحَةُ ،
وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةُ أَحْسَنُهُمْ مَوَاسَاةَ وَمُؤَاظَرَةَ .

وَكَانَ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ ، وَلَا يُوْطِّنُ الْأَمَاكِنَ -
أَيُّ لَا يَمَيِّزُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا خَاصًّا - وَيَنْهَى عَنِ تَوَطُّئِهَا ، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى الْقَوْمِ
جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلُوسَاتِهِ نَصِيحَتَهُ ،
حَتَّى لَا يَحْسَبُ جُلُوسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَاوَمَهُ لِحَاجَةٍ
صَابِرُهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرَفُ عَنْهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ
بِمِيسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ ، قَدْ وَسَّعَ النَّاسُ بِسُطِّهِ وَخَلَقَهُ ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا ، وَصَارُوا
عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، يَتَفَاضَلُونَ عِنْدَهُ بِالتَّقْوَى ، بِمَجْلِسِهِ بِمَجْلِسِ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ ،
وَصَبْرِ وَأَمَانَةٍ ، لَا تَرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تُؤَبِّنُ فِيهِ الْحَرَمَ ، وَلَا تَحْشَى
فَلَتَاتِهِ ، يُوقِّرُونَ فِيهِ الْكَبِيرَ ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ ، وَيَرْفُدُونَ ذَا الْحَاجَةِ ،
وَيُؤْنِسُونَ الْغَرِيبَ ..

وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا إِلَيْهِ إِذَا حَضَرَ إِلَيْهِمْ ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا لَا
يَقُومُونَ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كِرَاهَتِهِ لِذَلِكَ ..

وَكَانَ يَنْهَاهُمْ أَنْ يَطْرُوهُ كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : (قُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) .

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ : (إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ ، وَأَكُلُ
كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ) .

وَقَالَ ﷺ مَرَّةً لِرَجُلٍ هَابَهُ حَتَّى ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ : (هَوْنٌ عَلَيْكَ ، إِنَّمَا
أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ) .

وَكَانَ ﷺ دَائِمَ الْبُشْرِ سَهْلَ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، لَيْسَ بِفُظٍّ ، وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا صَخَّابٍ ، وَلَا فَحَّاشٍ ، وَلَا عِيَّابٍ ، وَلَا مَذَّاحٍ ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفو وَيَصْفَح ، يَتَغافل عَمَّا لَا يَشْتَهِي ، وَلَا يُقْنَطُ مِنْهُ ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ : الرِّياءَ ، وَالْإِكْثَارَ ، وَمَا لَا يَعْنِيهِ ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ : لَا يَذَمُّ أَحَدًا ، وَلَا يَغَيِّرُهُ ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ .

وَكَانَ ﷺ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلُوسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا ، لَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ ، مَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرَغَ ، حَدِيثُهُمْ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَعْجَبُونَ مِنْهُ ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي الْمُنَاطِقِ ، وَيَقُولُ : (إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الْحَاجَةِ فَأَرْفُدُوهُ) ، وَلَا يَطْلُبُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مَكَافِيٍّ .

وَكَانَ ﷺ أَوْقَرَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِهِ ، لَا يَكَادُ يَخْرُجُ شَيْئًا مِنْ أَطْرَافِهِ .. وَكَانَ كَثِيرَ السَّكُوتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، وَيُعْرَضُ عَمَّنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ جَمِيلٍ .

وَكَانَ ﷺ ضَحْكُهُ تَبَسُّمًا ، وَكَلَامُهُ فَصْلًا ، لَا فَضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ .. وَكَانَ ﷺ إِذَا تَكَلَّمَ رَوَّيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَائِيهِ . وَكَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، لَوْ رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الشَّمْسَ طَالِعَةً ..

وَكَانَ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَتْهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ .. يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ : " مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطَوَّى لَهُ ، وَإِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا ، وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرَبٍ " .

وَكَانَ ﷺ إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ ، كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ ، أَوْ تَكْفَأُ تَكْفِئًا ،
كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَإِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ ،
أَجْمَلَ النَّاسَ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْسَنَهُمْ وَأَحْلَاهُمْ مِنْ قَرِيبٍ ، حَلَوَ
الْمَنْطِقُ ، لَا نَزْرَ ، وَلَا هَذَرَ ، كَأَن مَنَظِقَهُ خَرَزَاتٍ ، نَظْمَنَ ، يَتَحَدَّرْنَ .
وَكَانَ ﷺ إِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا ..

وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ كَفًّا ، وَأَجْرَأَ النَّاسِ صَدْرًا ، وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً ،
وَأَوْفَى النَّاسِ ذِمَّةً وَالْيَنَافَعَةَ عَرِيكَةً ، وَأَكْرَمَهُمْ عَشْرَةً ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ ،
وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرَفَةً أَحَبَّهُ ، يَقُولُ وَاصْفُهُ : (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ ، وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ) .
وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الْفَصْلِ الْبَيِّنِ ، لَوْ عَدَّهُ الْعَادَّةَ لِأَحْصَاءِهِ ، وَلَمْ
يَكُن يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا .

وَكَانَ يَعِيدُ الْكَلِمَةَ ثَلَاثًا لَتَعْقِلَ عَنْهُ .
وَلَمْ يُرَ ﷺ قَطَّ مَادًّا رَجُلِيهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، وَمَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ
إِلَّا قَالَ : (لَيْتَكَ .. لَيْتَكَ ..) .
وَكَانَ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ يَتَمَيَّزَ عَلَى أَصْحَابِهِ .

وَكَانَ ﷺ يَمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَيَخَالِطُهُمْ ، وَيُحَادِثُهُمْ ، وَيُؤْنَسُهُمْ ، وَيَأْخُذُ
مَعَهُمْ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَيَسْأَلُهُمْ عَنْ خَاصَّةِ شُؤْنِهِمْ ، لِيُعِينَهُمْ عَلَى
حَاجَاتِهِمْ ، وَيُدَاعِبُ صَبِيَانَهُمْ ، وَيَمَازِحُهُمْ ، وَيَجْلِسُهُمْ فِي حَجَرِهِ ، فَرَبَّمَا
بِالْصَّبِيِّ فِي حَجَرِهِ ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَنْضَحَ الْمَاءَ عَلَى بُولِهِ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ .
وَكَانَ ﷺ يَصَلِّي وَلِجُوفِهِ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمَرْجُلِ مِنَ الْبُكَاءِ ..
وَكَانَ ﷺ يَقُولُ : (إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتَقَاكُمْ لَهُ) .

وكان ﷺ لا يخصص أهل بيته دون الناس ، بل كان لا يساويهم بهم ، ويؤثر أصحابه بالعطاء دونهم ، تعليماً لهم على الزهد في الدنيا ، وإثارة الآخرة عليها ، أتاه مرة سبي كثير فشكت إليه ابنته فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من عناء خدمة البيت ، وطلبت منه خادماً يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير والتحميد ، وقال لها ﷺ : (لا أعطيك ، وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع) .

وكانت مجالسه ﷺ مع أصحابه مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى ، وتعليم ، وترغيب وترهيب ، وإنذار وتبشير ، مما يوجب لهم رقة القلوب ، والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ، والخروج عن حظوظ النفس وأهواء البشر .

وكان ﷺ يوصي أصحابه بتقوى الله عز وجل ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورعاية حق الجار ، والإحسان إليه وإكرام الضيف ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وإطعام الطعام ، وتوقير ذي الشبهة ، والعفو والإصلاح بين الناس ، وكظم الغيظ ، والبعد عن الغضب ، وكثرة الذكر ، والاستغفار .

وكان أصحابه ربما عدوا له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يستغفر الله تعالى ، ويتوب إليه .

ولقد أبطل بدين الإسلام كل عادات الجاهلية ، وأخلاقها ومفاسدها ؛ فأبطل الغناء والمعارف ، وكل ذي وتر ، وحرّم الكذب والغيبة ، والبخل والشح ، والمكر والخديعة ، وسوء الظن ، وفساد ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، والكبر وسوء الخلق ، والفخر والاختيال ، وقول الزور وشهادة الزور ، والحق والحسد ، والسحر والطيرة ، والبغي والعدوان ، والبهت والنميمة ، والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

ولم يكن شيء أبغض إليه من الكذب ، وكان إذا اطلع على كذبة من بعض أهله لم يزل متغيّر الوجه معه حتّى يحدث توبة من ذلك .

وكان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله تعالى ، وجزءاً لنفسه ، وجزءاً لأهله ، ثمّ جزءاً جزأه بينه وبين الناس ، فيردّ ذلك بالخاصّة على العامّة ، ولا يدّخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته ﷺ في جزء الأُمّة : إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين :

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأُمّة من مسائلهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : (ليلبّغ الشاهد الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنّه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة) ، لا يذكر عنده إلّا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره .. يدخلون رواداً ، ولا يفترقون إلّا على ذواق ، ويخرجون أدلة على الخير .

وكان ﷺ يكثر أن يشارور أصحابه ، فيما لم ينزل فيه وحي ، وينزل عند رأي بعضهم ويعمل به ، وقال لصاحبيه ووزيره أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : (لو اجتمعتم في مشورة ما خالفتمكم) (١) .

وكان ﷺ يكتّي أصحابه ، ويدعوهم بأحبّ الأسماء إليهم ، ويغيّر لهم الأسماء القبيحة ، أو المكروهة غير المستحسنة إلى أسماء حسنة . وكان ينهى عن الطّيرة ، ويُعجبه الفأل الحسن ، وهو الكلمة الطيّبة ..

(١) - كما في مسند الإمام أحمد : ١٧٣٠٩/ .

وكان يحبّ التيمّن في تنعله وترجله ، وفي طهوره ، وفي شأنه كله .

وكان ﷺ أبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى الناس عنه ،
قد شُغِف قلبه الشريف بعبادة ربّه ، والاستغراق في مناجاته وذكره ، قام
من الليل حتّى تورّمت قدماه وتفطّرت ، فأشفق عليه أهله وأصحابه ،
وقالوا له : أتفعل ذلك يا رسول الله ، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما
تأخّر ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً ؟) .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وكان يقول : (أرحنا بها
يا بلال ! أرحنا بها يا بلال !) ، وكان يقول أيضاً : (.. وَجُعِلَتْ قُرَّةُ
عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) .

وكان ﷺ آخر كلامه من الدنيا: (الصَّلَاةُ .. الصَّلَاةُ .. وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ..) .

صلى الله عليه وسلم ، وبارك وأنعم ، وعظّم وأكرم ، وملا
قلوبنا خبّه وتعظيمه ، وطاعته واتباعه .



الباب الثاني

الرحمة المهداة للعالمين

وفيه تمهيد وسبعة فصول :

تمهيد : موقع الأخلاق في دين الله .

الفصل الأول : عموم رحمة النبي ﷺ بالعالمين ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رحمته ﷺ بالملائكة الكرام عليهم السلام .

المبحث الثاني : رحمته ﷺ بالجن .

المبحث الثالث : رحمته ﷺ بالحيوان والجماد .

الفصل الثاني : رحمته ﷺ بأصحابه وأمة .

الفصل الثالث : رحمته ﷺ بالأطفال والنساء وحسن عشرته لأهل بيته .

الفصل الرابع : رحمته ﷺ بأعدائه وعفوه عنهم .

الفصل الخامس : صدقه ﷺ وأمانته ، وحفظه للعهد ، وبره ووفاءه .

الفصل السادس : حسن خلقه ﷺ وحلمه ، وسماحته ﷺ وعفوه .

الفصل السابع : جوده ﷺ وكرمه .



موقع الأخلاق في دين الله :

كانت البعثة المحمدية فتحاً جديداً للإنسانية في عالم الأخلاق والقيم ، ولقد حملت الأمة التي ربّاهها رسول الله ﷺ على عينه ، كتاب الله بيد ، ونور السنة والنبوة ، وهديتها الأخلاقي السامي باليد الأخرى .. وانطلقت بسلوها العملي ، قبل كلامها ودعوتها تنشر نور الحق في أرجاء الأرض ، وتجتث جرثومة الباطل ، وفساده وظلماته ، وهي ليست إلا كالزبد ، وقد ألقى السيل بعضه على بعض .. وعلى قدر ما تمثل في حياتها الخاصة ، وعلاقاتها العامة ، هدي الإسلام ونوره ، وأخلاقه ومبادئه كان تأثيرها في الأرض أكبر ، وتغييرها في حياة الناس أظهر ..

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لعلاقة رسالته ودعوته بمن سبقه من الأنبياء ، وكيف كانت رسالته خاتمة الرسالات ، وبه ختم النبيون ، فجاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا ، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ ؟ قَالَ : فَأَنَا اللَّبَنَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) (١) .

فهل هذه اللبنة هي لبنة كسائر اللبانات . ؟ فإن كانت كذلك فأَيُّ شيء

يُمَيِّزها عن غيرها . ؟ الحق إنها لبنة ليست كسائر اللبانات ، إنها لبنة تحمل طابع

(١) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٣٩/ .

ختم النبوة بخصائصها وفضائلها ، وخصائص الشريعة التي جاءت بها وفضائلها .. بل إنها لبنة تطبع سائر اللبنة بما قامت عليه هذه الشريعة من الشمول والكمال ، واليسر والرحمة ، والرفق ورفع الحرج ، وما اختصت به الأخلاق النبوية العظيمة من كمالات لا تتناهى .. فكما أن القلب في الإنسان لا يمكن أن ينظر إليه على أنه عضو من الأعضاء ، بل هو سيد الأعضاء وملك الجوارح ، وصحته وسلامته سرّ حياة الإنسان أو موته ، فكذلك هذه اللبنة ، بالنظر إلى هذه الشريعة الكاملة ، ومن جاء بها ﷺ ، بل هذه اللبنة هي بالروح أشبه ، ومثلها إليها أقرب ..

وإنّ منبع الأخلاق النبوية العظيمة يصدرُ عنه نهرانِ غزيرانِ نضّاخان : أولهما نهرُ العقل والحكمة ، وثانيهما نهرُ الرفق والرحمة .

أما نهرُ العقل والحكمة فيُشيرُ إليه قولُ الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١ ﴾ القلم ، إذ تأتي هذه الآية الكريمة ردّاً على اتّهام المشركين للنبيّ ﷺ بالجنون ، فوصفه الله تعالى بعظمة الأخلاق ، التي هي أعظم مظهرٍ لكمال العقل وثباته ، ورسوخ الرأي وسداده ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَزَكَرَتْ لَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَلْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١١٦ ﴾ آل عمران .

وأما نهرُ الرفق والرحمة فيشيرُ إليه قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحَمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَآتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ .. ﴿١٣٩﴾ آل عمران ، وقوله سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٤٧﴾ الأنبياء ، ويجمع بين معاني

هذين النهرين العظيمين قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿١١٩﴾ الأعراف .

وتفرّع الأخلاق النبوية كلّها عن هذين النهرين الدفاقين ، فتستمدّ منهما حياة أشجارها ، وشهيّ ثمارها .

هذا ، وقد بين النبي ﷺ موقع الأخلاق في دين الله ، وعلاقتها ببعثته ، بقوله ﷺ : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (١) ، وقوله ﷺ : (إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً ، وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَابًا) (٢) .

وقد قدّم الإسلام أبعاداً كبرى للأخلاق التي جاء بها ، فلا يمكن أن يقوم نظام أخلاقيّ حكيم بدونها ، وهذه الأبعاد تقوم على إتمام مكارم الأخلاق من حيث النوع والكيف ، وإتمامها من حيث الكمّ والقدر ، ومن حيث عمومها وشمولها . ويتجلى ذلك في النقاط التالية :

● - ربط الأخلاق بالإيمان ، ورفض الأخلاق النفعيّة .

(١) - رواه مالك في الموطأً بلاغاً عن النبي ﷺ ، وقال ابن عبد البرّ : هو متّصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة ؓ وغيره ، منها ما رواه أحمد والخرائطيّ في أوّل المكارم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ " ، ومنها ما رواه الطبرانيّ في الأوسط بسند فيه عمر بن إبراهيم القرنيّ ، وهو ضعيف عن جابر مرفوعاً بلفظ : " إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِتَمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَكَمَالِ مُحَاسِنِ الْأَفْعَالِ " ، لكنّ معناه صحيح ، ومنها ما عزاه الديلميّ لأحمد في مسنده عن معاذ ؓ ، لكن قال في المقاصد : ما رأيته فيه ، والذي رأيته فيه عن أبي هريرة ؓ ، انظر كشف الخفاء ٢٤٤/١ .

(٢) - رواه البخاريّ في التاريخ عن أبي هريرة ؓ ، وكذا في الأدب عنه بلفظ : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) ، انظر كشف الخفاء ٢٤٤/١ .

- - ربط الأخلاق بالعبادة .
 - - تفضيل الأخلاق على نافلة العبادة .
 - - ربط الأخلاق بالتشريع .
 - - رفض النسبية في الأخلاق ، والتمييز الجاهلي بين الناس ، فهي أخلاق تسع الإنسانية كلها .
 - - عظم مكانة مكارم الأخلاق في الآخرة .
 - - مكارم الأخلاق في الإسلام تقدّم أروع صورة للجمع بين الواقعية والمثالية ، وإقامة العدل ، والدعوة إلى الفضل ، والبعد عن الإفراط أو التفريط .
- وهذه المبادئ والحقائق لا يسعنا تفصيلها في هذا المقام ، وبناء عليها فإنّ الحضارة الإسلامية كانت حضارة أخلاقية في طابعها الأوّل ، وسمتها الكبرى المميّزة ، لأنّ رسالة الإسلام جاءت للإنسانية عامّة : لإنقاذ الإنسان وإسعاده بهداية الله ، وإخراجه من الظلمات إلى النور ، للقيام بأمانة الاستخلاف في الأرض على أحسن وجه ، وهذا من أسرار انتشار الإسلام ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ..

كلمة للإمام الغزالي في بيان موقع حسن الخلق : يقول الإمام الغزالي رحمه الله في بيان موقع حسن الخلق وأهميته : " الخلق الحسن صفة سيّد المرسلين ، وأفضل أعمال الصّديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتّقين ، ورياضة المتعبّدين ، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازي الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار ربّ العالمين ، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة ، التي تطلّع على الأفئدة ،

كما أنّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ،
 وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلّا
 أنّه مرض يفوّت حياة الأبد ، فأين منه المرض الذي لا يفوّت إلّا حياة
 الجسد .؟ ومهما اشتدّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان ،
 وليس في مرضها إلّا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج
 لأمراض القلوب ، وفي مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من
 الطبّ واجب تعلّمه على كلّ ذي لبّ ، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن
 أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى
 تأنّق في معرفة علمها وأسبابها ، ثمّ إلى تشمير في علاجها وإصلاحها ،
 فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ ﴾ ، وإهمالها
 هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾ الشمس " (١) .



(١) - إحياء علوم الدين ٣/ ٤٩٠ .

الفصل الأول

عُموم رحمة النبي ﷺ بالعالمين

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رحمه ﷺ بالملائكة الكرام عليهم السلام

المبحث الثاني : رحمه ﷺ بالجن

المبحث الثالث : رحمه ﷺ بالحيوان والجماد

كما نفهم من قول الله تعالى : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴾ الفاتحة ، أنَّ الله جلَّ وعلا ربَّ كلِّ شيءٍ في هذا الوجود ومليكه ، فكَذلك علينا أن نفهم من قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴾ (١٠٧) الأنبياء ، شمول الرحمة بالنبي ﷺ لكلِّ شيءٍ في هذا الوجود : الإنس والجنَّ والملائكة ، والحيوان والنبات والجماد ، ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فالله تعالى يختصُّ برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال أبو بكر بن طاهر رحمه الله تعالى : زَيْنَ الله مُحَمَّدًا ﷺ بَرِيْنَةَ الرحمة ، فكان ﷺ كَلَّةَ رحمة ، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق ،

وحياته ﷺ رحمة ، ومماته رحمة ، كما قال ﷺ : (حياتي خير لكم ، ومماتي خير لكم) ^(١) .

وكما قال ﷺ : (إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها ، فجعله لها فرطاً وسلفاً) ^(٢) .

وروى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنما أنا رحمة مهداة) ^(٣) .

قال ابن دحية رحمه الله : " معناه أن الله تعالى بعثني رحمة للعباد ، لا يُريدُ لها عوضاً ، لأنَّ المَهْدِي ، إذا كانت هديته عن رحمة لا يريد لها عوضاً " ^(٤) .



(١) - ذكره العجلوني في كشف الخفا ٤٤٢/١ وعزاه للدليمي عن أنس وعزاه في الجامع الصغير للحارث عن أنس، وفيه عند ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلًا بلفظ حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا مت كانت وفاتي خيرا لكم تعرض على أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرت لكم .

(٢) - الفرط بفتح الهاء والراء : هو الذي يتقدم الواردين فيهيئ لهم ما يحتاجون إليه .

(٣) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦ / ٢٩٩ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٦ / ٢٩٩ ، وابن سعد في الطبقات ١ / ١ / ١٢٨ ، وابن عدي في الكامل ٤ / ١٥٤٦ ورواه الطبراني في الصغير ١٩٥ / ١ ، بلفظ : (بعثت رحمة مهداة) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١٥٤ / ١ .

(٤) - انظر سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٦٤ .

المبحث الأول

رحمة النبي ﷺ بالملائكة الكرام عليهم السلام

ومن العالمين الذين تعمهم رحمة الله بالنبي ﷺ : الملائكة الكرام عليهم

السلام ، يقول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ

نَذِيرًا ۝۱ ﴾ الفرقان ، فالعالمون في هذه الآية تشمل الملائكة كما تشمل

الإنس والجن ، وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ۝۲ ﴾ الفاتحة ، شامل لهؤلاء الثلاثة ، فكذلك هذا ، والأصل

بقاء اللفظ على عمومه حتى يدلّ الدليل على إخراج شيء منه ، ولم يدلّ

هنا دليل على إخراج الملائكة ، ولا سبيل إلى وجوده ، لا من القرآن ، ولا

من الحديث ، وقد تُوزع من ادّعى الإجماع على عدم إرساله إليهم ، فمن

أين تخصيصه بالإنس والجن فقط ، دون الملائكة ؟ وكذا قوله تعالى : ﴿

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝۱۰۷ ﴾ الأنبياء ، فإنه شامل للملائكة ،

ومما يدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ

عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝۱۳ ﴾ الأنبياء ، يعني الملائكة : ﴿ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝۱۷ ﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن

أَرَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝۲۸ ﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ

نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝۴۱ ﴾ الانبياء .

كذلك روى ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ قال : يعني الملائكة .

وروى ابن المنذر نحوه عن ابن جريج رضي الله عنه ، وفي حديث ابن عباس فهذه الآية إنذار للملائكة على لسان النبي ﷺ في القرآن الذي أنزل عليه ، وقد قال تعالى : ﴿ .. وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذَكَّرْكُمْ بِهِ .. وَمَنْ بَلَغَ ۖ ۝١٩ ﴾ .. الانعام ، قال الشيخ : ولم أقف إلى الآن على إنذار ، وقع في القرآن للملائكة سوى هذه الآية .

والحكمة في ذلك واضحة ، لأنّ غالب المعاصي راجعة إلى البطن والفرج ، وذلك يمتنع عليهم من حيث الخلقة ، فاستغنى عن إنذارهم فيه ، ولما وقع من إبليس ، وكان منهم على ما رجحه غير واحد ، منهم النووي أو فيهم نظير هذه المعصية أنذروا فيها ^(١) .

أقول : وينبغي أن يلحظ أنّ إرساله ﷺ للملائكة إنّما هو إرسال تشريف ، لا تكليف ، لأنهم ليسوا من أهل التكليف ، بخلاف الجن . وقد رحم الله تعالى الملائكة وشرفهم بنبيّه ﷺ بأنواع من مظاهر الرحمة والتشريف ؛ فمن ذلك أنّ الله رحمهم وشرفهم بالصلاة والسلام عليه ﷺ ، دائماً سرمداً إلى قيام الساعة ، وزيارته والسلام عليه ومجالسته ، وسماع كلامه الشريف ، وسماع القرآن الكريم من فمه الشريف ﷺ ، وصحبته في الليل والنهار ، ومرافقته وخدمته ، والحف بمجالسه وحجراته ، والقتال بين يديه ونصرته ، واستئذانه في إنفاذ ما يريد بعدوّه ، فلا شك أنّ كلّ من يجالس نبيّ

(١) - قال : وقد أفرد الشيخ رحمه الله تعالى الكلام على هذه المسألة مولفاً سماه (تزيين الاراتك في ارسال النبي إلى الملائك) بسط فيه الأدلة ، فليراجعه من أراد ، انظر سبل الهدى والرشاد . / ٣٠٥ / ١٠ .

الرحمة ﷺ مؤمناً به ، ويتشرف برؤية أنواره ، تعمه رحمة الله تعالى وبركاته ،
وفضله وتكرمه ، وكل ذلك ثابت في النصوص الشرعية ، بما لا يتسع المقام
لبسطه وتفصيله ..

وفي حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما ، وفي روايات
الحديث المتعددة نلاحظ حفاوة الملائكة الكرام عليهم السلام بالنبي ﷺ في
الملا الأعلى ، وترحيبهم به ، وفرحهم بلاقائه ، بما يكشف لنا عن طرفٍ
من فضل النبي ﷺ ، ورحمته بالملائكة ، وعظيم مقامه عند ربه ..

ومن رحمة الله تعالى للملائكة بنبيه ﷺ : ما شرع الله من الأحكام
الشرعية : التي فيها الإيمان بهم ، والأدب معهم ، وتعظيم مقامهم ،
ومعرفة وظائفهم .. وأدلة ذلك من النصوص الشرعية مشهورة مستفيضة ..

وكانت الملائكة تناجي النبي ﷺ ، وتقرب منه ، ويراه ، كما جاء في
أحاديث صحاح كثيرة ، منها الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ : (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ - أي
ظهر منها صوت - وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَطُتَ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ
وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ) (١) .

وقد علمنا النبي ﷺ تعظيم الملائكة ، والأدب معهم ، وأن نبتعد عن ما
يؤذيهم ، فقال ﷺ : (مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبُقْلَةِ الثُّومِ ، وَقَالَ مَرَّةً : (مَنْ أَكَلَ
الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ
بُنُو آدَمَ) (٢) .

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد / ٢٢٣٤ / ، ومثله ابن ماجه / ٤١٨٠ / ، وأحمد في مسند
الأنصار / ٢٠٥٣٩ / .

(٢) - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم / ٨٧٦ / عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

وفي رواية : (مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا ، أَوْ قَالَ فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا ، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ) ، وَأُتِيَ ﷺ مَرَّةً يَقْدِرُ فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا ، فَسَأَلَ فَأَخْبَرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ ، فَقَالَ : قَرَّبُوهَا إِلَيَّ بَعْضُ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ : (كُلْ فَإِنِّي أَنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي) (١) .

وكان ﷺ يبحث أصحابه ﷺ على أن يستحيوا من الملائكة ، كما في الحديث عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاسًا رُكَبَانًا عَلَى دَوَابِّهِمْ فِي جَنَازَةٍ ، فَقَالَ : (أَلَا تَسْتَحْيُونَ أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ يَمْشُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَأَنْتُمْ رُكَبَانٌ !؟) (٢) .

كما علّم ﷺ أصحابه ﷺ أن يصفوا في الصلاة كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ، ففي الحديث الشريف : (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قَالَ : (يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ) (٣) .

وإذا كان تكريم الملائكة للمؤمنين في الآخرة بأمر الله تعالى لا يقدر ولا يوصف ، فكيف بتكريم الملائكة للنبي ﷺ !؟ وهو من يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَحَبَّتِهِ وَنَصْرَتِهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَتَعْظِيمِهِ !.



(١) - رواه البخاري في كتاب الصلاة عن جابر بن عبد الله برقم / ٣٩٠ / .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز برقم / ١٤٦٩ / .

(٣) رواه مسلم في كتاب الصلاة ٦٥١ ، عن جابر بن سمرة ﷺ .

المبحث الثاني

مرحمه ﷺ بالجن

تكليف الجن بالإيمان بالنبي ﷺ ، وبلوغ دعوة نبينا محمد ﷺ لعالم الجن :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِك بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾ الجن .

وقال الله جلّ شأنه مخاطباً نبينا محمداً ﷺ : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۝١٩ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٠ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝٢١ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٢ ﴾ الأحقاف .

وفي الحديث الشريف : (أن نفراً من الجن - سبعة ، وقيل : تسعة ، وقيل : أكثر - جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقرأ ببطن نخلة - موضع على بعد ليلة من مكة - فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ..)^(١) . كما أخبرنا الله تعالى عنهم .

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦/١٧٦ والفتح لابن حجر ٧/١٧١ ، والسيرة لابن كثير .

ومّا يدلّ على أنّ الجنّ مكلفون كالإنس قوله تعالى متحدّياً للجنّ بهذا القرآن كما تحدّى الإنس : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٨٨) الإسراء .

وكذلك الخطابات والنداءات الموجهة في سورة الرحمن إلى كلّ من الجنّ والإنس تدلّ على أنّ الجنّ مكلفون كالإنس .

وفي الحديث الشريف : (وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً) ^(١) . والجنّ من الخلق . وفي رواية : (وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْعِثُ إِلَى قَوْمِهِ ، وَبُعِثْتُ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) ^(٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ..

﴿ ٢٩ ﴾ الاحقاف .

وقد أجمعت الأمة بكلّ فرقها ومذاهبها - فيما نعلم - على أنّ رسول الله ﷺ مرسل إلى الجنّ ، كما هو مرسل إلى الإنس ، وإذ كان ﷺ رحمة للعالمين ، فهو رحمة للجنّ ، كما هو رحمة للإنس ، وقد ثبت في القرآن الكريم ، والسنة والسيرة الشريفة أنّ النبي ﷺ اجتمع أكثر من مرّة بالجنّ ، ودعاهم إلى الله تعالى ، وبلّغهم دعوة الحقّ .

عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ : هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ ، فَقُلْنَا : اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ ؟! قَالَ : فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٌ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ ،

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٨١٢ ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) رواه البزار ، وانظر لفظ البزار في فتح الباري للحافظ ابن حجر ٣٤٥/٦ .

قَالَ : فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَدْنَاكَ ، فَطَلَبْنَاكَ ، فَلَمْ نَجِدْكَ ، فَبَشَّرَ بَشَرًا لَيْلَةً
بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَقَالَ : (أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ
الْقُرْآنَ ، قَالَ : فَأَنْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ ، وَأَتَانَا نِيرَانِهِمْ ، وَسَأَلُوهُ الرَّادَّ فَقَالَ :
(لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذِكْرٌ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَمَا يَكُونُ لَحْمًا ،
وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (فَلَا تَسْتَحْجُوا بِهِمَا ،
فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ) (١) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ،
وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِذْ قَالَ : (لِيَقُمْ مَعِيَ رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَلَا يَقُمْ مَعِيَ
رَجُلٌ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْغِشِّ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) قَالَ : فَقُمْتُ مَعَهُ وَأَخَذْتُ إِذَاوَةً ، وَلَا
أَحْسِبُهَا إِلَّا مَاءً ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَعْلَى مَكَّةَ ،
رَأَيْتُ أَسْوَدَةً مُجْتَمِعَةً ، قَالَ : فَخَطَّ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ، ثُمَّ قَالَ : (قُمْ
هَاهُنَا حَتَّى آتِيكَ ، قَالَ : فَقُمْتُ وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَرَأَيْتُهُمْ
يَتَنَوَّرُونَ إِلَيْهِ - أَي : يَتَطَلَّعون إِلَى رُؤْيَاهُ مِنْ بَعِيدٍ - قَالَ : فَسَمَرَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ لَيْلًا طَوِيلًا ، حَتَّى جَاعَنِي مَعَ الْفَجْرِ .. (٢) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي
طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ
خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَارْجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا :
مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ، قَالُوا :
مَا حَالُ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا ، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَأَنْصَرَفَ

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ٦٨٢ ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ٣١٨١ .

(٢) رواه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة ٤١٥٠ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ بِنَخْلَةٍ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ
عُكَاظٍ - موضع على ليلة من مكة - وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ،
فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ
خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَهَذَا لَكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَقَالُوا : يَا قَوْمَنَا ﴿ .. إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۝ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾ ، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ .. ﴾ وَإِنَّمَا أَوْحَى إِلَيْهِ
قَوْلُ الْجِنِّ ^(١) .



(١) رواه البخاري في كتاب الأذان ٧٣١ ، واللفظ له ، ومسلم في كتاب الصلاة ٦٨١ ، انظر
كتاب : " الإيمان بالملائكة " من سلسلة العقائد للشيخ أحمد عز الدين البيانوني .

المبحث الثالث

رحمة الله بالحيوان والجماد

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : أمره ﷺ بالرفق والإحسان في قتل الحيوان أو ذبحه ، وإحداد الشفرة ، وإراحة الذبيحة : عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ قَالَ : نِثْنَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُجِدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيَرْحَ ذَبِيحَتَهُ) (١) .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : نهيه ﷺ عن لعن الحيوان : عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ ، فَضَجَرَتْ فَلَعَنَتْهَا ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ ، قَالَ عِمْرَانُ : فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْزُضُ لَهَا أَحَدٌ (٢) .

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ ، إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَضَاقَى بِهِمُ الْجَبَلُ ، فَقَالَتْ : حَلْ ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا ، قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ) . وَزَادَ فِي رَوَايَةٍ : (لَا أَيْمُ اللَّهُ لَا تُصَاحِبْنَا رَاحِلَةً عَلَيْهَا لَعْنَةٌ مِنْ اللَّهِ ، أَوْ كَمَا قَالَ) (٣) .

(١) - رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح ، وما يؤكل من الحيوان برقم /٣٦١٥/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٦٩٩/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧٠٠/ .

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى تعليقا على هذا الحديث : " واعلم أنَّ هذا الحديث قد يُستشكل معناه ، ولا إشكال فيه ، بل المراد النهي أن تصاحبهم تلك الناقة ، وليس فيه نهى عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ ، بل كل ذلك ، وما سواه من التصرفات جائز ، لا منع منه ، إلا من مصاحبته ﷺ بها ، فهذه التصرفات كلها كانت جائزة ، فمنع بعض منها ، فبقي الباقي على ما كان ، والله أعلم " (١) .

وتبدو لي نكتة لطيفة من نهى النبي ﷺ عن أن يُصحب بناقية ملعونة ، وهي أنَّ النبي ﷺ نبي الرحمة المهداة للعالمين ، واللجنة نوع من الغضب والعذاب ، وأنوار رحمته ﷺ تبدد ظلمات الغضب والعذاب فلا يجتمعان .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : نهيه ﷺ عن اتخاذ الحيوان غرضاً في الرماية ، وعن قتل الحيوان صبراً ، بحبسه حتى يموت :

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مرَّ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِفَتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْراً ، وَهُمْ يَرْمُونَهُ ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلِّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً (٢) .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ ، وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى رَاطِطٌ دَجَاجَةٌ يَرْمِيهَا ، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمَرَ حَتَّى حَلَّهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ ، فَقَالَ : " ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصِيرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ (نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بِهِيْمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ) (٣) .

(١) - رياض الصالحين ص/٤٦٢ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح ، وما يؤكل من الحيوان برقم /٣٦١٩ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الصيد والذبائح برقم /٥٠٩٠ .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : نبيه ﷺ عن أخذ أفراخ الطير عن

أمهاتها ، وعن حرق الحيوان بالنار : عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ ، فَأَرَانَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا ، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدَهَا ؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا ، وَرَأَى قَرِيَةً تَمْلِكُ قَدْ حَرَّقَتَاهَا ، فَقَالَ : مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ ؟ قُلْنَا : نَحْنُ ، قَالَ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ (١) .

وجاء في حادثة أخرى عَنْ غَامِرِ الرَّامِ قَالَ : إِنِّي لَبِيْلَادِنَا إِذْ رُفِعَتْ لَنَا رَايَاتٌ وَأَلْوِيَّةٌ فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا لِيَوَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ ، وَهُوَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، قَدْ بَسِطَ لَهُ كِسَاءً ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ ، فَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَسْقَامَ ، فَقَالَ : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أُرْسِلُوهُ ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ ، وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أُرْسِلُوهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْأَسْقَامُ ؟ وَاللَّهِ مَا مَرِضْتُ قَطُّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قُمْ عَنَّا فَلَسْتُ مِنَّا ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ كِسَاءٌ ، وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ قَدْ التَفَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ ، فَمَرَرْتُ بِعَيْضَةِ شَجَرٍ ، فَسَمِعْتُ فِيهَا أَصْوَاتَ فِرَاحٍ طَائِرٍ ، فَأَخَذْتُهُنَّ فَوَضَعْتُهُنَّ فِي كِسَائِي ، فَجَاءَتْ أُمُهُنَّ فَاسْتَدَارَتْ عَلَى رَأْسِي ، فَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهُنَّ ، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مَعَهُنَّ ، فَلَفَفْتُهُنَّ بِكِسَائِي ، فَهُنَّ أَوْلَاءٌ مَعِي ، قَالَ : ضَعْنُ عَنْكَ ، فَوَضَعْتُهُنَّ ، وَأَبَتْ

(١) - رواه أبو داود في كتاب الجهاد برقم / ٢٣٠٠ .

أُمُّهُنَّ إِلَّا لَزُومَهُنَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : (اَتَّعِجُّونَ لِرُحْمِ أُمَّ الْأَفْرَاحِ فِرَاحِهَا ؟) قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ! قَالَ : فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمَّ الْأَفْرَاحِ بِفِرَاحِهَا ، ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ ، وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ) ، فَرَجَعَ بِهِنَّ " (١) .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : نهيه ﷺ عن سبِّ الديك : ففي الحديث عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ ، فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ) (٢) .

وربما كانت رحمة الحيوان سبباً لرحمة الله ومغفرته : وتبلغ رحمة الإسلام بالحيوان مدى لا يتصوره إنسان ، عندما يخبرنا النبي ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَفَرَ لِرَجُلٍ رَحِمَ كَلْبًا عَطْشَانًا فَسَقَاهُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : مَوْسَى : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأْ خُفَّهُ ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ فِيهِ ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ : فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) (٣) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (غُفِرَ لِمَرْأَةٍ مُؤَمِّسَةٍ مَرَّتَ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ ، قَالَ : كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ ، فَتَزَعَتْ خُفَّهَا ، فَأَوْتَقَتْهُ بِخِمَارِهَا ، فَتَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ) (٤) .

(١) - رواه أبو داود في كتاب الجنائز برقم /٢٦٨٥/ .

(٢) - رواه أبو داود في كتاب الأدب برقم /٤٤٣٧/ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب المساقاة برقم /٢١٩٠/ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب المساقاة برقم /٢٢٣٦/ .

وَعُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا : وفي مقابل ذلك عُذِّبَتْ امرأة بالنار ،
لأنها حبست هِرَّةً حَتَّى مَاتَتْ .. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ()
عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا
وَسَقَتَهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ (١) .

ويدافع النبي ﷺ عَنْ جَمَلٍ مَظْلُومٍ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ : أُرْدِفَنِي
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا ، لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ
النَّاسِ ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا ، أَوْ حَائِشَ
نَخْلٍ ، قَالَ : فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ
ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ ، فَقَالَ : (مَنْ
رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : لِي يَا رَسُولَ
اللَّهِ ، فَقَالَ : أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ ، الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ؟ ! فَإِنَّهُ شَكََا
إِلَيَّ أَنْكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ) (٢) .

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي لَأَذْبَحُ
الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحُمُهَا ، أَوْ قَالَ : إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا ، فَقَالَ : (وَالشَّاةُ
إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ) (٣) .

وتبلغ الرحمة النبوية مدى بعيداً عندما يكتب الله للإنسان الأجر إذا أكلت
البهائم والطير من زرعه ، أو ثمر غرسه ، ولو كان ذلك بغير علمه أو رغبته ..

(١) - رواه البخاري في كتاب المساقاة برقم /٢١٩٢/ ومسلم في كتاب السلام برقم /٤١٦٠/
وهذا لفظه .

(٢) - رواه أبو داود في كتاب الجهاد برقم /٢١٨٦/ ، وذفرى البعير أصل أذنه ، وهما ذفريان ،
والذفرى مؤنثة ، وألفها للتأنيث أو الإلحاق ، كما في النهاية ١٦١/٢ .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم /١٥٠٣٩/ .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ ، أَوْ إِنْسَانٌ ، أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) ^(١) .



وأما مرحمنا ﷺ بالجماد :

فلقد استبشر الكون كله بمولد النبي ﷺ وبعثته ، واستنارت برسالته جنات الكون ، وأحيا الله به الأرض بعد موت وخراب ، وكيف لا ؟ وهو سيد المرسلين ، وقد أرسله الله رحمة للعالمين ، وخصه بدين الهدى والرحمة ، فالحجر يسلم عليه بالرسالة ، والجذع حن إليه عندما فارقه ، وجبل أحد اضطرب تحت قدميه ، حتى أمره بالسكون فسكن ..

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ) ^(٢) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ : خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ ، فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا ، وَبَدَأَ لَهُ أَحَدٌ قَالَ : (هَذَا جَبَلٌ يُحِينُنَا

(١) - رواه البخاري في كتاب الزراعة برقم /٢١٥٢/ ، ومسلم في كتاب المساقاة برقم /٢٩٠٤/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٢٢/ .

وَنُحِجُّهُ) ، ثُمَّ أَشَارَ يَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدَّنَا) (١) .
وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدًا ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ، فَرَجَفَ ، وَقَالَ : (اسْكُنْ أَحَدًا ، أَظَنَّهُ ضَرْبَهُ بِرَجْلِهِ ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ) (٢) .

وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ عَلَى جَبَلِ حِرَاءٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى جَبَلِ حِرَاءٍ فَتَحَرَّكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اسْكُنْ حِرَاءً ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ ، وَعَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلْحَةُ ، وَالزُّبَيْرُ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (٣) .

حَنِينُ الْجَذَعِ لِلنَّبِيِّ ﷺ : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : " كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُدُوعٍ مِنْ نَخْلٍ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جَذَعٍ مِنْهَا ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمُنْبَرُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ فَمَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجَذَعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَتَتْ " (٤) .

وَمِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالْحَمَادِ وَالْأَشْيَاءِ : نَهَاهُ ﷺ عَنْ سَبِّ الْحُمَى : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيْبِ فَقَالَ : مَا لَكَ يَا أُمَّ السَّائِبِ ، أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيْبِ تُزْفِرِينَ ؟ قَالَتْ : الْحُمَى ، لَا

(١) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم ٢٦٧٥/ ، ومسلم في كتاب الحج برقم ٢٤٢٨/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم ٣٤٢٣/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم ٤٤٣٩/ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم ٣٣٢٠/ .

بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، فَقَالَ : لَا تَسْبِي الْحُمَى ، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ ، كَمَا
يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ (١) .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالجماد والأشياء : نهيه ﷺ عن سب الدهر : عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ) (٢) .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالجماد والأشياء : نهيه ﷺ عن سب الرِّيح : عَنْ
أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا
تَكْرَهُونَ فَقُولُوا : " اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا ،
وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا
أُمِرْتُ بِهِ) (٣) .



(١) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٦٧٢/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها برقم /٤١٦٩/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ برقم /٢١٧٨/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ
حَسَنٌ صَحِيحٌ .

الفصل الثاني

مرحمة ﷺ بأصحابه وأمنه وأهم مظاهرها

لم يعرف التاريخ إنساناً نال من الحب والتقدير ما ناله رسول الله ﷺ من أصحابه ، وذلك لما رأوا منه من الأخلاق الكريمة ، والخصال الاجتماعية المحببة ، فقد كان ﷺ رءوفاً رحيماً بهم ، كما سماه الله في كتابه ، يتعهد شئونهم كلها ، ويتابع أحوالهم صغيرها وكبيرها : فيعود مريضهم ، ويشيع جنازتهم ، ويזורهم في بيوتهم ، ويؤانسهم ، ويمازح أطفالهم ، ويسأل عمّن غاب منهم ، ويعين ضعيفهم ، ويواسي فقيرهم ، ويشاركهم في الأفراح والأحزان ، ويرعى أراملهم وأيتامهم ، ويؤثر مساكينهم بما يأتيه من الهدايا على نفسه وأهل بيته ، ولا يدخر عنهم شيئاً من برّه ومعروفه ، ونصحه وتذكيره . وسيأتيك من أنباء ذلك في هذا الفصل ما يقنعك ويمتدحك ..

مثل النبي ﷺ مع أمته : وقد ضرب ﷺ لنفسه مثلاً بليغاً دقيقاً ، عن رحمته بأمته وشفقته ، وحرصه الشديد على إبعادها عن كل سوء ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ ، وَيَعْلِبُهُنَّ ، فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا ، قَالَ : فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخِذٌ بِحِجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ : هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، فَتَعْلَبُونِي ، تَقَحَّمُونَ فِيهَا) (١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم /٣١٧٣/ ، ومسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٣٥/ .

ولقد كانت حياة النبي ﷺ مع أصحابه ﷺ صورة مثلى عن التوجيه القرآني الكريم بقول الله تعالى : ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ﴾ ..
 ﴿الأحزاب . ٦﴾

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يقرّر هذا المعنى ويؤكدّه فقد روى البخاري عن أبي هريرة ؓ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أُولَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ﴾ ..
 ﴿ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ) (١) .

وهذه الولاية النبوية للمؤمنين والأولوية بهم لم تكن قاصرة على جانب دون آخر ، أو أمر دون أمر .. بل كانت شاملة عامّة ، عبّر عنها القرآن الكريم : بآته ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فليس ﷺ أولى بهم من آبائهم وأمهاتهم .. بل من أنفسهم .. التي هي أقرب شيء إليهم ..
 وإذا كان أقرب شيء للإنسان نفسه ، فقد نصّت هذه الآية الكريمة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أولى به من نفسه ، لآته ﷺ أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ، إذ كان سبب إنقاذهم من النار ، وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم ، فمن ثمّ فقد وجب على العبد إذا تعارض مراده مع مراد النبي ﷺ أن يقدم مراده ﷺ على حظّ نفسه ومرادها بلا تردد ، وآلاً يعارض قوله ﷺ بقول أحدٍ من الناس كائناً من كان ، وأن يقدم محبته ﷺ على محبة المال والأهل والولد ، وعلى محبة الناس كلّهم ، وبذلك يكون المؤمن صادقاً في إيمانه ، صادقاً في محبته وولائه ..

(١) - رواه البخاري في كتاب الاستقراض وأداء الديون برقم /٢٢٢٤/ ، وفي مواطن أخرى من الصحيح ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة ، وأحمد في المسند .

وإنَّ الإسلامَ يعدُّ المسئوليَّةَ الدَّعويَّةَ والقياديَّةَ مغرماً ثقيلاً ، وعبئاً كبيراً ، وليست مغنماً يتنافس فيه المتنافسون ، ويتزاحم عليه الطامعون الطامحون ، ومن ثمَّ فلا يتقدَّم إليها راغب ، ولو تقدَّم إليها لا يُعطاهَا .. وإنَّما يرشِّح لها الكفو ، ويكلفُ بها .. وعندما يكلفُ بها يصبح لمن هم تحت ولايته بمثابة الوالد : مسئولاً عن كبير أمورهم وصغيرها ، وخاصَّتها وعامَّتها ، ولا يعفيه أو يعذره غيبة شيء منها ، إذ عليه أن يباشر الأمور بنفسه ، ويرعاها بكفائته ، ويسعه أن يتَّخذ البطانة الصالحة ، والأعوان الناصحين ، ويشاور الأتقياء الصالحين ، وعلى قدر ما يتحقَّق بالصدق والإخلاص في عمله ، وتخلص لله تعالى نيَّته تأتيه المعونة والتوفيق من ربِّه .

قصة زواج ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ : ومن المواقف التي تتجلَّى فيها الرعاية النبويَّة الكريمة بأبهى صورها ، وأجمل مظاهرها ، وتتجلَّى ممارسة النبي ﷺ للمسئوليَّة الاجتماعيَّة عن أصحابه ، وبرِّه بهم ، وإحسانه ﷺ إليهم ، ممَّا يدعو الدعاة والقادة إلى التأسِّي والافتداء بنبِيِّهم ﷺ في تحمُّل المسئوليَّة ورعاية الأمة .. ما روى الإمام أحمد في مسنده عن ربيعة بن كعب الأسلميَّ ﷺ قال : " كُنْتُ أُحَدِّثُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَزَوِّجُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ ، فَأَعْرَضَ عَنِّي فَحَدَّثْتُهُ مَا خَدَمْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ لِي الثَّانِيَّةُ : يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَزَوِّجُ ؟ فَقُلْتُ : مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ ، فَأَعْرَضَ عَنِّي ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ ، لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُصْلِحُنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَعْلَمُ مِنِّي ، وَاللَّهُ لَئِنْ قَالَ : تَزَوِّجْ لَأَقُولَنَّ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ ، قَالَ : فَقَالَ : يَا رَبِيعَةُ أَلَا

تَزَوُّجُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، مُرِنِي بِمَا شِئْتَ، قَالَ: انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلَانٍ، حَيٍّ مِنْ
الْأَنْصَارِ، وَكَانَ فِيهِمْ تَرَاخٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزَوُّجُونِي فُلَانَةً لَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ، فَذَهَبْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ:
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزَوُّجُونِي فُلَانَةً، فَقَالُوا: مَرْحَبًا
بِرَسُولِ اللَّهِ، وَبِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهُ لَا يَرْجِعُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
إِلَّا بِحَاجَتِهِ، فَزَوِّجُونِي، وَالْطُّفُونِي، وَمَا سَأَلُونِي الْبَيِّنَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَزِينًا، فَقَالَ لِي: مَا لَكَ يَا رَبِيعَةُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْتُ
قَوْمًا كِرَامًا، فَزَوِّجُونِي وَأَكْرُمُونِي وَالْطُّفُونِي، وَمَا سَأَلُونِي بَيِّنَةً، وَلَيْسَ عِنْدِي
صَدَاقٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ، اجْمَعُوا لَهُ وَزْنَ نَوَاقٍ مِنْ
ذَهَبٍ، قَالَ: فَجَمَعُوا لِي وَزْنَ نَوَاقٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَخَذْتُ مَا جَمَعُوا لِي فَأَتَيْتُ
بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ فَقُلْ: هَذَا صَدَاقُهَا، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقُلْتُ:
هَذَا صَدَاقُهَا، فَرَضُوهُ، وَقَبَلُوهُ، وَقَالُوا كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ
ﷺ حَزِينًا، فَقَالَ: يَا رَبِيعَةُ مَا لَكَ حَزِينٌ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْتُ
قَوْمًا أَكْرَمَ مِنْهُمْ، رَضُوا بِمَا آتَيْتُهُمْ، وَأَحْسَنُوا، وَقَالُوا كَثِيرًا طَيِّبًا، وَلَيْسَ
عِنْدِي مَا أُولِمُ، قَالَ: يَا بُرَيْدَةُ، اجْمَعُوا لَهُ شَاةً، قَالَ: فَجَمَعُوا لِي كَبْشًا
عَظِيمًا سَمِينًا، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اذْهَبْ إِلَى عَائِشَةَ، فَقُلْ لَهَا:
فَلْتَبْعَثْ بِالْمِكْتَلِ الَّذِي فِيهِ الطَّعَامُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهَا فَقُلْتُ لَهَا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَذَا الْمِكْتَلُ، فِيهِ تِسْعُ أَصْعَ شَعِيرٍ، لَا وَاللَّهِ إِنْ أَصْبَحَ لَنَا
طَعَامٌ غَيْرُهُ خُدُّهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقَالَ:
اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ، فَقُلْ: لِيُصْبِحَ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْرًا، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَذَهَبْتُ
بِالْكَبْشِ، وَمَعِيَ أُنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ، فَقَالَ: لِيُصْبِحَ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْرًا، وَهَذَا

طَبِيخًا ، فَقَالُوا : أَمَّا الْخُبْزُ ، فَسَنَكْفِيكُمْوهُ ، وَأَمَّا الْكَبْشُ فَاكْفُونَا أَنْتُمْ ، فَأَخَذْنَا الْكَبْشَ أَنَا ، وَأُنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ ، فَذَبَحْنَاهُ وَسَلَخْنَاهُ ، وَطَبَخْنَاهُ ، فَأَصْبَحَ عِنْدَنَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ ، فَأَوْلَمْتُ وَدَعَوْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ..

ثُمَّ قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ ﷺ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي أَرْضًا وَأَعْطَانِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَرْضًا ، وَجَاءَتِ الدُّنْيَا فَاحْتَلَفْنَا فِي عِذْقِ نَخْلَةٍ ، فَقُلْتُ أَنَا : هِيَ فِي حَدِّي ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هِيَ فِي حَدِّي ، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ كَلَامٌ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : كَلِمَةٌ كَرِهَهَا وَنَدِمَ ، فَقَالَ لِي : يَا رَبِيعَةُ رُدِّ عَلَيَّ مِثْلَهَا حَتَّى تُكُونَ قِصَاصًا ، قَالَ : قُلْتُ : لَا أَفْعَلُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : لَتَقُولَنَّ أَوْ لَا سَتَعْدِينَّ عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، قَالَ : وَرَفَضَ الْأَرْضَ ، وَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَانْطَلَقْتُ أَتْلُوهُ ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ ، فَقَالُوا لِي : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ ، فِي أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَعِدِّي عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ قَالَ لَكَ مَا قَالَ ؟ فَقُلْتُ : أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ هَذَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ ، هَذَا ثَانِي اثْنَيْنِ ، وَهَذَا ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِيَّاكُمْ لَا يَلْتَفِتُ فَبِرَاكُمْ ، تَنْصُرُونِي عَلَيْهِ ، فَيَغْضَبُ فَيَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَيَغْضَبُ لِعِغْضِهِ ، فَيَغْضَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِغْضِهِمَا ، فَيُهْلِكَ رَبِيعَةَ ، قَالُوا : مَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : ارْجِعُوا .

قَالَ : فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَبِعْتُهُ وَحَدِيثِي ، حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ كَمَا كَانَ ، فَرَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رَبِيعَةُ مَا لَكَ وَلِلصَّدِّيقِ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ كَذَا ، كَانَ كَذَا ، قَالَ لِي : كَلِمَةٌ كَرِهَهَا ، فَقَالَ لِي : قُلْ كَمَا قُلْتُ ، حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا ، فَأَيِّتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَجَلْ ! فَلَا تُرَدُّ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قُلْ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ) فَقُلْتُ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، قَالَ الْحَسَنُ : فَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي (^(١)) .

(١) - رواه الإمام أحمد في المسند / ١٥٩٨٢ / .

فما أعظم العبر في هذه القصة والدروس . ؟! وأجلها : تلك الرعاية النبوية الحانية الودود ، للصحب الكرام ، الذين كان ﷺ لا يغفل فيها عن كبيرهم ولا صغيرهم ، ولا سيدهم ولا مسودهم .. يعطي كل ذي حق حقه ، بل ينال كل واحد منهم من تكرمته ورعايته فوق ما يطمح إليه ويتمناه ..

وكان ﷺ يتعرف على دخائل حياة أصحابه ﷺ ، ليعينهم على شؤون حياتهم ، ويخفف عنهم ما يواجهون من شدائد : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَا ، فَأَتَى عَلِيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : جَابِرُ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ قَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ قُلْتُ : أَبْطَأَ عَلَيَّ جَمَلِي وَأَعْيَا فَتَخَلَّفْتُ ، فَتَزَلَّ يَحْجُنُّهُ بِمَحْجَنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ارْكَبْ ، فَرَكِبْتُ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ أَكْفُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : تَزَوَّجْتَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : بِكَرًا أَمْ نَيْيًّا ؟ قُلْتُ : بَلْ نَيْيًّا ، قَالَ : أَفَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ ؟ قُلْتُ : إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تَجْمَعُهُنَّ وَتَمْسُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ ، قَالَ : أَمَّا إِنَّكَ قَادِمٌ ، فَإِذَا قَدِمْتَ فَالْكَيْسَ الْكَيْسَ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَبِيعُ جَمَلَكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَاشْتَرَاهُ مِنِّي بِأَوْقِيَّةٍ ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلِي ، وَقَدِمْتُ بِالْعَدَاةِ فَجِئْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : أَلَاآنَ قَدِمْتَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَدَعُ جَمَلَكَ ، فَادْخُلْ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ ، فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ ، فَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يَزِنَ لَهُ أَوْقِيَّةً ، فَوَزَنَ لِي بِلَالٌ ، فَأَرْجَحَ لِي فِي الْمِيزَانِ ، فَأَنْطَلَقْتُ حَتَّى وَلَّيْتُ ، فَقَالَ : ادْعُ لِي جَابِرًا ، قُلْتُ : الْآنَ يَرُدُّ عَلَيَّ الْجَمَلُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغُضَ إِلَيَّ مِنْهُ ، قَالَ : خُذْ جَمَلَكَ ، وَلَكَ ثَمْنُهُ (١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب البيوع برقم ١٩٥٥ .

وفي رواية عنه عليه السلام قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّفَاعِ ، مُرْتَجِلاً عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلْتُ الرِّفَاقُ تَمْضِي ، وَجَعَلْتُ أَتَخَلَّفُ ، حَتَّى أَدْرَكَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَا لَكَ يَا جَابِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْطَأَ بِي جَمَلِي هَذَا ، قَالَ : فَأَنْخَعُهُ ، وَأَنَاخَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ ، أَوْ قَالَ : اقْطَعْ لِي عَصَاً مِنْ شَجَرَةٍ ، قَالَ : فَفَعَلْتُ ، قَالَ : فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَحَسَهُ بِهَا نَحْسَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : ارْكَبْ ، فَرَكِبْتُ ، فَخَرَجَ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهِقَةً ، قَالَ : وَتَحَدَّثَ مَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَتَبِيعُنِي جَمَلُكَ هَذَا يَا جَابِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلْ أَهْبُهُ لَكَ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ بَعِينِي ، قَالَ : قُلْتُ : فَسُمِّنِي بِهِ ، قَالَ : قَدْ قُلْتُ ، أَخَذْتُهُ بِدِرْهِمٍ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، إِذَا يَعْنِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَبِدِرْهِمَيْنِ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ الْأَوْقِيَّةَ ، قَالَ : قُلْتُ : فَقَدْ رَضِيتُ ، قَالَ : قَدْ رَضِيتَ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، قُلْتُ : هُوَ لَكَ ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهُ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ لِي : يَا جَابِرُ هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَتَيْيَا أَمْ بِكَرًا ؟ قَالَ : قُلْتُ : بَلْ تَيْيَا قَالَ : أَفَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا ، فَتَكَحَّتْ امْرَأَةٌ جَامِعَةً ، تَجْمَعُ رُءُوسُهُنَّ ، وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ ، قَالَ : أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا أَمَرْنَا بِحُزُورٍ فَنُجِرْتُ ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ ، وَسَمِعْتُ بِنَا فَتَفَضَّتْ نَمَارِقَهَا ، قَالَ : قُلْتُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ ، قَالَ : إِنَّهَا سَتَكُونُ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيْسًا ، قَالَ : فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحُزُورٍ فَنُجِرْتُ ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلْنَا ، قَالَ : فَأَخْبَرْتُ الْمَرْأَةَ الْحَدِيثَ ، وَمَا قَالَ

لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ : فَدُونَكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً ، قَالَ : فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ
 بِرَأْسِ الْجَمَلِ ، فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنْخُتَهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي
 الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ ، قَالَ : وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى الْجَمَلَ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟
 قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ جَابِرٌ ؟ فَدُعِيتُ لَهُ ،
 قَالَ : تَعَالَي أَيُّ يَا ابْنَ أَخِي خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهُوَ لَكَ ، قَالَ : فَدَعَا بِإِلَاقٍ فَقَالَ :
 اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً ، وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا ،
 قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا ، وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا ، حَتَّى أَصِيبَ أُمْسٌ فِيمَا
 أَصِيبَ النَّاسُ ، يَعْنِي يَوْمَ الْحَرَّةِ (١) .

وَمِنْ رَحْمَةِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَبِرِّهِ بِهِمْ : إِقْبَالُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ جُلَسَائِهِ ،
 وَحِرْصُهُ عَلَى رَاحَتِهِمْ ، وَاهْتِمَامُهُ بِمَا يَقْلُقُهُمْ :

عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " مَا حَجَّيْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْذُ أَسْلَمْتُ ، وَلَا
 رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ " . وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ : " وَلَقَدْ شَكَّوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا
 أَتُبُّ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ يَدَيْهِ فِي صَدْرِي ، وَقَالَ : (اللَّهُمَّ بَيِّتْهُ ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا
 مَهْدِيًا) (٢) .

وَمِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ : بُكَاءُهُ لَشُكْوَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : اشْتَكَى
 سَعْدُ ابْنُ عُبَادَةَ ﷺ شُكْوَى لَهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ
 عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ
 فِي غَاشِيَةٍ أَهْلِهِ ، فَقَالَ : قَدْ قَضَى ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ ،

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٤٤٩٥/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم /٤٥٢٣/ .

فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا ، فَقَالَ : أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلَا يَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا ، وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذِّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ (١) .

مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ ، وَتَحْنُ مَعَهُ ، فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ ، وَإِنَّهُ لَيَدَخُنُ ، وَكَانَ ظِئْرُهُ فِينَا ، فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبَلُهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ ، قَالَ عَمْرُو : فَلَمَّا تُوفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي ، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي النَّدْيِ ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكْمَلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ) (٢) . وفي رواية في غير الصحيح : " وَيَشْمُهُ " .

ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ : حبه ﷺ لأصحابه وأمه :

وما أكثر ما تتحدث عن وجوب محبة النبي ﷺ ، ونذكر مظاهرها وثمراتها ، ونماذج من محبة الصحب الكرام للنبي ﷺ ، وكيف فدوه في الشدائد مواطن البأس بأورواحهم ومهجهم ، وكلّ غالٍ ونفيس ، ولكننا نغفل عن أنّ هذه المحبة لها أسبابها من جانب شخصية المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وأخلاقه الكريمة وشمائله ، وسببها الأول ما رآه الصحابة ﷺ في النبي ﷺ من خصال الكمال والجمال ، وما قدّم لهم صلوات الله وسلامه عليه من حبٍّ وإحسان ، هو أعظم إحسان بعد إحسان الله تبارك وتعالى ، وقد سبقت محبته ﷺ لأصحابه وأمه محبتهم إياه ، فلا عجب بعد ذلك أن انجذبت قلوبهم إليه ،

(١) - رواه البخاري في كتاب الجنائز برقم /١٢٢١/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٨٠/ .

وفدوه بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، وهفت أرواحهم للقياء ومجالسته ، كما تهفو صغار الطير إلى أمهاتها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبِرَةَ فَقَالَ : (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ، وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا ، قَالُوا : أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَأَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، فَقَالُوا كَيْفَ نَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ، بَيْنَ ظَهْرَيَّ خَيْلٍ ذُهُمٌ بِهِمْ ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لَيْدَادُنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ، أَنَادِيهِمْ : أَلَا هَلُمَّ ، فَيَقَالُ : إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : سُحْقًا ، سُحْقًا) ^(١) .

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ : سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه يَقُولُ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ فَقَالَ : (انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظُعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوا مِنْهَا) ، قَالَ : فَأَنْطَلَقْنَا نَعَادِي بَنِي خَيْلِنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالظُّعِينَةِ قُلْنَا لَهَا : أَخْرِجِي الْكِتَابَ ، قَالَتْ : مَا مَعِيَ كِتَابٌ ، فَقُلْنَا : لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ ، قَالَ : فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا ، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا فِيهِ : مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَفْعَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ، يَقُولُ : كُنْتُ حَلِيفًا ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ

(١) - رواه مسلم في كتاب الطهارة برقم ٣٦٧ .

فَأْتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ اتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا ، يَحْمُونَ قَرَاتِي ، وَلَمْ أَفْعَلْهُ
ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا إِنَّهُ
قَدْ صَدَقَكُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أَضْرِبُ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ،
فَقَالَ : (إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا ،
فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ

مِنَ الْحَقِّ .. إِلَى قَوْلِهِ : فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴿ " الممتحنة (١) .

ومن محبته ﷺ لأصحابه وأمه دلالته على الخير وتبشيرهم بالجنة :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَطْلُعُ
عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ
وُضُوئِهِ ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ
ذَلِكَ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ
ﷺ مِثْلَ مَقَالِهِ أَيْضًا ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ
ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ : إِنِّي لَأَحِبُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا
أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ قَالَ نَعَمْ قَالَ
أَنَسٌ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمَّ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ
اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَى وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى
يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ، فَلَمَّا
مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلُهُ قُلْتُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ

(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم / ٣٩٣٩ / ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم

بَنِي وَيَبْنِي أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ تُمْ ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ : (يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) ، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ ، لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ قَالَ : فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ " (١) .

ومن رحمته ﷺ بأصحابه وأُمَّته نهيه عن تمتي الموت ، أو الدعاء بنزول

البلاء :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا يَتَمَتَّنُ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَتِّنًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ : (اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي) (٢) .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ : اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَا تُطِيقُهُ ، أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ، أَفَلَا قُلْتَ : (اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ، قَالَ : فَدَعَا اللَّهُ لَهُ فَشَفَّاهُ " (٣) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٢٢٣٦/ وقال الهيثمي /٧٩/٨ رجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم /٥٨٧٤/ ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم /٤٨٤٠/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم /٤٨٥٣/ .

إِنَّهُ ﷺ الرحمة الإلهية العامة المهداة ، معلّم الناس الخير ، مربّي النفوس على الثقة بالله ، وحسن الظنّ به ، والإيجابية في المواقف ، والتفاؤل في الحياة ..
ومن رحمته ﷺ أَنَّهُ كَانَ لَا يَواجِه أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : (يَبْنَؤُ ابْنُ الْعَشِيرَةِ) ، فَلَمَّا دَخَلَ هَشَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ آخَرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نِعَمْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا دَخَلَ لَمْ يَنْبَسِطْ إِلَيْهِ كَمَا انْبَسَطَ إِلَى الْآخَرِ وَلَمْ يَهْشَّ لَهُ كَمَا هَشَّ فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَأْذَنَ فُلَانٌ فَقُلْتُ لَهُ مَا قُلْتَ ثُمَّ هَشَّشْتُ لَهُ وَانْبَسَطْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لِفُلَانٍ مَا قُلْتَ وَلَمْ أَرَكَ صَنَعْتَ بِهِ مَا صَنَعْتَ لِلْآخَرِ فَقَالَ : (يَا عَائِشَةُ إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ أَتَقِيَ لِفَحْشِيهِ) (١) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ : ﴿ رَبِّ إِنِّهْنِ أَصْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي .. ﴾ الآية ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١٨) ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : (اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلِّهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْؤُوكَ) (٢) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٠٩ / .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٣٠١ / .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَظِيْبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاءَ غُرَاءَ غُرْلًا : ﴿ ١٠٤ 〉 .. كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِيلِينَ ﴿ ١٠٥ 〉) أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ، فَأَقُولُ : يَا رَبُّ أَصْحَابِي ! فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِكَ ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ ١٠٦ 〉 .. وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ ١٠٧ 〉) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ ١٠٨ 〉) المائدة ، قَالَ : فَيُقَالُ لِي : إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتُهُمْ (١) .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ بِآيَةٍ ، وَالْآيَةُ : ﴿ ١٠٩ 〉 إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ ١١٠ 〉) (٢) .

وَعَنْ جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ : أَنَّهَا انْطَلَقَتْ مُعْتَمِرَةً فَانْتَهَتْ إِلَى الرَّبْدَةِ ، فَسَمِعَتْ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، فَصَلَّى بِالْقَوْمِ ، ثُمَّ تَخَلَّفَ أَصْحَابُ لَهُ يُصَلُّونَ ، فَلَمَّا رَأَى قِيَامَهُمْ وَتَخَلَّفَهُمْ انْصَرَفَ إِلَى رَحْلِهِ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ قَدْ أَخْلَوْا الْمَكَانَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَصَلَّى ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ خَلْفَهُ ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَمِينِهِ ، فَقُمْتُ عَنْ يَمِينِهِ ، ثُمَّ جَاءَ ابْنُ مَسْعُودٍ

(١) - رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم / ٥١٠٤ .

(٢) - رواه النسائي في كتاب الافتتاح برقم / ١٠٠٠ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم / ١٣٤٠ .

فَقَامَ خَلْفِي وَخَلْفَهُ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِشِمَالِهِ ، فَقَامَ عَنْ شِمَالِهِ ، فَقُمْنَا ثَلَاثُنَا ، يُصَلِّي كُلُّ رَجُلٍ مِمَّنَا بِنَفْسِهِ ، وَيَتْلُو مِنَ الْقُرْآنِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْلُو ، فَقَامَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُرَدِّدُهَا ، حَتَّى صَلَّى الْعَدَاةَ ، فَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحْنَا أَوْمَأْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : أَنْ سَلُهُ مَا أَرَادَ إِلَيَّ مَا صَنَعَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِيَدِهِ : لَا أَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يُحَدِّثَ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، قُمْتَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَمَعَكَ الْقُرْآنُ ، لَوْ فَعَلَ هَذَا بَعْضُنَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ، قَالَ : دَعَوْتُ لِأُمِّي ، قَالَ : فَمَاذَا أُجِبتُ ، أَوْ مَاذَا رُدَّ عَلَيْكَ ، قَالَ : أُجِبتُ بِالَّذِي لَوْ أَطْلَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ طَلْعَةً تَرَكُوا الصَّلَاةَ ، قَالَ : أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : بَلَى ، فَأَنْطَلَقْتُ مُعْنِياً قَرِيباً مِنْ قَذْفَةٍ بِحَجَرٍ ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ إِنْ تَبَعْتُ إِلَى النَّاسِ بِهَذَا نَكَلُوا عَنْ الْعِبَادَةِ ، فَنَادَى : أَنْ ارْجِعْ فَرَجِعْ ، وَتِلْكَ الْآيَةُ : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١) .

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيُوعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرِفُ الْأَيْتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾ ^(٢) الأنعام : عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا ، فَأَعْطَانِي ثَنَتَيْنِ ، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا ^(٣) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم / ٢٠٥٢٠ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفتن وأشرط الساعة برقم / ٥١٤٥ وانظر تفسير ابن كثير ١٢٦ / ٢ .

حفظه ﷺ لمكاته أصحابه ﷺ وأقذارهم ، ونهيه عن الإساءة إليهم :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) ^(١) .

وعن ابن عباس ﷺ قال : " بعث رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خالد بن الوليد ﷺ على سرية ، ومعه في السرية عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، قَالَ : فخرَجوا حتَّى أتوا قرياً من القوم الذين يريدون أن يصبّحوهم نزلوا في بعض الليل قال : وجاء القوم النذير ، فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته ، فأمر أهله فتحملوا ، وقال : قفوا حتَّى آتيكم ، ثم جاء حتَّى دخل على عمار قال : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وأهل بيتي ، فهل ذلك نافعي إن أنا أقمتُ ؟ فإنّ قومي قد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال : فقال له عمار : فأقم فأنت آمن .

فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا ، فأخذ الرجل وأهله ، فقال له عمار : إنّه لا سبيل لك على الرجل قد أسلم . قال : وما أنت وذاك ؟ أتجبر عليّ وأنا الأمير ؟! قال : نعم ، أجبر عليك وأنت الأمير .. إنّ الرجل قد آمن ، ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه ، فأمرته بالمقام لإسلامه ، فتنازعا في ذلك حتَّى تشاتما ، فلمّا قدما المدينة اجتمعا عند رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فذكر عمار الرجل ، وما صنع ، فأجاز رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أمان عمار ، ونهى يومئذ أن يجبر أحد على الأمير ، فتشائما عند

(١) - رواه البخاريّ في كتاب المناقب برقم /٣٣٩٧/ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم /٤٦١١/ وهذا لفظه .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فقال خالد : يا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أيشتمني هذا العبد عندك ؟ أما والله لولاك ما شتمني ، فقال نبيّ الله ﷺ : كفّ يا خالد عن عَمَّار ، فإنّه من ييغض عَمَّاراً ييغضه الله عزّ وجلّ ، ومن يلعن عَمَّاراً يلعنه الله عزّ وجلّ ، ثمّ قام عَمَّار ، واتبعه خالد بن الوليد ، حتّى أخذ بثوبه ، فلم يزل يترصّاه حتّى رضي عنه .. (١) .

ومن رحمته ﷺ بأصحابه وأمتّه : وعظّم وتذكيرهم ، ووصيتهم والعهد إليهم :
عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودِّعٌ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالتَّوَاجِدِ) (٢) .
وزَادَ فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ : (وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) .

وزاد في رواية أحمد : قَالَ : (قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ .. وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالتَّوَاجِدِ ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْحِمْلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا انْقَادَ) .

(١) - رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ .. ﷻ النساء ، وابن عساكر .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب العلم عن رسول الله ﷺ برقم /٢٦٠٠/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وأبو داود في كتاب السنة برقم /٣٩٩١/ وأحمد في مسند الشاميين برقم /١٦٥١٩/ ،

وَالْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ يُكْنَى أَبَا نَجِيحٍ ، وَهُوَ مِنْ نَزَلَ فِيهِ : ﷻ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَعْمِلُنَّ قُلُوبَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ .. ﷻ التوبة .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَذْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَدَهُ بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً ، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَضَحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ " (١) .

وَفِي رَوَايَةٍ : ثُمَّ جَبَدَهُ إِلَيْهِ جَبْدَةً رَجَعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فِي نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ " .
وَفِي رَوَايَةٍ : فَجَادَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ الْبُرْدُ ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " .

وَمِنْ رَحْمَةِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَأَمَّتِهِ تَحْذِيرُهُمْ مِنَ الْفِتَنِ ، وَبَيَانِ الْمَخْرَجِ مِنْهَا :

عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ قَالَ : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ : نَعَمْ قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ قَالَ : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى يُعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ : نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا فَقَالَ : هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّنِّينَا قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ : تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ : فَاعْتَرِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعْصِيَ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ " (٢) .

(١) - رواه البخاري في كتاب اللباس برقم /٥٣٦٢/ ، ومسلم في كتاب الزكاة برقم /١٧٤٩/ وهذا لفظه .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم /٣٣٣٨/ ومسلم في كتاب الإمامة برقم /٣٤٣٤/ .

ومن رحمته ﷺ بأصحابه وأمه تحذيرهم من فتنة المسيح الدجال ، وهي

أخطر الفتن وأعماها :

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً ، فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَقَالَ : غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِيحُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرُو حَاجِيحِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعَزَى بْنِ قَطَنِ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ حَلَّةَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا ، وَعَاثَ شِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَابْتُئُوا ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا لَبَثُهُ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ ؟ قَالَ : لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطَرُ ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًّا ، وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِّينَ ، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكَ ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلَأً شَبَابًا ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ، فَيَقْطَعُهُ حَزَلَتَيْنِ رَمِيَةَ الْعَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ

الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ، وَاضِعاً كَفَيْهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَئِينَ ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ ، فَيُطْلَبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بَابٌ لَدُ فَيْقُتْلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمَ ، قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً إِلَيَّ ، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ ، فَحَرَّرْتُ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ يَهْدِيهِ مَرَّةً مَاءً ، وَيُخْصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ التَّغْفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرَسَى ، كَمَوْتَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شَيْءٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطْراً لَا يَكُنُ مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ : أَنْبِئِي تَمَرْتَكِ ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ ، حَتَّى أَنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَيْئَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَحِجَةَ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحاً طَيِّبَةً ، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَائِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ) .

وفي وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ : ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، فَيَرْمُونَ بِنُشَابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا .

وَفِي رَوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ : (فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي ، لَا يَدِينِي لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ) ^(١) .

ومن رحمته ﷺ بأصحابه وأُمَّته : دعوتهم إلى التوسط والاعتدال والاعتزان ،

ونهيهم عن الترهيب ، والغلو في الدين ، وحثهم على التمسك بسنته واتباع هديه :
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا ، كَانَهُمْ تَقَالُوهَا ، فَقَالُوا :
وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَأَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا ، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أُخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَنْتَاقُكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) ^(٢) .

(١) - رواه ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة برقم /٥٢٢٨/ ، وقد جمع المحدث الشيخ محمد أنور شاه الكشميري الهندي رحمه الله ، الأحاديث الواردة في نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان ، وأثبت تواترها ، وذكر أهم الأحاديث الواردة في الدجال في كتابه النفيس : " التصريح بما تواتر في نزول المسيح " ، وعلق عليه أستاذنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، رحمه الله .

(٢) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٦٧٥/ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ ، وَحَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : لِزَيْنَبَ ، تُصَلِّي فِيمَاذَا كَسَلَتْ ، أَوْ فَرَّتْ أَمْسَكَتْ بِهِ ، فَقَالَ : حُلُوهُ ، لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فِيمَاذَا كَسِلَ أَوْ فَرَّ قَعَدَ ^(١) .
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَحَّصَ فِيهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ ، وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ ﷺ : (مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَحَّصْتُ فِيهِ ، فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ؟! فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً) ^(٢) .

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعُقْبَةِ ، وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ : هَاتِ ، الْقُطْ لِي ، فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ : بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْعُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ الْعُلُوَّ فِي الدِّينِ ^(٣) .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ فَقَالَتْ : مِمَّنْ أَنْتَ فَقُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَقَالَتْ : كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ ؟ فَقَالَ : مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا ، إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبُعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبُعِيرَ ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ ، فَقَالَتْ : أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَحْيَى ، أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا : (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ

(١) - رواه البخاري في كتاب الجمعة برقم/١٠٨٢/ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم/١٣٠٦/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٦٣٦/ ، ومسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٣٤٥/ .

(٣) - رواه النسائي في كتاب مناسك الحج برقم /٣٠٠٧/ .

أُمِّي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمِّرِ أُمِّي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ
فَارْفُقْ بِهِ (١) .

ومن رحمته ﷺ بأصحابه وأُمَّته : خشيته أن يفرض عليهم من العمل ما لا
يطيقون :

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ بِاللَّيْلِ أَوْ زَاعًا ، يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَيَكُونُ
مَعَهُ التَّفَرُّ الْخَمْسَةَ أَوْ السَّتَةَ ، أَوْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ ، فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ ،
قَالَتْ : فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ حَصِيرًا عَلَى بَابِ
حُجْرَتِي ، فَفَعَلْتُ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ،
قَالَتْ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا طَوِيلًا ، ثُمَّ
انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَدَخَلَ وَتَرَكَ الْحَصِيرَ عَلَى حَالِهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ
تَحَدَّثُوا بِصَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، قَالَتْ :
وَأَمْسَى الْمَسْجِدُ رَاجَاً بِالنَّاسِ ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ
دَخَلَ بَيْتَهُ ، وَكَبَّتِ النَّاسُ قَالَتْ : فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا شَأْنُ النَّاسِ يَا
عَائِشَةُ ؟ قَالَتْ : فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ النَّاسُ بِصَلَاتِكَ الْبَارِحَةَ بِمَنْ
كَانَ فِي الْمَسْجِدِ فَحَشَدُوا لِلَّذِكَ ، لِيُصَلِّيَ بِهِمْ ، قَالَتْ : فَقَالَ : اطْوِ عَنَّا
حَصِيرَكَ يَا عَائِشَةُ ، قَالَتْ : فَفَعَلْتُ ، وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَافِلًا ، وَكَبَّتِ
النَّاسُ مَكَانَهُمْ ، حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الصُّبْحِ ، فَقَالَتْ : فَقَالَ : (أَيُّهَا
النَّاسُ أَمَا وَاللَّهِ مَا بَتُّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْلَتِي هَذِهِ غَافِلًا ، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ ،
وَلَكِنِّي تَخَوَّفْتُ أَنْ يُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ ، فَاكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ

(١) - رواه مسلم في كتاب الإمامة برقم / ٣٤٠٧ .

لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمْلُوا) ، قَالَ : وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ : إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ (^(١)) .

ومن رحمته ﷺ بالناس : أمره بالأخذ بظواهرهم ، وترك سرائرهم إلى الله

تعالى :

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهِينَةَ فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَطَعْنَتْهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَقَتْلَتْهُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ ، قَالَ : أَفَلَا شَقِقتَ عَنْ قَلْبِهِ ، حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا ؟ فَمَا زَالَ يُكْرِرها عَلَيَّ ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ (^(٢)) .

ويبلغ برّ النبي ﷺ بأصحابه ورفقه بهم أقصى مداه إذ يعامل أولئك المنافقين المراءغين ، المخادعين المتآمرين ، الذين هم في ظاهر الأمر من المسلمين ، ولكنهم في حقيقتهم من الكافرين المكذبين ..

وإنّ الموقف من هؤلاء المراءغين المذبذبين ، أصحاب " الولاء المزدوج " من أصعب الأمور التي تتعرّض لها الدعوة إلى الله تعالى ، ويتعرّض لها الدعاة .. لأنهم أخطر على المجتمع المسلم من الكافرين ، إذ هم مدسوسون في المجتمع ، منبثون بين أبنائه ، ويعدّون جزءاً من كيانه ، ومع ذلك فولأؤهم لمن هم خارج بنيانه .. ومع ذلك فإنّ النبي ﷺ يترفق بهم ، ويداريهم ، ويحسن صحبتهم ، لعلهم يتوبون ، وإلى الحقّ والهدى يتوبون ، ولعلّ تلك المعاملة الكريمة تغسل

(١) - رواه أحمد في المسند برقم / ٢٥١٠٣ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم / ٣٩٣٥ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم / ١٤٠ / وهذا لفظه .

أمراض قلوبهم ، وتستل سخائم أنفسهم ، ويسن النبي ﷺ بذلك لقادة الأمة والدعاة من بعده سنة لا تبدل لها ، ولا انحراف عنها .

عن جابر بن عبد الله ﷺ يقول : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ ، قَالَ : يَرُونَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ^(١) ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لِلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟! فَقِيلَ : رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتَبَتَّةٌ ، قَالَ جَابِرٌ ﷺ : وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ أَقَلَّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي فَقَالَ : فَعَلُوهَا ! وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ ﷺ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (يَا عُمَرُ دَعُهُ ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) ^(٢) .

وفي سيرة ابن هشام : قَالَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي : " أَوْقَدَ فَعَلُوهَا .!؟ " قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا ، وَاللَّهِ مَا أَعَدَّنَا وَجَلَّابِيبَ قَرِيشَ ^(٣) إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : " سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ " أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ .. وَجَاءَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي - وَلَدَ الْمُنَافِقِ ، وَكَانَ مُؤْمِنًا صَادِقًا - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ

(١) - بنو المصطلق بطن من خزاعة ، وكانت الغزوة في شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، وسببها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضَرَارٍ الْخَزَاعِيَّ كَانَ قَدْ جَمَعَ الْجُمُوعَ لِمُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ مَعَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، لَمْ يَخْرُجُوا فِي غَزْوَةٍ قَطَّ مِثْلَهَا ، انْظُرْ كِتَابَ : " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " لِمُحَمَّدٍ رِضَا ص / ٢٢١ / .

(٢) - رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ / ١٤٦٨٨ / ، وَانْظُرْ تَهْذِيبَ سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ ص / ١٨٧ / ، وَحَيَاةَ الصَّحَابَةِ ١ / ٤٧٣ / .

(٣) - لَقِبَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَلْقَبُونَ بِهِ مِنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ .

أن رجعوا إلى المدينة فقال : إنه بلغني أنك تريد قتل أبي ، فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابدّ فاعلاً ، فمرني فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار .. فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (بل نترفق به ، ونحسِنُ صُحْبَتَهُ ما بقيَ معنا) .

وجعل بعد ذلك إذا حدّث عبد الله بن أبي بالحديث من أقاويله وفتنه ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويعتفونه ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لعمر بن الخطاب ؓ : (كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله ، لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته) ، فقال عمر ؓ : " قد والله علمتُ لأمر رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أعظم بركة من أمري " .

إلا إنها عظمة الأخلاق النبوية ، وحكمة وحي السماء ، وسياسة الدعوة الراشدة ، وبعد النظر ، ونفاذ البصيرة .. فأين أولئك الذين يزرعون الفتن يميناً وشمالاً بين إخوانهم المؤمنين ، ويشيعون التهم والأحكام الجائرة ، ويصنّفون الناس أصنافاً شتى ، بحجّة الغيرة على الإسلام ، والدفاع عن حرّماته ؟!

أين هؤلاء الذين يعاملون إخوانهم المؤمنين بأسوأ ممّا يُعاملُ به المنافقون المخادعون ؟! لأسباب باطلة ، ومبررات كاذبة ، ويناصبونهم العداء والشقاق أكثر ممّا يرى منهم المنافقون والوالغون في تمزيق صفوف الأمة وخلخلة بنيانها ..

إنّ على هؤلاء أن يصحّحوا فهمهم لدينهم ، ويحاسبوا أنفسهم على اندفاعاتهم الرعناء ، التي يحسبونها غيرة على دين الله ، ودين الله منها براء ، وهي ليست إلّا انتصاراً لأهواء النفس وعللها ، ودوافعها العليلة المريية .. أين هؤلاء من هدي المصطفى الكريم ، وخلق العظيم ؟!



الفصل الثالث

رَحْمَةُ ﷺ بِالْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ وَحُسْنُ عِشْرَتِهِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ
صُورٌ مُشْرِقةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّفْقِ ، وَالشَّفَقَةِ وَالْبِرِّ ، وَسُمُو الْعِلَاقَةِ
وَرِعَايَةِ الْحَقُوقِ ، والدَّعْوَةُ إِلَى الْإِحْسَانِ

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رحمة النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَطْفَالِ ومظاهرها

المبحث الثاني : رحمة النَّبِيِّ ﷺ بالنساء ومظاهرها

المبحث الثالث : حُسْنُ عِشْرَتِهِ ﷺ لِأَهْلِ بَيْتِهِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ
وَالْمُسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ ، الصَّائِمِ النَّهَارَ) ^(١) .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَخْرِجُ حَقَّ
الضَّعِيفَيْنِ : الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ) ^(٢) .

(١) - رواه البخاري في كتاب النفقات برقم /٤٩٣٤/ ومسلم في كتاب الزهد والرقائق برقم /٥٢٩٥/ .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب الأدب برقم /٣٦٦٨/ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ الذِّكْرَ ،
وَيُقِلُّ اللَّغْوَ ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ ، وَيَقْصُرُ الْخُطْبَةَ ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ
وَالْمُسْكِينِ ، فَيَقْضِي لَهُ الْحَاجَةَ (١) .



المبحث الأول

مرحمة النبي ﷺ بالأطفال ومظاهرها

تمهيد :

رحمة النبي ﷺ بالأطفال منجم من البحث بكر ، يتسع القول فيه
كما تتسع مرحلة الطفولة باحتياجاتها النفسية والجسميّة والعقليّة لكلّ مناحي
الحياة .. ويتداخل الحديث عن الطفولة في نصوص الوحيين الشريفين مع
الحديث عن حياة الإنسان كلّها ، فمن ثمّ لم يستدع الأمر عند سلفنا أفراد
الحديث عن الطفولة في مصنّفات مستقلة لهذا الاعتبار ، ولاعتبار آخر :
وهو أنّ النظرة الشموليّة العامّة هي التي كانت تحكم البحث والتصنيف لدى
علمائنا على وجه العموم ، مع الأخذ بالاعتبار الحديث عن الأحكام الخاصّة في
مكانها المناسب ..

(١) - رواه النسائي في كتاب الجمعة برقم /١٣٩٧/ .

لكنّ الأمر المؤكّد أنّ هذا التداخل والاشتراك في البحث لم ينقص الاهتمام بالطفولة بأدقّ أحكامها وتفصيلاتها أدنى حظّها ، منذ أن تكون في المرحلة الجنينية إلى أن تبرّغ عليها شمسُ الوجود ، وإلى أن تمرّ بأطوار الطفولة المختلفة ، ثمّ تودّعها على أعتاب البلوغ ، ليدخل الإنسان بعد ذلك مرحلة التكليف والمسئوليّة ..

وأحبّ أن أوكدّ في مقدّمة هذا المبحث أنّ الأحكام والآداب ، والمبادئ الأخلاقيّة والتربويّة التي جاء بها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ممّا يخصّ الطفولة ، ويكفل لها حقوقها ، ويحقّق لها النشأة السويّة .. هذه الأحكام والمبادئ لم تعرفها آية حضارة من حضارات الأرض يوم بزغت شمس الإسلام على الناس ، كما لم تعرف كثيراً منها البشريّة في عصرنا الحاضر إلّا متأخراً ، وبصورة لا تداني في شيء دقّة الإسلام وشموله ..

ويوم كانت أمة الإسلام تعطي الطفولة حقّها من التربية والرعاية ، وفق هدي النبوة ومنهجها خرّجت أمة الإسلام للدنيا عباقرة العلم والحضارة ، الذين تجلّى في حياتهم النبوغ المبكّر ، وقامت على أكتافهم حضارة الإسلام في كلّ ميدان من ميادين الحياة ..

هذا ، وإنّ رحمة النبيّ ﷺ بالأطفال لم تقف عند حدّ ، وعنايته بكلّ شئونهم نوع من الرحمة العامّة التي بعث بها ، فكانت خيراً على الإنسانيّة كلّها .. وسأقدّم في هذا المبحث نماذج من رحمة النبيّ ﷺ بالأطفال ومظاهرها ، تحت عناوين فرعيّة معبّرة ، ولن أعلّق كثيراً على تلك المواقف والمبادئ والأحداث ، وهو بحث جدير أن يفرد بمؤلّف جامع واسع ، يتمّ فيه البحث الدقيق ، والمسح الشامل لما جاء في جوامع السنّة ودواوينها ^(١) .

(١) - للباحث مؤلّف خاصّ مطبوع بعنوان : " مواقف تربويّة من هدي النبيّ ﷺ مع الأطفال " وقد اقتبس منه نصوصاً كثيرة في هذا المبحث .

* حَبَّ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَطْفَالِ ، وَحَبَّهِمْ لَهُ ، وَفَرَحَهُمْ بِهِ :

لقد طار كل شيء فرحاً لمقدم النبي ﷺ إلى المدينة ، وتلاًلاً وزغرد ..
وسرى نسيم الحبّ بكلّ من فيها ، وما فيها .. حتّى الجوّاري عبّرن عن محبّتهنّ
بغناء الطفولة العذب ، والضرب بالدّف .. فرحاً وابتهاجاً لحلول النبي ﷺ في
ديارهم .. فبادلهنّ النبي ﷺ حبّاً بحبّ ، ودعاءً لا يردّ بما هنّ عليه من صفاء
القلوب ، وفرحة الأرواح : (الله يعلم إنّني لأحبّكنّ .. اللهمّ بارك فيهنّ) .
عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ مرّ ببعض المدينة بجوارٍ من الأنصار ،
وهنّ يضربن بدفّهنّ ، ويغنين ويقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ
فقال رسول الله ﷺ : (الله يَعْلَمُ إنّني لأحبُّكنّ) ^(١) .

وفي رواية عنه رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ اسْتَقْبَلَهُ ذَاتَ يَوْمٍ صَبِيَّانُ الْأَنْصَارِ
وَالْإِمَاءُ ، فَقَالَ : (وَاللهِ إنّني لأحبُّكنّ) ^(٢) .

وجاء في رواية أبي يعلى أنّ النبي ﷺ قال لهنّ : (اللهمّ بارك فيهنّ) ^(٣) .

فمن أحبّ الأطفال أحبّوه ، ومن رفق بهم ملك قلوبهم ..

مظاهر رحمة النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَطْفَالِ :

إنّ الرحمة في حقيقتها لا تأخذ صورة واحدة من عاطفة الرقة والشفقة ،
وتقديم العون والإحسان ، بل تتسع مظاهرها لتشمل معاني وحقائق قد يظنّ

(١) - رواه ابن ماجه ١/ ٦١٢ برقم ١٨٩٩/ وهو في تاريخ بغداد ١٣/ ٥٧ : برقم ٧٠٣٠/ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم ١٣٥٣٢/ .

(٣) - كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢/ .

كثير من الناس أنّها لا علاقة لها بالرحمة ، وهي من لحة الرحمة وسداها ، ولّبها وفحواها : فالتربية والتعليم من الرحمة ، والتوجيه من الرحمة ، والوعظ والتذكير من الرحمة ، وحسن الرعاية ، وكلّ مظاهر الحبّ والمودّة ، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه ، والدعاء ، والملاطفة والممازحة ، والدعوة إلى دين الله ، والحرص على هداية الخلق .. كلّ ذلك من الرحمة ، بل إنّ الزجر والتعنيف ، وإيقاع العقوبة المناسبة ، وبالقدر المناسب ، عندما يتعيّن ذلك من الرحمة ، ويخطئ من يظنّ أنّ الرحمة ذات مسارٍ واحدٍ لا تتعدّاه ..

ولقد تجلّت رحمة النبي ﷺ بالأطفال في مظاهر عديدة :

* فمن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال حسن استقبال المولود بالتحنيك والدعاء له بالبركة : وقد كان مجتمع المدينة على عهد النبي ﷺ مجتمع الأسرة الواحدة .. والنبي ﷺ كان بمثابة الوالد لكلّ أفراد الأمة .. فهو الذي يسمّي الطفل المولود ويحنّكه ، ويدعو له بالخير والبركة .. فماذا ينتظر من مجتمع بهذا التحابّ والتآلف ؟.

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : وَلِدَ لِي غُلَامٌ ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ ، وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِي مُوسَى (١) .

والتحنيك : أن تُمضغَ تمرّة ، ثمّ توضع في فم الوليد ، وتدار في أطرافه . وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ دعا لمولود فقال : (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ بَارَأً تَقِيّاً رَشِيداً ، وَأَنْبِئْهُ فِي الْإِسْلَامِ نَبَاتاً حَسَناً) (٢) .

(١) - رواه البخاريّ في كتاب العقيقة برقم /٥٠٤٥/ .

(٢) - رواه الديلميّ في مسند الفردوس برقم /٢٠٦٤/ ج ١/٥٠٤/ ، طبع دار الكتب العلميّة ، وتحقيق سعيد بن بسيوني زغلول وهو حديث حسن .

وهذه الدعوة من جوامع كلمه ﷺ ، فقد جمعت في كل كلمة منها مقصداً كبيراً من مقاصد هذا الدين ، فالبر والتقوى والرشد ، والنبات في الإسلام نباتاً حسناً معانٍ كَلِيَّة جامعة ، تشمل حقائق عظيمة ، تكاد تستوعب الدين كله .

وروى الإمام ابن القيم رحمه الله ، عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه علم بعض جلسائه التهنية بالمولود أن يقول : (بُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ ، وَشَكَرْتَ الْوَاهِبَ ، وَرُزِقْتَ بَرَّهُ ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ) (١) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال غرس العقيدة الحقة ، وأصول الإيمان في نفس الطفل منذ الصغر : وإن غرس المبادئ منذ الصغر ، وتعليم الطفل حقائق الإيمان ينبغي أن يكون دأب المربي الحريص على حسن النشأة ، ورسوخ الحق ، وثبات العقيدة ، وحسن الإعداد للمستقبل .. وما أحسن أن تسير المبادئ جنباً إلى جنب مع السلوك العملي ، والمواقف اليومية ..

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : (يَا غُلَامُ ! إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (٢) .

(١) - " تحفة المودود في أحكام المولود " ص ٢٩ / .

(٢) - وفي رواية الإمام أحمد : يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلِيمُ ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي صِيغة التصغير من تلطف وتحب .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم ٢٤٤٠ / وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

ومعنى : " رُفِعَتِ الأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " : أي أَنَّ ما قُدِّرَ فهو كائن لا محالة .

ورواه الإمام أحمد في المسند ، وفيه زيادة : (تَعَرَّفُ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (١) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل من خلال التعامل الراقي معه ، وتأديبه بأخلاق الإسلام وآدابه ، وقد تجلَّى ذلك في مظاهر كثيرة ، وصور عديدة من الآداب النبوية ، منها :

١ . سلام النبي ﷺ عَلَى الصَّبِيَّانِ : فالسلام مظهر الاهتمام والعناية ، والترابط الاجتماعي بين أفراد الأمة ، وفي سلام النبي ﷺ عَلَى الأطفال خاصة : لفت لأنظار الكبار ليولوا هذه الفئة ما تستحق من العناية ، وألا ينظروا إليها نظرة استخفاف واستهانة ..

عَنْ سَيَّارٍ قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ (٢) ، فَمَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ ثَابِتٌ : كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ ﷺ فَمَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ أَنَسٌ ﷺ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ (٣) .

٢ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : تأديب الطفل بآداب الإسلام ، وينبغي أن يبدأ ذلك منذ الطفولة المبكرة ، فما يغرس في هذه

(١) - برقم /٢٦٦٦/ .

(٢) - ثابت البناني تابعي من أئمة الهدى ، زاهد عابد ، صحب أنس بن مالك ﷺ ولازمه ، وقال فيه أنس ﷺ : " إِنَّ لِلْخَيْرِ مَفَاتِيحَ ، وَإِنَّ ثَابِتَ الْبُنَانِيِّ مِنْ مَفَاتِيحِ الْخَيْرِ " ، وقال فيه بكر بن عبد الله : " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَعْبَادِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ " .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الاستئذان والآداب برقم /٢٦٢٠/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

المرحلة يصبح جزءاً من شخصية الإنسان وكيانه ، ويحدد منحى حياته ، ولا يمكن أن يمحي بإذن الله مدى الدهر .. وليس للوالد والمربي أن يستهينا بتوجيه الطفل وتأديبه في هذه المرحلة المهمة ، ولكن ذلك ينبغي أن يكون برفق وتدرّج ، وتلطّف وتجنّب ..

عن وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه يَقُولُ : كُنْتُ غُلَاماً فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (يَا غُلَامُ ! سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ يَمِينَكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ ، فَمَا زَالَتَ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ) ^(١) .

وما أروع هذا الأثر الإيجابي الذي يسجّله عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه في ختام الحديث : " .. فَمَا زَالَتَ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ " ، وهو يعبر عن قوّة إرادة الطفل على الاستجابة والتغيير .

٣ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : أن يجالسَ الطفل الكبار ، وأن يستأذنَ في التنازل عن حقّه ، وألا يصادر حقّه بدعوى صغر سنّه .. وإذا أردنا لصغارنا أن يكونوا كباراً بحقّ فلنخلطهم بالكبار القدوات ، ولنقدّم لهم ما يليق بهم من التقدير والاحترام ..

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاخُ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ : (أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا أُؤَيِّرُ ^(٢) بِنَصِيصِي مِنْكَ أَحَداً ، قَالَ : فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي يَدِهِ) ^(٣) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الأطعمة برقم /٤٩٥٧/ .

(٢) - الإيثار هو تفضيل الآخرين على النفس في المحابّ ، تله : أي وضعه في يده ودفعه إليه بقوة .

(٣) - رواه البخاري في كتاب المساقاة وفي كتاب المظالم والغصب برقم /٢٢٧١/ ورواه مسلم وغيرهما .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبَنُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَعَنْ يَسَارِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ : (أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَسْقِيَ خَالِدًا ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا أَحَبُّ أَنْ أُؤَثِّرَ بِسُورِ ^(١) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي أَحَدًا ، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَشَرِبَ ، وَشَرِبَ خَالِدٌ) ^(٢) .
وَسُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي حَبِيبَةَ رضي الله عنه : مَا أَدْرَكْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟
قَالَ : أَتَانَا فِي مَسْجِدِنَا هَذَا ، فَجِئْتُ فَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ ، فَأَتَى بِشَرَابٍ فَشَرِبَ ، ثُمَّ نَاولَنِي ، وَأَنَا عَنْ يَمِينِهِ ، قَالَ : وَرَأَيْتُهُ يَوْمَئِذٍ صَلَّى فِي نَعْلَيْهِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ) ^(٣) .

٤ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : الدعاء للأطفال ، ورفع همهم ، ليكونوا أهلاً لحمل المسؤولية :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ وَقَالَ : (اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ وَتَأْوِيلَ الْكِتَابِ) ^(٤) .
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي أَوْ عَلَى مَنْكِبِي - شَكَ سَعِيدٌ - ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ) ^(٥) .
فإظهار العطف على الطفل ، والدعاء له خيراً ما يسمو بهمته ، ويشجذ عزيمته .

(١) - السور هو البقية من الطعام أو الشراب أو أي شيء .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم ٣٤١٧/ .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم ١٧٢٦٥/ .

(٤) - رواه ابن ماجه برقم ١٦٢٢/ .

(٥) - رواه أحمد في المسند برقم ٢٢٧٤/ ، وقد تكرر هذا الدعاء له في عدة مناسبات .

والدعاء للطفل بخيري الدنيا والآخرة يغرس في نفسه أن ذاته محترمة من الآخرين ، ومقبولة ومقدّرة ، عدا عما في الدعاء من مظاهر التعلّق بالله تعالى ورجائه ، والرغبة الصادقة أن يهتّي الله تعالى له الخير ، ويحسن نباته ، ويصرف عنه الشرّ ، ويجعله لوالديه قرّة عين :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي فَقَالَ : قُومُوا فَلَأُصَلِّيَ بِكُمْ ، فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ ، فَصَلَّى بِنَا فَقَالَ رَجُلٌ لِثَابِتٍ : أَيْنَ جَعَلَ أَنَسًا مِنْهُ ؟ قَالَ : جَعَلَهُ عَلَى يَمِينِهِ ، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَتْ أُمِّي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! خُودِيكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ ؟ قَالَ : فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ أَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ ^(١) .

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَتْ بِي أُمِّي أُمُّ أَنَسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَرَزْتَنِي يَنْصِفُ خِمَارَهَا وَرَدَّتْنِي يَنْصِفُهُ ^(٢) ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا أُنَيْسُ ابْنِي أَتَيْتَكَ بِهِ يَخْدُمُكَ فَادْعُ اللَّهَ لَهُ فَقَالَ :

(اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ) ^(٣) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى أُمَّ حَرَامٍ ، فَأَتَيْنَاهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ فَقَالَ : (رُدُّوا هَذَا فِي وَعَائِهِ ، وَهَذَا فِي سِقَائِهِ فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ : ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ تَطَوُّعًا ، فَأَقَامَ أُمَّ حَرَامٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ خَلْفَنَا ، وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ فِيمَا يَحْسَبُ ثَابِتٌ ، قَالَ : فَصَلَّى بِنَا تَطَوُّعًا عَلَى بَسَاطٍ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ : إِنَّ لِي خُوَيْصَةً ، خُودِيكَ أَنَسُ ادْعُ اللَّهَ لَهُ ، فَمَا تَرَكَ يَوْمَئِذٍ

(١) - رواه مسلم في كتاب برقم /١٠٥٥/ .

(٢) - أي جعلت خمارها نصفه إزاراً لي ونصفه الآخر رداءً .

(٣) - رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم /٤٥٣١/ .

خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَلَا الْآخِرَةِ إِلَّا دَعَا لِي بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه : فَأَخْبَرْتَنِي ابْتِنِي أَنِّي قَدْ دَفَنْتُ مِنْ صُلْبِي بَضْعًا وَتِسْعِينَ ، وَمَا أَصْبَحَ فِي الْأَنْصَارِ رَجُلٌ أَكْثَرَ مِنِّي مَالًا ، ثُمَّ قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه : يَا ثَابِتُ مَا أَمْلِكُ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا خَائِمِي) ^(١) .

٥ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : نهيه ﷺ عن الدعاء على الأولاد خشية أن توافق ساعة إجابة ، فينزل الضرر والبلاء بالنفس أو الولد ..

عن حَاوِي بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاظٍ وَهُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرِو الْجُهَنِيِّ ، وَكَانَ النَّاضِحُ يَعْقِبُهُ مِنَّا الْخُمْسَةُ وَالسِّتَةُ وَالسَّبْعَةُ فَدَارَتْ عَقْبُهُ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ فَأَنَاحَهُ فَرَكِبَهُ ثُمَّ بَعَثَهُ فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّلَدَّنِ فَقَالَ لَهُ : شَأْ ! لَعَنَكَ اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرُهُ ؟ قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : انْزِلْ عَنْهُ فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ) ^(٢) .

٦ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : تربية الطفل على العبادة بكل أنواعها منذ سن التمييز ، وتحبيبه بها ، وتدريبه عليها ، لينشأ مستقيماً على طاعة الله تعالى وعبادته ، بعيداً عن الزيغ والانحراف .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (

(١) - رواه الإمام أحمد في المسند / ١٣١٠٤ / .

(٢) - جزء من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق برقم / ٥٣٢٨ / .

مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ (١) .

٧ . ومن صور غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل : تعليم الأطفال للقرآن ، وبذلك يكون إعدادهم للمسئوليات الكبيرة في مستقبل الأيام :

عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ الْجَرَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام : أَنَّهُمْ وَقَدُوا إِلَى النَّبِيِّ عليه السلام ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَنْصَرِفُوا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يَوْمُنَا ؟ قَالَ : (أَكْثَرُكُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ ، أَوْ أَخَذًا لِلْقُرْآنِ) قَالَ : فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ جَمَعَ مَا جَمَعْتُهُ ، قَالَ : فَقَدَّمُونِي وَأَنَا غُلَامٌ ، وَعَلَيَّ شِمْلَةٌ لِي (٢) ، فَمَا شَهِدْتُ مَجْمَعًا مِنْ حَرَمٍ إِلَّا كُنْتُ إِمَامَهُمْ ، وَكُنْتُ أَصْلِي عَلَى جَنَائِزِهِمْ إِلَى يَوْمِي هَذَا (٣) .

وأطفال القرآن حرز للمجتمع من العذاب العاجل ، قَالَ تَابِتُ بْنُ عَجَلَانَ الْأَنْصَارِيُّ : كَانَ يُقَالُ : (إِنَّ اللَّهَ لَيُرِيدُ الْعَذَابَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ فَإِذَا سَمِعَ تَعْلِيمَ الصَّبِيَّانِ الْحِكْمَةَ صَرَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ) ، قَالَ مَرْوَانُ : يَعْنِي بِالْحِكْمَةِ : الْقُرْآنَ (٤) .

* ومن مظاهر رحمة النبي عليه السلام بالأطفال : تلطف النبي عليه السلام مع الصبيان ، وورقه في معاملتهم : فأعلى ما عرفت الإنسانية من صور التربية المثلى : التربية باللحظ والإشارة ، وهي تقوم على العلاقة الحميمة بين المربي والطفل ، والتماس العذر لأخطاء الطفل بقدر الله السابق .. وإذ كان النبي عليه السلام رحمة

(١) - رواه أبو داود في كتاب الصلاة برقم /٤١٨/ .

(٢) - الشملة كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويلتف به ، كما في المعجم الوسيط .

(٣) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٣٩٦٣/ وأبو داود في كتاب الصلاة برقم /٤٩٦/ .

(٤) - رواه الدارمي برقم /٣٢١١/ .

مهداة للعالمين ، فإنّ من خصوصيّته التي تلائم هذه الطبيعة ، ولا يقدر عليها أحد من البشر أنّه لم يعنّف غلاماً ، ولم يضرب قطّ امرأة ولا خادماً ..

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : خَدَمْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ ، أَوْ ضَيَّعْتُهُ فَلَا مَنِي ، فَإِنْ لَامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ : دَعُوهُ فَلَوْ قُدِّرَ أَوْ قَالَ : لَوْ قُضِيَ أَنْ يَكُونَ كَانَ (١) .

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أنّه قَالَ : (خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَشْرَ سِنِينَ ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي : أَفَّا قَطُّ ، وَلَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا ؟ وَهَلَا فَعَلْتَ كَذَا ؟) (٢) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله شَيْئاً قَطُّ يَدِيهِ ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِماً ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (٣) .

* ومن مظاهر رحمة النبي صلى الله عليه وآله بالأطفال رحمة الوالدة ووكدها ، وحماية الأم والدفاع عن حقها ، وأحكام الإسلام كلّها تقوم على الرحمة ورعاية الحقوق ، وتحثّ على تقوى الله في العمل ، وترتبط بين عمل الدنيا ، وجزاء الآخرة .. وحقّ الوالدة برعاية ولدها مصون مقدّس ..

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٢٩٣٨/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٦٩/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٩٦/ وأبو داود في الأدب برقم /٤١٥٤/ وابن ماجة في النكاح .

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَجَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(١) .

ورواه الدارمي عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ : أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ رضي الله عنه كَانَ فِي جَيْشٍ ، فَفُرِّقَ بَيْنَ الصَّبِيَّانِ وَبَيْنَ أُمَّهَاتِهِمْ ، فَرَأَهُمْ يَكُونُ ، فَجَعَلَ يَرُدُّ الصَّبِيَّ إِلَى أُمِّهِ وَيَقُولُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحْيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : رفق النبي ﷺ بالأطفال ، وتقديره لرغباتهم ومشاعرهم الرقيقة ، وقد تجلّى ذلك في كل موقف ، حتى في الصلاة ، فكيف ينبغي أن يكون المؤمن خارج الصلاة ؟.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ، فَصَلَّى ، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا ، قَالَ أَبِي : فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ ، قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً ، أَطَلَّتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّكَ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ ، قَالَ : كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلُهُ ، حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ ^(٢) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب البيوع برقم /١٢٠٤/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، ورواه

ابن ماجه في التجارات برقم /٢٢٤١/ والدارمي في السير برقم /٢٣٦٨/ .

(٢) - رواه النسائي في باب التطبيق في الصلاة برقم /١١٢٩/ و أحمد في المسند .

* وكان ﷺ يخفف الصلاة رحمةً بالأطفال والأمتها :

عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ) (١) .

فما أرقَ مشاعر النبي ﷺ وما ألطفها !؟ وما أدقها وهو يراعي مشاعر الأم ولهفتها على طفلها، إذ يبكي وهي تصلي، فيتجوّز في صلاته رحمة بهما..
وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَوَّزَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَجَوَّزْتَ ؟ قَالَ : (سَمِعْتُ بُكَاءَ صَبِيٍّ ، فَظَنَنْتُ أَنَّ أُمَّهُ مَعَنَا تُصَلِّي ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُفْرِغَ لَهُ أُمَّهُ) (٢) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : الترغيب بالحنو على الطفل ،
وبيان أنّ ذلك من صفات المرأة الخيرة الكريمة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ :
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ ، أَحْنَاهُ (٣)
عَلَى طِفْلٍ فِي صَغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ) ، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ
عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ : وَلَمْ تَرْكَبْ مَرِيئُ بِنْتُ عِمْرَانَ عَلَيْهَا السَّلامَ بَعِيرًا قَطُّ " (٤) .

* وتقبيل الأطفال والحنان عليهم وممازحتهم :

ونماذج ذلك من السيرة العطرة كثيرة ، فمن ذلك ما جاء في الحديث عَنْ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا :

(١) - رواه البخاري في كتاب الأذان برقم /٦٦٨/ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /١٣٢٠٥/ .

(٣) - أعطفه وأرحمه .

(٤) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٨١/ .

أَتَقْبَلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ فَقَالُوا : لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ ؟!) . وفي رواية : مِنْ قَلْبِكَ أَوْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ (٢) . فالرحمة بالأطفال هبة الرحمن لخيار عباده ، وعنوان المؤمن الحق في جميع علاقاته .. ومن لا يرحم لا يرحم ..

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا ، وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ ، وَكَانَ لَهُ نُعْرٌ (٣) يَلْعَبُ بِهِ ، فَمَاتَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَاهُ حَزِينًا فَقَالَ : مَا شَأْنُهُ ؟ قَالُوا : مَاتَ نُعْرُهُ ، فَقَالَ : (يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ التُّغَيْرُ) (٤) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا ، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ : كَانَ فَطِيمًا قَالَ : فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَاهُ قَالَ : أَبَا عُمَيْرٍ ! مَا فَعَلَ التُّغَيْرُ ؟ قَالَ : فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ (٥) .

(١) - رواه البخاري ٣٦٠/١٠ ، ومسلم برقم / ٢٣١٩ .

(٢) - البخاري في كتاب الأدب برقم / ٥٥٣٨ .

(٣) - التُّغَيْرُ : تصغير النُّعْر ، وهو طائر صغير يشبه العصفور أحمر المنقار ، أو هو فرخ العصفور والبلبل ، كما في المعجم الوسيط .

(٤) - رواه البخاري ومسلم وأبو داود في كتاب الأدب برقم / ٤٣١٨ .

(٥) - رواه مسلم في كتاب الآداب برقم / ٤٠٠٣ .

وفي حديث آخر عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا ، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ : أَبُو عُمَيْرٍ ، قَالَ : أَحْسِبُهُ فَطِيمًا ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ : يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ الثَّغِيرُ ؟ نُعَرَّ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلَاةَ ، وَهُوَ فِي بَيْتِنَا ، فَيَأْمُرُ بِالْبَسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ ، فَيَكْنُسُ وَيُنْضَحُ ، ثُمَّ يَقُومُ ، وَنَقُومُ خَلْفَهُ ، فَيُصَلِّي بِنَا (١) .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّيِّعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِهِ ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ) (٢) .

والمَجَّ هو إلقاء الماء أو الشراب من الفم ، والمُحَاج هو ما يلقي من الفم .

* ومن مواقف ملاعبة النبي ﷺ للحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَامِلَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : نِعَمَ الْمَرْكَبُ رَكِبْتُ يَا غُلَامُ ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَنِعَمَ الرَّكَّابُ هُوَ (٣) .

ولقد كان تواضع النبي ﷺ ورفقه يتجلى في كل موقف وعلاقة ، رعاية للأطفال ولطفًا ، وتعليمًا للأمة وتربية .. فأين الذين تأنف نفوسهم من أن يداعبوا أطفالهم أمام الآخرين ، أو يحدثوهم ، ويظنون أن ذلك دليل رفعتهم ، وعلو مكانتهم ..

ورحمة النبي ﷺ بالأطفال ومداعبته لهم ، لا تمتنع من تأديبهم وتوجيههم ، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي لَيْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَى

(١) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٧٣٥/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب العلم برقم /٧٥/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب المناقب برقم /٣٧١٧/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَزَمَنَةُ بْنُ صَالِحٍ قَدْ ضَعَفَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ .

صَدْرِهِ أَوْ بَطْنِهِ الْحَسَنُ أَوْ الْحُسَيْنُ ، قَالَ : فَرَأَيْتُ بَوْلَهُ أَسَارِيعَ ، فَقَمْنَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : (دَعُوا ابْنِي ، لَا تُفْزِعُوهُ ^(١)) حَتَّى يَقْضِيَ بَوْلَهُ ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ الْمَاءَ ، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ بَيْتَ تَمْرِ الصَّدَقَةِ ، وَدَخَلَ مَعَهُ الْعَلَامُ ، فَأَخَذَ ثَمْرَةً ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ ، فَاسْتَخَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَالَ : إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لَنَا ^(٢) .

فما أسمى الأخلاق النبوية وما أكرمها ! وما أوسع صدر النبي ﷺ وما أرحمه ! ومن من الناس يتقبل أن يبول عليه صبي أمام الناس ، ولا يغضب ولا ينفعل ؟! بل يطلب ممن حوله أن يترك الصبي ليكمل بوله ؟! ألا إنها الرحمة النبوية التي وسعت العالمين .

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي ، وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَأَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ ، فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا ، وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا ^(٣) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال بكاؤه ﷺ ورقته لفقد الطفل :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى ، فَقَالَ ﷺ : (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ) ^(٤) .

(١) - أي لا تخيفوه ، وأساريع : جمع أسروع وهي الطرائق .

(٢) - رواه أحمد في مسند الكوفيين برقم /١٨٢٨٠/ والدارمي مختصراً برقم /١٥٨٦/ .

(٣) - رواه مسلم المساجد ومواضع الصلاة /٨٤٤/ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب الجنائز برقم /١٢٢٠/ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ ، فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ ، فَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَتُبْكِي ؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنْ الْبُكَاءِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجْرَيْنِ : صَوْتِ عِنْدَ مُصِيبَةِ خَمْسٍ وَجُودِ وَشَقِّ جُيُوبٍ ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ .. (١) .

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ارْجِعْ إِلَيْهَا ، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى ، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ ، فَأَعَادَتِ الرَّسُولَ ، أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ : لَتَأْتِيَنَّهَا ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَيْهِ ، وَنَفْسُهُ تَقَعَّقَعُ ، كَأَنَّهَا فِي شَنْ ، فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَذِهِ رَحْمَةٌ ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ (٢) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال حرصه ﷺ على هدايتهم إلى الإسلام : عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ : أَسْلِمَ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ، وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ : أَطِيعْ أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) (٣) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب الجنائز برقم ٩٢٦/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب التوحيد ومسلم في كتاب الجنائز برقم ٦٨٢٩/ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الجنائز برقم ١٢٦٨/ .

وفي رواية أخرى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءَهُ ^(١) ، وَيُنَاوِلُهُ نَعْلَيْهِ ، فَمَرَضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، وَأَبَوْهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : يَا فُلَانُ قُلْ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَسَكَتَ أَبَوْهُ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ أَبَوْهُ : أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : " أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ " ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنِّي مِنَ النَّارِ) ^(٢) .

فهل هناك أبلغ في حبِّ الأطفال للنبي ﷺ من أن يجتهد غلام يهودي في خدمة النبي ﷺ ، وعندما يمرض يخصه النبي ﷺ بالعيادة رحمة به وشفقة عليه ، ويدعوه إلى الإسلام فيسلم ؟.

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : الحث على تعليم البنات وتأديهن ، وحسن الاعتناء بهن ، والوعد على ذلك بمزيد من الأجر والثوبة .. فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ ، أَوْ ابْنَتَانِ ، أَوْ أُخْتَانِ ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ ، وَاتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ) ^(٣) .

وخصوصية البنات في التربية والتعليم تدلّ على أهميّة مسئولية المرأة في المجتمع ، وثقل العبء الذي تتحمّله ، وضرورة إعدادها للقيام به على أحسن وجه .

(١) - الرضوء بفتح أوله الماء الذي يتوضأ به ، وبالضمّ هو الفعل .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /١٢٣٣٠/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة برقم /١٨٣٩/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال حسن توجيههم والدعاء لهم :

وإنَّ الطفل أحوج ما يكون إلى عطف الكبير ورفقه ، وتوجيهه ودعائه .. ولا يمكن أن تقاس جنايته بجناية الكبير .. فعَنْ عَمِّ أَبِي رَافِعِ بْنِ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ غُلَامًا أُرْمِي النَّخْلَ الْأَنْصَارِ فَأَتَانِي بِي النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ : (يَا غُلَامُ لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ ؟ قَالَ : أَكُلُ ، قَالَ : فَلَا تَرْمِ النَّخْلَ ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِيهِ أَسْفَلِهَا ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ : فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ) (١) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : تأكيده ﷺ على العدل بين

الأطفال ، وتحذيره من ظلم الغلام والأجير ، وَحَثَّهُ عَلَى إِكْرَامِهِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وما أكثر ما يتساهل بذلك الكبار ، فتنشأ المشكلات بين الأقارب والأرحام ، وتختل العلاقات ، ويتعمق الخلاف ، وتكون القطيعة ، وربما استمرت مدى الحياة ..

قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي : (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ) ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ قَالَ فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ) ، قَالَ : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدَيَّ فَقَالَ : (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا) (٢) . وفي رواية : (فَسَقَطَ مِنْ يَدَيَّ السَّوْطُ مِنْ هَيْبَتِهِ) .

وزاد في رواية : (فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هُوَ حُرٌّ لِرُوحِهِ اللَّهِ ، فَقَالَ :) أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتِكَ النَّارُ ، أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ) .

(١) - رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ بِرَقْمِ / ٢٢٥٣ .

(٢) - رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ بِرَقْمِ / ٣١٣٥ .

وَعَنْ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ التُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنه ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ :
 أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً ، فَقَالَتْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي أُعْطِيتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ
 عَطِيَّةً ، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : (أُعْطِيتَ سَائِرَ وَلَدِكَ
 مِثْلَ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ) ، قَالَ : فَرَجَعَ
 فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ (^(١)) .

وَعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه بِالرَّبَذَةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ ،
 وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي سَأَيْتُ رَجُلًا ، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ ،
 فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : (يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ ؟ ! إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ،
 إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ
 فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ
 كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ) (^(٢)) .

فهل عرفت الإنسانية ديناً كالإسلام فرض المساواة بين الناس ، وشدد
 على تحقيق العدل ، وأداء حقوق العامل والأجير ، وكم كانت هذه المعاملة
 الإنسانية الكريمة سبباً لدخول الناس في دين الله أفواجا ؟!

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : عنايته ﷺ باليتامى ، وحثه

على كفالهم ، والوعد بأعظم الأجر والثوبة لمن يكفلهم ويرعاهم :

عَنْ سَهْلِ بْنِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ
 هَكَذَا ، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) (^(٣)) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الهبة برقم ٢٣٩٨ / .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم ٢٩ / .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الطلاق برقم ٤٨٩٢ / .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ ثَمَرَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا ، فَقَسَمْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : (مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ) (١) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : (جَاءَنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا ، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ ثَمَرَاتٍ ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ثَمَرَةً ، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا ثَمَرَةً لِتَأْكُلَهَا ، فَاسْتَطْعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا ، فَشَقَّتِ الثَّمَرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا ، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ) (٢) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : عنايته ﷺ بالمرضى ، ودعاؤه

لهم ، واهتمامه بهم :

عَنْ أُمِّ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي يَوْمَ النَّحْرِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَبِعَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَنَعَمٍ ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا بِهِ بِلَاءٌ ، لَا يَتَكَلَّمُ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّ هَذَا ابْنِي ، وَبَقِيَّةُ أَهْلِي ، وَإِنَّ بِهِ بِلَاءٌ ، لَا يَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اثْنُونِي بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ ، فَأَتِي بِمَاءٍ ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ، وَمَضْمَضَ فَاَهُ ، ثُمَّ أَعْطَاهَا ، فَقَالَ : اسْقِيهِ مِنْهُ ، وَصَبِّي عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَاسْتَشْفِي اللَّهُ لَهُ ، قَالَتْ : فَلَقِيتُ الْمَرْأَةَ ، فَقُلْتُ : لَوْ وَهَبْتَ لِي مِنْهُ ، فَقَالَتْ : إِنَّمَا هُوَ لِهَذَا الْمُبْتَلَى ، قَالَتْ : فَلَقِيتُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْحَوْلِ (٣) ، فَسَأَلْتُهَا عَنِ الْغُلَامِ ، فَقَالَتْ : بَرَأَ وَعَقَلَ عَقْلًا ، لَيْسَ كَعُقُولِ النَّاسِ) (٤) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم /١٣٢٩/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧٦٤/ .

(٣) - أي بعد سنة .

(٤) - رواه ابن ماجه في كتاب الطب برقم /٣٥٢٣/ .

فما أكثر ما أكرم الله به نبيه ﷺ من المعجزات ، تكرمة لأصحابه ،
وتقوية للإيمان في قلوبهم ، ودفعاً للضرر والبلاء عنهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [١٧] الأنبياء .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : وصيته ﷺ بكف الصبيان عن
كيد الشيطان وأذاه ، وتعويد الصبيان بكلمات الله التامة :

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ ، أَوْ قَالَ : جُنْحُ
اللَّيْلِ ، فَكُفُّوا صَبْيَانَكُمْ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِّنَ
العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرِ اسْمَ
اللَّهِ ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ ، وَخَمِّرْ إِيَّاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ ، وَلَوْ تَعَرَّضُ
عَلَيْهِ شَيْئًا) (١) .

وَمَعْنَى اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ : أَي مَالٌ لِلذَّهَابِ أَوْ مَجِيءٌ ، والمراد به هنا دخوله
وأوله .

وَأَوْكِ سِقَاءَكَ : وَكَى الصَّرَّةَ وَنَحَوَهَا شَدَّهَا بِالْوِكَاءِ ، وَهُوَ الْخِيطُ الَّذِي
يَكُونُ عَلَى فَمِهَا . وَخَمَّرْ إِيَّاءَكَ : أَي غَطَّهُ ، وَخَمَّرَ الشَّيْءُ غَطَاهُ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ :
إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ : (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ ، مِنْ
كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَّامَّةٍ) (٢) .

(١) - رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم /٣٠٣٨/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم /٣١٢٠/ .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : رفع همّة الطفل لما يتوقع منه من آمال عالية : عَنْ الْحَسَنِ ﷺ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي ، فَإِذَا سَجَدَ وَتَبَّ الْحَسَنُ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَعَلَى عُنُقِهِ ، فَيَرْفَعُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفْعًا رَفِيقًا لئَلَّا يُصْرَعَ ، قَالَ : فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ بِالْحَسَنِ شَيْئًا مَا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَهُ ؟ قَالَ : (إِنَّهُ رِيحَاتِي مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَعَسَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (١) .

وفي رواية أخرى عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ إِلَى جَنْبِهِ ، وَهُوَ يَقْبَلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً ، وَعَلَيْهِ أُخْرَى ، وَيَقُولُ : (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (٢) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال تقديم خبرات عملية للطفل ، تعينه على تنمية مهنته ومهاراته ، وما يقوم به من عمل : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِغُلَامٍ يَسْلُخُ شَاةً ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (تَنَحَّ حَتَّى أُرِيكَ ، فَأَدْخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ ، فَدَحَسَ بِهَا (٣) حَتَّى تَوَارَتْ إِلَى الْإِيطِ ، وَقَالَ : يَا غُلَامُ هَكَذَا فَاسْلُخْ ، ثُمَّ مَضَى وَصَلَّى لِلنَّاسِ ، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ) (٤) .

(١) - رواه الإمام أحمد في المسند برقم /١٩٦١١/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الصلح برقم /٢٥٠٥/ .

(٣) - دحس يدحس بيده في الذبيحة : أدخلها بين جلدها ولحمها ليلسلخها .

(٤) - رواه أبو داود في كتاب الطهارة برقم /١٥٧/ ، وابن ماجه في كتاب الذبائح برقم

/٣١٧٠/ .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : تربيتهم على الأمانة ، وتدريبهم

على حفظ السر :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا حَتَّى إِذَا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِنْ خِدْمَتِهِ ، قُلْتُ : يَقِيلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجْتُ إِلَى صَبَّانٍ يَلْعَبُونَ ، قَالَ : فَجِئْتُ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ ، قَالَ : فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَى الصَّبَّانِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ لَهُ ، فَذَهَبْتُ فِيهَا ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي فِيءٍ ، حَتَّى أَتَيْتُهُ ، وَاحْتَبَسْتُ عَنْ أُمِّي عَنِ الْإِثْنَانِ الَّذِي كُنْتُ آتِيَهَا فِيهِ ، فَلَمَّا أَتَيْتَهَا قَالَتْ : مَا حَبَسَكَ ؟ قُلْتُ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ لَهُ قَالَتْ : وَمَا هِيَ ؟ قُلْتُ : هُوَ سِرٌّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ : فَاحْفَظْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ ، قَالَ ثَابِتٌ : قَالَ لِي أَنَسٌ : لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، أَوْ لَوْ كُنْتُ مُحَدِّثًا بِهِ لَحَدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثَابِتُ (١) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : الحرص على أن ينشأوا نشأة

أخلاقية سوية ، بعيدة عن الكذب ، وما أكثر ما يتساهل الآباء والمربون بالكذب على الأطفال ، ويظنون أن الأطفال لا يدركون ، ولا يعون ، ثم يشكون من أطفالهم أنهم يكذبون عليهم ، وهم الذين علّموهم الكذب ، وهم لا يشعرون ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ ، قَالَ : فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِلْعَبِّ ، فَقَالَتْ أُمِّي : يَا عَبْدَ اللَّهِ ! تَعَالَ أُعْطِكَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ قَالَتْ : أُعْطِيَهُ

(١) - رواه أحمد في المسند برقم ١٢٥٥٢/ .

تَمَرًا ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذْبَةٌ (١) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال رفقته ﷺ بهم وتواضعه : عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْأُولَى ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ ، فَاسْتَقْبَلَهُ وَلَدَانِ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمَا وَاحِدًا وَاحِدًا ، قَالَ : وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدَّيْ ، قَالَ : فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا ، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُوثَةِ عِطَارٍ (٢) .

* ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : تشجيع الأطفال على الاستعداد

للجهاد ، وتنمية مهارات القوة ، بالتدريب على الرماية ، كما جاء في الحديث عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ ، يَنْتَضِلُونَ (٣) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ) ، قَالَ : فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ ؟) قَالُوا : كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (ارْمُوا ، فَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ) (٤) .

وبعد ؛ فلا عجب أن نرى نبي الهدى والرحمة ﷺ يعتني هذه العناية الكبيرة بالطفولة الغضة ، منذ نشأتها الأولى ، وقد علّم ﷺ أمته أن التربية

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٥١٤٧/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٩٧/ .

(٣) - نَضَلْ يَنْضَلُ سَبَقَ وَغَلَبَ فِي الرَّمَاءِ ، وَانْتَضَلَ الْقَوْمُ اسْتَبَقُوا فِي الرَّمْيِ ، كَمَا فِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ .

(٤) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم /٢٦٨٤/ .

إنما تبدأ منذ نشأة الطفل الأولى ، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ :
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ،
 أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ
 فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟) ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
 الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠) الروم (١) .

ولقد أكرم الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ منذ طفولته بعنايته الخاصة ،
 وجرّد جسده الشريف من حظّ الشيطان وكيده ، فلم يكن للشيطان سبيل
 إلى قلبه بحال ، كما جاء في الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ
 يَلْعَبُ مَعَ الصَّبْيَانِ ، فَأَتَاهُ آتٍ فَأَخَذَهُ ، فَشَقَّ صَدْرَهُ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً
 فَرَمَى بِهَا ، وَقَالَ : هَذِهِ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَشْتٍ مِنْ
 ذَهَبٍ ، مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لَأَمَهُ ، فَأَقْبَلَ الصَّبْيَانِ إِلَى ظُفْرِهِ : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ،
 قُتِلَ مُحَمَّدٌ ، فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ انْتَفَعَ لَوْنُهُ ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه :
 فَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَثَرَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ (٢١) .



(١) - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن برقم /٤٤٠٢/ ، ومسلم في كتاب القدر برقم
 /٤٨٠٣/ ، ومعنى تُنْتَجُ : تولد ، والنتاج للبهائم كالولادة للإنسان . والْبَهِيمَةُ : كلّ ذات أربع
 قوائم من دواب البر والبحر ، ما عدا السباع . والْجَمْعَاءُ : هي التي لم يذهب من بدنها شيء .
 والْجَدْعَاءُ : هي التي قُطِعَ بعض أطرافها .

(٢) - رواه البخاري في كتاب التوحيد برقم /٦٩٦٣/ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٢٣٦/
 وأحمد في المسند برقم /١١٧٧٤/ ، والظفر هي المرأة المرضع . وانتفع لونه : تغير لونه .

المبحث الثاني

رحمة النبي ﷺ بالنساء ومظاهرها

إنّ على كلّ مؤمن ومؤمنة أن يعلموا أنّ من أعظم الرحمة وأسبابها ، التي بعث بها النبي ﷺ أحكام الشريعة الغراء ، التي تنظّم حياة الناس رجالاً ونساءً ، وترعى حقوقهم ، وتقيم موازين العدل فيما بينهم ، فكلّها تتبع من معين الرحمة ، وتحقق بها سعادة الناس العاجلة ، ولو كان ظاهرُ بعضها الشدّة .. ثمّ يثوبون في الآخرة إلى سعادة أجلّ وأكبر ..

وأما رحمته ﷺ بالنساء ، وبرّه بهنّ ، وتقريره لحقوقهنّ ، ووصيته بهنّ ، ونهيه عن ظلمهنّ .. فذلك ممّا لا يختلف فيه اثنان ، ولا يماري به إلاّ مريض القلب ، أخبل اللبّ .

فقد بعث النبي ﷺ والمجتمعات الإنسانيّة كلّها كانت تضطهد المرأة ، وتظلمها ، وتسيء معاملتها بأنواع من الأذى منوّعة ، ونسب من الشرّ متفاوتة ، وأكثر المجتمعات البشريّة ، والفلسفات السائدة آنذاك ، كانت تعدّ الاعتراف بحقوق المرأة الإنسانيّة أو مكانتها نوعاً من انتقاص الرجل ، والغضّ من منزلته ، فلا عجب أن كان ازدراء المرأة في نظرهم جزءاً من زيادة في مكانة الرجل ، وسموّ قدره !.

فجاء النبي ﷺ بشريعة الإنسانيّة الحقّة ، التي تخاطب الرجل والمرأة على حدّ سواء ، وتضعهما أمام التكليف الإلهيّ على قدم المساواة ، بل إنّها لتفرض للمرأة نوعاً من الخصوصية والعناية أكثر من الرجل ، وترتّب على ذلك عظيم الأجر والثوبة ، لأنّها شريعة الرحمة الشاملة ، والمرأة بطبيعتها الفطريّة فيها من

الضعف ما يدعو إلى مزيد العناية بها ، ورحمتها وحسن رعايتها ، ودعك من مزاعم المضللين ، وافتراءات المفترين ، وتهوئش مرضى القلوب المأفونين ، وانظر إلى حقائق هذا الدين ، وأحكامه المحكمة ، ومحاسنه المبهرة بعين العدل والإنصاف ، ومنطق العقل الحصيف ، والتجرد عن الهوى تجد أنّ شريعة الهدى والرحمة هي سرّ سعادة الرجل والمرأة ، والأسرة والطفولة على حدّ سواء ، ولن تعرف البشرية الأمن النفسي والاستقرار الاجتماعيّ إلاّ في ظلال هديها ، وعدل أحكامها .

ولقد استجابت المرأة المسلمة في الصدر الأوّل لدعوة الإسلام ، وتأدّبت بأدابه عندما صدقت في إيمانها بالله ورسوله ﷺ ، فلم تعدّ طورها ، ولم تتجاوز حدّها ، ولم تفكّر يوماً أن تزاحم الرجل فيما خصّه الله به ، وكتب عليه من حقوق وأعباء ، وإنّما عملت على أن تكون معه في الخير العامّ على سواء ، وأن تنافسه في أبواب الخير والبرّ بما يرفع قدرها ، ويُعظم أجرها ، وكان منطلق المجتمع كلّ برّجاله ونسائه من قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٢ ﴾ النساء .

ولا نريد هنا أن نبين منّة الإسلام على المرأة فيما فرض لها من حقوق وواجبات ، وقد كانت في العصور المظلمة تُسام سوء العذاب ، ويشكّك في إنسانيّتها ، ويأبى الظالمون لها أن تكون ذات روح كالرجل ، وتُحمّل جرائم وآثام ما أنزل الله بها من سلطان ..

وإنّما الذي نريده من المرأة في هذا العصر أن تقرأ تاريخها في الإسلام ، وموقف الإسلام منها ، ومدى عنايته بها ، لتعلم أنّ ما يروّجه أعداء الإسلام ،

ومن في قلوبهم مرض من أكاذيب ، لا يستحق أدنى اهتمام أو التفات ^(١) .
وبين يديك من ذلك في هذا المبحث غيض من فيض ، وقطرة من سيل ،
ووشل من بحر ، من معين النبوة العذب الفيّاض ، بمبادئها ومواقفها ، وما
جاءت به من الهدى الخالد ، والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من
خلفه .

ومما يدل على رفعة مكانة المرأة المؤمنة ببيعة النبي ﷺ للنساء :
عَنْ أُمِّمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي
نِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ تُبَايِعُهُ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللَّهِ
شَيْئًا ، وَلَا تُسْرِقَ ، وَلَا تُزْنِيَ ، وَلَا تَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا ، وَلَا
تَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ، قَالَ : فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ ، قَالَتْ : قُلْنَا : اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا ، مِنَّا بِأَنْفُسِنَا ، هَلُمَّ تُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! - أي نصافحك -
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَاءَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي
لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ^(٢) .

* فمن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تعهد النساء بالموعظة ، وتذكيرهن بحق
الله تعالى ، وحق أزواجهن عليهن :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى
الْمُصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَوَعَّظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ : (أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا

(١) - للباحث كتاب بعنوان : " إنها الأنثى " عالج فيه دعاوى التمييز ضد المرأة ، وما يطلقه
الغرب من شعارات زائفة ، وافتراءات على الإسلام رخيصة .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب البيعة برقم / ٤١١٠ ، والترمذي في كتاب السير عن رسول الله
ﷺ برقم / ١٥٢٣ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

فَمَرَّ عَلَى النَّسَاءِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ النَّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ، فَقُلْنَ : وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النَّسَاءِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ جَاءَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ زَيْنَبُ ، فَقَالَ : أَيُّ الزَّيَانِبِ ؟ فَقِيلَ : امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : نَعَمْ ، ائْذِنُوا لَهَا ، فَأْذِنَ لَهَا ، قَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ ، وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ ، فَرَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، زَوْجُكَ وَوَلَدُكَ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَيْهِمْ (١) .

وفي رواية للبخاري ومسلم زيادة : " .. قُلْنَ : وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ قُلْنَ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا ، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ ، وَلَمْ تَصُمْ ؟ قُلْنَ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا (٢) .

* ومن رحمة النَّبِيِّ ﷺ بالنساء : الوصية بالنساء والتأكيد على عظم حقهن : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ ثَقِيمَةُ كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم /١٣٦٩/ ومسلم في كتاب الإيمان برقم /١١٤/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الحيض برقم /٢٩٣/ ومسلم في كتاب الإيمان برقم /١١٤/ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا ، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا) ^(١) .

ويخطئ كثير من الناس في هذا العصر بخاصة في فهم هذا الحديث الشريف ، ومنهم من يبلغ به الحد أن يفترى على دين الله تعالى ما هو منه براء ، وما به من آفة إلا قلة العلم ، وسقم الفهم ، والنبى ﷺ ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، يقرر في هذا الحديث الشريف حقيقة فطرية مشهودة ، ولا يعيب المرأة أن يكون النقص في أصل تكوينها وخلقها ، فهو أمر لا يد لها فيه ، وإثما هو لحكمة عالية أرادها العليم الحكيم ، ليكتب على الرجل ولايتها ورعايتها ، وبذل الجهد في إكرامها والإحسان إليها ، ولتقوم بمسئوليتها على خير وجه ، ومن أجل ذلك لم يحملها الإسلام ما لا طاقة لها به ، بل نهاها عن كل ما لا تحسنه ، من كل ما لا يتفق مع جبلتها وتكوينها ، وقلما وليت المرأة أمراً ليس من شأنها إلا بآت هي وأنصارها بخسران مبین ، وخزي أليم ، وضيعت في مقابله من مسئوليتها الفطرية ، التي لا يمكن أن يقوم بها غيرها ما تفسد به الحياة الإنسانية ولا تستقيم ، فكانت كمن يبني قصراً ، ويهدم مصراً ..

لقد رفع الإسلام عنها إصراً لا تقوم به ، ووزراً لا تحمله ، وعوضها الله عنه بمئة فضله من صالح الأعمال ، وكريم الخلال ، ما تسبق به كثيراً من الرجال ، فماذا تريد بعد ذلك ؟!

(١) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٧٨٦/ ، ومسلم في كتاب الرضاع برقم /٤٧٨٧/ .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : وصيته ﷺ بحق المرأة وواجبها !

ولما كانت الزوجة أقرب الناس صلة بالرجل ، فهي أعظم عليه حقاً ، وأولى الناس منه برّاً وإحساناً ، ومن ثمّ فقد كرّر النبي ﷺ الوصية بها ، وحثّ على تجاوز هفواتها ، لأنّ الضعف أصل فيها ، ومن رام منها الكمال فقد طلب المحال ، وسبح في عالم الخيال ، وأضاع جهده ، ونكّد عيشه ، فليسدّد وليقارب ، وليتغافل عن كثير من الهفوات ، ما لم تتعدّ طورها ، وتسرف في غيها ، وتركب مركب الشطط ، فدونه الحكمة والموعظة الحسنة ، وليقومها بما يدعو إليه العدل والبرّ ، دون أن يتعدّى شيئاً من حدود الله ، وعليه أن يتدرّع معها في كلّ حال بالصبر وسعة الصدر .

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَخْوَصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعَّظَ ، فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ قِصَّةً ، فَقَالَ : (أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ : فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ : أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ) (١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : حثه ﷺ على تعليم النساء !

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ حَتَمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ بِأَيَّتَيْنِ أُعْطِيَتْهُمَا مِنْ كَنْزِهِ الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَتَعَلَّمُوهُنَّ وَعَلِّمُوهُنَّ نِسَاءَكُمْ ،

(١) - رواه الترمذي في كتاب برقم /١٠٨٣/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى قَوْلِهِ : عَوَانٌ عِنْدَكُمْ يَعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ .

فَانْهَمَا صَلَاةً وَقُرْآنًا وَدُعَاءً (١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : حث الزوجين على التعاون على البر والتقوى :
عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِذَا
اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّقَطَ امْرَأَتُهُ فَصَلَّيَا رَكَعَتَيْنِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَثِيرًا وَالدَّاكِرَاتِ) (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ
اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ اتَّقَطَ امْرَأَتُهُ فَصَلَّتْ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ، وَرَحِمَ
اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ اتَّقَطَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى ، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ
فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) (٣) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : التأكيد على بر الأمت، وأن حق الأم
أعظم الحقوق : عن بهز بن حكيم قال : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ : قُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أْبْرُ ؟ قَالَ : أُمُّكَ ، قَالَ : قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : أُمُّكَ ،
قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : أُمُّكَ ، قَالَ : قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ، قَالَ : ثُمَّ أَبَاكَ ،
ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَأَلْأَقْرَبَ) (٤) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : الحث على اختيار ذات الدين ، وأنه المقصود
الاسمى في نكاح المرأة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

(١) - رواه الدارمي في كتاب فضائل القرآن برقم /٣٢٥٦/ .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم /١٣٢٥/ .

(٣) - رواه النسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار برقم /١٥٩٢/ ، وأبو داود في كتاب
الصلاة برقم /١١١٣/ ، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم /١٣٢٦/ .

(٤) - رواه مسلم في كتاب البر والصلة برقم /٤٦٢٢/ ، ورواه الترمذي في كتاب البر والصلة
برقم /١٨١٩/ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

(تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَنِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرِ
بَذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ) (١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : بيان أن المرأة راعية في بيت زوجها ،
ومسئولة عن رعيته : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :
(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَإِلِمَامٌ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ،
وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ
وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ
رَعِيَّتِهِ) ، قَالَ : " فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ
قَالَ : (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ،
وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (٢) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : وصيته ﷺ بحسن عشرة النساء ، وأداء
حقوقهن : عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ : قُلْتُ : يَا
رَسُولَ اللَّهِ نِسَاؤُنَا مَا نَأْتِي مِنْهُمْ وَمَا نَذَرُ ؟ قَالَ : (ائْتِ حَرَّتَكَ أَنْتِ شِئْتَ ،
وَأَطْعِمِهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَاكْسُهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تُقْبِحِ الْوَجْهَ ، وَلَا تُضْرِبِ ،
وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) (٣) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تبشيره ﷺ لبعض النساء بالجنة : وَعَنْ
جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ
فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَسَمِعْتُ خَشْفَةَ فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا فَقَالَ :

(١) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٧٠٠/ ومسلم .

(٢) - رواه البخاري /٢٢٣٢/ .

(٣) - رواه أبو داود في كتاب النكاح برقم /١٨٣١/ .

هَذَا بِلَالٍ ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بَيْنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا فَقَالَ : لِعُمَرَ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا أَبَيَّ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَعَلَيْكَ أَغَارُ ؟!) (١) .

* ومن مواقف رفيقه ﷺ بالنساء وحسن معاملته ما جاء في الحديث عَنْ أُمِّةٍ بِنْتِ أَبِي الصَّلْتِ ، عَنِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، وَقَدْ سَمَّاهَا لِي ، قَالَتْ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ فَقُلْنَا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا ، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْبَرَ ، فَتَدَاوِي الْجَرْحَى ، وَتُعِينِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا ، فَقَالَ : عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ ، قَالَتْ : فَخَرَجْنَا مَعَهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةً ، فَأَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَقِيبَةِ رَحْلِهِ ، قَالَتْ : فَوَاللَّهِ لَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الصُّبْحِ ، فَأَنَاحَ ، وَنَزَلْتُ عَنْ حَقِيبَةِ رَحْلِهِ ، وَإِذَا بِهَا دَمٌ مِنِّي ، فَكَأَنْتُ أَوَّلَ حَيْضَةٍ حِضَّتْهَا ، قَالَتْ : فَتَقَبَّضْتُ إِلَى النَّاقَةِ ، وَاسْتَحْيَيْتُ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا بِي ، وَرَأَى الدَّمَ ، قَالَ : مَا لَكَ ؟ لَعَلَّكَ نَفِسْتَ ، قَالَتْ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَصْلِحِي مِنْ نَفْسِكَ ، وَخُذِي إِنَاءً مِنْ مَاءٍ فَاطْرَحِي فِيهِ مِلْحًا ، ثُمَّ اغْسِلِي مَا أَصَابَ الْحَقِيبَةَ مِنَ الدَّمَ ، ثُمَّ عُدِّي لِمَرْكَبِكَ ، قَالَتْ : فَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ رَضَخَ لَنَا مِنَ الْفَيْءِ ، وَأَخَذَ هَذِهِ الْقِلَادَةَ الَّتِي تَرَيْنَ فِي عُنُقِي فَأَعْطَانِيهَا ، وَجَعَلَهَا بِيَدِهِ فِي عُنُقِي ، فَوَاللَّهِ لَا تُفَارِقُنِي أَبَدًا ، قَالَ : وَكَأَنْتُ فِي عُنُقِهَا حَتَّى مَاتْتُ ، ثُمَّ أَوْصَتْ أَنْ تُدْفَنَ مَعَهَا ، فَكَأَنْتُ لَا تَطْهَرُ مِنْ حَيْضَةٍ إِلَّا جَعَلْتُ فِي طَهُورِهَا مِلْحًا ، وَأَوْصَتْ أَنْ يُجْعَلَ فِي غُسْلِهَا حِينَ مَاتْتُ) (٢) .

ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تقديره ﷺ لمشاعر النساء وعواطفهن : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ قَالَتِ امْرَأَتُهُ : هَيْنَا لَكَ يَا ابْنَ مَطْعُونٍ

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم / ٣٤٠٤ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم / ٢٥٨٨٥ .

بِالْجَنَّةِ ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَظْرَةً غَضَبٍ ، فَقَالَ لَهَا : (مَا يُدْرِيكَ
 ؟! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ، قَالَ عَفَاً : وَلَا بِهِ قَالَتْ : يَا
 رَسُولَ اللَّهِ فَارِسُكَ وَصَاحِبُكَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ
 قَالَ ذَلِكَ لِعُثْمَانَ ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِهِمْ ، حَتَّى مَاتَتْ رُقِيَّةُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
 فَقَالَ : الْحَقِّي بِسَلَفِنَا الْخَيْرِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ، قَالَ : وَبَكَتِ النِّسَاءُ فَجَعَلَ عُمَرُ
 يَضْرِبُهُنَّ بِسَوْطِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ : دَعِهِنَّ يَبْكِينَ ، وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ
 الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَهْمَا يَكُنْ مِنَ الْقَلْبِ وَالْعَيْنِ فَمِنَ اللَّهِ
 وَالرَّحْمَةِ ، وَمَهْمَا كَانَ مِنَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ فَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ ، وَفَاطِمَةُ إِلَى جَنْبِهِ تَبْكِي ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَ فَاطِمَةَ
 بِثَوْبِهِ رَحْمَةً لَهَا (١) .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ بَيْتاً بِالْمَدِينَةِ غَيْرَ بَيْتِ أُمِّ
 سُلَيْمٍ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ فَقِيلَ لَهُ فَقَالَ : إِنِّي أَرْحَمُهَا قَتَلَ أَخُوها مَعِي (٢) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : ثناؤه ﷺ على المرأة الصالحة وأنها خير كنز :
 عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
 .. ﴾ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : أُتِرِلَ فِي

(١) - رواه أحمد في المسند برقم / ٢٩٣٨ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم / ٢٦٣٢ / ومسلم في كتاب فضائل الصحابة
 برقم / ٤٤٩٣ .

الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا أُنْزِلَ ، لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَتَّخِذْهُ فَقَالَ ﷺ : (أَفْضَلُهُ
لِسَانٌ ذَاكِرٌ ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ) ^(١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : حنه ﷺ على تيسير الزواج والتخفيف من
موته ، وحنه ﷺ على حسن الخلق مع الأهل : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : (إِذَا
أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ عَرِضٌ) ^(٢) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (خَيْرُكُمْ
خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) ^(٣) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : بيانه ﷺ أَنَّ رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الزَّوْجِ ،
وثنائوه على المرأة المطيعة المسرة لزوجها : عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ) ^(٤) .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : (الَّتِي
تُسِرُّهُ إِذَا نَظَرَ ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ) ^(٥) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب التفسير برقم ٣٠١٩/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، سَأَلْتُ مُحَمَّدَ
بْنَ إِسْمَاعِيلَ فَقُلْتُ لَهُ : سَأَلِمُ بْنَ أَبِي الْجَعْدِ سَمِعَ مِنْ تَوْبَانَ فَقَالَ : لَا ، فَقُلْتُ لَهُ : مِمَّنْ سَمِعَ مِنْ
أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَ : سَمِعَ مِنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ
أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

(٢) - رواه ابن ماجه في كتاب النكاح برقم ١٩٥٧/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب المناقب برقم ٣٨٣٠/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ
ورواه ابن ماجه برقم ١٩٦٧/ .

(٤) - رواه الترمذي في كتاب برقم ١٠٨١/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٥) - رواه النسائي في كتاب النكاح برقم ٣١٧٩/ .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : بيانه ﷺ لعظم مكانة الزوج من المرأة ، مما

يدعو إلى رحمة المرأة ، والرفق بها ، والإحسان إليها :

عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ قِيلَ لَهَا : قُتِلَ أَخُوكَ ، فَقَالَتْ : رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، قَالُوا : قُتِلَ زَوْجُكَ ، قَالَتْ : وَاحْزَنَاهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ لِلزَّوْجِ مِنَ الْمَرْأَةِ لَشُعْبَةً مَا هِيَ لِشَيْءٍ) (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا) (٢) .

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ فَقُلْتُ : رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ ، فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَسْجُدَ لَكَ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتُ تَسْجُدُ لَهُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَلَا تَفْعَلُوا ، لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ) (٣) .

* وتحذيره ﷺ من هجر فراش الزوج : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فَرَأَتْ زَوْجَهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ) (٤) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (ثَلَاثَةٌ لَا تَرْفَعُ صَلَاتُهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ شَيْئاً : رَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا

(١) - رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز برقم /١٥٧٩/ .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب الرضاع برقم /١٠٧٩/ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ .

(٣) - رواه أبو داود في كتاب النكاح برقم /١٨٢٨/ .

(٤) - رواه البخاري ومسلم في كتاب النكاح ، وهذا لفظ مسلم برقم /٢٥٩٤/ .

عَلَيْهَا سَاحِطٌ ، وَأَخْوَانٌ مُتَصَارِمَانِ (١) .

* وَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكَ : عَنِ الْحُصَيْنِ بْنِ مُحْصَنِ رضي الله عنه أَنَّ عَمَّةَ لَهُ أُنْتُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَاجَةٍ ، فَفَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِهَا ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : كَيْفَ أَنْتِ لَهُ ؟ قَالَتْ : مَا أَلُوهُ ، إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ ، قَالَ : فَأَنْظِرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ؟ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكَ (٢) .

* وَمِنْ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالنِّسَاءِ : سَمَاعُهُ رضي الله عنه شَكَايَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا !

عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : وَاللَّهِ فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدْرَ سُورَةِ الْمَجَادَلَةِ ، قَالَتْ : كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا ، فَرَاغَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ فَقَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي ، قَالَتْ : ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي قَالَتْ : فَقُلْتُ : كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ قَالَتْ : فَوَاتَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ فَعَلْبَتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةَ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي قَالَتْ : ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ قَالَتْ : فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : يَا خُوَيْلَةُ ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللَّهَ فِيهِ قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ فَتَعَشَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَعَشَّاهُ ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ فَقَالَ لِي : يَا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

(١) - رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم /٩٦١/ .

(٢) - رواه أحمد برقم /١٨٢٣٣/ .

قَوْلَ آلِي تَجْدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

① ﴿ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ .. وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٤ ﴾ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
مُرِيهِ فَلْيَعْتِقْ رَقَبَةً قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ قَالَ :
فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ
مِنْ صِيَامٍ قَالَ : فَلْيُطْعِمِ سِتِينَ مِسْكِينًا وَسَقَا مِنْ تَمْرٍ قَالَتْ : قُلْتُ : وَاللَّهِ يَا
رَسُولَ اللَّهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَإِنَّا سَعَيْنَاهُ بِعَرَقٍ مِنْ
تَمْرٍ قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَاعَيْنَاهُ بِعَرَقٍ آخَرَ قَالَ : قَدْ أَصَبْتَ
وَأَحْسَنْتِ فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمَلِكٍ خَيْرًا قَالَتْ :
فَفَعَلْتُ (١) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ
الْأَصْوَاتَ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو
زَوْجَهَا ، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ آلِي تَجْدِلُكَ فِي
زَوْجِهَا .. ﴾ " (٢) .

وفي رواية أخرى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : " تَبَارَكَ الَّذِي
وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ ، وَيَخْفَى عَلَيَّ
بَعْضُهُ ، وَهِيَ تَشْكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ !
أَكَلَ شَبَابِي ، وَتَثَرْتُ لَهُ بِطْنِي ، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي ، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ، ظَاهَرَ

(١) - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم /٢٦٠٥٦/ .

(٢) - رواه ابن ماجه في المقدمة برقم /١٨٤/ والإمام أحمد .

مِنِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ، فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهِؤَلَاءِ الْآيَاتِ :
﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ " (١) .

وانظر إلى أثر هذه التربية القرآنية والسيرة النبوية في موقف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو المعروف بشدته وقوة بأسه ، فقد خرج من المسجد يوماً ، والجارود العبدى معه فبينما هما خارجان إذ بامرأة على ظهر الطريق ، فسلم عليها عمر رضي الله عنه ، فردت عليه السلام ، ثم قالت : رويدك يا عمر ! حتى أكلمك كلمات قليلة ، قال لها قولي .

قالت : يا عمر ! عهدي بك وأنت تسمي عميراً في سوق عكاظ ، تصارع الفتيان ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فأتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت ، فقال الجارود : هيه ! قد اجترأت على أمير المؤمنين !

فقال عمر رضي الله عنه : دعها ، أما تعرف هذه يا جارود ! هذه خولة بنت حكيم ، التي سمع الله قولها من فوق سمائه ، فعمر والله أخرى أن يسمع كلامها " (٢) . وفي رواية أنه قال : " والله لو استوقفتني إلى الليل لوقفت لها " .

* وامرأة أخرى تشتكي من زوجها : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ صَفْوَانَ بْنَ الْمُعْطَلِ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ عِنْدَهُ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي صَفْوَانَ بْنَ الْمُعْطَلِ يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ ، وَيُفْطِرُنِي إِذَا صُمْتُ ، وَلَا يُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، قَالَ : وَصَفْوَانُ عِنْدَهُ ، قَالَ : فَسَأَلُهُ عَمَّا قَالَتْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا قَوْلُهَا : يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ ، فَإِنَّهَا

(١) - رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق برقم ٢٠٥٣ / .

(٢) - انظر : " أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر " للشيخ علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ص / ٣٣٠ / .

تَقْرَأُ سُورَتَيْنِ ، فَقَدْ نَهَيْتَهَا عَنْهَا ، قَالَ : فَقَالَ : لَوْ كَانَتْ سُورَةٌ وَاحِدَةٌ لَكَفَتِ النَّاسَ ، وَأَمَّا قَوْلُهَا : يُفْطِرُنِي ، فَإِنَّهَا تَصُومُ ، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَا أَصِيرُ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ : لَا تَصُومَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا ، قَالَ : وَأَمَّا قَوْلُهَا : يَا أَيُّ لَا أُصَلِّي حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ عُرِفَ لَنَا ذَاكَ ، لَا نَكَادُ نَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، قَالَ فَإِذَا اسْتَيْقَظَتْ فَصَلِّ) (١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : حثه ﷺ على حفظ الأسرار الزوجية : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) (٢) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ مِنْ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (احْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسَّحَرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) (٣) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ النساءَ مِنْ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغْيِرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ، قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا : أُمُّ يَعْقُوبَ ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ : مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ ، أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ ،

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١١٣٣٥/ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب النكاح برقم /٢٥٩٨/ ، وأبو داود .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الوصايا ٢٥٦٠ ومسلم في كتاب الإيمان .

الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحِي الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ ، فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتُ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهُكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ ۗ ﴾ الْحَشْرِ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الْآنَ ، قَالَ : اذْهَبِي فَاظْطَرِّي ، قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمْ تَرَ شَيْئًا ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا ، فَقَالَ : أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نُجَامِعْهَا ^(١) .

* وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ ، وَالذَّيْثُ ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ ، وَالثَّانُ بِمَا أُعْطِيَ) ^(٢) .

* وَمِنْ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالنِّسَاءِ : تَحْذِيرُهُ ﷺ النِّسَاءَ مِنَ التَّبَرُّجِ وَتَرْكِ الْحِجَابِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَدْنَابِ الْبَقَرِ ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدْنَ رِجْحَهَا ، وَإِنْ رِجْحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةٍ كَذَا وَكَذَا) ^(٣) .

(١) - رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة برقم ٣٩٦٦/ ، والوشم : الدق المعروف ، والتنميص : نتف شعر الوجه ، والتفليج : ترقيق الأسنان .

(٢) - رواه النسائي في كتاب الزكاة برقم ٢٥١٥/ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة ٣٩٧١/ وفي كتاب نعيم الجنة وصفة أهلها ورواه أحمد في المسند .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ من الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله تعالى ، ومن سؤال المرأة الطلاق بغير حق : عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : (أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ) (١) .
وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ) (٢) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ من إفساد المرأة على زوجها :
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ) (٣) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : إذنه ﷺ لهنَّ بأخذ ما يحتاجن من النفقة بالمعروف : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلْتُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي ، وَيَكْفِي بَنِيَّ إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ، فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ) (٤) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ من فتنه النساء :

(١) - رواه أبو داود في كتاب النكاح برقم /١٨٦٣/ وابن ماجه في كتاب النكاح برقم /٢٠٠٨/ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /٢١٣٤٥/ .

(٣) - رواه أبو داود في كتاب الطلاق برقم /١٨٦٠/ ، وخَبَّبَ على فلان زوجه : أفسدها عليه بذكر مثالبه ، أو يتكره العيش معه .

(٤) - رواه مسلم في كتاب الأفضية برقم /٣٢٣٣/ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى مُعِيرَبَانَ الشَّمْسِ ، حَفِظَهَا مِنَّا مَنْ حَفِظَهَا ، وَنَسِيَهَا مِنَّا مَنْ نَسِيَهَا ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، قَالَ عَفَانُ : وَقَالَ حَمَّادٌ : وَأَكْثَرُ حِفْظِي أَنَّهُ قَالَ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، وَأَتَنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاطِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ..) الْحَدِيث (١) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ من دُخُولِ الْأَجَانِبِ عَلَيْهِنَ : عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو ؟ قَالَ : الْحَمُو الْمَوْتُ) (٢) .

* ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تحذيره ﷺ من سَفَرِ الْمَرْأَةِ وَحْدَهَا إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ فِي جَيْشٍ كَذَا وَكَذَا وَامْرَأَتِي تُرِيدُ الْحَجَّ ، فَقَالَ : أَخْرُجْ مَعَهَا) (٣) .

ومن رحمة النبي ﷺ بالنساء : تَكْرِيمُ الْحَالَةِ وَبَيَانُ ﷺ أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ : عَنْ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا : هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالُوا : لَا نُقِرُّ لَكَ بِهَذَا ، لَوْ

(١) - رواه أحمد برقم /١٠٧١٦/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٨٣١/ ومسلم في السلام .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الحج برقم /١٧٢٩/ ومسلم وغيرهما .

نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعَكَ شَيْئاً ، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ :
أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام : اَمْحُ
رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ عَلِيٌّ : لَا وَاللَّهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَداً ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
الْكِتَابَ ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ ، فَكَتَبَ : هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ
اللَّهِ : لَا يُدْخِلُ مَكَّةَ السَّلَاحَ إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا
بِأَحَدٍ ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ
بِهَا ، فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلَ ، أَتَوْا عَلِيًّا فَقَالُوا : قُلْ لِصَاحِبِكَ اخْرُجْ عَنَّا
فَقَدْ مَضَى الْأَجَلَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي : يَا عَمَّ يَا عَمَّ ،
فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ يَدَهَا ، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ : دُونَكِ ابْنَةُ عَمِّكِ ،
حَمَلَتْهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ ، قَالَ عَلِيٌّ : أَنَا أَخَذْتُهَا ، وَهِيَ
بِنْتُ عَمِّي ، وَقَالَ جَعْفَرٌ : ابْنَةُ عَمِّي ، وَخَالَتُهَا تَحْتِي ، وَقَالَ زَيْدٌ : ابْنَةُ
أَخِي ، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِحَالَتِهَا ، وَقَالَ : الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ ، وَقَالَ
لِعَلِيِّ : أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ ، وَقَالَ لِحَجَّعٍ : أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي ، وَقَالَ
لِرَزِيدٍ : أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا ، وَقَالَ عَلِيٌّ : أَلَا تَتَزَوَّجُ بِنْتُ حَمْزَةَ ؟ قَالَ :
إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ (١) .



(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي والصلح برقم /٣٩٢٠/ .

المبحث الثالث

حُسْنُ عِشْرَتِهِ ﷺ لِأَهْلِ بَيْتِهِ

وأما حسن عشرته ﷺ لنسائه وأهل بيته فذلك مما تواتر من سيرته الشريفة وهديه ، وتجلى في كُلِّ موقفٍ ومُناسبة ، وحملَ لنا جَمَّ المعاني وأجملها ، من الرحمة والرفق ، والشفقة وحسن الخلق ، وسعة الصدر ، وعظيم الوفاء والبر ، وتقدير المشاعر ، والتماس العذر .

والحديث عن علاقة الرسول ﷺ بنسائه وأهل بيته واسع متشعب ، غنيّ بالمواقف والعبر .. تلتقي فيه الإنسانية السامية بالنبوة الملهمة ، والبشرية الفطرية بالرسالة الهادية .. " إِنَّ الرِّسَالَةَ لَمْ تَنْزَعْ مِنْ قَلْبِهِ عَوَاطِفَ الْبَشَرِ ، وَلَمْ تَجْرِدْهُ مِنْ وَجْدَانِهِمْ ، وَلَا أَبْرَأْتَهُ مِمَّا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ ، فِيمَا عَدَا مَا يَتَّصِلُ بِالْنبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ .. لَقَدْ كَانَ ﷺ يَسْكُنُ إِلَى زَوْجِهِ ، وَيَدَاعِبُ أَطْفَالَهُ ، وَيَعَانِي مِثْلَ مَا يَعَانِيهِ بَنُو آدَمَ : مِنْ حُبٍّ وَكَرِهٍ ، وَرَغْبَةٍ وَزَهْدٍ ، وَخَوْفٍ وَأَمَلٍ ، وَحَنِينٍ وَاشْتِيَاقٍ ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ مَا يَجْرِي عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ مِنْ تَعَبٍ وَيَتَمٍّ ، وَثُكُلٍ وَمَرَضٍ وَمَوْتٍ .. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَعَصَمَ نَبِيَّهَ ﷺ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ .. وَلَجَعَلَ حَيَاتِهِ نَعِيمًا لَا يَعْرِفُ الْبُؤْسَ وَالْإِبْتِلَاءَ " ^(١) ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا يَخْتَفِي مَعَهُ مَعْنَى التَّأْسِي وَالْإِقْتِدَاءِ .. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ حَقَائِقِ الْنبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَأَهْدَافِهَا ..

لقد كانت الزوجة تأتي بيت النبي ﷺ معترّة بشرف الزواج من النبي المصطفى ﷺ ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت ، وتلقى من فيه من الزوجات ،

(١) - انظر " تراجم سيّدات بيت النبوة " د. عائشة عبد الرحمن ص/١٥٦/ بتصرف وزيادة .

اللاتي يشاركنها في زوجها ، حتى ترى فيه ﷺ الزوج والنبي ، ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التي تحدث حتى تتجاوز المدى .. وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في حياة زوجهن نبياً فحسب .. (١) .

وحياة النبي ﷺ في بيته تبدو رائعة في إنسانيتها ، فقد كان يعيش بين أزواجه رجلاً ذا قلب وعاطفة ووجدان .. نقرأ اليوم ما وعى لنا التاريخ من مرويّات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة ، لا تعرف العقم الوجداني ، ولا الجمود العاطفي ، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سويّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن حياته حرارة ودفءً وانفعالاً ، وينحّين عنها كلّ ظلّ من ظلال الركود والفتور والجفاف .

ولقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش فيّ القلب ، رحب الصدر ، فياض المشاعر ، حيّ العواطف والوجدان ، حتى بعد أن جاوز الستين من العمر ، ليقدم بذلك للبشرية الصورة المثلى عن العلاقة الإنسانية التي ترضي الله تعالى ، وتسعد الإنسان ، وتسمو بحياته ، وليعلمنا بسيرته العملية كيف تبنى الأسرة السعيدة ، وكيف تُعالج مُشكلاتها ، وتحلّ الخلافات فيها ، وكيف يقود الرجل مسيرتها بالتعاون مع المرأة ، لتكون لبنة صالحة في كيان المجتمع المسلم ..

* ومن مظاهر حسن عشرة النبي ﷺ لنسائه : ما كان عليه ﷺ من أنواع

البرّ والوفاء : فقد كان ﷺ كلما ذكرَ خديجةً أُنّى عليها ، فأحسنَ الثناء ، حتى كانت عائشة تغارُ منها ، وهي ميتة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أُنّى عَلَيْهَا ، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ ، قَالَتْ : فَغَرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا ؟! حَمَرَاءَ الشُّدُقِ ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا

(١) - المرجع السابق ص/١٦١ .

خَيْرًا مِنْهَا ، قَالَ : مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنْتُ بِِي إِذْ كَفَرْتُ بِالنَّاسِ ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَأَسْتَيْتَنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا ، إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادُ النِّسَاءِ (١) .

وكان من بره ﷺ بخديجة رضي الله عنها أنه يبرأ أختها وصاحباتها ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَالَةَ ، قَالَتْ : فَعِزْتُ ، فَقُلْتُ : مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ ، حَمْرَاءِ الشُّدْقَيْنِ ، هَلَكْتُ فِي الدَّهْرِ ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا ؟! (٢) .

وتقديرًا لفضلها ، وجهادها في سبيل نصره دين الله ، فقد بشرها الله تعالى بالجنة : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ ، أَوْ طَعَامٌ ، أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَأَقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمَنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ) .

* ومن حسن عشرته ﷺ لنسائه ، وتلطفه بهن ، وتقديره لمشاعرهن ما كان يرصده ﷺ من حال غضب زوجته عائشة ورضاها ، فيذكر لها ذلك ، وكأنه يعاتبها برفق : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنِّي لَأَعْرِفُ غَضَبَكَ وَرِضَاكَ ، قَالَتْ : قُلْتُ : وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : إِنَّكَ إِذَا كُنْتَ رَاضِيَةً قُلْتُ : بَلَى ، وَرَبُّ مُحَمَّدٍ ، وَإِذَا كُنْتَ سَاخِطَةً قُلْتُ : لَا ، وَرَبُّ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَتْ : قُلْتُ : أَجَلُ لَسْتُ أَهَاجِرُ إِلَّا اسْمَكَ) (٣) .

(١) - رواه الإمام أحمد برقم /٢٣٧١٩/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم /٣٥٣٦/ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٦١٤/ .

وكان ﷺ يقدر حداته سن زوجته عائشة رضي الله عنها ، فيروح لها عن نفسها ، ويرسل لها صواحبها من البنات ليلعن معها : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : (كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَ لِي صَوَاجِبُ يَلْعَبْنَ مَعِيَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ ^(١) ، فَيَسْرِبُهُنَّ إِلَيَّ ، فَيَلْعَبْنَ مَعِيَ) ^(٢) .

وكان من حسن خلقه ﷺ مع أهله ، وكريم عشرته ، أنه يخدمهم ويخدم نفسه ، كما جاء في الحديث عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : " كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تُعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ " ^(٣) .

* وكان ﷺ يروح عنهن بما أحل الله : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيتَانِ تُغْنِيَانِ بَغْنَاءِ بُعَاثَ ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ ، وَحَوْلَ وَجْهِهِ ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَاتَّهَرَنِي ، وَقَالَ : مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ .! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : دَعُهُمَا ، فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا ، وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ ، فَأَمَّا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَإِمَّا قَالَ : تَشْتَهِي تَنْظِيرِينَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ ! حَتَّى إِذَا مِلْتُ ، قَالَ : حَسْبُكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَادْهَبِي .

(١) - أي : يختبئن ويتغيبن داخل البيت ، أو وراء ستر ، وأصله من القمع الذي على رأس الثمرة ، كما في النهاية في غريب الحديث والأثر ١٠٩/٤ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم ٥٦٦٥ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الأذان برقم ٦٣٥ .

وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها : أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامٍ مِنْى ، تُغْنِيَانِ وَتَضْرِبَانِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسَجًى بِثَوْبِهِ ، فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْهُ وَقَالَ : دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عَيْدٍ ، وَقَالَتْ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، وَأَنَا جَارِيَةٌ ، فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ ، الْعَرَبِيَّةِ ، الْحَدِيثَةُ السَّنُّ (١) .

* ومن حسن عشرته ﷺ لنسائه ، وتلفظه بهن : ما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ : فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رَجُلِي ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي ، فَقَالَ : هَذِهِ يِتْلُكَ السَّبَقَةُ (٢) .

وفي حديث آخر عنها رضي الله عنها قالت : خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ ، وَلَمْ أَبْذُنْ ، فَقَالَ لِلنَّاسِ : تَقَدَّمُوا ، فَتَقَدَّمُوا ، ثُمَّ قَالَ لِي : تَعَالِي حَتَّى أُسَاقِكَ ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ ، فَسَكَتَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ ، وَبَدُئْتُ ، وَنَسِيتُ ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَقَالَ لِلنَّاسِ : تَقَدَّمُوا ، فَتَقَدَّمُوا ، ثُمَّ قَالَ : تَعَالِي حَتَّى أُسَاقِكَ ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي ، فَجَعَلَ يَضْحَكُ ، وَهُوَ يَقُولُ : هَذِهِ يِتْلُكَ (٣) .

* ومن حسن العشرة للأهل : محادثتهن ومباسطتهن وممازحتهن ،

والاستماع إلى حديثهن ، وقد كان هدي النبي ﷺ في ذلك الهدي الأكمل ، فقد استمع إلى السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وهي تحدّثه بحديث أم زرع .. ومن المعلوم أَنَّ أَكْثَرَ النِّسَاءِ يَشْتَكِينَ صَمْتَ أَزْوَاجِهِنَّ ، وَكَرَاهَتَهُنَّ لِلْإِسْتِمَاعِ

(١) - رواه البخاري في كتاب الجمعة برقم/٨٩٧/ومسلم في كتاب صلاة العيدين برقم/١٤٨٠/.

(٢) - رواه أبو داود في كتاب الجهاد برقم/٢٢١٤/ .

(٣) - رواه أحمد في المسند برقم/٢٥٠٧٥/ .

لهنَّ ، ومن طبيعتهنَّ أَنهنَّ يكثرن الكلام ، ويحببن أن يستمعَ لهنَّ الرجل ، بل أن يحسن الاستماع ، ويتجاوب مع اهتمامهنَّ ، وقد ضرب النبي ﷺ لنا في هذيه أروع الأمثلة في حسن الاستماع للمرأة ، كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدَنَّ وَتَعَاقَدَنَّ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً .

قَالَتْ الْأُولَى : زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٍ غَثٌ ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَغَرٍ ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى ، وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَل .

قَالَتْ الثَّانِيَةُ : زَوْجِي لَا أَبْتُ خَبْرَهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَدْرَهُ ، إِنْ أَذْكُرُهُ أَذْكُرُ عَجْرَهُ وَبُجْرَهُ .

قَالَتْ الثَّالِثَةُ : زَوْجِي الْعَشَنُّ ، إِنْ أَنْطِقَ أُطْلِقْ ، وَإِنْ أَسْكُتَ أُعَلِّقْ .
قَالَتْ الرَّابِعَةُ : زَوْجِي كَلِيلُ نَهَامَةٍ ، لَا حَرَّ ، وَلَا قُرَّ ، وَلَا مَخَافَةَ ، وَلَا سَامَةَ .

قَالَتْ الْخَامِسَةُ : زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فِهْدٌ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِيدٌ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدَ .

قَالَتْ السَّادِسَةُ : زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفٌّ ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ ، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ .

قَالَتْ السَّابِعَةُ : زَوْجِي غَيَايَاءُ ، أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ ، شَحْكٌ ، أَوْ فَلَكَ ، أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ .

قَالَتْ الثَّامِنَةُ : زَوْجِي الرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ ، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْتَبٍ .
قَالَتْ التَّاسِعَةُ : زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ ، طَوِيلُ النَّجَادِ ، عَظِيمُ الرَّمَادِ ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِي .

قَالَتُ الْعَاشِرَةُ : زَوْجِي مَالِكٌ ، وَمَا مَالِكٌ ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ،
لَهُ إِيلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ ، إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَتَقَنَّ
أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ .

قَالَتُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ ، فَمَا أَبُو زَرْعٍ ، أَنَاسَ مِنْ
حُلِيِّ أَدْنَى ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضْدِي ، وَبَجَحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي ،
وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ يَشُقُّ ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ ، وَدَائِسٍ
وَمُنُقٍ ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنِّحُ ، أُمُّ أَبِي
زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ! عَكُومُهَا رَدَاحٌ ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ
فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ! مَضْجَعُهُ كَمَسَلٍ شَطْبَةٍ ، وَيُسْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ ، بِنْتُ
أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ! طَوْعُ أَبِيهَا ، وَطَوْعُ أُمِّهَا ، وَمِلْءُ كِسَائِهَا ،
وَعِظُ جَارَتِهَا ، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ، لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا
تَبِيثًا ، وَلَا تُنْقِثُ مِيرَتَنَا تَنْقِثًا ، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا ، قَالَتْ : خَرَجَ أَبُو
زَرْعٍ ، وَالْأَوْطَابُ تُمَخَضُ ، فَلَقِيَ امْرَأَةً ، مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا ، كَالْفَهْدَيْنِ
يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَاتَيْنِ ، فَطَلَقَنِي وَنَكَحَهَا ، فَكَحَحْتُ بَعْدَهُ
رَجُلًا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وَأَخَذَ حَطِيبًا ، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا ،
وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةِ زَوْجًا ، قَالَ : كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ ، وَمِيرِي أَهْلَكَ ،
فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ ، قَالَتْ عَائِشَةُ :
قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَأُمِّ زَرْعٍ) (١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل برقم /٤٨٩٣/ ، ومسلم
في كتاب فضائل الصحابة برقم ، باب حديث أم زرع برقم /٤٤٨١/ وزاد في رواية لمسلم قَالَ :
عَيَّاءُ طَبَاقًا وَلَمْ يَشْكُ ، وَقَالَ : قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ ، وَقَالَ : وَصِفْرُ رَدَائِهَا ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا ،
وَعَفْرُ جَارَتِهَا ، وَقَالَ : وَلَا تُنْقِثُ مِيرَتَنَا تَنْقِثًا ، وَقَالَ : وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَائِحَةِ زَوْجًا .

* زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها ، وما فيه من أدب النبي ﷺ

وحسن شمائله : عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ : إِنَّا لِلَّهِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، عِنْدَكَ احْتَسِبْتُ مُصِيبَتِي ، وَأُجْرِنِي فِيهَا ، وَأَبْدِلْنِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا) ، فَلَمَّا احْتَضَرَ أَبُو سَلَمَةَ قَالَ : " اللَّهُمَّ اخْلُفْنِي فِي أَهْلِي بِخَيْرٍ " ، فَلَمَّا قُبِضَ قُلْتُ : " إِنَّا لِلَّهِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ عِنْدَكَ احْتَسِبُ مُصِيبَتِي ، فَأُجْرِنِي فِيهَا " ، قَالَتْ : وَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ : " وَأَبْدِلْنِي خَيْرًا مِنْهَا ، فَقُلْتُ : وَمَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ؟ فَمَا زِلْتُ حَتَّى قُلْتُهَا ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا أَبُو بَكْرٍ فَرَدَّتهُ ، ثُمَّ خَطَبَهَا عُمَرُ فَرَدَّتهُ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِرَسُولِهِ ، أَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرِي ، وَأَنِّي مُصِيبَةٌ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِدًا ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَمَّا قَوْلُكَ : إِنِّي مُصِيبَةٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيكَ صَبِيئًا ، وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنِّي غَيْرِي ، فَسَادَعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ غَيْرُكَ ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَاهِدٌ وَلَا غَائِبٌ إِلَّا سَيَرْضَانِي ، قُلْتُ : يَا عُمَرُ قُمْ فَزَوِّجْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَمَّا إِنِّي لَا أَنْقُصُكَ شَيْئًا مِمَّا أُعْطِيتُ أُحْتَكِ فُلَانَةٌ ، رَحِيحِينَ وَجَرَّتَيْنِ وَوِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشَوَهَا لَيْفٌ) ، قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِيهَا ، فَإِذَا جَاءَ أَخَذَتْ زَيْتَبَ فَوَضَعَتْهَا فِي حِجْرِهَا لِتَرْضِعَهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا كَرِيمًا ، يَسْتَحْيِي ، فَرَجَعَ فَفَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا ، فَفَطِنَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِمَا تَصْنَعُ ، فَأَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَجَاءَ عَمَّارٌ ، وَكَانَ أَخَاهَا لِأُمِّهَا ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا ، فَانْتَشَطَهَا مِنْ حِجْرِهَا ، وَقَالَ : دَعِي هَذِهِ الْمَقْبُوحَةَ الْمَشْقُوحَةَ ، الَّتِي آذَيْتِ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ ، فَجَعَلَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ

فِي الْبَيْتِ وَيَقُولُ : أَيْنَ زَنَابُ ؟ مَا فَعَلْتَ زَنَابُ ؟ قَالَتْ : جَاءَ عَمَّارٌ فَذَهَبَ بِهَا ، قَالَ : فَبَنَى بِأَهْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : (إِنْ شِئْتَ أَنْ أُسَبِّحَ لَكَ سَبْعُ لَيْلٍ) (١) .

وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا فَسُرِرْتُ بِهِ ، قَالَ : (لَا تُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةً ، فَيَسْتَرْجِعَ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ، اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ : اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي ، قُلْتُ : مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ؟ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَا أَدْبَعُ إِهَابًا لِي ، فَعَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرِطِ ، وَأَذِنْتُ لَهُ ، فَوَضَعَتْ لَهُ وَسَادَةَ آدَمَ ، حَشَوْهَا لَيْفٌ ، فَقَعَدَ عَلَيْهَا ، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا تَكُونَ بِكَ الرَّغْبَةُ فِيَّ ، وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ فِيَّ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا ، يُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ ، وَأَنَا امْرَأَةٌ دَخَلْتُ فِي السِّنِّ ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ ، فَقَالَ : أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْكَ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي ، قَالَتْ : فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) (٢) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٥٤٤٨/ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /١٥٧٥١/ .

* ومن حسن عشرته ﷺ مع أهله ما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَقْبَلْتُ فَاطِمَةَ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَرْحَبًا بِابْنَتِي ، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ أَسْرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ ، فَقُلْتُ لَهَا : لِمَ تَبْكِينَ ؟ ثُمَّ أَسْرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكْتُ ؟ فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ ؟! فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ : أَسْرَّ إِلَيَّ إِنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي ، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تُكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ (١) .

ونرى في هذا الحديث الشريف مَا كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَعَنْ ذُرِّيَّتِهَا الطَّاهِرَةِ مِنْ تَكْرِيمٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَإِعْزَازٍ ، وَمَنْزِلَةٍ لَا تَسَامَى ، وَنَرَى فِيهِ كَذَلِكَ الْأَبُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمَثَالِيَّةَ فِي هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَهَا ، وَمَوْقِفَهُ مِنْهَا ، وَهُوَ الْأَسْوَةُ الْعَظْمَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
وَيَعْلَمُ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَكَانَةَ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ أَبِيهَا ﷺ ، فَيَحْرَصُ عَلَى أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعَوْنِهَا وَخِدْمَتِهَا ، حَتَّى وَلَوْ تَأَخَّرَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَقْرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ، وَيَدْعُو لَهُ بِالرَّحْمَةِ .. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ بِلَالَ بَطَأَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : مَا حَبَسَكَ فَقَالَ : مَرَرْتُ بِفَاطِمَةَ وَهِيَ تَطْحَنُ ، وَالصَّبِيُّ يَبْكِي ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ شَيْتَ كَفَيْتُكَ الرَّحَا ، وَكَفَيْتَنِي الصَّبِيَّ ، وَإِنْ شَيْتَ كَفَيْتُكَ الصَّبِيَّ ، وَكَفَيْتَنِي

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم ٣٣٥٣ / .

الرَّحَا؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَرْفَقُ بِأَبْنِي مِنْكَ، فَذَاكَ حَبْسَنِي قَالَ: فَرَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ (١).

* وَمِنْ الْمَوَاقِفِ الدَّالَّةِ عَلَى حَسَنِ عَشْرَتِهِ ﷺ لِأَهْلِهِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّ أَبَاهُ سَعْدًا ﷺ قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَتَدَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ، قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيَّ عَدَوَاتٍ أَنْفُسِهِنَّ، أَتَهَبْنِي، وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟! قُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَغْلَظُ وَأَقْظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ) (٢).

* وَمِنْ أَرْوَاحِ صُورِ حَسَنِ الْعِشْرَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكَ تَرْفَعِينَ صَوْتَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ مُغَضَّبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: كَيْفَ رَأَيْتَنِي أَنْقَذْتُكَ مِنَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدْ اصْطَلَحَا،

(١) - رواه أحمد برقم ١٢٠٦٦/.

(٢) - رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم ٤٤١٠/.

فَقَالَ لَهُمَا: أَذْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا ، كَمَا أَذْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ فَعَلْنَا ، قَدْ فَعَلْنَا (١) .

وَيَلْبُغُ حُسْنُ عِشْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَطْفُ مُعَامَلَتِهِ أَقْصَى مَا يَتَصَوَّرُ فِي مَوَاقِفِ الْغِيَرَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ نِسَائِهِ ﷺ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَتَجَاوَزُ الْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ ، وَإِنْصَافَ مَنْ يُسَاءُ إِلَيْهَا ، أَوْ يَعْتَدِي عَلَى حَقِّهَا .

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ ، فَضَرَبَتْ أَلْيَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ ، فَأَنْفَلَقَتْ ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَقَ الصَّحْفَةَ ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ ، الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ ، وَيَقُولُ : غَارَتْ أُمُّكُمْ ، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ ، حَتَّى أَتَى بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ أَلْيِ هُوَ فِي بَيْتِهَا ، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا ، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كُسِرَتْ (٢) .

وَفِي رَوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " طَعَامُ مَكَانٍ طَعَامٌ ، وَإِنَاءُ مَكَانٍ إِنَاءٌ " . وَيَنْتَصِرُ النَّبِيُّ ﷺ لَصَفِيَّةَ عِنْدَمَا عَيَّرَتْهَا بَعْضُ ضَرَائِرِهَا أَنَّهَا بِنْتُ يَهُودِيٍّ ، فَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : بَلَغَ صَفِيَّةٌ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ : بِنْتُ يَهُودِيٍّ فَبَكَتْ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي ، فَقَالَ : مَا يُنْكِيكِ ؟ فَقَالَتْ : قَالَتْ لِي حَفْصَةُ : إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّكَ لَابْنَةُ نَبِيٍّ ، وَإِنَّ عَمَّكَ لَنَبِيٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَحْتَ نَبِيٍّ ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكَ ؟ ثُمَّ قَالَ : اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ (٣) .

(١) - رواه أبو داود في كتاب الأدب برقم /٤٣٤٧/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب النكاح برقم /٤٨٢٤/ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ برقم /٣٨٢٩/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وانظر ما أسمى أدب النبي ﷺ في تطييبه لخطرها ، وثنائه على شرف

نسبها بأتصاله بهارون وموسى عليهما الصلاة والسلام !.

ونجد أجمل صور حسن عشرة النبي ﷺ مع أهل بيته ، ولطفه وتسامحه ، في معاملته لخدمه أنس بن مالك رضي الله عنه ، إذ يقول أنس : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا ، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ ، لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صَبِيَّانِ ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي ، قَالَ : فَتَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقَالَ : يَا أَنْسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ أَنْسُ : وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ : هَلَا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ (١) .

ويشفق النبي ﷺ وهو الرؤوف الرحيم على مغيث ، وهو عبد رقيق ، إذ يراه يطوف وراء بريرة ، يرجوها ألا تفارقه بعدما نالت حرّيتها ، ويتلطّف بها النبي ﷺ ، فيقول لها بحكم إنسانيته الرفيعة ، وما جبل عليه من الرحمة : " لَوْ رَاجَعْتِهِ ؟ " وهو يملك بأبي هو وأمّي أن يأمرها أمراً ، ولكن يقول لها متواضعاً : إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ .. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ : مُغِيثٌ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا ، يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ : يَا عَبَّاسُ ! أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ ، وَمِنْ بَعْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَوْ رَاجَعْتِهِ ؟ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ : إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ ، قَالَتْ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ (٢) .

(١) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٧٢/ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم /٤٨٧٥/ .

* ومن حسن عشرته ﷺ مع أهله ما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا ، وَحَاضَتْ بِسِرْفٍ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ مَكَّةَ ، وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ : مَا لَكَ ؟! أَنْفِستِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ ، فَأَقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالنِّيتِ ، فَلَمَّا كُنَّا بِمِنَى أُتِيتُ بِلَحْمِ بَقَرٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَزْوَاجِهِ بِالْبَقَرِ (١) .

فانظر إلى لطفه ﷺ معها ، وتخفيفه عنها ، وأن ذلك أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ ، ثم بين لها ما عليها أن تفعله من أحكام حجها .

* ومن حسن عشرة النبي ﷺ لأهله : هَجَرَهُ ﷺ لنسائه عندما طلبن زيادة النفقة : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوساً بِبَابِهِ ، لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ قَالَ : فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ فَدَخَلَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِساً ، حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ ، وَاجِماً سَاكِتاً ، قَالَ : فَقَالَ : لَأَقُولَنَّ شَيْئاً أَضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلْتَنِي النَّفْقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَّأْتُ عَنْقَهَا ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى ، يَسْأَلُنَنِي النَّفْقَةَ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عَنْقَهَا ، فَقَامَ عُمَرُ ﷺ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عَنْقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ : نَسْأَلُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ؟! فَقُلْنَا : وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ اعْتَزَلْنَهُنَّ شَهْراً أَوْ تِسْعاً وَعِشْرِينَ ، ثُمَّ

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم ٥١٢٢/ .

نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ .. حَتَّىٰ بَلَغَ لِمُحْسِنَاتِ
مِنْكَنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢١) .

قَالَ : فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أُغْرِضَ عَلَيْكَ امْرَأً ، أَحَبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبِيكَ ، قَالَتْ :
وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ ، قَالَتْ : أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
أَسْتَشِيرُ أَبِي . ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا
تُخَيِّرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ .

قَالَ : (لَا تَسْأَلْنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ لِي مَعْنَةً
وَلَا مُتَعْنَةً ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبْسِرًا) (١) .



(١) - رواه الإمام مسلم في كتاب الطلاق برقم / ٢٧٠٣ .

الفصل الرابع

مرحمته ﷺ بأعدائه

بالحرص على هدايتهم ، وبذل النصح لهم

والعفو عنهم ، والإحسان إليهم ، مهما

جهدوا في عداوته ، أو أرادوا قتله

إنَّ سيرة النبي ﷺ مع أعدائه في جميع مراحلها ومواقفها من أعظم ما يدعو العقلاء المنصفين إلى الإيمان به واتباعه ، فلا يمكن لبشر مهما كان على حظٍّ عظيم من حسن الخلق ، وسماحة النفس أن يقابل عداوة أعدائه ، وكيدهم له دائماً بالحلم والعفو ، والصفح والنصح ، والرحمة بمفهومها الحقّ الشامل .. ولكنَّ السيرة النبويّة العطرة كانت في جميع أطوارها على هذه الصورة المشرقة ، بلا استثناء ولا تغيير ..

وقد يظنّ بعض الناس أنَّ الجهاد في سبيل الله مستثنى من هذا الحكم العامّ ، والحقّ أنّه ليس مستثنى منه ، فجهاد أهل الباطل من أعداء الإسلام هو عين الرحمة ، بهم وبالإنسانية كلّها ، من وجوه عديدة ؛ فهو من جهةٍ كمثّل الغيث إشاعةً للخير في أرجاء الأرض ، ونفعاً للعباد ، وإنّ مثل الخير والهدى والحقّ كمثّل الغيث النازل من السماء ، أليس يعدّ من يقف في وجهه ، ويحجزه عن الناس ظالماً آثمًا ؟ فكذلك من يقف في وجه الحقّ والهدى .. وهو من جهةٍ أخرى حجزٌ لشرّ أهل الشرّ ، وإثمهم وباطلهم أنْ يعمّ الناس ،

ويكون فتنة لهم عن الحق ، وصدأ لهم عن سبيله ، وهو من جهةٍ ثالثة ردع لهم عن التماذي في الباطل ، الذي لا يقف عند حدٍّ ، ولا يعلم أحد ما يبلغ بهم ، ومنهم من الشرّ والفساد ، فإذا رأوا قوّة الحقّ وسلطانه لعلّهم يراجعون أنفسهم ، ويعيدون النظر في مواقفهم ، فيثوبون إلى الحقّ ، فإنّهم لو تركوا في طغيانهم وتماذيههم ، وتمكّنهم من نشر باطلهم ، لكان ذلك فتنةً لهم ، تغريهم بالإصرار على الباطل ، والتماذي في البغي والعدوان ..

وقد أشار ابن عبّاس رضي الله عنهما إلى نوع من الرحمة بالعالمين في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) ﴿ الأنبياء ، إذ يقول : " من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي ممّا أصاب الأمم من الخسف والقذف " .

ويعتمد الإمام الطبري رحمه الله هذا القول فيقول : " أولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن ابن عبّاس : وهو أنّ الله أرسل نبيّه محمّداً رحمة لجميع العالم : مؤمنهم وكافرهم ؛ فأما مؤمنهم فإنّ الله هداه به ، وأدخله بالإيمان به ، وبالععمل بما جاء به من عند الله الجنّة ، وأما كافرهم فإنّه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذّبة رسلها من قبله " (١) .

ويقول الشيخ محمّد جمال الدين القاسمي في تفسيره : " محاسن التأويل " في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) ﴿ الأنبياء : " كلّ من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار علم حاجة البشر كافّة إلى رسالة خاتم النّبیین ، وأكبر مّة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله وسلامه عليه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبل ،

(١) - انظر جامع البيان للطبري ٥٥٢/١٨ .

وانتشار من الأهواء، وتفرّق من الملل، ما بين مشبّه لله بخلقه، وملحد في اسمه،
ومشير إلى غيره، كفر بواح، وشرك صراح، وفساد عامّ، وانتهاب للأموال
والأرواح، واغتصاب للحقوق، وشنّ للغارات، ووأد للبنات، وأكل للدماء
والميتات، وقطع للأرحام، وإعلان بالسفاح، وتحريف للكتب المنزلة،
واعتقاد لأضاليل المتكهنّة، وتأليه للأخبار والرهبان، وسيطرة من جبابرة الجور،
وزعماء الفتن وقادة الغرور، ظلّمت بعضها فوق بعض، وطامّات طبّقت
أكناف الأرض، استمرّت الأمم على هذه الحال الأجيال الطوال، حتّى دعا
داعي الفلاح، وأذن الله تعالى بالإصلاح، فأحدث بعد ذلك أمراً، وجعل بعد
عسر يسراً، فإنّ النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالّت توالّت، وذلك أنّ الله
تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان، ويخرجهم من ظلمة
الكفر، وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من الإثم والعار، ويرفع
عنهم الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى
صراط الحقّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿

الأنبياء " (١) .

فهذا البيان البليغ قدّم مظاهر وأنواعاً لرحمة العالمين، ممّا كانوا عليه من
جاهليّة وشرّ، وهو ﷺ رحمة للعالمين ممّا كان، وما يكون إلى يوم القيامة ..
وممّا يدلّ على أنّ النبيّ ﷺ أرسل رحمة عامّة للعالمين إنسهم وجنّهم،
مؤمنهم وكافرهم، وأنّه ﷺ جُبلَ على رحمة العالم كلّ ما جاء في الحديث عن
أبي هريرة ؓ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: (إِنِّي لَمْ
أُبْعَثْ لَعْنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) (٢) .

(١) - ٢٩٨/١١ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب برقم ٤٧٠٤ / .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِوٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ) ^(١) .

وكان ﷺ حريصاً في كل مناسبة على هداية الناس إلى الحق : عَنْ أَبِي صَخْرٍ الْعُقَيْلِيِّ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ : جَلَبْتُ جُلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ : لَأَلْقِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ ، فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ ، قَالَ : فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ ، نَاشِئاً التَّوْرَةَ يَقْرُؤُهَا ، يُعْزِي بِهَا نَفْسَهُ ، عَلَى ابْنِ لَهُ فِي الْمَوْتِ كَأَحْسَنِ الْفَتَيَانِ وَأَجْمَلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أُنْزِلَ التَّوْرَةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي ؟) ، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا : أَيِ لَا ، فَقَالَ ابْنُهُ : إِنِّي وَالَّذِي أُنْزِلَ التَّوْرَةَ ، إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ : (أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ) ، ثُمَّ وَلِي كَفَنَهُ ، وَحَنَطَهُ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ " ^(٢) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شُؤْعَةَ ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ ^(٣) ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ : إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ : لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ ، قَالَ : فَلَقِيَهُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ

(١) - رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم /٥٩١٨/ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم /٤٥٨٦/ ، وقصة قدوم الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرِوٍ الدُّوسِيِّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قصة طويلة مليئة بالعبر ، وقد ذكرها بطولها ابن هشام في سيرته ٣٨٢/١ .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٢٣٩٤/ رواه ابن ماجه في كتاب الأدب برقم /٣٦٦٨/ .

(٣) - قال ابن الأثير في النهاية : الأرواح هاهنا كناية عن الجن ، سموا أرواحاً لكونهم لا يرون فهم بمنزلة الأرواح .

مَنْ شَاءَ ، فَهَلْ لَكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ ، قَالَ : فَقَالَ : أَعِدُّ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَ : فَقَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ ، وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسُ الْبَحْرِ ^(١) ، قَالَ : فَقَالَ : هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، قَالَ : فَبَايَعَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَعَلَى قَوْمِكَ ، قَالَ : وَعَلَى قَوْمِي ، قَالَ : فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً ، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْحَيْشِ : هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئاً ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً ، فَقَالَ : رُدُّوْهَا ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٌ " ^(٢) .

فانظر إلى إساءة المشركين إلى النبي ﷺ ، وما ينشرون عنه من تهم باطلة ، وافتراعات تافهة ، وكيف قابل النبي ﷺ ذلك بكلِّ حلم وسموٍّ ، وحكمة واتزان ، وجعل الحكم لعقل الرجل ولتِّه ، فسارع إلى الإيمان وخاب كيد الكائدين .. وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١١) المجادلة .

(١) - قال ابن الأثير في النهاية ٨١/٥ : " قال أبو موسى : هكذا وقع في صحيح مسلم ، وفي سائر الروايات : " قاموس البحر " وهو وسطه ولجته ، ولعله لم يجود كُتِبَتْه فصَحَفَه بعضهم ، وليست هذه اللفظة أصلاً في مسند إسحاق بن راهويه ، الذي روى عنه مسلم هذا الحديث ، غير أنه قرنه بأبي موسى وروايته فلعله فيها ! " ، وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥٧/٦ : قال القاضي عياض : أكثر نسخ صحيح مسلم وقع فيها : " قاعوس " بالقاف والعين ، قال : ووقع عند أبي محمد بن سعيد : " تاعوس " بالتاء المثناة فوق ، قال : ورواه بعضهم : " ناعوس " بالنون والعين . قال : وذكره أبو موسى الدمشقي في أطراف الصحيحين ، والحميدي في الجمع بين رجال الصحيحين " قاموس " بالقاف والميم .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الجمعة برقم ١٤٣٦ .

وكان ﷺ يعفو عن أساء إليه ، ولا يجزي بالسيئة السيئة : عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ : (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ؟) ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٢٨) ﴿ آل عمران " (١) .

ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بالكافرين ، حثه على فك الأسير ، وغالباً ما يكون كافراً : ففي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (فُكُّوا الْعَانِي ، يَعْنِي الْأَسِيرَ ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ ، وَعَوِّدُوا الْمَرِيضَ) (٢) .

وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ (١) ﴾ الإنسان .

* أَشَدُّ مَا لَقِيَهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْأَذَى ، وصورة من أروع صور صبره وحلمه ، ورحمته وعفوه :

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فَقَالَ : (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِي ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ

(١) - رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم ٣٣٤٦/ والترمذي في كتاب تفسير القرآن .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨١٩/ .

رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمْتَنِي ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَتَنَادَانِي فَقَالَ : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، قَالَ : فَتَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثْتَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيبِينَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (بَلْ ، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) ^(١) .

وعن موسى بن عقبة : " .. وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجله ، ولا يضعهما إلا راضخوهما بالحجارة ، حتّى أدموه ، فخلص منهم ، وهما يسيلان الدماء .. " ^(٢) .

ثم أوى إلى ظلّ بستان ، ودعا الدعاء المشهور : (اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدوّ ملكته أمري ! إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتّى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك) " ^(٣) .

لقد كان النبيّ ﷺ معلق القلب بالله تعالى ، يعيش لغاية واحدة ، لا يعرف سواها : إنّها نيل مرضاة الله ، بنصرة دينه ، وتبليغ دعوته ، وهداية

(١) - رواه البخاريّ في كتاب بدء الخلق برقم/٢٩٩٢/ ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /٣٣٥٢/ .

(٢) - البداية والنهاية ١٣٦/٣ نقلًا عن حياة الصحابة ١/٢٧٧ .

(٣) - انظر حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلويّ ١/٢٧٧ .

الناس إلى دين الحق والهدى ، وإذ تكفل الله له بالحفظ والرعاية ، بقوله سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧) المائدة .

وقد شرح الله صدره ، وأعلى قدره ، ورفع في العالمين ذكره .. فلم تعد تعنيه مؤامرات الناس وكيدهم في شيء ..

وإن أعلى درجات العداوة والكيد أن يخطط الإنسان لقتل مخالفه ، ويجتهد في ذلك بكل ما أوتي من قوة ، وقد نال رسول الله ﷺ من المشركين من ذلك كل أنواع العداوة والكيد ، أعلاها وأدناها ، ولم يكن منه ﷺ إلا الصبر والحلم ، والعفو والصفح ، وأخبار السيرة النبوية طافحة بذلك ، وتلك الأخلاق والسمائل كانت سبباً لاستلال الضغائن من القلوب ، وتحويل أعدى الأعداء في لحظة إلى أن يكون أقرب المحبين الأولياء ، مصداق قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍ عَظِيمٍ (٣٥) فصلت .

وقوله سبحانه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٣١) الأعراف .

ومن عساه يكون أحظى بهذه الأخلاق الكريمة من النبي المصطفى ﷺ . ؟

وقد عقد القاضي عياض رحمه الله في كتابه : " الشفا " فصلاً بعنوان : " عصمة الله تعالى له من الناس ، وكفايته من آذاه " ..

وقد تكرّرت محاولات المشركين قتل النبي ﷺ أو اغتياله ، وفي كلّ مرّة كانت تتجلّى عناية الله ورعايته بحقّ النبي ﷺ ، كما تتجلّى قوّة شخصيّة النبي ﷺ ، ورباطة جأشه ، وكمال أخلاقه ، إذ لا ينتصرُ لنفسه ، ويعفو عمّن حاول قتله ، فمن ذلك :

مَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) ^(١) .

وكان النبي ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقبل تحتها ، فاتاه أعرابي فاحترط سيفه ، ثم قال : من يمنعك منّي يا محمّد ؟ فقال : الله عزّ وجلّ ! فرعدت يد الأعرابي ، وسقط السيف من يده .. فعفا عنه النبي ﷺ ، وأحسن إليه ، ودعاه إلى الإسلام ، فرجع إلى قومه ، وقال لهم : جئكم من عند خير الناس .

ووقع مثل هذه القصة في غزوة غطفان ، بذِي أَمَر ^(٢) ، مع رجل اسمه دُعْثُورُ بْنُ الْحَارِثِ ، وكان صُعلوكاً من شياطين العرب ، وجاء فيها أنّه احترط سيف النبي ﷺ ، وهو نائم ، وقال له : مَنْ ينجيك منّي يا محمّد ؟! فقال له النبي ﷺ : الله .. فارتعد الرجل وسقط السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ ، وقال له : مَنْ ينجيك منّي يا دُعْثُور ؟! فقال : لا أحد ، فكن خير آخذ ..

(١) - رواه الترمذيّ في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، برقم /٢٩٧٢/ وقال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

(٢) - اسم موضع غزاه النبي ﷺ .

فعفا عنه النبي ﷺ ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم .. وعندما رجع إلى قومه قالوا له : أين ما كنت تقول ؟ وقد أمكنك ؟ فقال : إني نظرت إلى رجل أبيض طويل ، دفع في صدري ، فوقعت لظهري ، وسقط السيف ، فعرفت أنه ملك وأسلمت " .

وفي رواية الخطابي : أن النبي ﷺ قال عندما رأى السيف في يده : (اللهم اكفيه بما شئت) ، فانكب على وجهه زُلْخَةً زُلْخَهَا ^(١) بين كتفيه ، وندر السيف من يده .

وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة .

وفي رواية البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَفَلَ مَعَهُ فَأَذْرَكَهُمْ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعُضَاهِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمَرَةٍ ، وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ ، وَنِمْنَا نَوْمَةً ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا ، وَإِذَا عِنْدَهُ أُعْرَابِيٌّ فَقَالَ : (إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي ، وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلْتًا ، فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ : اللَّهُ تَلَانًا ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ) ^(٢) .

(١) - زُلْخَةٌ : وجع في الظهر ، لا يتحرك الإنسان من شدته ، وقد أوجدها الله فيه حين سلَّ السيف (النهاية) .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم/٢٦٩٤/ ومسلم في كتاب الفضائل برقم/٤٢٣١/ .

وَعُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ تَسَوُّقُهُ مُحَاوَلَةُ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ : قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ : " جَلَسَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ الْجُمُعِيِّ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، بَعْدَ مُصَابِ أَهْلِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْحِجْرِ بِسِيرٍ ، وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ شَيْطَانًا مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ ، وَيَلْقَوْنَ مِنْهُ عَنَاءً وَهُوَ بِمَكَّةَ ، وَكَانَ ابْنُهُ وَهَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي أُسَارَى بَدْرٍ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : أَسْرَهُ رِفَاعَةُ بْنُ رَافِعٍ أَحَدُ بَنِي زُرَيْقٍ . فَذَكَرَ أَصْحَابَ الْقَلِيبِ وَمُصَابَهُمْ فَقَالَ صَفْوَانُ : وَاللَّهِ إِنْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ ، قَالَ لَهُ عُمَيْرٌ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا دَيْنٌ عَلَيَّ ، لَيْسَ لَهُ عِنْدِي قَضَاءٌ ، وَعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ بَعْدِي ، لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ ، فَإِنْ لِي قَبْلَهُمْ عِلَّةٌ ، ابْنِي أَسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ ، قَالَ : فَاعْتَنَمَهَا صَفْوَانُ ، وَقَالَ : عَلَيَّ دَيْنُكَ ، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ ، وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِي أَوْاسِيهِمْ مَا بَقُوا ، لَا يَسْعُنِي شَيْءٌ ، وَيَعْجِزُ عَنْهُمْ ، فَقَالَ لَهُ عُمَيْرٌ : فَانْكُتُمْ شَأْنِي وَشَأْنُكَ ، قَالَ : أَفْعَلُ .

قَالَ : ثُمَّ أَمَرَ عُمَيْرٌ بِسَيْفِهِ فَشَحَدَ لَهُ ، وَسَمَّ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ؛ فَبَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَمَا أَرَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، إِذْ نَظَرَ عُمَرُ إِلَى عُمَيْرِ ابْنِ وَهَبٍ ، حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ ، فَقَالَ : هَذَا الْكَلْبُ عَدُوُّ اللَّهِ ، عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ ، وَاللَّهِ مَا جَاءَ إِلَّا لِشَرٍّ ، وَهُوَ الَّذِي حَرَّشَ بَيْنَنَا ، وَحَزَرَنَا لِلْقَوْمِ يَوْمَ بَدْرٍ . ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ ، قَدْ جَاءَ مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ ، قَالَ : فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ ، قَالَ : فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى أَخَذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ فَلَبَّيْهُ بِهَا ، وَقَالَ لِرِجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ : ادْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاجْلِسُوا عِنْدَهُ ، وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ ، ثُمَّ دَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعُمَرُ أَخِيذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ ، قَالَ : أَرْسِلْهُ
يَا عُمَرُ ، أَذُنُ يَا عُمَيْرُ ، فَذَنَا ، ثُمَّ قَالَ : انْعَمُوا صَبَاحًا ، وَكَانَتْ تَحِيَّةَ أَهْلِ
الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا
عُمَيْرُ ، بِالسَّلَامِ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ . فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ بِهَا
لَحَدِيثُ عَهْدٍ ، قَالَ : فَمَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ ؟ قَالَ ، جِئْتُ لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي
فِي أَيْدِيكُمْ ، فَأَحْسِنُوا فِيهِ ، قَالَ : فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِكَ ؟ قَالَ : قَبَحَهَا
اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ ، وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا ؟ قَالَ : أَصْدُقْنِي ، مَا الَّذِي جِئْتُ لَهُ ؟
قَالَ : مَا جِئْتُ إِلَّا لِذَلِكَ ، قَالَ : بَلْ قَعَدْتُ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحَجَرِ ،
فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، ثُمَّ قُلْتُ : لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ ، وَعِيَالٌ عِنْدِي
لَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا ، فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بِذَنبِكَ وَعِيَالُكَ ، عَلَى أَنْ
تَقْتُلَنِي لَهُ ، وَاللَّهِ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، قَالَ عُمَيْرُ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ،
وَقَدْ كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُكَذِّبُكَ بِمَا كُنْتُ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَمَا يَنْزِلُ
عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَحْضُرْهُ إِلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا
أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ ، وَسَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ ، ثُمَّ
شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (فَقَهُوْا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ ، وَأَقْرِئُوهُ
الْقُرْآنَ ، وَأَطْلِقُوهُ لَهُ أَسِيرًا ، فَفَعَلُوا ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ جَاهِدًا
عَلَى إطفَاءِ نُورِ اللَّهِ ، شَدِيدٌ لِلأَذَى لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنَا
أُحِبُّ أَنْ تَأْذَنَ لِي ، فَأَقْدَمَ مَكَّةَ ، فَأَذْعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ
وَالِىَ الْإِسْلَامِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يُهْدِيَهُمْ ، وَإِلَّا آذَيْتَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، كَمَا كُنْتُ أُوذِي
أَصْحَابَكَ فِي دِينِهِمْ ؟ قَالَ : فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَحِقَ بِمَكَّةَ .

وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ حِينَ خَرَجَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ يَقُولُ : أَبْشِرُوا بِوَقْعَةٍ
تَأْتِيكُمْ الْآنَ فِي أَيَّامٍ تُنْسِيكُمْ وَقْعَةَ بَدْرٍ ، وَكَانَ صَفْوَانُ يَسْأَلُ عَنْهُ الرِّكْبَانُ ،
حَتَّى قَدِمَ رَاكِبٌ ، فَأَخْبَرَهُ عَنْ إِسْلَامِهِ ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا ، وَلَا يَنْفَعَهُ

يَنْفَعُ أَبَدًا . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا قَدِمَ عُمَيْرٌ مَكَّةَ ، أَقَامَ بِهَا يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيُؤْذِي مَنْ خَالَفَهُ أَدَى شَدِيدًا ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ ^(١) .

وَتُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ يُرِيدُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَسْأَلُ أَمْرَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ^(٢) :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدٍ ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ ، يُقَالُ لَهُ : تُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا تُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ دَا دِمَ ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، فَتَرَكْتُ حَتَّى كَانَ الْعَدُوُّ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ يَا تُمَامَةُ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَكَ ، إِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ ، فَتَرَكُهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدُوِّ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا تُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ : أَطْلِقُوا تُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ : يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي ، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ، فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتُ ، قَالَ ، لَا ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ " ^(٣) .

(١) - السيرة النبوية لابن هشام ١١٤/٣ .

(٢) - وجاء في بعض روايات السيرة أنه كان يخطط لقتل النبي ﷺ ، وقد يكون سبب السرية الرد على هذه المؤامرة .

(٣) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم ٤٠٢٤ / ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم ٣٣١٠ / .

وجاء في رواية زيادة : " وَكَانَتْ الْيَمَامَةُ رِيفَ مَكَّةَ ، فَأَنْصَرَفَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَمَنْعَ الْحَمَلِ إِلَى مَكَّةَ ، حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشُ ، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ ، يُخَلِّيَ إِلَيْهِمْ حَمْلَ الطَّعَامِ ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . انظر زاد المعاد ٢٤٧/٣

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ ، فَأَكَلَ مِنْهَا ، فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ : أَرَدْتُ لَأَقْتُلَكَ ، قَالَ : مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : أَوْ قَالَ عَلَيَّ ، قَالَ : قَالُوا : أَلَا نَقْتُلُهَا قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " (١) .

وفي رواية أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ، فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بَخِيرَ شَاةٍ مَصْلِيَّةً ، سَمَّتَهَا ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا ، وَأَكَلَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ ، فَإِنَّهَا أَخْبَرْتَنِي : أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ ، فَمَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ : مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ ؟ قَالَتْ : إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ ، وَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَتَلَتْ ، ثُمَّ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ : (مَا زِلْتُ أَجِدُ مِنَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ ، فَهَذَا أَوْأَنُ قَطَعْتُ أَبْهَرِي) (٢) .

فقد عفا عنها النبي ﷺ فيما أرادت تجاهه ، وعندما مَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تِلْكَ الْأَكْلَةِ قَتَلَهَا قِصَاصًا بِهِ .

(١) - رواه مسلم في كتاب السلام برقم /٤٠٦٠/ ، واللّهوات جمع لهاء ، وهي اللحامات في سقف أقصى الفم ، كما في النهاية ٢٨٤/٤ .

(٢) - رواه أبو داود في كتاب الدييات برقم /٣٩١٢/ .

* وشيبةُ بنُ عثمانَ بن أبي طلحة ، أخو بني عبد الدار يحاول قتل الرسول ﷺ يوم حنين فيرى آيات الله في حفظ النبي ﷺ ، ويعلم ذلك منه النبي ﷺ فيسوقه إلى الهداية أو يسوق الهداية إليه :

يقول ابن عباس : قال شيبةُ بنُ عثمانَ ﷺ : لما رأيت النبي ﷺ أعري يوم حنين ذكرت أنّ أبي وعمّي قتلهما عليّ وحمزة رضي الله عنهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأري من مُحَمَّد . قال : فجئت عن يمينه فإذا العباس بن عبد المطلب ﷺ قائم معه عليه درع بيضاء ، كأنها الفضة ، يتكشّف عنها العجاج ، فقلت : عمّه ، فجئت من خلفه ، فدنوت منه ، ودنوت منه حتّى لم يبق إلّا أن أسور سورة بالسيف ، إذ رفع لي شواظ من نار ، كأنّها البرق ، فخفت أن تمحّشني ، فنكصتُ على عقبي القهقري . قال : فالتفت إليّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما لك يا شيب ؟ ادن ، فدنوت ، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدري ، قال : فاستخرج الله عزّ وجلّ الشيطان من قلبي ، فرفعت إليه بصري ، وهو والله أحبّ إليّ من سمعي ، ومن بصري ، ومن قلبي ، ومن أبي وأمي ، فقال : « يا شيب ، قاتل الكفار » ثمّ قال ﷺ : « يا عباس اصرخ » ، فلم أر صرخة مثل صرخته ، فقال : يا للمهاجرين ! من الذين بايعوا تحت الشجرة ، ويا للأنصار الذين آووا ونصروا ، قال : فأجابوا كلّهم لييك وسعديك .

قال شيبة : فما شبّهت عطف الأنصار على رسول الله ﷺ إلّا كعطفة البقر على أولادها ، فبرك رسول الله ﷺ كأنّه في حرجة سلم . قال شيبة : فوالله لأنا لرماح الأنصار أخوف على رسول الله ﷺ من

الكفار ، ثم قال النبي ﷺ : « يا عباس ناولني من الحصاء ». فأفقه الله تعالى البغلة كلامه ﷺ ، فاختفضت به حتى كاد بطنها يمس الأرض ، فتناول من الحصاء رسول الله ﷺ ، ثم نفحها في وجوههم وقال : « شامت الوجوه » ، فهزم الله تعالى القوم عند ذلك » (١) .

وزاد في رواية : " قال : فتقدمت بين يديه أحبّ والله أن أقيه بنفسي كلّ شيء ، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال : (الحمد لله الذي أراد بك خيراً مما أردت) ، ثم حدثني بما هممت به ﷺ " (٢) .

وفي كل قوانين الدنيا وأنظمتها قانون الحرب يختلف عن قانون السلم .. إنه يكون مُترعاً بالتجاوزات ، والظلم والبغي ، والانتهاكات للمبادئ الإنسانية ، والمثل الأخلاقية ، التي يعتزّ بها الناس وقت السلم ، ويتغنّون بها .. وفي كلّ قوانين الدنيا قانون السلم لا يحكمُ قانون الحرب ، بل للحرب قانونها ، وللسلم قانونها ، ولا يلتقيان ..

أما في الإسلام فالأمر مختلف جداً : إنّ قانون السلم هو الذي يحكم قانون الحرب ، ويصبغ وجهته ، ويضبط حدوده ، بمعنى أنّ السلم هو الأصل والقاعدة العريضة ، التي تحكم حياة الناس وعلاقاتهم ، وما يكون من طبيعة الحرب وقانونها إنّما هو استثناء ، يبقى منضبطاً بالأصل ، لا يخرج عن حدوده وآدابه .

(١) - أخبار مكة للفاكهي ٤٥٩/٧ والسورة : الوثبة والقفرة ، والقهقري : المشي إلى خلف من غير أن يُعيد وجهه إلى جهة مشيه .

(٢) - أخرجه البيهقي في الدلائل ١٨٨/٦ ، والمغازي للواقدي ٩١٠/٣ ، انظر سبل الهدى والرشاد ٣٢١/٥ .

وهكذا كانت صورة الجهاد المشرقة في عهد النبي ﷺ ، وفي أيام الخلافة الراشدة ، وعصور الإسلام الزاهرة .. إنه جهاد الحق لتكون كلمة الله تعالى هي العليا .. ولن يكون مقبولاً عند الله ما لم يكن ملتزماً حدود الإسلام وآدابه .. وعندما يكون جهاداً لتكون كلمة الله هي العليا فهذا يعني أن يكون قصده الأوّل هو هداية العباد ، ونشر نور الله في الأرض ، لا إرادة العلوّ والبغي والفساد ..

*** وقصة إسلام أبي سفيان وما كان فيها من مواقف مثل رائع عن عظمة**

الأخلاق النبوية ، وسموّ الجهاد في سبيل الله بمقاصده وآدابه : لقد حمل أبو سفيان زعامة الكفر ولواءه ما يقرب من عقدين من الزمن ، لم يتوان عن أنواع الكيد ، بما فيها التآمر على قتل النبي ﷺ واغتياله ، وفلّ الله مكره وكيده في كلّ مرة ، وانتشر نور الإسلام في الأرض يوماً بعد يوم ، وحفّت عناية الله دعوة الحق ، فهي تسير من نصر لنصر ، ومن فتح إلى ما هو أكبر ، حتّى تحرّكت ألوية الحق لفتح مكّة ، بعد أن نقضت قريش عهدها في صلح الحديبية .. وحرص النبي ﷺ على تعمية خبر خروجه عن قريش ، وكان له ما أراد ، وعند " مرّ الظهران " (١) ، خرج أبو سفيان بن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، يستطلعون الأمر لقريش ، وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه أن يوقدوا ناراً ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، فرأى أبو سفيان وصاحبه نيراناً كثيراً الحجيح في عرفة ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ ، ولا عسكرياً ! فقال بديل : هذه والله خزاعة ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

(١) - وهي قرية بالقرب من مكّة بوادي الظهران يقال لها اليوم : وادي فاطمة .

وبينما هم يتحاوران عرف العباس صوت أبي سفيان ، فقال : أبا حنظلة ؟ فأجابه أبو سفيان : أبا الفضل ! فقال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الجيش ، فقال أبو سفيان : فما الحيلة .؟! فذاك أبي وأمي .! فقال العباس : اركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك .. فركب ، وسار الآخران وراءهما ، فكلما مروا بنار قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ، والعباس عليها قالوا : عم رسول الله ، حتى مروا بنار عمر بن الخطاب ، وعرف أبا سفيان فوجأه في عنقه ، وهم يقتله ، حتى أجاره العباس ، وأركض العباس البغلة ، وعمر يشتد في إثرها ، حتى دخل العباس ، ومعه أبو سفيان على رسول الله ﷺ ، ثم دخل عمر فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ، فدعني فلاضرب عنقه ، فقال العباس : أنا أجرته ..

ثم جلس إلى رسول الله ﷺ يناجيه ، فلما أكثر عمر في شأن أبي سفيان قال العباس : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من بني عبد مناف ! فقال عمر : مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أنني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .! وحسم رسول الله الخلاف بينهما فقال : (اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فاتني به) ، أما حكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء فقد أسلما .

وبات أبو سفيان ليلته ، ورأى فيها ما ملأ نفسه إعجاباً ! رأى المسلمين لما سمعوا الأذان انتشروا فتوضأوا ، ثم اقتدوا بالرسول يركعون بركوعه ، ويسجدون بسجوده ، فقال : يا عباس ! ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه .؟! قال : نعم ، والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه ! ورأى أعجب من

ذلك ، ذلك أنّه لما توضّأ رسول الله ﷺ جعلوا يتتبعونه وضوءه ، فقال : يا عباس ما رأيت كالليلة ! ولا ملك كسرى وقيصر !

وفي الصباح غدا به العباس إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : (ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟) فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأوصلك وأكرمك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد ، فقال له الرسول ﷺ : ويحك ! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ فقال : أمّا هذه فإنّ في النفس منها حتّى الآن شيئاً .

فقال له العباس : ويحك ! أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحقّ ، وأسلم ، فقال العباس : إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر ، فاجعل له شيئاً . فرأى النبي ﷺ بعظيم حكمته ، سداد رأيه أن يجعل له خصوصيّة ، تتصل بأمن الناس ، وحقن الدماء ، ليكون متحمّساً لفلّ عزيمة الناس عن القتال ، فقال ﷺ : (من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ ، من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمنٌ ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمنٌ ، ومن دخل بيته فهو آمنٌ) .

وكان من حكمة النبي ﷺ أن يوقع في نفس أبي سفيان الرهبة التامة من قوّة المسلمين ، لينقل الصورة التي يراها لمن وراءه من المشركين ، فتشبط عزائمهم عن مواجهتهم ، فيؤثرون السلامة على القتال ، فقال للعباس ﷺ : (يا عباس احبسه عند مضيق الوادي ، حتّى تمرّ به جنود الله فيراها) .

ومرّت به كتائب الحقّ واحدة تلو الأخرى ، وهو يسأل عنها فيعرّفه بها العباس ، وكلّما سأل عن كتيبة فأجيب ، فيقول : ما لي ولكتيبة كذا ! ثمّ مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، يحيط به المهاجرون ، لا يرى منهم إلاّ الحدق من الحديد ، ويحمل الراية الزبير بن العوّام ، فقال أبو سفيان : سبحان

الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أختك الغداة عظيماً ! فقال له العباس : " ويحك يا أبا سفيان ! إنها النبوة ! " ، قال : نعم ، إذن .

إن قصة إسلام أبي سفيان مليئة بالعبر والدروس ، وبخاصة ما فيها من موقف النبي ﷺ منه .. لقد كان موقف البشرية العدل هو ما وقفه عمر بن الخطاب ، إذ استأذن النبي ﷺ في قتله ، ولكن النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين أبى عليه ذلك ، وعندما التقى أبا سفيان هل أظهر له روح البشرية ، التي تشمت بخصمها في مثل هذه المواقف ؟ هل جمع له كبار أصحابه ، ليريهم كيف تتمرغ بالرغام كبرياء قريش في شخص أكبر زعمائها أبي سفيان ؟ هل ذكره بعداوته لله ورسوله التي حُبَّ فيها وأوضع خلال عقدين من الزمن ؟! انظر إلى السمو النبوي الذي لا مطمح لبشر بمثله ، لقد طوى صفحاً عن كل ذلك ، وتناسى الماضي المرير ، الذي لا يمكن لأحد أن ينساه ، وقال له : (ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟) فدهش أبو سفيان ، وكان ولا شك ينتظر كلاماً غير ذلك ، فما كان منه إلا أن قال : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأوصلك وأكرمك ! وكرّر هذه الجملة مرة أخرى عندما دعاه إلى شهادة أن محمداً رسول الله ، فكان هذا الموقف النبوي الكريم ، بسموه عن كل اعتبارات الأرض والطين ، كفيلاً باستئلال كبرياء الجاهلية وعنجهيتها من نفس أبي سفيان ، ليفيء إلى رحاب الحق ، ويكون منذ اليوم جندياً من جنود الدعوة الأوفياء ..



الفصل الخامس

صدقته ﷺ وأمانته، وحفظه للعهد، وبره ووفاءه

الصدق والأمانة أعلى مظاهر العظمة النفسية ، وهما ملتقى الفضائل النفسية كلها وبجمعها ، وفصّها وأسّها .. وأما الأمانة فقوامها : اعتدال الفطرة ، وسموّ الهمة ، واتزان الشخصية ، وعفة النفس ، وتجردّها عن سفاسف الأمور والتعلّق بالدنيا ، وحصر الاهتمام عليها ، فلا عجب بعد ذلك أن تكون تلكا الصفتان أوّل لوازم حياة الرسل ، وأعظم صفاتهم .

وحقيقة الصدقِ قوّة النفس ووقوفها مع الحقّ بتجرّد ، ونصرته بكلّ ما أوتيت من قوّة ، لا تحيد عنه ولا تتوارى ، ولا تستثقل تكاليفه ، ولا تتباطأ عنها ، فهو عنوانها ، فهي منه ، وهو منها ، لا تعرف سواه ، ولا ترى وجودها ورفعتها إلّا به ..

ومعلوم أنّ النبيّ ﷺ افتتح دعوته إلى قومه باستنطاقهم عن موقفهم من صدقه : أيرونه صادقاً فيما يقول ويخبر ، أم أنّهم عهدوا عليه أنّه لا يعدّ الكذب أمراً ذا بال ، فهو لا يتورّع عنه ، ولا يأنف من اقترافه .؟!

روى الشيخان والبلاذري عن ابن عباس ، والشيخان عن أبي هريرة ؓ ،

ومسلم عن قبيصة بن المخارق ؓ أنّ رسول الله ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٣١٤) الشعراء ، قام على الصفا فعلا أعلاها حجراً ثم

نادى : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر

ما هو ، فجاء أبو لب وقريش فاجتمعوا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : (رأيتم إن

أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً .

فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله ﷺ أنقذ نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار فإني لا أملك لكما من الله شيئاً ، غير أن لكما رحماً سأبلها ببلالها، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٦٤) الشُّعْرَاءُ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الصَّفَا ، فَصَعِدَ عَلَيْهِ فَهَتَفَ " يَا صُبَّاحَاه " ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي " ؟ قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قَالَ " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) الْمَسَد ، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

ثم قال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة (١) .

وأما الصدق في شخصِ الرسول ﷺ وما جاء به من رسالة فهو لا يقف عند صدق القول والخبر ، وإنما يتسع ليشمل حياة الإنسان كلها ، فهو يشمل صدقَ الفعل ليتطابق مع النية والقصد ، وصدق الرغبة فيما عند الله لتقع الأعمال خالصة لله ، لا تشوبها شائبة ، وصدق العزيمة في الوقوف مع الحق ، ونصرته وتأيدِهِ ، فلا يقف في وجهها عائق ، وصدق الحال ، فلا تصدّه الدعاوى الملبّسة ..

ولقد كان أشدّ ما اغتمّ له الرسول ﷺ تكذيب المشركين له ، ومن ثمّ فقد جاء تخفيف القرآن عنه بأنهم لا يكذبونه حقيقة ، وإنما هم يحدّثون بآيات الله ، ويستنكرون وقوعها ، يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَحْجُدُونَ ﴾ (٣٢) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْهَضْنَا نُصْرَتَنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣١) الأنعام .

ولقد شهدت قريش بإجماع رجالها وعقلائها لرسول الله ﷺ بالأمانة قبل نبوته وشهد له القرآن الكريم بالخلق العظيم بعد رسالته ، ولا بدّ من نظرة إلى شهادة قريش من زاويتين :

- الزاوية الأولى : من زاوية الدافع إلى هذه الشهادة وقيمتها ؛ فلا بدّ أن الأمانة التي تحلّى بها النبي ﷺ كانت ظاهرة محلّ بروز وتألق وتميّز ، في شخصيته ﷺ وسلوكه ، بصورة جذبت أنظار المراقبين ، ولفتت انتباه المجتمع من حوله ، وانتزعت منهم شدة إعجابهم ، كما كانت تعبيراً عن اجتماع حقائقها ، وتآلف معانيها ، لتكون حقيقة كبرى ، تنتظم من خلالها شخصية المصطفى ﷺ بصورة معجزة إنسانية ، لم يسبق لها مثيل ، كلّ ذلك كان في

بيئة ، لم تكن بيئة علم وثقيف ، ولكنها كانت بيئة فطرية نقيّة في كثير من جوانبها ، ولم تعرف من الأمانة إلاّ جزئيات متناثرة ، ولم تعرفها كلاً لا يقبل التجزيء والتبعيض إلاّ في حياة محمّد ﷺ وسلوكه ، ولولا فقد بيئته لهذه الصفة ، واجتماع حقائقها ، وتآلف معانيها فيه لما أجمع قومه على وصفه بها ، ولما كان في ذلك كبير فائدة ، أو مزيد مزيّة .

- والزاوية الأخرى : أن هذه الشهادة من قريش كانت عن مرحلة تعدّ أخطر المراحل التي يمرّ بها الشاب ، وهي مرحلة اكتمال الرجولة ، واثّقاد الغرائز ، وهي مرحلة تختلف فيها الأغراض والغايات وتضطرب ، وتتناكر النوازع والاتّجاهات وتحترب ، وفي الشابّ في تلك المرحلة من موفور القوة وقوّة الغريزة ما يجعله يندفع وراء تحقيقها إلى أقصى المدى ، متوارياً من عادات قومه ، وأعراف بيئته حيناً ، أو متجاوزاً متحدّياً حيناً آخر .. ومع ذلك كلّه فقد بقي هذا اللقب يصحب محمّداً ﷺ ، ويطبع شخصيّته طيلة حياته قبل البعثة ، ولم تعرف عنه قريش ما يخرم هذه الأمانة أو يشدّ عنها ، فمن ثمّ لم تستطع قريش أن تنزع هذا اللقب عن محمّد ﷺ بعد رسالته ، كما أنها لم تستطع أن تمنحه أحداً من زعمائها ، حتى أولئك الذين كانوا محلّ إجماعها ، وكانت تأتمر بأمرهم ، وتصدر عن رأيهم ، وتظهر لهم مزيد التقدير والاحترام .

فهل أنطق الله تعالى قريشاً بما قالت ، ليكون من قولها حجة ساطعة لمن يقول بعصمة الأنبياء قبل النبوة وبعدها ؟ ولتكون تلك الحجة على لسان المخالف المعادي أبلغ في الشهادة والزم ، وأقوم في البيّنة وأحكم ، وأدنى ألا يرتاب المرتابون ؟.

ثمّ إن هذه الشهادة من قريش تدلّ على أن الأمانة التي عرفتها قريش في شخصيّته ﷺ ، كانت خلقاً أصيلاً نابعاً من فطرته ، التي فطره الله عليها ،

واختصّه بها ، بما تحوي من الفضائل والكمالات ، فمن ثمّ فقد كان ﷺ معزولاً عن البيئة المحيطة به ، ومحصّناً عنها ؛ فأنى لها أن تؤثر فيه ، أو تغيّره ؟ وإن منطق الحقّ في مثله أن يؤثّر فيما حوله ولا يتأثّر ، وأن يغالب الظواهر الاجتماعيّة ، ويتغلّب عليها ، حتى يصهرها في فضائله ، ويشحنها بنسائمه ، ويطبعها بطابع منهجه ورسالته .

والأمانة النبويّة لا تقبل التجزئة أو التنازل تحت أيّ ظرف أو موقف ، ولا تخضع لشيء من النفعيّة والمساومة ..

والأمانة في مفهوم الإسلام أوسع من أن تكون حفظاً لوديعة مادّيّة ، ثمّ رداً لها ، إنّها عنوان عامّ لحياة المسلم ، يشمل ذلك ، كما يشمل القيام بالواجب دون تقصير ، والاضطلاع بالتكاليف دون تقاعس ، والاهتمام بأمر العامّة ، دون تهاون أو محاباة ، وكنمان السرّ ، وإخلاص الرأي وحسن المشورة ..

لقد بلغ النبيّ ﷺ عن ربّه كلّ ما أوحى إليه ، حتّى ما وجّه إليه من عتاب ، ولم يتقاعس في القيام بواجب الدعوة إلى الله ، ولم يترأخ في الاضطلاع بمهامّها ، ولم ترده الشدائد التي اعترضته إلّا ثباتاً ، ولا المحن التي صادفته إلّا قوّة ومضاءً .

وكان حين يسأل عن أمر لا دراية له به يتوقّف حتّى يأتيه الوحي من الله في شأنه .. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على هذا ، منها قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١٩) البقرة .

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ۚ ﴾ (١)

﴿ المائدة .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا

يُجَلِّيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ (١٨٧) .. ﴿ الأعراف .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ﴿ الأنفال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) ﴿ الإسراء .

وقد سنّ النبي ﷺ هذه السنّة الحسنة ، وقرّر هذا المنهج الأخلاقي لأُمَّته ، وعلمهم أن لا يتجرّأوا على الفتوى بغير علم ، وبخاصّة في الأمور الشرعيّة ، فذلك من القول على الله بغير علم ، وهو من أكبر الكبائر .. وتلك من الناحية الأخلاقيّة غاية الأمانة ، ومن الناحية الحضاريّة قمّة النضج العلمي والفكري ، وقد قرّر ذلك القرآن بأوجز بيان معجز ، إذ يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ ۚ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) ﴿ الإسراء .

وكان ﷺ من شدّة أمانته على الرّوح ، وحرصه التام على وعيه ، وخوفه من ضياع شيء منه ، يعجل في متابعة جبريل عليه السلام عندما يتنزّل عليه بشيء من القرآن ، فطمأنه الله تعالى بقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ بِهِ ۚ لِسَانُكَ لَيَتَعَجَّلَ بِهِ ۚ ﴾ (١٦)

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ ۚ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ ﴿١٩﴾ ﴿ القيامة .

وقال تعالى : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه .

والمال أمانة فلا يؤخذ إلا بحقه ، ومن حله ، ولا يوضع إلا في حله ،

وكان النبي ﷺ المثل الأعلى للناس في ذلك ، وقد جاء في الحديث الصحيح :

(.. وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ لَكُمْ شَجَرَ تِهَامَةَ نَعْمًا قَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ لَمْ تُلْقَوْنِي

بَخِيلًا ، وَلَا جَبَانًا ، وَلَا كَذُوبًا ، ثُمَّ أَتَى بَعِيرًا ، فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَّةَ بَيْنِ

أَصْبَعَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : هَا إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ ، وَلَا هَذِهِ ، إِلَّا خُمْسٌ ،

وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ .. وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَحِيْطَ ، فَإِنَّ

الْعُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (١) .

وحذر ﷺ من العدوان على شيء من أموال الناس ، ولو عوداً من أراك ،

ففي الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ

مُسْلِمٍ يَمِينِهِ فَقَدْ أَوْحَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ

كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : (وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ) (٢) .

وفي الحديث الصحيح : عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ

أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا

لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أُبْلَغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا : يَوْمٌ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ

(١) - رواه النسائي في كتاب الهبة برقم /٢٦٢٨/ في فِصَّةٍ وَفَدٍ هَوَازِنَ ، بعدما وقع من سيهم

في الغزو .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وعيد من اقتطع حقَّ مسلم بيمين فاجرة بالنار برقم

/١٩٦/ وفي رواية مالك في كتاب الأفضية /١٢١٥/ كَرَّرَ (وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ) ثلاثاً .

هَذَا ؟ قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَدٌ حَرَامٌ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، قَالَ : وَلَا أَذْرِي قَالَ : أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَلَبَّغْتُ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (١) .

وَعَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ ؓ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : الْمُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَالتَّقْوَى هَاهُنَا ، وَأَوْمَأَ يَبْدِيهِ إِلَى الْقَلْبِ ، قَالَ : وَحَسَبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ (٢) .

* ومن أروع مواقف الأمانة موقفه ﷺ يوم أراد الهجرة ، فقد أهدرت قريش دمه ، وسعت كل جهدها لقتله ، وأغرت من يأتي به أو بصاحبه حياً أو ميتاً بأثمن الجوائز .. وفي الوقت نفسه كان ﷺ هو المؤمن على كرائم أموال المشركين ، لا يجدون أميناً سواه ، أفما كان يسعه ﷺ أن يحجز أموالهم ليساومهم عليها ، وهم قد أهدروا دمه ؟! أو يهمل حفظها لهم ، فتضيع بين ظهرائهم ، فيكون ذلك أقلّ جزاءً مما يستحقّون ؟! أو يحدد أماناتهم ، بعدما أعلنوا عليه هذه الحرب الظالمة الأثيمة ؟! وسيجد من يعذره فيما فعل .. كلاً ، ثمّ كلاً ، إنّ ذلك كلّهُ لا يلتقي مع أمانة النبوة المطلقة ، ولا مع عظمة الأخلاق النبوية المشرقة .. إنّ أخلاق النبي ﷺ أسمى وأزكى مما يتصور البشر جميعاً .. فكيف تصرف النبي ﷺ ؟! لقد عرض ﷺ حياة ابن عمّه عليّ ؓ للخطر ، فأمره أن يبيت في فراشه ليلة الهجرة ، وأن يتأخّر عنه في هجرته ، وهذا أيضاً باب من أبواب الخطر ، ولكنّه ﷺ بشّره أنّه لا يصاب بأيّ أذى

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /٢٢٣٩١/ ، وأصله في الصحيحين .

(٢) - رواه أحمد في المسند برقم /١٥٤٤٤/ ، وأصله في الصحيحين .

منهم .. وكلّ ذلك ليؤدّي الأمانات إلى أهلها ، فأيّ أخلاق أعظم من هذه الأخلاق وأسمى !؟

وقارن هذا الموقف العظيم بموقفه ﷺ يوم دخل مكة فاتحاً منتصراً ، وطأطأ كبار المشركين رءوسهم أمامه ، خاضعين لقوّة الحقّ ، واشربأت أعناقهم إليه ، تنتظر بم يقضي فيهم هذا الطريد المهاجر بالأمس !؟ وطلب النبي ﷺ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة ، ودخل إليها ، وصلى فيها ركعتين ، وهدم ما فيها من الأصنام ، وكان يسعه ﷺ - ولا رادّ لقضائه إلاّ الله - ألاّ يردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة ، وحجّته في ذلك وجيهة ظاهرة .. ولكنها الأمانة التي لا تقف عند حدّ .. وعظمة أخلاق النبوة ، التي لا تحيط بها عقول البشر ..

روى ابن سعد عن عثمان بن طلحة : لقيني رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة ، فدعاني إلى الاسلام فقلت: يا محمد العجب لك حيث تطمع أن آتبعك ، وقد خالفت دين قومك ، وجئت بدين محدث ، وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية الاثني والخميس ، فاقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت عليه ، ونلت منه ، فحلّم عني ، ثمّ قال : (يا عثمان ! لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت) فقلت : لقد هلكت قريش وذلت .

قال : (بل عمرت يومئذ وعزت) ، ودخل الكعبة ، ف وقعت كلمته منّي موقعاً ، فظننت أنّ الامر سيصير كما قال ، فأردت الإسلام فإذا قومي يزبروني زبراً شديداً ، فلمّا كان يوم الفتح قال لي : (يا عثمان ! اتّ بالمفتاح) فأتيته به .

فأخذه مني ، ثم دفعه إليّ وقال : (خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلاّ ظالم ، يا عثمان إنّ الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما وصل إليكم من هذا البيت بالمعروف) ، فلما وليت ناداني ، فرجعت إليه ، فقال : (ألم

يكن الذي قلت لك ؟) فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة : (لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت) .

فقلت : بلى ، أشهد أنك رسول الله ، فقام عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ! فقال رسول الله ﷺ : (أين عثمان بن طلحة ؟ فدعا فقال : (هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء) قالوا : وأعطاه المفتاح ورسول الله ﷺ مضطجع بثوبه عليه ، وقال " غيبوه ، إنّ الله تعالى رضي لكم بها في الجاهلية والاسلام) (١) .
وروى الفاكهي عن جبير بن مطعم : أنّ رسول الله ﷺ لما ناول عثمان المفتاح قال له : (غيبه) ، قال الزهري : فلذلك يغيب المفتاح .

وروى ابن عائذ وابن أبي شيبه من مرسل عبد الرحمن بن سابط : أنّ رسول الله ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة ، فقال : (خذوها خالدة مخلّدة ، إني لم أدفعها إليكم ، ولكنّ الله تعالى دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلّا ظالم) .

وروى ابن عائذ أيضاً والأزرقي عن ابن جريح رحمه الله تعالى أنّ عليّاً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ۝٥٨ ﴾ النساء (٢) .

وفي غزوة خيبر بين النبي ﷺ أنّ الأمانة في مال الأعداء واجبة الحفظ والرعاية والأداء ، لا تبرّر العداوة وحالة الحرب القائمة إهمالها ، وإذا كانت أموال الأعداء تغنم في القتال ، ويأخذها المسلمون ، ويقسمونها بينهم ، فإنّ

(١) - انظر البداية والنهاية ٣٠١/٤ .

(٢) - سبل الهدى والرشاد ٢٤٤/٥ .

ذلك مما أحله الله لهذه الأمة في الحرب ، وليس من قانون الإسلام خيانة الأمانة ، ولو مع العدو المحارب .

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير : أنه جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم ماذا تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ ، فأقبل بغنمه حتى عمد إلى رسول الله ﷺ فقال له : إلى من تدعو ؟ قال : أدعوك إلى الإسلام ، أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، وألا تعبد إلا الله ، فقال العبد : فماذا يكون لي إن شهدت بذلك ، وآمنت بالله ، قال رسول الله ﷺ : الجنة إن متّ على ذلك ، قال الرجل المؤمن : يا رسول الله إن هذه الغنم عندي أمانة ، إذ كان يرعاها ، وهنا أمره النبي ﷺ أن يؤدي أمانته ، ولم يقل إنها غنيمة للمسلمين ، ولم يضمّها إلى أموال الله ؛ لأنّ الأمانة يجب أن تراعى لذاتها ، لا فرق فيها بين عدوّ محارب ، وولي مناصر ، بل قال الرسول الأمين : أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالخصى ، فإنّ الله سيؤدي عنك أمانتك ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعرف اليهودي أنّ غلامه قد أسلم .

ولقد قتل ذلك العبد الأمين في خيبر شهيداً ، فأدخل في قماط الرسول ﷺ .

وإن هذا درس حكيم للذين يخونون أموال الناس ، ويبرّرونها بعداوة لهم ، وقد يكونون ظالمين في العداوة كما هم ظالمون بالخيانة ، والله عليهم بذات الصدور ^(١) .

وبعد ؛ فانظر أيّها العاقل المنصف إلى كلّ ما جاء في القرآن الكريم من أمر ونهي ، وإرشاد وتوجيه تجد السيرة النبويّة العطرة هي التطبيق العمليّ الدقيق ،

(١) - انظر : خاتم النبيّن ﷺ للشيخ محمد أبو زهرة ٢ / ٩١٣ - ٩١٤ .

والمرأة النقية ، الصافية الأمانة لكل ذلك ، وتلك من أهم سمات أمانته ﷺ ،
وتاجها وحليتها ، وبسط ذلك يحتاج إلى أفراد بالحديث يطول فيه القول
ويمتد ، وهو منجم من البحث بكر ، لا أعلم من تناوله بالتفصيل والبيان .

* وأما حفظه ﷺ للعهد ووفاءه فهو نوع من أمانته ، وباب بمحد ذاته من
أبواب عظمة أخلاقه ﷺ ، فقد كان ﷺ أوفى الناس بالوعد ، وأرعاهم للعهد
، وأوصلهم للرحم قبل النبوة وبعدها ، وقد عاهد اليهود والمشركون ، فما
نقض العهد ، وما عرف عنه الغدر ، ولما توفيت السيدة الجليلة خديجة رضي
الله عنها كان دائم الذكر لها ، والثناء عليها ، حتى كانت عائشة تغار من ذلك ،
وكان يحبّ صديقات خديجة ، ويرهنّ ، فكان يذبح الشاة ، ويقطعها ويقول :
(أرسلوا إلى صديقات خديجة) (١) .

وكانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، فيهشّ لها ،
وترتاح نفسه ، لأنّ صوتها يذكره بصوت خديجة ، وجاءته ذات يوم عجوز
من صويحبات خديجة ، فصار يسألها عن أحوالها ، وما صارت إليه ، ولما
خرجت قالت له عائشة : تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟! فقال لها :
(إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإنّ حسن العهد من الإيمان) (٢) .

* ومن المواقف الدالة على برّه ووفائه ﷺ وصيته بالأنصار ﷺ ، لما
كان منهم من نصرة لدين الله ، وجهاد في سبيله ، ودفاع عن رسوله ﷺ :
جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ : مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رَضِيَ
الله عَنْهُمَا بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ ، وَهُمْ يَتَكُونُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكُمْ ؟
قَالُوا : ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا ، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ،

(١) - رواه البخاري .

(٢) - رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ، كما في السيرة النبوية لأبي شعبة ٢/٦٤٤ .

قَالَ : فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ ، قَالَ : فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَلَمْ يَصْعُدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ : فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْيَتِي ، وَقَدْ قَضُوا الَّذِي عَلَيَّهِمْ ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ ، فَأَقْبِلُوا مِنْ مُحْسِنِيهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئَتِهِمْ (١) .

ويبلغ وفاء النبي ﷺ قمة لا تسامياها قمة ، عندما يلتزم بعهد شخصي ، أخذ على بعض أصحابه ، ولم يؤخذ عليه ، تعظيماً لعهد الله وميثاقه ، وكَيْلا يظنَّ به التسبب بنقض العهد .. كما جاء في الحديث عَنْ حَدِيثَةِ بِنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ : مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ ، قَالَ : فَأَخَذْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا : إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا فَقُلْنَا : مَا تُرِيدُهُ ، مَا تُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَا نُقَاتِلَ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ : (انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) (٢) .

* ومن المواقف الدالة على شدة حرصه على البرِّ والوفاء : ترجيحه ﷺ

لحقِّ الوالدين وبرِّهما على الهجرة إليه ﷺ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ : أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي جِئْتُ أَبَايُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَتِيمَيْنِ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأُضْحِكُهُمَا ، كَمَا أَبْكَيْتُهُمَا (٣) .

* ومن أجمل مواقف برِّه ﷺ موقفه مع أبي العاص بن الربيع ﷺ زوج ابنته

زينب رضي الله عنها عندما وقع في الأسر يوم بدر : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم ، قدم في فداء أبي العاص بن الربيع ، زوج زينب بنت رسول الله ﷺ

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم / ٣٣٥٣ .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم / ٣٣٤٢ .

(٣) - رواه النسائي في كتاب البيعة برقم / ٤٠٩٣ .

أخوه عمرو بن الربيع بمال دفعته إليه زينب بنت رسول الله ﷺ ، وهو قلادة كانت خديجة قد أهدتها إليها ، يوم أدخل بها على أبي العاص ، فلمّا رأى رسول الله ﷺ القلادة رقّ لها فقال لأصحابه : (إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها ، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا) فقالوا : نعم .

* وموقف آخر مع أبي العاص بن الربيع كان سبب إسلامه : فقد خرج في تجارة لقريش قبيل فتح مكّة ، فلقيته سرّيّة لرسول الله ﷺ على رأسها زيد بن حارثة ، فأخذ المسلمون ما في تلك العير ، وأسروا ناساً ، فلجأ أبو العاص بن الربيع إلى زوجه زينب رضي الله عنها ، واستجار بها فأجارته ، وقالت لرسول الله ﷺ : إنّه قد جاء في طلب ماله ، فجمع رسول الله ﷺ رجال هذه السريّة ، وقال لهم : (إنّ هذا الرجل منّا بحيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، وهو ممّا أفاء الله عليكم ، وأنا أحبّ أن تحسنوا ، وتردّوا عليه الذي له ، فإن أبيتم فأنتم أحقّ به) ، فقالوا : بل نردّه عليه ، فردّوا عليه ماله جميعاً ، فعاد إلى مكّة ، وأدّى إلى قريش ما بيده من الأمانات ، ثمّ قال أمام الملأ من قريش : " أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً رسول الله " ، والله ما منعني من الإسلام إلاّ خوفاً أن تظنّوا بي أكل أموالكم " ثمّ قدم على رسول الله ﷺ مسلماً ، وحسن إسلامه .

فانظر إلى عظمة أخلاقه ﷺ وسموّ ذوقه مع أصحابه أوّلاً ، أفما كان يستطيع ﷺ أن يبدي لهم رغبة جازمة بما يريد ؟ وهل يستطيع أحد منهم بعقد الإيمان ، وعهد الحبّ والولاء والوفاء أن لا يستجيب لرغبته ﷺ ؟! ولكنّه ﷺ كان حريصاً دائماً على تطيب القلوب ، وتركية المشاعر ، وقطع الهواجس والوساوس .. ثمّ انظر ثانياً إلى عظمة أخلاقه ﷺ مع زوج ابنته السيّدّة زينب ، كيف حرص النبيّ ﷺ في المرتين أن يردّ له ماله ، فاستأذن لذلك أصحاب الحقّ في كلّ مرّة .. ولا شكّ أنّ أبا العاص قدّر هذا الموقف من النبيّ ﷺ غاية

التقدير ، واعتمل في نفسه ، فكان من ثمرته أن عاد إلى النبي ﷺ مسلماً مهاجراً ، فردّ له النبي ﷺ زوجته .

وكان ﷺ يوصي بالوفاء ، وحسن الرعاية للعهد حتى مع الحيوان ، وإليك هذا المثل الفدّ من سموّ الأخلاق التي جاء بها ﷺ ، ومبلغ الرحمة التي جبل عليها : عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَسْرَهَا الْعَدُوُّ ، وَقَدْ كَانُوا أَصَابُوا قَبْلَ ذَلِكَ نَاقَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : فَرَأَتْ مِنَ الْقَوْمِ غَفْلَةً ، قَالَ : فَرَكِبَتْ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ جَعَلَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُنَحِّرَهَا ، قَالَ : فَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ ، فَأَرَادَتْ أَنْ تُنَحِّرَ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (يَسْمَا جَزَيْتِيهَا) ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : (لَا نَذَرُ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ، وَلَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) (١) .

وكما كان ﷺ وفياً مع الأحباء والأهل والأصدقاء ، فقد كان وفياً حتى مع الأعداء ، لا ينقض العهد ، ولا يغدر ، وكذلك كان الرسل عليهم الصلاة والسلام .. وقد شهد أبو سفيان أمام هرقل قبل أن يسلم أن الرسول ﷺ لا يغدر .. فقال له هرقل : " وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ .. " (٢) .

لقد عاهد اليهود ووفى لهم ، ولكنهم هم الذين نقضوا العهد في كلّ مرّة ، وألبوا عليه الأحزاب ، وعاهد المشركين في الحديبية ، ووفى لهم ، وعندما جاءه أبو جندل وأبو بصير مسلمين ردّهما تنفيذاً لشروط العهد ، على كرهٍ منهما ومن المسلمين ، حتى جعل الله لهما فرجاً ومخرجاً (٣) .

(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٩٠١٠/ .

(٢) - انظر حديث أبي سفيان مع هرقل في البخاري باب بدء الوحي برقم /٧/ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم /٣٣٢٢/ .

(٣) - وسيأتيك خبرهما قريباً .

ولَمَّا دخل مكة عام عمرة القضاء ، وقضى بها ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف في أغمادها ، جاء المشركون إليه ليخرج ، فأبى بعض المسلمين عليهم ، ورجب إليهم الرسول ﷺ أن يدعوه حتى يعرّس بالسيدة ميمونة بنت الحارث ، فيأكل المسلمون معهم ، ويأكلون معهم ، فأبوا ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالانصراف وفاء بالعهد ، ودخل بها " بسرّف " (١) .

* ومن أروع المواقف الدالة على وفائه بالعهد ﷺ ، كما تدل على عقله

وحكمته ، وقوة بصيرته في دين الله وبعد نظره : موقفه ﷺ يوم الحديبية ، هذا الموقف الذي لم يستوعب فيه كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بعد نظر النبي ﷺ ، وعميق حكمته ، وأثبت الوحي الإلهي ، وتطور الأحداث في الواقع أن هذا الصلح كان فتحاً مبيناً كما سماه الله تعالى .

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : " خرج رسول الله ﷺ زمان الحديبية في بضعة عشرة مائة من أصحابه ، حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، وسار رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بغير الأشطاط ، قريب من عسفان ، أتاه عينه الخزاعي فقال : إني قد تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبي ﷺ : أشيروا عليّ : أترون أن نميل إلى دراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موثورين محروبين ، وإن نجوا ، وإن يحنن نكن عتقاً قطعها الله ، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه فأتلناه ؟

(١) - وهو مكان قرب مكة .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَلَمْ نَجِئْ نُقَاتِلْ أَحَدًا ، وَلَكِنْ مِنْ حَالٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتِلُنَاهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَرُوحُوا إِذَا .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَرَاخُوا ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعِمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ ، حَتَّى إِذَا هُوَ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ .

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالنَّبِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتُ بِهَآ رَاحِلَتُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : حُلْ حُلْ ، فَالْحَتَّ ، فَقَالُوا : خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَبَّتْ بِهِ ، قَالَ : فَعَدَلَ عَنْهَا حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ ، إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا ، فَلَمْ يَلْبَثْهُ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ ، فَشَكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ .

قَالَ : فَبَيَّنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ ، وَكَانُوا عَيْبَةً تُصَحِّحُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ ، وَقَالَ : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ ، نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْيَةِ ، مَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَافِيلُ ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ ، وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ ، فَأَضَرَّتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً ،

وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا ، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعُوا ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، وَإِلَّا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي ، أَوْ لِيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ ، قَالَ : فَإِنْ شَاءُوا مَا دَدْنَاهُمْ مُدَّةً .

قَالَ بِدِيلٌ : سَأَلْتُهُمْ مَا تَقُولُ ، فَأَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ : إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ، فَإِنْ شِئْتُمْ نَعْرِضْهُ عَلَيْكُمْ ؟ فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ ، وَقَالَ ذُو الرَّاْي مِنْهُمْ : هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ، قَالَ : قَدْ سَمِعْتَهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ .

فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ فَقَالَ : أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَسْتُ بِالْوَالِدِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَهَلْ تَتَّهَمُونِي ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ ، فَلَمَّا بَلَحوَا عَلَيَّ ^(١) جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَمَنْ أَطَاعَنِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَقَالَ : إِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبُلُوهَا ، وَدَعُونِي آتِيَهُ فَقَالُوا : ائْتِهِ فَأَتَاهُ ، قَالَ : فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : نَحْنُ مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلٍ ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ : أَيُّ مُحَمَّدٍ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ ؟ وَإِنْ تَكُنْ الْأُخْرَى فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى وُجُوهًا ، وَأَرَى أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ خُلِقُوا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : امْصُصْ بَظَرَ اللَّاتِ ، نَحْنُ نَفِرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ ؟ ! فَقَالَ : مَنْ ذَا ؟ قَالُوا : أَبُو بَكْرٍ ، قَالَ : أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ .

(١) - كلوا وانقطعوا .

وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَكُلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَعَهُ السَّيْفُ ، وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ ، وَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةَ يَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَصْلِ السَّيْفِ ، وَقَالَ : أَخَرَّ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ عُرْوَةَ يَدَهُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، قَالَ : أَيُّ غَدْرٍ أَوْلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ ؟

وَكَانَ الْمَغِيرَةُ صَحْبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ .

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ النَّبِيَّ ﷺ بِعَيْنِهِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا تَتَنَحَّمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَذَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَيُّ قَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالتَّجَاشِيِّ ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَاللَّهِ إِنْ تَتَنَحَّمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَذَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَأَقْبِلُوهَا .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ : دَعُونِي آتِهِ ، فَقَالُوا : ائْتِهِ ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : هَذَا فُلَانٌ ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظِمُونَ الْبُذْنَ ، فَأَبْعَثُوهَا لَهُ ، فَبِعِثَتْ لَهُ ، وَاسْتَقْبَلَهُ الْقَوْمُ يُلْبُونَ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ .

قَالَ : فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ : رَأَيْتُ الْبَدَنَ قَدْ قُلِدَتْ وَأُشْعِرَتْ ،
فَلَمْ أَرَ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ : مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ : دَعُونِي آتِيهِ ، فَقَالُوا :
إِنِّيهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : هَذَا مِكْرَزُ ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ ، فَجَعَلَ
يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :
سُهَيْلُ مِنْ أَمْرِكُمْ .

فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا ، فَدَعَا الْكَاتِبَ .
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اكْتُبْ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَقَالَ سُهَيْلُ :
أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ ، وَلَكِنْ اكْتُبْ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتُ
تَكْتُبُ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : وَاللَّهِ مَا تَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ : اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، ثُمَّ قَالَ : هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ ، فَقَالَ سُهَيْلُ : وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ ،
وَلَا قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنْ اكْتُبْ : مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ، اكْتُبْ :
مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ : (لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ
اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا) .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتُطَوَّفَ بِهِ ، فَقَالَ
سُهَيْلُ : وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أُحِذُّنَا ضُعْطَةً ، وَلَكِنْ لَكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ
فَكُتِبَ .

فَقَالَ سُهَيْلٌ : عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتُهُ
إِلَيْنَا ، فَقَالَ : الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ جَاءَ
مُسْلِمًا ؟

فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو ، يَرْسُفُ فِي
قُيُودِهِ ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ سُهَيْلٌ : هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ ، أَنْ تُرَدَّهُ إِلَيَّ ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ .

قَالَ : فَوَاللَّهِ إِذَا لَا نُصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَأَجِزْهُ لِي
قَالَ : مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ ، قَالَ : بَلَى فافْعَلْ ، قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ .

قَالَ مِكْرَزٌ : بَلَى قَدْ أَجَزْتَاهُ لَكَ ، فَقَالَ أَبُو جَنْدَلٍ : أَيُّ مَعَاشِرِ الْمُسْلِمِينَ
أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ ، وَكَانَ قَدْ
عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ .

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ :
بَلَى ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ، وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ :
فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟ قَالَ : إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ ، وَهُوَ
نَاصِرِي ، قُلْتُ : أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَاتِي الْبَيْتَ ، فَتَطُوفُ بِهِ ؟
قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ
وَمَتَطَوَّفُ بِهِ .

قَالَ : فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ ﷺ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا ؟
قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ، وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ،
قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟

قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ نَاصِرُهُ ، فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ .

قُلْتُ : أَوَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَائِي الْبَيْتَ ، وَتَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ ، وَمَتَطَوَّفْ بِهِ ^(١) ، قَالَ الزُّهْرِيُّ : قَالَ عُمَرُ : فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا .

قَالَ : فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : قُومُوا فَانْحَرُوا ، ثُمَّ احْلِقُوا ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً ، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ .

فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ، نَحَرَ هَدْيَهُ ، وَدَعَا حَالِقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا .

(١) - لاحظ أخي القارئ الكريم التوافق العجيب بين قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وجوابه لعمر رضي الله عنه ، وبين جواب النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه ، مما يشهد لك بسموِّ مقام الصديق ، وعظيم إيمانه وبقينه ، ورسوخ قدمه ، ودقة فهمه . وقوله ﷺ : " .. إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ ، وَهُوَ نَاصِرِي .. " يمكن أن يفهم منه أنه ﷺ يتصرف في هذا الموقف بأمر الوحي وتوجيهه فهو لا يملك إلا الاستجابة لأمر الله ، والمضي في طاعته مهما كلف الأمر ، كما يمكن أن يفهم منه أنه ﷺ يجتهد في هذا الموقف بما أذن الله له في الاجتهاد فيه ، وهو لا يعصي الله في اجتهاده ، والله تعالى لا يتخلَّى عنه ، ويرجِّح الكاتب هذا الفهم ، بدليل أن النبي ﷺ قد استشار أصحابه أول الأمر ، وهو لا يستشير في شيء يوحى له فيه ، والله تعالى أعلم .

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ
تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. ﴿١٠﴾ المتحنة .

قَالَ : فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ ، كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرِّكَ ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا
مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ أَبُو بَصِيرٍ بْنُ أَسِيدِ الثَّقَفِيِّ مُسْلِمًا
مُهَاجِرًا ، فَاسْتَأْجَرَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ رَجُلًا كَافِرًا مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ ،
وَمَوْلَى مَعَهُ ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُهُ الْوَفَاءَ ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ
رَجُلَيْنِ ، فَقَالُوا : الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ ، فَخَرَجَا بِهِ
حَتَّى بَلَغَا بِهِ ذَا الْحُلَيْفَةِ ، فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ لَهُمْ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ
الرَّجُلَيْنِ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ يَا فَلَانُ هَذَا جَيِّدًا ، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ ، فَقَالَ :
أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ، ثُمَّ جَرَّبْتُ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ : أَرِنِي
أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ ، وَفَرَ الْآخَرُ ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ ،
فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا ، فَلَمَّا انْتَهَى
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي ، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ .

فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ ، قَدْ رَدَدْتَنِي
إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَيَلُ أُمُّهُ مِسْعَرُ حَرْبٍ ، لَوْ
كَانَ لَهُ أَحَدٌ) ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيْرُهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى
سَيْفَ الْبَحْرِ .

قَالَ : وَيَتَفَلَّتُ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلٍ ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ
مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ ،

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا ، فَفَقَتَلُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَأَرْسَلْتُ قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ اللَّهُ وَالرَّحِمَ ، لَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ .. حَتَّىٰ بَلَغَ حِمَاةَ الْجَنَهِلَةِ ﴾ ، وَكَانَتْ حِمَايَتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرُؤُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقْرُؤُوا : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ) .

وفي تَمَّةِ الرواية : (.. قَالَ : فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ رَكِبَ نَفَرٌ مِنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : إِنَّهَا لَا تُغْنِي مَدَّتْكَ شَيْئًا ، وَنَحْنُ نُقْتَلُ ، وَتُنْهَبُ أَمْوَالُنَا ، وَإِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنَّا فِي صَلَاحِكَ ، وَتَمْنَعَهُمْ ، وَتَحْجِزَ عَنَّا قِتَالَهُمْ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ..) (١) .

فانظر إلى مبلغ وفائه ﷺ بعهوده ، ودَقَّةَ التزامه بها ، ولو أدى ذلك إلى تفويت لبعض المصالح في ظاهر الأمر ، ومزيد الابتلاء لأصحابه ، والشدة عليهم ، ولا يخفى أن هذه الرواية والحادثة تفيض بالعبر والدروس ، والدلائل العميقة على عظمة الشخصية المحمدية ، والأخلاق النبوية ، كما نجد ذلك في جميع أحداث السيرة الكريمة .



(١) - رواه أحمد في المسند برقم /١٨١٦٦/ .

الفصل السادس

حسن خلقه ﷺ وحلمه ، وسماحته ﷺ وعفوه

لا ريب أنّ شهادة الله لرسوله ﷺ بعظمة الخلق تغني عن كلّ شهادة ، فهي شهادة الخالق العظيم ، الذي أبدع خلقه ﷺ ، واصطفاه من أظهر المعادن ، وأغرق الأصول ، ورعاه في يتمه ، وأنبتة نباتاً حسناً ، وأنشأه نشأة طيبة ، وأدّبه فأحسن تأديبه ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وربّاه على أنبل الصفات ، وأكرم الشمائل ، حتّى كان مضرب المثل بين قومه في الجاهليّة ، وأنزل عليه الكتاب المبين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وجعل خلقه القرآن ، يصدر عن إرشاده وآدابه في كلّ شأن من شئونه ، يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه ، ومنحه الله سبحانه من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممّن قبله أو بعده ، وخصّه بالتأييد الإلهي في كلّ موقف ، ومدّه بالوحي الذي لا يحيط بعلمه أو بقوّته بشر ، فأيّ حاجة لمثله أن يشهد له أحد من البشر ، بعد شهادة الله تعالى ، جلّ في علاه ؟! ومع ذلك فإنّ شهادة البشر واعتزافهم حجّة على سواهم من البشر .. والله الحجّة البالغة ..

وإنّ حسن الخلق من المصطلحات التي يمكن أن تأخذ معنى عاماً ، يشمل مكارم الأخلاق كلّها ، ممّا نتحدّث عنه في هذا البحث وغيره ، ويمكن أن يأخذ معنى خاصّاً ، يميّزه عن مكارم الأخلاق الأخرى ، ولا مانع بعد ذلك أن يتواصل المعنيان ويتقاربا .

والمقصود بالحديث في هذا الفصل المعنى الخاصّ ، وما يتّصل به .

ولقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً ، وكانت الآداب الرفيعة ،
والشمائل الكريمة جيلة خلق عليها ، ومنحة ربانية خصّ بها بعناية الله وحسن
رعايته ، ثم ترادفت عليه نفحات الله تعالى كلّ آن ، وأشرقت أنوار المعارف
الإلهية على قلبه ، حتّى وصل الغاية ، التي لا يقدر عليها جهد البشر ، وبلغ في
هذه الخصال الشريفة ، باصطفاء الله له بالنبوة والرسالة ما تتقاصر دونه مطامح
إنسان ، مهما جدّ واجتهد ، وحاول وبذل ..

وإنّ حقيقة حسن الخلق بالمعنى الخاصّ أنّه ملكة نفسية يسهل على
المتّصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة ، والبعد عن الأخلاق الذميمة ، وقوامها :
صفاء السريرة ، وسماحة النفس ، وسعة الصدر ، وأصل هذه الملكة كمال
العقل ، لأنّ به تقتبس الفضائل ، وتُجنّب الرذائل ، وقد كان ﷺ من كمال
العقل في الغاية القصوى ، التي لم يبلغها بشر ، وأدلة ذلك من سيرته ﷺ
وحياته أكثر من أن تحصى .

وأول ما يتجلّى أثر حسن الخلق في العلاقة الإيجابية الحميمة مع
الآخرين ، وهو ما وجّه الله إليه نبيه ﷺ ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) الأعراف ، فهذه الآية جامعة
لحسن الخلق مع الناس ، وما ينبغي في معاملتهم .

وقد روي أنّها عندما نزلت على النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام :
ما هذا يا جبريل ؟ قال : إنّ الله أمرك أن تعفو عمّن ظلمك ، وتعطي من
حرمك ، وتصل من قطعك " .

وبهذا المعنى جاء الحديث عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " لَقِيتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ فَأَبْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ يَدَيْهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ

قَالَ : (يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) ^(١) .

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً : الرِّفْقُ وَالتَّيْسِيرُ ، وَالبَعْدُ عَنِ الْحَرْجِ ، وَالْعَفْوُ وَسَمَاحَةُ النَّفْسِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : (مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا أَنْتَقِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) ^(٢) .

وَمِنْ قَبِيلِ الْمَعْنَى الْعَامِّ لِحَسَنِ الْخَلْقِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ) ^(٣) .

لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعِيشُ مَعَ النَّاسِ ، وَلَا يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ ، يَخْتَلِطُ بِهِمْ ، وَيَخْتَلِطُونَ بِهِ ، وَيُرُونَهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ ، وَيَلْتَقِي بِهِ الْإِنْسَانُ مَتَى شَاءَ .. يَلْتَقِي النَّاسَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَيَعَامِلُهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ ، يَبْعُ وَشِرَاءً ، وَأَخْذًا وَعَطَاءً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَافِذَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا ، وَالدَّعْوَةَ الَّتِي يَبْلُغُهَا ، وَالدِّينَ الْحَقَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، لَقَدْ رَأَوْهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ ، بَلَا تَكْلَفَ وَلَا تَصْنَعَ ، رَأَوْهُ فِي الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَعَرَفُوا أَخْلَاقَهُ فِي الشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ ، فَمَاذَا رَأَوْا فِيهَا ؟ لَقَدْ رَأَوْا فِيهَا كُلَّ فَضِيلَةٍ وَكَمَالٍ ، وَرَأَوْهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ .

(١) - رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ رَقْمَ /١٦٦٩٦/ .

(٢) - رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْفَضَائِلِ بِرَقْمِ /٤٢٩٤/ .

(٣) - رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ بِرَقْمِ /٤١٦٥/ .

وإنَّ أخلاق الإنسان لا تتجلى على حقيقتها إلا في إحدى حالتين :
● - حالة الغضب الشديد ، والعدوان عليه مع القدرة على الانتقام
والبطش .

● - وحالة الانتصار المذهل ، والفرح الغامر ، الذي تطيش به عقول
أكثر القادة والزعماء ، فيبطشون ، ويسفكون الدماء ، وَلَا يَقْفُونَ عِنْدَ حَدِّ
في الانتقام ..

وأما الأنبياء والرسل فهم بمعزل عن ذلك كله .. إنَّهم يتحركون بوحى
السماء ، ويهتدون بهدى الرسالة التي ائتمنوا عليها ، وكانوا عليها أوفياء ،
وكانوا في الالتزام بها وتنفيذ تعاليمها الأسوة الحسنة للناس ..
وإليكُم هذين الموقفين من هدى النبي ﷺ في سيرته العطرة :

● - عندما اشتدَّ أذى المشركين لرسول الله ﷺ بعد وفاة عمِّه أبي
طالب ، وزوجه خديجة رضي الله عنهما ، وكانا له نعم العون والناصر ، توجه
ﷺ إلى الطائف ، يدعو أهلها إلى الله تعالى ، ويلتمس منهم النصرة لتبليغ دين
الله ، فما كان منهم إلا أن ردَّوه ردًّا قبيحاً ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أغروا
سفهاءهم وعبيدَهُمْ فتبعوه يرمونه بالحجارة حتَّى أدموا عراقيبه ، وهو في هذه
الشدة الشديدة ، يأتيه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ، فيعرض عليه
بأمر الله أن يهلك المكذِّبين المعاندين ، المسيئين أشدَّ الإساءة ، فما كان منه ﷺ
إلا أن أبى ، وقال كلمته المشهورة : (بَلْ ، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ
مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) ^(١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم/٢٩٩٢/ ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم
/٣٣٥٢/ ، وستمّر بك القصة بطولها في فصل : رحمته ﷺ بأعدائه .

● - الموقف الثاني : دعا رسول الله ﷺ أهل مكة إلى الإسلام أكثر من عشر سنوات .. فلم يؤمن منهم إلا القليل ، وناله منهم من الأذى والإساءة ، ما لا تطيقه الجبال .. وكادوا له كلّ كيد ، وتوجّوا كيدهم بالتخطيط لقتله ، فأمره الله بالهجرة ، فخرج من مكة مكرهاً مُستخفياً ، مُهاجراً من أحبّ البلاد إليه ، ولم تكفّ قريش عن عداوته ، والمكر به وبأصحابه ، والتخطيط لصدّ الناس عن دينه ، وإعانة كلّ عدو له ، ومضت سنون على ذلك ، وأراد النبي ﷺ زيارة البيت العتيق ، كما هو حقّ كلّ عربي مهما كان بينه وبين قريش من عداوة ، ولكنّ قريشاً منعتة وصدّته عن المسجد الحرام ، وكبر ذلك على أصحابه ، وشقّ عليهم بعد طول شوق وغياب ، ولكنّه صبر ، وأعلن رغبته في عقد صلح مع قريش ، لتهدأ النفوس ، ويحتكم أولئك المشركون إلى منطق العقل والحكمة ، وكان صلح الحديبية ، الذي لم تسمح قريش بموجبه لرسول الله ﷺ أن يدخل مكة إلّا في العام التالي ثلاثة أيام ، وكانت شروط الصلح كلّها على حسب إملاءات قريش ورغبتها ، وهي بظاهاها مجحفة بالمسلمين ، ولكنّ الرسول ﷺ وافق عليها بوحى الله وإرشاده ، وسمى الله هذا الصلح فتحاً ، ونزلت فيه سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ الفتح ، ولم تمض على هذا الصلح سنتان ، حتّى نقضت قريش بعض شروطه ، فأعانت قبيلة بني بكر على خزاعة بالسلاح والرجال ، وكانوا في عهد رسول الله ﷺ وذمّته ، فقتل منهم أكثر من عشرين رجلاً غدرًا ، وتجهّز الرسول ﷺ والمسلمون لفتح مكة ، وجاء المجاهدون من قبائل متعددة ، وبلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف .. معهم ما يقارب ألف فارس ، وحرص النبي ﷺ على أن يفاجئ قريشاً ويغتفها ، كيلا تكون قادرة على قتاله ، ووزع القادة من أصحابه على أطراف مكة ، لتعجز قريش عن قتالهم ، فتستسلم ولا يراق شيء من الدماء .. وتضعضت

قيادة قريش ، وانفرط عقدها ، فأكبر زعمائها وقادتها أبو سفيان دخل في الإسلام ، وحمل لواء التحذيل عن قتال رسول الله ﷺ ، ولكن بعض المشركين من بني بكر ركبوا رؤوسهم حماقة فأرادوا أن يصدّوا خالداً ﷺ عن دخول مكة حيث أمره النبي ﷺ ، فقاتلهم ، وقتل منهم أكثر من عشرين رجلاً .. ودخل النبي ﷺ مكة المكرمة متواضعاً لله تعالى .. يطأطي رأسه تواضعاً لله تعالى ، وهو يكبر الله ويحمده ، ويشني عليه ويعظمه ، وبلغه أن سعد بن عبادة ﷺ قال : " اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة .. " وكان يحمل راية قومه من الأنصار ، فأمر ﷺ علياً ﷺ أن يدركه ، ويأخذ الراية منه ، ثم دفع الراية لابنه قيس بن سعد بن عبادة تطيباً لقلب والده ، وقال ﷺ : (اليوم يوم الرحمة ، اليوم تعظم الكعبة) .

لقد كان ﷺ يسعه أن يغضّ النظر عن هذا وأمثاله ، ثمّ يبرأ من عملهم إن شاء ، بعد أن يشفي من المشركين غيظه وغيظ أصحابه ، كما هو شأن زعماء الدنيا ، وقادة الحروب .. ولكنه حاشاه أن يفعل ذلك ! إنه نبي الهدى والرحمة .. لقد طاف حول البيت وهو يقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) الإسراء ، وأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ، وكان لا يزال مشركاً ، ودخل ﷺ الكعبة ، وأزال ما فيها من تماثيل وصور ، وصلى فيها ركعتين ، ثم وقف على باب الكعبة ، فكبر ثلاثاً ثم قال : (لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا إن كل ما نركب كنا في الجاهلية نذكر ونُدعى ، من دم أو مال تحت قدمي ، إلا ما كان من سقاية الحاجّ وسدانة البيت ، ثم قال ، واشرايت

إليه أعناق القوم : يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ،
وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب ، ثم تلا قوله تعالى :
﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ۖ (١٣) ﴾ الحُجُرَات ، يا معشر قريش ،
يا أهل مَكَّة ! ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : " خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ
كريم ، ثم قال : اذهبوا ، فأنتم الطلقاء " ..

ثم دعا عثمان بن طلحة ، فدفع إليه مفتاح الكعبة ، وقال : (خذوها يا
بني أبي طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها أحد منكم إلا ظالم) .
فهل عرفت البشرية في تاريخها كله قائداً فاتحاً عامل أعداءه بمثل هذه
المعاملة ، أو بشيء منها ، بعد أن انتصر عليهم ، وتمكّن من رقابهم ؟! ولكنها
النبوة الخاتمة ، المرسله للعالمين رحمة ، وإذا كانت قد وسعت العالمين ، فكيف
لها أن لا تسع الخصوم المعاندين ؟!

ومن أروع ما يدّلنا على سعة صدر النبي ﷺ ، وعظمة أخلاقه ،
وجميل حلمه ، وسماحة نفسه وعفوه ، وعدم غضبه لنفسه أو انتصاره لها ،
هذا الموقف من مواقف السيرة العطرة : فقد جاء أعرابي يوماً إلى النبي ﷺ
يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ، ثم قال له : (أحسنت إليك ؟) قال الأعرابي
: لا ، ولا أجملت ! قال : فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن
كفّوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال :
أحسنت إليك ؟ قال : نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبي
ﷺ : (إنك قلتَ ما قلتَ ، وفي نفس أصحابي شيءٌ من ذلك ، فإن أحببتَ
فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ ، حتّى يذهبَ من صدورهم ما فيها
عليك) ، قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشيّ جاء ، فقال النبي ﷺ : (إن

هذا الأعرابيَّ قال ما قال ، فزدناه فزعم أنّه رضي ، أكذلك ؟ فقال الأعرابيُّ :
نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال النبيُّ ﷺ : (إن مثلي ومثل
هذا الأعرابيِّ كمثلي رجل كانت له ناقة ، شردت عليه ، فأتبعها الناس ، فلم
يزيدوها إلّا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فإني
أرفق بها وأعلم ، فتوجّه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردّها
هوناً ، حتّى جاءت واستناخت ، وشدّ عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإني
لو تركتكم ، حيث قال الرجلُ ما قال فقتلتموه دخل النار) (١) .

فهذا الموقف يعلمنا فيه النبيُّ ﷺ بسيرته العمليّة وهديه أن الإنسان قد
يحسن ويكرم ، ويعطي ويمنح ، ولا يلقي من بعض الناس إلّا الإساءة ونكران
الجميل ، والغلظة والفظاظة ، ولا يسمع منهم كلمة شكر أو اعتراف بمعروف
.. فيستطيع المؤمن الموفق ، المتأسّي بالنبي ﷺ أن يحوّل فظاظة هؤلاء إلى ودّ
جميل ، واعتراف نبيل : ﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُوحَضِّ
عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) فصلت .



(١) - انظر إحياء علوم الدين ٣٧٩/٢ وقال العراقيّ في تحريجه : أخرجه البزار وأبو الشيخ من
حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

الفصل السابع

جوده ﷺ وكرمه

ومن معين الرحمة التي جبل عليها قلب النبي ﷺ : تَبَعَ الجودُ والكرمُ ،
والبذلُ والإيثار ، وكان ﷺ من ذلك في المقام الذي لا يدانيه فيه أحد .. وقد
كان جوده ﷺ كله لله ، وفي ابتغاء مرضاة الله ، فإنه ﷺ كان يبذل المال تارةً
لفقير أو محتاج ، وتارةً ينفقه في سبيل الله تعالى ، وتارةً يتألف به على الإسلام
من يقوى به الإسلام ، وكان يعطي عطاءً يعجز عنه الملوك ، ويؤثر أصحابه
على نفسه وأهل بيته ، ويعيش في نفسه وأهل بيته عيش الفقراء ، فيأتي عليه
الشهر والشهران ، لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط الحجر والحجرين على بطنه
الشريفة من الجوع ، وقد أتاه ﷺ مرةً سي ، فشكت إليه ابنته فاطمة رضي الله
عنها بتوجيه من زوجها ﷺ ما تلقى من عناء في خدمة البيت ، وطلبت منه
خادماً ، يكفيها مؤنة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ،
وقال : (لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع) (١) .

لقد كان النبي ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ، ما ردّ أحداً قط إلا
بحاجته ، وما طلب منه أحد شيئاً فقال : لا ، فلا يصدق قول الشاعر إلا
عليه : ما قال لا قط إلا في شَهْدِهِ لولا الشَّهْدُ كَانَتْ لاءُ نَعَمْ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ ،
وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ

(١) - الأنوار المحمدية ص/ ٢٣٨/ بتصرف يسير .

مِنْ رَمَضَانَ ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ (١) .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : (مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ : لَا) (٢) .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ أَمْرَأَةٌ جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ ، مَنْسُوجَةٍ فِيهَا حَاشِيَتُهَا ، أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ ؟ قَالُوا : الشَّمْلَةُ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : نَسَجْتُهَا بِيَدِي ، فَجِئْتُ لَأَكْسُو كَهَا ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا ، وَإِنَّهَا إِزَارُهُ ، فَحَسَنَهَا فَلَانٌ ، فَقَالَ : اكْسُيْهَا ، مَا أَحْسَنَهَا ! قَالَ الْقَوْمُ : مَا أَحْسَنْتَ ، لَيْسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ ، قَالَ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لَأَلْبَسَهُ ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي ، قَالَ سَهْلٌ : فَكَأَنْتَ كَفَنُهُ (٣) .

ولقد بلغ من كرمه وجوده ﷺ أن يقول لمن يطلب معروفه : (استدن علينا حتى يأتينا ما نقضيه ..) إن لم يجد تلك الساعة ما يعطي السائل ..
عن عمر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي فسأله أن يعطيه ، فقال النبي ﷺ : ما عندي شيء ، ولكن ابتع عليّ ، فإذا جاءني شيء قضيته . فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله قد أعطيتك ، فما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكرهه ﷺ قول عمر ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ، ولا تخف من

(١) - رواه البخاري في كتاب بدء الوحي برقم /٥/ ومسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٦٨/ وسيمر بك الحديث بطوله في الفصل الأول من الباب الثالث من شهادات المنصفين .

(٢) - رواه البخاري في كتاب الأدب برقم /٥٥٧٤/ ومسلم في كتاب الفضائل برقم /٤٢٧٤/ .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الجنائز برقم /١١٩٨/ .

ذي العرش إقلاًلاً ، فتبسم رسول الله ، وعرف في وجهه البشر لقول الأنصاري ، ثم قال : بهذا أمرت (١) .

ولا عجب في ذلك ، وهو القائل كما جاء في الحديث القدسي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ ، وَقَالَ : يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَيَدِيهِ الْمِيزَانُ ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ..) (٢) .

وبلغ من كرمه ﷺ وجوده أن يعطي المؤلفه قلوبهم مئات من الشاء أو البقر أو الإبل ، حتى سموا في السيرة أصحاب المئين ..

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ ، قَالَ : فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : يَا قَوْمِ اسْلُمُوا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ (٣) .

وقال آخر في مناسبة مشابهة : أشهد أنه لا تجود بهذا إلا نفس نبي ..

وبلغ من كرمه وجوده ﷺ أن يقول لأحدهم ، وقد رأى من الغنائم غنماً كثيراً يملأ وادياً ، فقال : ما أكثر هذا ؟ فقال له النبي ﷺ : أيعجبك ؟ قال : نعم . فقال له بكل أريحية : هو لك ..

وَعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه قَالَ : أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ :

(١) - أخرجه الترمذي في الشمائل ص / ٣٨١ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن برقم / ٤٣١٦ .

(٣) - رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم / ٤٢٧٥ .

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعُبَيْدِ
فَمَا كَانَ بَذْرٌ وَلَا حَابِسٌ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا
قَالَ : فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةً (١) .

وليس هذا العطاء الكثير من الإسراف في شيء ، وإنما هي سياسة تربوية حكيمة ، أتبعها النبي ﷺ لتأليف النفوس الشاردة عن الحق ، واستلال الأحقاد والضغائن منها ، وتعليم الناس جميعاً أنّ محمداً ﷺ ليس طالب ملك ولا مال ، وإنما هو داعٍ إلى الله بإذنه ، لا همّ له إلا هداية الناس إلى صراط الله المستقيم . وقد أثبت الواقع أنّ هؤلاء المؤلفة قلوبهم أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وصدقوا مع الله ، وجاهدوا في سبيله ..

وبلغ من كرمه وجوده ﷺ أن بعض الأنصار كانوا يهدون إليه بواكير الثمر ، ليدعوا لهم بالبركة فيها ، فلا يردّ الطبق إلا بملئه مما يحضره من الخير ، وربما ردّه بملئه من الذهب والفضة ..

ولقد بلغ من جوده وكرمه أنّه ﷺ كان يؤثر فقراء أصحابه ، وبخاصّة أهل الصفة ، ويقدمهم على أهل بيته فيما يهدى إليه من طعام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : أَللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُ لِأَعْتَمِدُ بِكَفِيدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ ، وَإِنْ كُنْتُ لِأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي ، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي ، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ .

(١) - رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /١٧٥٧ .

ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي الْقَاسِمِ ع فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَى ، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي ، وَمَا فِي وَجْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا هِرٍّ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الْحَقُّ ، وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ ، فَأَذِنَ لِي ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبْنًا فِي قَدَحٍ ، فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبْنُ ؟ قَالُوا : أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ ، أَوْ فُلَانَةٌ .

قَالَ : أَبَا هِرٍّ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي ، قَالَ : وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَصَابَ مِنْهَا ، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا ، فَسَأَعَنِي ذَلِكَ ، فَقُلْتُ : وَمَا هَذَا اللَّبْنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً ، أَتَقْوَى بِهَا ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ص بَدْ .

فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ ، فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنْ الْبَيْتِ ، قَالَ : يَا أَبَا هِرٍّ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : خُذْ فَأَعْطِهِمْ ، قَالَ : فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِي ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ص ، وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلُّهُمْ ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ ، فَقَالَ : أَبَا هِرٍّ قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ ، قُلْتُ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : اقْعُدْ فَاشْرَبْ ، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ ، فَقَالَ : اشْرَبْ فَشَرِبْتُ ، فَمَا زَالَ يَقُولُ : اشْرَبْ ، حَتَّى قُلْتُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا ، قَالَ : فَأَرِنِي ، فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، وَسَمَى ، وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ (١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب الرقاق برقم /٥٩٧١/ .

وإنّ دلالة هذه القصّة البالغة على إشار النبي ﷺ لأصحابه ، وكرمه وجوده أعمق وأقوى أثراً من دلالتها على تكثير اللبن القليل ببركة النبي ﷺ ، وهي حقيقة لا ريب فيها ..

ومثل آخر يوم الخندق : عن جابر بن عبد الله ﷺ يقول : لما حُفِرَ الخندقُ رأيتُ رسولَ الله ﷺ خَمْصاً ، فأنكفأتُ إلى امرأتي فقلتُ لها : هلْ عندك شيءٌ ؟ فإني رأيتُ رسولَ الله ﷺ خَمْصاً شديداً ، فأخرجتُ لي جراباً فيه صاعٌ من شعير ، ولنا بُهيمَةٌ داجنٌ .

قال : فدبّحتها ، وطحنتُ ففرغْتُ إلى فراغي ، فقطعتُها في بُرمتيها ، ثمَّ وليتُ إلى رسولِ الله ﷺ فقالتُ : لا تفضّخني رسولُ الله ﷺ ومن معه .

قال : فجئتُهُ فسأرتُهُ ، فقلتُ : يا رسولَ الله ﷺ إنا قد دَبَحْنَا بُهيمَةً لَنَا ، وطحنتُ صاعاً من شعير كانَ عندنا ، فتعالَ أنتَ في نفرٍ معك ، فصاحَ رسولُ الله ﷺ وقال : يا أهلَ الخندقِ ، إنّ جابراً قد صَنَعَ لَكُمْ سوراً ، فحيّ هلا بكم .

وقال رسولُ الله ﷺ : لا تُنزلن بُرمتكم ، ولا تُخبزن عَجينتكم حتّى أجيء ، فجئتُ وجاءَ رسولُ الله ﷺ يقدّم الناسَ ، حتّى جئتُ امرأتي ، فقالتُ : بك وبك ، فقلتُ : قد فعلتُ الذي قلتَ لي ، فأخرجتُ له عَجينتنا ، فَبَصَقَ فيها وبَارَكَ ، ثمَّ عَمَدَ إلى بُرمتنا فَبَصَقَ فيها وبَارَكَ ، ثمَّ قال : ادْعِي خَازِنَةَ فلتُخبزْ معك ، وأقدحي من بُرمتكم ، ولا تُنزلوها ، وهُم أَلْفٌ ، فأقسِمُ باللهِ : لأكلوا حتّى تَرَكُوهُ وأنحرفوا ، وإنَّ بُرمتنا لَتَغْطُ كَمَا هِيَ ، وإنَّ عَجينتنا ، أوْ كَمَا قال الضحّاكُ : لَتُخبزُ كَمَا هُوَ ^(١) .

فانظر رعاك الله إلى سمو النفس ، وكرم الأخلاق النبويّة : كيف لم يرتضِ ﷺ أن يلبي دعوة جابر ﷺ مع نفر قليل من أصحابه . ؟ بل دعا كلّ من

(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم/٣٧٩٣/ومسلم في كتاب الأشربة برقم /٣٨٠٠/ .

حضر حفر الخندق باسم جابر رضي الله عنه ، وهذا من مروته رضي الله عنه وسمو أخلاقه ،
وظهر إكرام الله تعالى لنبيه ﷺ ، يعضد إكرام النبي ﷺ لأصحابه ..

فهل رأت عينك ما يشبه هذه الأخلاق الكريمة ، أودانيها . ؟ !

ويشبه هذه القصة ما وقع لأبي طلحة وأم سليم ، كما جاء في الحديث
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لَأُمِّ سُلَيْمٍ : لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ ضَعِيفاً ، أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ،
فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصاً مِنْ شَعِيرٍ ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَاراً لَهَا ، فَلَقَّتْ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ ، ثُمَّ
دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدَيَّ ، وَلَا تَتَّبِنِي بِبَعْضِهِ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ : فَذَهَبْتُ بِهِ فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، وَمَعَهُ النَّاسُ ،
فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَرْسَلَكِ أَبُو طَلْحَةَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ :
بَطْعَامُ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ : قُومُوا ، فَاَنْطَلِقْ ،
وَاَنْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ .

فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ ، وَلَيْسَ
عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ ، فَقَالَتْ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَاَنْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكَ ، فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ ،
فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَفَقَتْ ، وَعَصَرَتْ أُمَّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ .

ثُمَّ قَالَ : ائْذَنْ لِعَشْرَةٍ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا ، حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ،
ثُمَّ قَالَ : ائْذَنْ لِعَشْرَةٍ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَالَ :
ائْذَنْ لِعَشْرَةٍ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَالَ : ائْذَنْ
لِعَشْرَةٍ ، فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا ، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ ، أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا ^(١) .

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم/٣٣١٣/ ومسلم في كتاب الأشربة برقم /٣٨٠١/ .

وبعد ؛ فإن لم يكن محمد بن عبد الله ﷺ - بهذه الأخلاق العظيمة ،
 الزكية الطاهرة ، والشمائل الكريمة - نبياً ، بل أفضل من اجتباهم الله تعالى
 بالنبوة ، وحباهم بالرسالة ، فمن عسى أن يكون نبياً ؟ وماذا يثبت من نبوة
 سواه من الأنبياء ؟.

وإذا كان أهل الكتاب يقرّون باصطفاء الله بعض خلقه بالنبوة ،
 وتكليفهم بالرسالة ، فأنى لهم أن يثبتوا نبوة أنبيائهم ، وما يؤمنون به من كتب ،
 إن لم يعترفوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته ؟! وليس في الدنيا كتاب سماوي موثوق
 في ثبوته ، وفي جميع حروفه كالقرآن العظيم ، يتحدث عن نبوة الأنبياء ،
 ويروي أخبارهم .. وإن لم يكن هذا الفضل العظيم الذي أسداه محمد بن عبد
 الله ﷺ للإنسانية ، وهذه الأمة العظيمة التي أخرجها فكانت بإذن الله خير أمة
 للناس .. إن لم يكن ذلك من عمل النبوة فماذا يمكن أن يكون إذن ؟.
 وهل يمكن أن يقاس ما قدّمه محمد بن عبد الله ﷺ للإنسانية من خير
 وبرّ ، وهدى ورحمة ، بما قدّمه من سبقه من الأنبياء ؟.

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ .. ﴾ (١٥) ﴿ آل عمران ، ﴾ .. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا
 ﴾ (٨٧) ﴿ النساء ، ﴾ .. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (١٢٢) ﴿ النساء : ﴾ ﴿ مَا كَانَ
 مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١١٠) ﴿ الأحزاب .



الباب الثالث

شهادات المنصفين ، ودفع المفتردين

وفيه تمهيد وخمسة فصول :

الفصل الأول : من شهادات المنصفين في عهد النبوة

الفصل الثاني : من شهادات المنصفين في العهود التالية

الفصل الثالث : كيف ندافع عن نبي الهدى والرحمة . ؟

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : بناء الجيل المؤمن المحب لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

المبحث الثاني : التعريف والدعوة وحسن الأسوة

الفصل الرابع : صور مشرقة من روائع الحب والوفاء

الفصل الخامس : ثمرات الجهاد النبوي وبركاته على الإنسانية

تمهيد : شهادات المنصفين بالنبوة الخاتمة :

لقد " أرسل الله نبيّه مُحَمَّدًا ﷺ على فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وعبادة عمياء ، للأصنام والأحجار والأشجار ، وجهالة جهلاء ، غمرت جميع القرى والأمصار ، أرسله برسالة عامّة باقية ، وشرعية خالدة

هادية ، قائمة على الآيات البيّنات ، ما قامت الأرض والسموات ، فكان ولا يزال رحمة للعالمين ، كما كانت شريعته ولا تزال هي النور المبين ، والمعتصم والملجأ إلى يوم الدين ، وليس بينها وبين الإيمان بها ، وبأنّها لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها إلّا نظرة صادقة في تاريخ هذا النبيّ الكريم ﷺ " (١) ، وأن يكون الإنسان متمتعاً بخلق الموضوعيّة والإنصاف ، بعيداً عن العصبية العمياء ، وأتباع الهوى الذي يفسد السيرة ، ويطمس البصيرة .

وإنّ شهادات المنصفين التي نعرضها في هذا الباب تشمل ما أثنوا به على الإسلام ، كما تشمل شهادتهم وثناءهم على النبيّ ﷺ ، إذ إنّ الثناء على الإسلام لا ينفكّ عن الثناء على النبيّ ﷺ ، الذي بعث به ، ولا يتصور بدونه ، وكذلك العكس .. ومحاولات الفصل بين الطرفين محاولات تنضح بالضغينة ، ولا تعرف الموضوعيّة ، ولا تستطيع أن تنتقص شيئاً من الحقيقة ، ولو أعمت عينها دهرًا طويلاً ..

ولم أسمح لنفسي أن أعلّق على هذه الكلمات إلّا بقدر الضرورة ، إذ كثير من النصوص تدعو إلى التعليق عليها ، إضافة أو استدراكاً ، ولكنّ ذلك سيطيّل بنا القول بما يخرج عن خطّة الكتاب .

وإذا كان الوحي الإلهي قد سجل شهادة من أهل الكتاب أو شهود لرسول الله ﷺ ، فإنّ هذه الشهادة لم تكن واقعة تاريخية فريدة .. إذ إنّ كل قرن من القرون الأربعة عشر الماضية حملت شهادات مشابهة من المنصفين من أهل الكتاب وغيرهم ، للإسلام ، وللرسول ﷺ ، وللقرآن الكريم .

(١) - انظر كتاب : " من ذخائر السنّة النبويّة " للعلامة الشيخ طه محمّد الساكت ، جمع الشيخ مجد مكّي ١/١٣٤ .

وإذا كانت حقائق الإسلام الظاهرة ، وحججه البينة النيرة ، لا يحتاج معها المسلمون إلى شهادات غيرهم لدينهم ، فإنّ قيمة هذه الشهادات تبدو في إقامة الحجّة على ما يفترّيه بعض المتعصبين على الإسلام من زيف .. وعلى رسول الله ﷺ من لغو وإثم ..

فكلمة إنصاف واحدة من منصف مخالف في العقيدة والمبدأ ، أبلغ تأثيراً من مئة كلمة من حاقد حشي تفكيره أوهاماً باطلة ، وما أقوى الشهادة عندما تكون من نوع : " وشهد شاهد من أهلها .!؟

وتبدو قيمة هذه الشهادات أيضاً أنّها حجّة على قائلها ، الذين شهدوا بها ، ثمّ لم يزلوا مصرّين على ما هم فيه من عقائد باطلة ، لقيود تافهة لم يستطيعوا التحرّر منها ..

وإذا كان بعض هؤلاء الشاهدين وقفوا حائرين أمام عظمة المصطفى ﷺ مشدوهين أمام شخصيته ، يعترفون ولا يهتدون ، ويشهدون ولا يلتزمون بحكم شهادتهم ، فإنّ منهم من يريد أن يهرب من التفسير الصحيح لعظمة المصطفى ﷺ ، التي لا تدينها عظمة إنسانية في أي جانب من جوانبها ، فلا يعترف بما وراء هذه العظمة .. ومنهم من يظن أن قصارى جهده وإنصافه أن يعترف بها ، ويسلم بظهورها .. بعد أن سطعت شمسها على الإنسانية سطوعاً لم تعد تجدي معه مكابرة مكابر ، أو إنكار منكر جاحد .. ومنهم من يراها نبوة من النبوات ليست خاتمة ولا ملزمة .. ومنهم ومنهم .. ولكنها تبقى شهادات ، لها أثرها المبين ، في ردّ المغترّين التائهين ، وكسر حدة المتعصبين ، وخزي ذوي الأحقاد المارقين .

وإنّ هذه الشهادات لتذكرنا بكلمة العباس بن عبد المطلب ﷺ لأبي سفيان يوم فتح مكة ، إذ قال أبو سفيان قبل أن يتمكّن الإيمان في قلبه ، وهو

يرى جند الإسلام وألوية الحقّ تمضي قدماً باتجاه الفتح المبين : " يا عباس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً " ، فأجابه العباس عليه السلام ببداهة سريعة : " ويحك يا أبا سفيان ! إنها النبوة ! " .

ونحن نقول اليوم : " ويحكم أيها الناس ! إنها النبوة الخاتمة .. التي تأبى أن تشبه بعظمة العظماء ، أو تقارن بعبقرية العباقرّة الأفاضل ، فهذه أمور أول شأنها أنها تتدرّج وترقى ، وغاية أمرها أنها تبقى محدودة بمحدود قوى البشر وطاقتهم ، تبدى فيها معاناتهم ، وسقوطهم مرّة ، وارتفاعهم أخرى ، وتألّفهم في جانب ، وانحدارهم وانحطاطهم في جانب آخر ، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ، ويأبى الله لأنبيائه ورسله إلا أن يكون نورهم أتمّ ، وأمرهم في العالمين أعظم ..

وبعد : فهذه شهادات من شهادات .. لا يسع أحداً استقصاؤها ، وليس في طاقة أحد أن يحيط بها جمعاً وعدداً ، وحسبنا جهد المقلّ ، ولعلّ ما فاتنا الاطلاع عليه أبلغ وأقوى ، وأظهر وأبين .



الفصل الأول

من شهادات المنصفين في عهد النبوة

تصديق المشركين العام برسول الله ﷺ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤) الشعراء ، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا ، فَجَعَلَ يُنَادِي : يَا بَنِي
فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ ، حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ
يَسْتَطِيعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا ، لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ ،
فَقَالَ : (أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ : أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي ، تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ ،
أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟) قَالُوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا ، قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ
لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبَّأَ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ ، أَلْهَذَا
جَمَعْتَنَا ؟! فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) .

شهادة أبي جهل بالحق ، واعترافه بكبره وعناده : روى الإمام البيهقي
عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : " إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى
أَمْشِي أَنَا وَأَبُو جَهْلٍ فِي بَعْضِ أَرْقَةِ مَكَّةَ ، إِذْ لَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ لِأَبِي جَهْلٍ : يَا أَبَا الْحَكَمِ هَلَمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ
أَبُو جَهْلٍ : يَا مُحَمَّدُ هَلْ أَنْتَ مِنْتَهُ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا ؟ هَلْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنَّكَ
قَدْ بَلَغْتَ ؟! فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ .. فَوَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقُولُ حَقٌّ

(١) - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن ٤٣٩٧ ، ومسلم في كتاب الإيمان ٣٠٧ ، عن ابن

عباس رضي الله عنه .

لَاتَّبِعَنَّكَ ، فانصرف رسول الله ﷺ ، وأقبل عليّ فقال : والله إني لأعلم أنّ ما يقول حقّ ، ولكن يمنعني شيء : أنّ بني قصيّ قالوا : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، ثمّ قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، ثمّ قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثمّ قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثمّ أطعموا وأطعمنا ، حتّى إذا تحاكّت الركب قالوا : منّا نبيّ ! والله لا أفعل .. " (١) .. أي فكيف له بهذه ؟! فهو يرى أنّهم لو آمنوا به واتبعوه فقد أصبحت لهم التبعيّة لعشيرته ، وهذا ما لا يمكن لهم أن يسلموا به ، وتلك هي الجاهليّة العمياء الرعناء !.

شهادة الوليد بن المغيرة بالحقّ : يقول تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۖ ۝١٦ سَازِجُهُ صَعُودًا ۖ ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ ۝٢٤ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ۝٢٥ سَاطِئِهِ سَقَرًا ۖ ۝٢٦ ﴾ المدثر .

نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزوميّ ، وكان يسمّى :

الوحيد في قومه " : روي أنّه لما نزل قوله تعالى : ﴿ حَمَّ ۖ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۖ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ۖ ۝٣ ﴾ غافر .

سمع الوليد النبيّ ﷺ يقرؤه ، فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجنّ ، وإنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه

(١) - انظر : " الرسول ﷺ " للشيخ سعيد حوى ص/٢٢/ ، وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه .

لطلاوة - أي بهجة - وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق ، وإنّهُ ليعلو ، ولا
يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر .

فقالت قريش : صبأ الوليد - أي خرج عن دينه - لتصبونّ قريش
كلّها ، وكان يقال للوليد : ريحانة قريش ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ،
فمضى إليه حزينا ، فقال له : ما لي أراك حزينا ؟ فقال له : وما لي لا
أحزن .! وهذه قريش ، يجمعون لك نفقة ، يعينونك بها على كبر سنّك ،
ويزعمون أنّك زينت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة ، وابن أبي
قحافة - يعني أبا بكر - لتنال من فضل طعامهما .

فغضب الوليد ، وتكبّر ، وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه ،
فأنتم تعرفون قدر مالي ، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم
ترزعمون أنّ محمداً مجنون ، فهل رأيتموه قطّ يخنق ؟ قالوا : لا والله ، قال :
وترزعمون أنّه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ ؟ قالوا : لا والله ، قال :
فترزعمون أنّه كذاب ، فهل جرّبتم عليه كذباً قطّ ؟ قالوا : لا والله ، قال :
فترزعمون أنّه كاهن ، فهل رأيتموه تكهّن قطّ ؟ قالوا : لا والله .

وكان النبي ﷺ يسمّى : الصادق الأمين ، من كثرة صدقه وعظم
أمانته ، فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكّر في نفسه ، ثم عبس ، فقال :
ما هو إلّا ساحر ! أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله ، وولده ومواليه ؟
فأنزل الله تعالى هذه الآيات في ذمّه ووعيده .

وشهادة أخرى من عتبة بن ربيعة : روي أنّ الملاء من قريش قالوا : قد
التبس علينا أمر محمد ، فلو التمسّم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ،
فكلّمه ثم أتانا ببيان أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة
والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى إن كان كذلك ، فقالوا :

ائته فحدثه ، فاتى النبي ﷺ فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصي بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلّ آبائنا ، وتسفّه أحلامنا ، وتذمّ ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة ، عقدنا إليك ألويتنا ، فكنت رئيساً ما بقيت ! وإن كنت تريد الباءة - يعني النكاح - زوجناك عشر نساء من أيّ بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال ، جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك - أي أولادك - من بعدك . وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجنّ ، قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به ، أو نغلب فيك .

والنبي ﷺ ساكت ، فلما فرغ قال : (قد فرغت يا أبا الوليد ؟) قال : نعم . قال : (فاسمع مني) قال : أفعل . فقال ﷺ : ﴿

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ (١) تَنْزِيلُ مِّنَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ (٢) كُتِبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ ﴿١٣﴾ فصلت . أي هلاكاً كهلاكهم ، فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبي ﷺ ، وناشده الله والرحم ليسكن .

ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فجاء أبو جهل فقال : أصبوت إلى محمد ؟ أم أعجبك طعامه ؟ فغضب عتبة ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً . ثم قال : والله لقد تعلمون آتي من أكثر قريش مالا ، ولكني لما قصصت عليه القصة ، أجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ، ولا كهانة ، ولا سحر ، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ ﴾

وَتَمُودَ ﴿١٣﴾ قال : فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكفّ ، وقد علمتم أنّ محمّداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب !

وفي رواية : أنّ النبي ﷺ قرأ : حم فصلت حتّى انتهى إلى السجدة فسجد ، وعتبة مصغ يستمع ، وقد اعتمد على يديه وراء ظهره . فلمّا قطع رسول الله ﷺ القراءة ، قال له : يا أبا الوليد ! لقد سمعت الذي قرأت عليك ، فأنت وذاك . فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها ، فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد ، بغير الوجه الذي مضى من عندكم ، ثم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمّد ، ما سمعت مثله قطّ ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، فأطيعوني في هذه ، وأنزلوها بي : خلّوا محمّداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب ، كفّتموه بأيدي غيركم ، وإن كان ملكاً أو نبياً ، كنتم أسعد الناس به ؛ لأنّ ملكه ملككم ، وشرفه شرفكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمّد يا أبا الوليد ! قال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ما شئتم .

فما كان رسول الله ﷺ طالب ملك ، ولا راغباً في مال ، ولا ناشداً جاهاً ، ولا سلطاناً ، وإنّما هو نبيّ يوحى إليه من ربّه ، ومبلّغ رسالة ، ومنشئ أمة ، ومنقذ البشريّة من التردّي في هوّة سحيقة ، وصانع تاريخ ، ومؤصل حضارة ، إنّها لشهادة حقّة ، لأنّها من عدوّ لا يؤمن بالقرآن ، وإنّما آمن بسلطان اللغة والبيان .

ومن شهادات بعض عظماء عصر النبي ﷺ : شهادة ملك عُمان وإسلامه ، فقد بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص ﷺ إلى الجُلندى ملك عُمان يدعوه إلى

الإسلام ، فعلم طرفاً من أخبار النبي ﷺ وسيرته الشريفة ثم أسلم ، وعندما سئل عن سبب إسلامه قال : " لقد دلّني على هذا النبي الأمي : أنّه لا يأمر بخير إلّا كان أوّل آخذ به ، ولا ينهى عن شرّ إلّا كان أوّل تارك له ، وأنّه يغلب فلا يطر ، ويُغلبُ فلا يُهجر - أي : لا يقول القبيح من الكلام - وأنّه يفي بالعهد ، ويُنجز الوعد ، وأشهد أنّه نبيّ " .

شهادة ثُمَامَةَ بْنِ أَثَالٍ بالحق وإسلامه : عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلاً قَبْلَ نَجْدٍ ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ ، يُقَالُ لَهُ : ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ ، سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ دَا دِمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدِ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ : قَالَ : مَا قُلْتُ لَكَ : إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ دَا دِمٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْعَدِ ، فَقَالَ : مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ : إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ دَا دِمٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَأَنْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاعْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ

أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ
بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ
أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتِمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ :
أَصَبَوْتَ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَسَلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ
مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " (١) .

شَهَادَةُ الْحَبْرِ الْيَهُودِيِّ زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ بِالْحَقِّ وَإِسْلَامِهِ : قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ ،
وَكَانَ حَبِيراً مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ : مَا مِنْ عِلَامَاتِ الثَّبُوءِ شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي
وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبِرْهُمَا مِنْهُ ، يَسْبِقُ جِلْمُهُ
جَهْلُهُ ، وَلَا تَزِيدُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا جِلْمًا ، فَكُنْتُ الْطُفُّ لَهُ لِأَنَّهُ أُخَالِطُهُ ،
فَأَعْرِفُ جِلْمَهُ مِنْ جَهْلِهِ .

قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الْحُجُرَاتِ ، وَمَعَهُ عَلِيُّ
بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ كَالْبُدَوِيِّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
إِنَّ بُصْرَى قَرْيَةَ بَنِي فُلَانٍ قَدْ أَسْلَمُوا ، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ :
إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَدًا ، وَقَدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وَشِدَّةٌ وَقُحُوطٌ مِنَ الْعَيْثِ ،
فَأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعًا ،
فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بَشِيرًا تُعِينُهُمْ بِهِ فَعَلْتَ .

فَنَظَرَ إِلَى رَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ أَرَاهُ عَلِيًّا ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا بَقِيَ
مِنْهُ شَيْءٌ .

(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٢٤/ ، ومسلم وهذا لفظه في كتاب الجهاد
والسير برقم /٣٣١٠/ .

قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا مُحَمَّدُ ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبْعِنِي
 ثَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلَانٍ إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا ؟
 فَقَالَ : لَا يَا يَهُودِيَّ ، وَلَكِنِّي أَبِيعُكَ ثَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا ،
 وَلَا تُسَمِّي حَائِطَ بَنِي فُلَانٍ ، قُلْتُ : بَلَى ، فَبَايَعَنِي فَأَطْلَقْتُ هِمْيَانِي ، فَأَعْطَيْتُهُ
 ثَمَانِينَ مِثْقَالًا مِنْ ذَهَبٍ فِي ثَمَرٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا ، فَأَعْطَاهَا الرَّجُلُ ،
 فَقَالَ : اغْدُ عَلَيْهِمْ فَأَعْنَهُمْ بِهَا .

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الْأَجَلِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ ، أَتَيْتُهُ
 فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرَدَّائِهِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِ غَلِيظٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَلَا
 تَقْضِيَنِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي ؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِمَطْلٍ ، وَلَقَدْ كَانَ
 لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ ، وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ ، وَإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ
 كَالْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرِ ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 مَا أَسْمَعُ ، وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَى ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَازِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ
 بِسَيْفِي رَأْسَكَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ .

ثُمَّ قَالَ : يَا عُمَرُ ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ
 الْأَدَاءِ ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ وَأَعْطِهِ حَقَّهُ ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ
 صَاعًا مِنْ ثَمَرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتُهُ .

قَالَ زَيْدٌ : فَذَهَبَ بِي عُمَرُ ﷺ ، فَأَعْطَانِي حَقِّي ، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا
 مِنْ ثَمَرٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ ؟ فَقَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ
 أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتُكَ .

قُلْتُ : وَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ ؟ قَالَ : لَا ، مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : أَنَا زَيْدُ بْنُ
 سَعْنَةَ ، قَالَ : الْحَبْرُ ، قُلْتُ : الْحَبْرُ ، قَالَ : فَمَا دَعَاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 مَا فَعَلْتَ ، وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ ؟

قُلْتُ : يَا عُمَرُ ، لَمْ تَكُنْ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا اِثْنَيْنِ لَمْ أَخْبِرْهُمَا مِنْهُ ، يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ ،
وَلَا يَزِيدُهُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا ، فَقَدْ أَخْبِرْتُهُمَا ، فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ
رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ، وَأَشْهَدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي ،
وَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا صَدَقَةً عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ ، فَإِنَّكَ لَا تَسْعُهُمْ . قُلْتُ : أَوْ عَلَى
بَعْضِهِمْ ، فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ زَيْدٌ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ " (١) ..

وَأَمَّنْ زَيْدٌ ﷺ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَصَدَقَهُ وَبَايَعَهُ ، وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةٍ ، ثُمَّ
تَوَفَّى فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ﷺ وَأَجْزَلَ مَثُوبَةٍ .

وَمِنْ أَرْوَعِ الشَّهَادَاتِ الْمَعَاصِرَةِ لِلْعَهْدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ : شَهَادَةُ النَّجَاشِيِّ ،
وَاتِّبَاعُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَإِسْلَامُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عَلَى يَدَيْهِ :

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : " لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ ،
أَمِنًا عَلَى دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى ، لَا نُؤْذِي ، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ ، فَلَمَّا
بَلَغَ ذَلِكَ قَرِيشًا ، ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ ، وَأَنْ
يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ
مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا ، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا

(١) - قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، وروى ابن ماجة بعضه ،
وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وأبو الشيخ في كتاب أخلاق النبي ﷺ ، وأبو
نعيم في دلائل النبوة ، وغيرهم ، وانظر الإصابة ١/ ٥٦٦ ، وحياة الصحابة ١/ ١٤٨ .

أَهْدُوا لَهُ هَدِيَّةً ، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ ، وَعَمَرُو بْنَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ ، وَقَالُوا لَهُمَا : ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بَطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ، ثُمَّ قَدَّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ، ثُمَّ سَلَوْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ .

قَالَتْ : فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَخَيْرِ جَارٍ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ، ثُمَّ قَالَ لِكُلِّ بَطْرِيقٍ مِنْهُمْ : إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ ، لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَلَّمَنَا الْمَلِكُ فِيهِمْ ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا ، وَلَا يُكَلِّمَهُمْ ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ .

فَقَالُوا لَهُمَا : نَعَمْ ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ ، فَقِيلَ لَهَا مِنْهُمَا ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : " أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ ، لِنَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ .

قَالَتْ : وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ وَعَمَرُو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ .

فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ : صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَاسْلِمَهُمْ إِلَيْهِمَا ، فَلْيَرُدَّانِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ .

قَالَ : فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ، ثُمَّ قَالَ : لَا هَآئِمُ اللَّهُ ، إِذَا لَا أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا - وَلَا أَكَادُ - قَوْمًا جَاوَرُونِي ، وَنَزَلُوا بِلَادِي ، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ ، حَتَّى أَدْعُوهُمْ ، فَأَسْأَلُهُمْ مَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا ، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي .

قَالَتْ : ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاَهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا ، وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِينَا ﷺ كَآئِنْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَآئِنْ . فَلَمَّا جَاءُوهُ ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ لِيَسْأَلَهُمْ ، فَقَالَ : مَا هَذَا الدِّينُ ، الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ ؟

قَالَتْ : فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسَيِّئُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُ الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - قَالَ : فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ ، وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَحَرَّمْنَا مَا

حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَدَّيُونَا ، فَفَتَّشُونَا عَنْ دِينِنَا ، لِيُرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، وَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا ، وَشَقُّوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكْ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ^(١) .

قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟
 قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : فَأَقْرَأْهُ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ : ﴿ كَهَيْعَتِ ١ ﴾ مريم ، قَالَتْ : فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ : إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجُ مِنْ مِشْكَائِهِ وَاحِدَةً ، انْطَلِقَا ، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا ، وَلَا أَكَادُ .
 قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : وَاللَّهِ لَا يَبِيتُهُ غَدًا بِنَا أَعْيَبُهُمْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضِرَاءَهُمْ .
 قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتَقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا - : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .

قَالَ : وَاللَّهِ لَا خَيْرَ لَهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَبْدٌ .

(١) - ما أروع هذا البيان من جعفر عليه السلام ، وما أجمعه . ! إنه بيان بأعلى درجات اللغة " الدبلوماسية " باصطلاح العصر ؛ فقد جمع الحقائق وأوجز ، وقدم الحجّة وتلطّف ، وكان مترفعاً في عرض الخصومة مع قومه ، راقياً في لغته وأسلوبه ، سامياً في بيانه ، مادحاً للملك بما هو فيه ، غير مسرف في مدحه ، ولا مقصر في ثنائه .

قَالَتْ : ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ ، فَسَلِّمْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ .
 قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ ، قَالَتْ : وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ ، كَأَنَّا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ ^(١) .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ : مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟
 فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام : نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ .
 قَالَتْ : فَضْرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ، ثُمَّ قَالَ : مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ ، فَنَخَرْتَ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ، فَقَالَ : وَإِنْ نَخَرْتُمْ ، وَاللَّهِ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ الْأَمْنُونَ - مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ ، فَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي ذَبْرٌ ذَهَبٍ ، وَأَنْتِي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ - وَالذَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ - رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَذَايَاهُمَا ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِمَا ، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي ، فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ، وَمَا أَطَاعَ فِيَّ النَّاسُ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ .

قَالَتْ : فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ ، مَرْدُودَا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَ بِهِ ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ .

قَالَتْ : فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ نَزَلَ بِهِ يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ ، قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنَ قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِ حَزْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ

(١) - إنه الثبات على الحق مهما كلف من ثمن .. ويمثل هذا فليكن حوارنا مع المحاورين في الأديان .

ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقَّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ .

قَالَتْ : وَسَارَ النَّجَاشِيُّ ، وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النَّيْلِ ، قَالَ : فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ ، ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ ؟ قَالَتْ : فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ : أَنَا ، قَالَتْ : وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًا قَالَتْ : فَتَمَخَّوْا لَهُ قَرَبَةً ، فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ، ثُمَّ سَبَّحَ عَلَيْهَا ، حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ ، الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ ، قَالَتْ : وَدَعَوْنَا اللَّهَ تَعَالَى لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَالتَّمَكُّنِ لَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَاسْتَوْتَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرٍ مَنَزِلٍ ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ بِمَكَّةَ " (١) .

وَلَمْ يَقِفْ أَمْرُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، فَقَدْ كَانَ لَهُ خَبَرٌ آخَرُ مَعَ النَّجَاشِيِّ بَعْدَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ : فَقَدْ رُوِيَ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ قَالَ : حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ مِنْ فِيهِ قَالَ : لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ عَنِ الْخَنْدَقِ ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانُوا يَزُونَ مَكَانِي ، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي ، فَقُلْتُ لَهُمْ : تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عَلُوًّا كَبِيرًا مُنْكَرًا ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ ؟ قَالُوا : وَمَا رَأَيْتَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَنَّ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَتَكُونَ عِنْدَهُ ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا ، فَتَنَحْنُ مَنْ قَدْ عُرِفَ ، فَلَنْ يَأْتِينَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ ، فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ ، قَالَ : فَقُلْتُ لَهُمْ : فَاجْمَعُوا لَهُ مَا تُهْدِي لَهُ ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا

(١) - رواه أحمد في المسند / ٢١٤٦٠ / .

الْأَدَمُ ، فَجَمَعْنَا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا ، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيِّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ ، قَالَ : فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيِّ ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ ، فَأَعْطَانِيهِ فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجَزْتُ عَنْهَا ، حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ .

قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِصَدِيقِي ، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ! أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أَدَمًا كَثِيرًا ، قَالَ : ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ .

ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٌّ لَنَا ، فَأَعْطَيْنِيهِ لَأَقْتُلَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا .

قَالَ : فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ ، فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ، ظَنَنْتُ أَنَّ قَدْ كَسَرَهُ ، فَلَوْ انشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ .

ثُمَّ قُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَاللَّهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ الثَّامُوسُ الْأَكْبَرُ ، الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِيَتَفَتَّلَهُ ؟

قَالَ : قُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ! أَكْذَاكَ هُوَ ؟ فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا عَمْرُو أَطِيعْنِي وَاتَّبِعْهُ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الْحَقِّ ، وَلَيُظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ .

قَالَ : قُلْتُ : فَبَايَعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، قَالَ : نَعَمْ ، فَبَسَطَ يَدَهُ ، وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي ، وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .

وَكُنْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي ، ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَسْلِمَ ، فَلَقِيْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَقَامَ الْمَنْسِمُ ^(١) ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٍّ ، أَذْهَبُ وَاللَّهُ أَسْلِمُ ، فَحَتَّى مَتَى ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَاللَّهِ مَا جِئْتُ إِلَّا لِأَسْلِمَ .

قَالَ : فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ ، ثُمَّ دَنَوْتُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي أَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي ، وَلَا أَذْكَرُ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (يَا عَمْرُو بَايِعْ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا) ، قَالَ : فَبَايَعْتُهُ ، ثُمَّ انصرفت .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَنَّهُمْ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ كَانَ مَعَهُمَا ، أَسْلَمَ حِينَ أَسْلَمَا " ^(٢) .

ومن أعظم شهادات المنصفين شهادة أبي سفيان بن حربٍ عند هِرْقَلٍ قبل أن يسلم ، وكذلك شهادة هِرْقَلٍ بالنبي ﷺ ودينه :

عَنِ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعودٍ أَنَّ عبد الله بن عباسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ ، فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَقُلْتُ : أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا .

(١) - المنسم : الطريق ، يقال : قد استبان المنسم ، وأين منسمك : متوجهك ومذهبك .

(٢) - رواه الإمام أحمد في المسند برقم / ١٧١٠٩ .

فَقَالَ : أَذْنُوهُ مِنِّي ، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِرَجُلَيْهِ : قُلْ لَهُمْ : إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَّبَنِي ، فَكَذِّبُوهُ ، فَوَاللَّهِ لَوْ لَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ : كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ ؟

قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ .

قَالَ : فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ : لَا .

قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ قُلْتُ : لَا .

قَالَ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ .

قَالَ : أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ : بَلْ يَزِيدُونَ .

قَالَ : فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قُلْتُ : لَا .

قَالَ : فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : لَا .

قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ : لَا ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ

فِيهَا ، قَالَ : وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ .

قَالَ : فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ .

قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ : الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِحَالٌ ، يَنَالُ

مِنَّا ، وَنَنَالُ مِنْهُ .

قَالَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ : يَقُولُ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئًا ، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ

وَالصَّلَاةِ .

فَقَالَ لِلرَّجُلَيْنِ : قُلْ لَهُ : سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فَيْكُمْ ذُو

نَسَبٍ ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا .

وَسَأَلْتُكَ : هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ

كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ ، لَقُلْتُ : رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلٍ قَبْلَ قَبْلِهِ .

وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، قُلْتُ : فَلَوْ
كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ، قُلْتُ : رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ .

وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ
لَا ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ .

وَسَأَلْتُكَ : أَشَرَفُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ
اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ .

وَسَأَلْتُكَ : أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ
الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ .

وَسَأَلْتُكَ : أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ،
وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ .

وَسَأَلْتُكَ : هَلْ يَعْدِرُ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَعْدِرُ .

وَسَأَلْتُكَ : بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَلَا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَأَكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ
وَالْعَفَافِ ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَقَدْ كُنْتُ
أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ
لَتَحَشَّمْتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ ، الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةَ إِلَى عَظِيمِ بَصْرَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرْقَلٍ ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا
فِيهِ : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ
الرُّومِ . سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدُعَايَةِ الْإِسْلَامِ ،
أَسْلِمَ تَسْلِمًا ، يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ ،
وَ : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ،
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا : أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وَفَرَعَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَأُخْرِجْنَا ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا : لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ .

وَفِي رَوَايَةٍ : قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ ، وَكَثُرَ لَعَطُهُمْ ، فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا ؟ . وَأَمْرُ بَنِي فَأُخْرِجْنَا ، فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي ، وَخَلَوْتُ بِهِمْ قُلْتُ لَهُمْ : لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : وَاللَّهِ مَا زِلْتُ ذَلِيلًا مُسْتَقِينًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبِي الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهِ .

وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِبِلِيَاءَ وَهَرَقْلَ سَقْفًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ ، يُحَدِّثُ أَنَّ هَرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِبِلِيَاءَ ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ : قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ .

قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ : وَكَانَ هَرَقْلُ حَزَاءً ، يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ : إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ قَالُوا : لَيْسَ يَخْتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ ، فَلَا يُهَمِّنُكَ شَأْنُهُمْ ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ ، أَتَى هَرَقْلَ بَرَجُلٍ ، أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا اسْتَحْبَرَهُ هَرَقْلُ قَالَ : اذْهَبُوا ، فَانْظُرُوا أُمُحَّتَيْنِ هُوَ أَمْ لَا ؟ فَانْظُرُوا إِلَيْهِ ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ ، فَقَالَ : هُمْ يَخْتِنُونَ ، فَقَالَ هَرَقْلُ : هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ، ثُمَّ كَتَبَ هَرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةَ ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ ، وَسَارَ هَرَقْلُ إِلَى حِمَصَ ، فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ ، حَتَّى أَتَاهُ كِتَابُ

مِنْ صَاحِبِهِ ، يُوَافِقُ رَأْيَ هِرْقُلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَذِنَ هِرْقُلُ
لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةٍ لَهُ بِحِمَصَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ :
يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ ، وَأَنْ يَثْبِتَ مُلْكُكُمْ ، فَتُبَايَعُوا
هَذَا النَّبِيَّ ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ،
فَلَمَّا رَأَى هِرْقُلُ نَفَرَتَهُمْ ، وَأَيْسَرَ مِنَ الْإِيمَانِ ، قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إِنِّي
قُلْتُ مَقَالَتِي آتِفًا ، أختبرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ، فَسَجَدُوا لَهُ ،
وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرْقُلَ (١) .

* وشهادة أخرى من أبي سفيان : وكان أبو سفيان بن حرب في أشدِّ
العداوة للنبي ﷺ عندما بلغه أنَّ النبي ﷺ قد تزوج ابنته السيِّدة أمَّ حَبِيْبَةَ رضي
الله عنها ، وهي في الحبشة فقال : " هذا الفحل لا يُقدِّعُ أنفه " .

* وشهادة ثالثة من أبي سفيان :

ولما أخرج المشركون زيد بن الدثنة ﷺ ، من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو
سفيان بن حرب ، وكان على الشرك : أنشدك الله يا زيد . ! أحبَّ أن محمدًا
الآن عندنا نضرب عنقه ، وأنتك في أهلك ؟ فقال زيد : " والله ما أحبُّ أن
محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وأني جالس في أهلي " .

فقال أبو سفيان : " ما رأيتُ أحدًا من الناس يحبُّ أحدًا كحبِّ أصحاب
محمدٍ محمدًا " .

(١) - رواه البخاري في صحيحه ٦/ وفي كتاب الجهاد والسير برقم ٢٧٢٣/ وفي كتاب
تفسير القرآن برقم ٤١٨٨/ .

* وشهادة أخرى منه رابعة بعد إسلامه : وبعد غزوة حنين ، فقد أعطى

النبي ﷺ أبا سفيان مئة بعير ، وأربعين أوقية ، وأعطى ابنه يزيد ومعاوية ، فدهش أبو سفيان من هذا العطاء النبوي ، والجود والسماحة ، فقال : " يا رَسُولَ اللَّهِ ، والله إنك لكريم ! فذاك أبي وأمّي ! والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت ! ولقد سالمتك ، فنعم المسالم أنت ! جزاك الله خيراً " .

* وللمقوقس عظيم القبط شهادة :

ومن المعلوم في السيرة العطرة أنّ النبي ﷺ أرسل إلى المقوقس عظيم القبط ، يدعوّه إلى الإسلام ، فردّ على النبي ﷺ ردّاً جميلاً ، وأرسل له بهديّة ، ومعها جارية اسمها : مارية ، وهي أمّ ولد النبي ﷺ إبراهيم .. ولكنّ ما لا يعلمه كثير من الناس أنّ للمقوقس موقفاً من النبي ﷺ ، وشهادة حقّ ، وذلك في العام الثامن من الهجرة ، بعد فتح مكّة وغزوة حنين ، وأثناء حصار النبي ﷺ للطائف ، إذ بعثت ثقيف ، وهي محاصرة بوفد إلى المقوقس ، فدخلوا عليه في عاصمته الإسكندرية ، فبادرهم المقوقس بقوله : كيف خلصتم إليّ ، ومحمّد وأصحابه بيّني وبينكم ؟ فقالوا له : كيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟ قالوا : ما تبعه منّا رجل واحد . قال : فكيف صنع قومه ؟ قالوا : تبعه أحداثهم ، وقد لاقاه من خالفه في مواطن كثيرة .

قال : وإلى ماذا يدعو ؟ قالوا : إلى أن نعبد الله وحده ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعوننا إلى الصلاة والزكاة ، ويأمرنا بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والربا والخمر .

فقال المقوقس : هذا نبيّ مرسل إلى الناس كافّة ، ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى ، وهذا الذي تصفونه منه بعث به الأنبياء من قبله ، وستكون له العاقبة ، حتّى لا يتارعه أحد ، ويظهر دينه إلى منتهى الخفّ والحافر .

فقالوا له : لو دخل الناس كلهم معه ، ما دخلنا معه .
فقال المقوقس : أنتم وما تحبون .! ماذا فعلت يهود يثرب ؟
قالوا : هم قوم أولو حسد .! فقال لهم : أما إنهم يعرفون من أمره
مثل ما نعرف " (١) .

* شهادة عروة بن مسعود الثقفي يوم الحديبية قبل إسلامه :
وقد مرّ بنا أنّ عروة بن مسعود الثقفي قال لأصحابه من المشركين ،
بعدما رجع من مفاوضة النبي ﷺ عند الحديبية :

" أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشي ،
والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً ، والله إن تنخم
نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا
أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ،
وما يحذون إليه النظر تعظيماً له " .



(١) - انظر : " الإصابة في تراجم الصحابة " ٣/ ٥٣١ .

الفصل الثاني

من شهادات المنصفين في العهد النالفة

من شهادات المنصفين الغربفة بفالإسلام وبرسول الله ﷺ

إنّ من أقوى ما عرف الناس من الإنصاف لرسول الله ﷺ ما جاء من اعتبار النبف ﷺ الأوّل فف المفة الأوائل ، على مستوى التاريخ الإنسانف كلّه : فقد أّلف الدكتور " ماكل هارت " كتاباً نشره فف الولايات المتحدة الأمريكية عنوانه : " المفة الأوائل " ، وقد أثار هذا الكتاب فف ففنه ضجة كبيرة هناك ما لبثت أن انتقلت إلى أنحاء عديدة فف العالم ، لكون المؤلف ، وهو ففر مسلم قدّم محمداً ﷺ على ففره من أبرز شخصفّات الدنيا ، وعلمائها وفلاسفتها ، وأبطالها ومصلفّفها ، وأصحاب الفكر ففها فف التاريخ القديم والحفث ، وجعله أوّل المفة الأوائل .

والمؤلف حاصل على عدة شهادات علمفة عالية ، فف الرفاصفّات والعلوم والقانون والفلك ، وقد عمل فف مراكز أبحاث الفضاء والفزفاء التطبيقفة ، وفف مراصد الأفلاك .

وقد ذكر المؤلف فف كتابه الذي ترجم إلى اللغة العربفة أنّه بذل ففهاً جباراً فف قراءة تاريخ العالم وحضارته بكلّ وفوها ، وأطلع على ففاة وتراجم عشرات الآلاف من الشخصفّات ، الفف أثّرت فف ففاة الأمم والشعوب القديمة والحففة ، ثمّ فرز هذه الأسماء والشخصفّات ، وظلّ ففطففها ففختار الأفضل منها ، حتّى حصرها فف مئة شخصفة عالمفة ، ثمّ ربّب هذه المئة وفق معافر

وضوابط : موضوعية ، إنسانية ، حضارية حسب اجتهاده ، فكان أول هذه المئة هو محمد بن عبد الله ﷺ .

وبرر المؤلف اختياره لمحمد ﷺ ، وجعله أول الأوائل بكونه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح وأعظمه على المستويين الديني والديني . فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدينية وأتمها ، وآمنت به شعوب بأسرها ، ونشر ديناً عالمياً ، وأقام دولة بنفسه .. في حين أنّ غيره من الأنبياء والمصلحين لم يفعلوا ذلك ، بل إنه وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وحد القبائل في شعب ، والشعوب في أمة من خلال الأسس الدينية ، والتعاليم الدينية والأخلاقية والحضارية ، التي جاء بها . فكانت بداية الانطلاق الإنساني والحضاري في ذلك العصر ، وفي العصور اللاحقة " .

وأضاف : " إنّ معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية أو المدن الرئيسية المشهورة في العالم القديم ، لكنّ محمداً هو الوحيد الذي نشأ في بلاد صحراوية جرداء ، لا تملك ما هو معروف من مقومات الحضارة والتقدم ، ولذلك استحقّ أن يكون أول المئة الأوائل (١) .

ويقول " إيتين دينه " : " إنّ الكتابات في أوربة عن النبي ﷺ ودينه ، وشرعه ، والملة الإسلامية بحر لا ساحل له ، وفيها الغث والسمين ، والحالي والعاطل ، والحقّ والباطل ، ومن مؤلفيها الحبّ والقال ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح ، كما هو الشأن في كلّ أمر ، ولكنّ العصر الأخير في أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس إلى الأعصر التي سبقت ، كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبل أنموذجات ، ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم ، وتعلّموا من الأوربيين روح " التضحية " كما يقال ، ونشروا

(١) - انظر : مجلة الأدب الإسلامي العدد ٥١ / ص ٤٤ / وما بعد .

للإسلام دعاية منظّمة ، وأنفقوا عليها عن سعة لأمكنهم أن يصحّحوا أباطيل كثيرة ، ويبدّدوا أوهاماً كثيفة ، تتعلّق بهم وبدِينهم وبنبيّهم ، ولاهتدى في أوربة إلى الإسلام خلق كثير ، أثّروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العامّة .

ولكنّنا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ، ولا يزال أعداء الإسلام يناصبونه القتال في كلّ سهلٍ وجبل ، وفي كلّ برٍّ وبحر ، ولا تبرح مكافحة الإسلام لهم هي في نسبة الخردل إلى الجنّ ، فمتى ينشط الإسلام من عقّاله ، ويستأنف همّته الأولى ؟ هذا ما لا يجاوب عليه إلّا المستقبل " (١) .

ويقول الأديب والمفكّر الروسيّ المشهور " تولستوي " : " عليّ أن أقول بأنّي واثقٌ جداً بأنّ الإسلام يبدو متفوقاً على الدين المسيحيّ ، الذي تقدّمه الكنيسة بدرجة لا يمكن قياسها ، ولو وضع أمام أيّ شخص حريّة الاختيار بين الدين الإسلاميّ ومسيحيّة الكنيسة لكان على كلّ شخص عاقل اختيار الدين الإسلاميّ ، الذي له إله واحد ، ونبيّ واحد ، وليس اختيار الدين المسيحيّ بثالوته الغامض على الفهم والإدراك ، وعراسيمه في غفران الذنوب ، وبشعائره الدينيّة ، وبتوسّلاته لأّمّ المسيح ، وعبادة صور القديسين العديدين " .

ويقول أيضاً : " لقدّ ظهر لديّ بأنّ محمّداً كان يسمو على المسيحيّة في كلّ وقت .. إنّه لم يعدّ الإنسان إلهاً ، ولم يعادل بينه وبين الله ، يقول المسلمون : " لا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله " ، لا نجد هنا معضلة ، ولا سرّاً غامضاً " (٢) .

(١) - نقلاً عن تعليقات شكيب أرسلان على كتاب : " حاضر العالم الإسلاميّ ١/٣٦ .

(٢) - انظر : " مجلّة المجتمع " العدد/١٧١٣ رجب ١٤٢٧ هـ ص/٣٩ .

وقد ألقى توماس كارلايل كبير المفكرين الناشرين الإنجليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في جامعة لندن سبع محاضرات من بينها محاضرة بعنوان : " البطل في صورة مُحَمَّد رسول الإسلام " تحدّث فيها عن رسول الله ﷺ على نحو لم يسبقه إليه كاتب أو مفكر غربي . وللمرّة الأولى في تاريخ الفكر الغربي يرى الناس محمّداً بن عبد الله ﷺ كما ينبغي أن يروه ..

وقد دحض افتراءات المتعصّبين على الإسلام ، وعلى الرسول ﷺ حول قضايا متعدّدة ، ودافع عن صدق الرسول ﷺ في دعوته ، وعن سموّه في حياته ، وعن انتشار الإسلام .

فيقول في ردّه على اتّهام الرسول ﷺ بطلب الشهرة والسلطان : ويزعم المتعصّبون من النصارى والملحدون ، أنّ محمّداً لم يكن يريد بقيامه إلّا الشهرة الشخصية ومظاهر الجاه والسلطان ، كلاًّ وإيم الله ! لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير ، ابن القفار والفلوات ، المتوقّد المقتلين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبرّاً وحكمة .. أفكار غير الطمع الدنيويّ ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف لا وتلك نفس صامّة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلّا أن يكونوا مخلصين جادّين ..

ويعبّر توماس كارلايل عن حبّه لمحمّد ﷺ معلّلاً ذلك بالشمائل الخلقيّة العالية التي يتمتّع بها الرسول ﷺ فيقول : " وإني لأحبّ محمّداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنّع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقلّ الرأي ، لا يعوّل إلّا على نفسه ، ولا يدّعي ما ليس فيه ، ولم يك متكبّراً ، ولكنّه لم يكن ذليلاً ضائعاً ، فهو قائم في ثوبه المرقّع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة .

ويقول " مستر كارلايل " ، وهو أحد مشاهير فلاسفة القرن التاسع عشر ، وأشهر فيلسوف من القارة الأمريكية : " لقد جاء الإسلام على تلك العلل الكاذبة ، والنحل الباطلة فابتلعها ، وحقّ له أن يبتلعها ، لأنّه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، وما كاد يظهر الإسلام حتّى احترقت فيه وثنيّات العرب ، وجدليّات النصرانيّة ، وكلّ ما لم يكن بحقّ ، فإنّها حطب ميّت أكلته نار الإسلام فذهب ، والنار لم تذهب .! " .

ويقول عن الرسول ﷺ : " هو الرجل العظيم ، الذي علّمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كلّ شيء .. " .

ويقول أيضاً : " إن كنت في ريب من حقائق الإسلام فالأولى بك أن ترتاب في البدهيّات والضروريّات القطعيّة ، لأنّ الإسلام من أبده الحقائق ، وأشدّها ضرورةً " . وهكذا يسجّل توماس كارلايل صفحة ناصعة عن الرسول ﷺ بقلم الإنصاف .

وقد أصاب غوته أمير شعراء ألمانيا العالم بالدهشة عندما كتب في إعلانه عن صدور ديوانه الشهير : " الديوان الشرقيّ للشاعر الغربيّ " أنّه لا يكره أن يقال عنه مسلم ، فقد نظم وهو في سنّ الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالرسول ﷺ ، وعندما بلغ السبعين من عمره أعلن أنّه سيحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدّسة ، التي أنزل فيها القرآن على النبيّ ﷺ ، ويرجع احتفاء غوته بالإسلام إلى تطابق أفكاره معه .

وقد حظي القرآن الكريم بتقدير كبير لدى هذا الشاعر ، لذا يقول : " إنّ أسلوب القرآن الكريم محكم سامٍ ، مثير للدهشة ، وفي مواضيع عديدة يبلغ قمّة السموّ حقاً " .

وقام غوته بتأليف قصيدة المديح الشهيرة المسماة : " نشيد محمد " عبّر فيها عن مدى حبه للرسول ﷺ ، وتصور القصيدة النبي ﷺ بصفته هادياً للبشر ، في صورة نهر يبدأ بالتدفق رقيقاً هادئاً ، ثم لا يلبث أن يتحول في عنفوانه إلى سيل عارم ، مما يصور تعظم قوة الرسول ﷺ الروحية .. وسيظل غوته عنواناً للتسامح والرؤية الثاقبة للإسلام والرسول ﷺ ، ويكفي أنه قال في ديوانه الشرقيّ : " وإذا كان الإسلام معناه السلام فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين " .

وكان بوشكين في طليعة الشعراء الروس الذين استلهموا السيرة النبوية في قصائده ، مثل قصيدة : " قبسات من الرسول " ، وهي تتناول المرحلة المبكرة من النبوة وتحدث عن تأملات الرسول ﷺ في الكون والبحث عن حقيقة الوجود .

وترى في قصائد : " قبسات من القرآن " المكانة الأكيّدة التي أحدثها القرآن في التطوّر الروحي لبوشكين ، ويستهلّ القصيدة الأولى باقتباس عدد من الآيات ، وقد استحوذت معاني القرآن على اهتمام تولستوي ، كما حظيت أحاديث الرسول ﷺ بحبه وعنايته ، نظراً لوجود تطابق مع أفكاره ، وأقبل على التعريف بالإسلام في مقدّمة لدراسة كتبها شقيقة زوجته ، ثم نشر كتيباً بعنوان : " حكم النبي محمد " وفيها جمع الأحاديث التي تتعلّق بالسعي لطلب الحلال ، والسعي للرزق والعمل ، ومما قاله في النبي ﷺ : " ومّا لا ريب فيه أنّ النبي محمّداً من أعظم الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنّه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها ترحل للسكينة والسلام ، وتفضّل عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء ، وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلاّ شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام .

ويقول الأمير بسمارك ، وهو من أشهر رجال الفكر والفلسفة في تاريخ أوروبا الحديث : " لقد درست الكتب السماوية بإمعان ، فلم أجد فيها الحكمة الحقيقية ، التي تكفل سعادة البشرية ، وذلك للتحريف الذي حصل فيها ، ولكنني وجدت قرآن محمد ﷺ يعلو على سائر الكتب .. وقد وجدت في كل كلمة منه حكمة ، وليس هناك كتاب يحقق سعادة البشرية مثله ، ولا يمكن أن يكون كتاب كهذا من كلام البشر ، فالذين يدعون أن هذه أقوال محمد ﷺ يكابرون الحق ، وينكرون الضروريات العلمية ، أي أن كون القرآن كلام الله أمر بديهي "

ويقول " كارليل " في بيان حال العرب ، ومدى تأثير النبي ﷺ فيهم : " هم قوم يضربون في الصحراء ، لا يؤبه لهم عدّة قرون ، فلمّا جاءهم النبي العربيّ أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان ، وكثروا بعد القلّة ، وعزّوا بعد الذلّة ، ولم يمض قرن حتّى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم " (١) .

قال غروسه صاحب كتاب : " مدنيّة الشرق " : " كان محمدٌ لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً ، ملأه حماسة لكلّ قضية شريفة ، وكان أرفع جدّاً من الوسط الذي كان يعيش فيه ، وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنيّة وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنيّة ، إلى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفنون في الفوضى ، وقتال بعضهم بعضاً ، فأراد أن يؤسّس لهم حكومة ديمقراطية موحّدة ، وكانت لهم عادات وأوايد وحشيّة ، تقرب من الهمجيّة ، فأراد أن يلطّف أخلاقهم ، ويهدّب من خشونتهم " .

(١) - نقلاً عن كتاب : " الرسول المعلم وأساليبه في التعليم ص/١١/ للشيخ عبدالفتاح أبو غدة .

ويقول الأستاذ : " مونتة " أستاذ اللغات الشرقيّة في جامعة جنيف في كتابه : " مُحمّد والقرآن " ما يلي : " أمّا مُحمّد فكان كريم الأخلاق ، حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم ، صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحّة الحكم ، وصراحة اللفظ ، والاقتناع التامّ بما يعمل به ويقول . "

ويقول أيضاً في كتابه المذكور : " إنّ طبيعة مُحمّد الدينيّة تدهش كلّ باحثٍ مدقّق نزيه المقصد ، بما تتجلّى فيها من شدّة الإخلاص ، فقد كان مُحمّد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يَقم إلاّ بعد أن تأمل كثيراً ، وبلغ سنّ الكمال بهاتيكَ الدعوة ، التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانيّة في الدين ، وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة ، التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبيّ من أنبياء بني إسرائيل ، الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم .. ولقد جهل كثير من الناس مُحمّداً ، وبخسوه حقّه ، وذلك لأنّه من المصلحين النادرين ، الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها " (١) .

وقال أيضاً : " إنّ الديانة الإسلاميّة كعقيدة توحيد ، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الأخرى ، إلاّ أنّ ظهورها في جزيرة العرب بروح عربيّة عالية ، جعل لها طابعاً جديداً باهراً ، وقد سمّاها مُحمّد " الإسلام " ، إشارة إلى تمام الانقياد لإرادة الباري تعالى ، وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحيّة ، إلاّ أنّ عقيدة هذا الانقياد لإرادة الله تتجلّى من القرآن بقوة لا تعرفها النصرانيّة " .

(١) - أين يقع المصلحون الكبار من أنبياء بني إسرائيل ، وأكبرهم موسى عليه السلام من دعوة رسول الله ﷺ وثمرات جهاده ؟! وواضح أنّ المؤلف يجهل كثيراً من سيرة النبي ﷺ وجهاده ، ولكنّ كلامه يحمل روح الإنصاف واحترام العقل .

" ولقد منع القرآن وأد البنات والخمر والميسر ، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناهٍ في الخلق ، بحيث ينبغي أن يعدَّ مُحَمَّدٌ في صفِّ أعظم المحسنين للبشريَّة " .

ثمَّ ذكر " مومته " أركان الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحجّ ، وقال : إنّ حكمة الصلاة خمس مرّات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة ، ليكون دائماً بعيداً عن الشرّ ، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم ، وزيادة القوّة الروحيّة في الإنسان ، وحكمة الحجّ هي توطيد الإخاء بين المؤمنين ، وتمكين الوحدة العربيّة .. (١) . فهذا هو البناء العظيم ، الذي وضع مُحَمَّدٌ أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتاً بإزاء عواصف الدهور الدهارير ! " .

ويعلق الأستاذ شكيب أرسلان على كلام الأستاذ " مومته " : " ولا يزال الأستاذ مومته حيّاً يرزق ، وهو من علماء جنيف ، ومن كبار أساتيد جامعتها ، ومن أكابر المستشرقين ، وله ترجمة بديعة للقرآن " .

ويقول الأستاذ شكيب أرسلان أيضاً : " ومن ألطف الكتب في السيرة النبويّة كتاب للمسيو " إيتان دينه " الإفرنسيّ الذي أسلم وحجّ ، وألّف كتاباً عن حجّته إلى البيت الحرام ، وهو من أبدع ما كتب في هذا العصر ، كما أنّ كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقلّ عن كتابه في الحجّ ، في سلاسة عبارته ، ودقّة معانيه ، وقوّة حجّته ، مع التزام خطّة الاعتدال ، والجدال بالتي هي أحسن .

ومن بدائع تأليف " دينه " كتابه في الردّ على " لامنس " ؟! اليسوعيّ ، ومؤلفين آخرين ، ممّن تنقّصوا الإسلام ، والرسول ﷺ ، وهو المسمّى : " إنك لفي وادٍ ، وإنا لفي وادٍ " .

(١) - الأولى أن يقول : الوحدة الإنسانيّة .

ويقول الأستاذ شكيب أرسلان : " وأما " غودفروا دمبومين " و " بلاتونوف " في " تاريخ العالم " فقد وصلا من التدقيق والتمحيص إلى حدّ لا أعرفه لمؤرخ ، وبلغ بهما ذلك أن قالا : " إنّ النصرانيّة لا يزال أصلها مجهولاً " ، ويقولان عن النبي ﷺ : " وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرئة مُحَمَّد من الكذب ، ومن المرض ، وإنّما كان مُحَمَّد رجلاً ذا مواهب إلهيّة عليا ، ساد بها أبناء عصره ، وهي رباطة الجأش ، وطهارة القلب ، وجاذبيّة السمائل ، ونفوذ الكلمة ، وأنّه كان عابداً عظيماً ، وأنّه نظير جميع العباد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة ، التي هو مأمور بها من جانب الحقّ تعالى ، وبين ملكة الأعمال الدنيويّة ، ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة " .

ويقول " ولز " : " إنّ ديانة مُحَمَّد كان فيها روح حقيقيّة من العطف ، والكرم ، والإخاء ، وكانت بسيطة مفهومة سائغة ، وكانت ملأى بمكارم الأخلاق ، وعلوّ النفس ، والمعاني التي يشغف بها أهل البادية " (١) .

ويقول العلامة " هوار " : " .. لقد اتّفقت الأخبار على أنّ مُحَمَّد كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقّب بالأمين ، أي بالرجل الثقة المعتمد عليه إلى أقصى درجة ، أي كان المثل الأعلى في الاستقامة " .

ثمّ إنك لا تجد في كتاب " تاريخ العرب " للأستاذ " هوار " كلمة واحدة تدلّ على أنّ مُحَمَّد كان مرآياً أو مداجياً ، أو كان يقول ما لا يعتقد ، أو يعتقد ما لا يقول " .

(١) - كان الأولى أن يقول : والمعاني التي يشغف بها الإنسان حيث كان .

وفي أحد مجالس " فولتير " ^(١) مع " البرنس تسينسدراف " مستشار النمسا جرى ذكر " لوثر " و " كلفن " ، فقال للبرنس : " إنهما لا يستحقّان أن يكونا صانعي أحذية عند مُحمّد .

يقول " إميل درمنغهم " في كتابه : " حياة مُحمّد " : " لم يكن مُحمّد مَن لا يعرف العالم الباطنيّ ، نعم ، لم يكن متصوّفاً بالمعنى المعروف ، إلّا أنّه كان مَن يرى أنّ الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحسّ ، وأنّ المشهود أدنى درجة من المحجوب ، فمُحمّد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ، ونادى الخلق ليتمسّكوا بها ، جاء بقلب خالٍ من كلّ كذب ، ومن كلّ ثقافة باطلة ، ومن كلّ فخفخة فارغة ، وأمسك بكلتا يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنّه كان عمليّاً ، تامّ المعرفة بأحوال العالم المادّيّ ، بل كان ذلك التجردّ الروحيّ أعون له على إدارة أمور الدنيا ، وهكذا كان كبار الروحيّين في العالم يتغلّبون على العالم المشهود ، بالعالم غير المشهود " ^(٢) .

ويقول " هيجنس " في كتابه : " الاعتذار عن مُحمّد والقرآن " : " إنّ أتباع عيسى ينبغي لهم أن يجعلوا على ذكر منهم أنّ دعوة مُحمّد ﷺ أحدثت في نفوس أصحابه من الحميّة ما لم يحدث مثله في الأتباع الأوّلين لعيسى ، ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع إلّا خائباً ، فقد هرب الحواريون ، وانفضّوا عن عيسى حين ذهب به أعداؤه ليصلبوه ، فخذله أصحابه ، وصحوا من سكرتهم الدينيّة ، وقد أسلموا نبيّهم لأعدائه ، يسقونه كأس الموت . أمّا أصحاب مُحمّد

(١) - ومن المعروف أنّ " فولتير " كان ملحدّاً شديد الإلحاد ، ومع ذلك فهو يقول هذا الكلام .

(٢) - من تعليقات شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلاميّ .

فالتفوا حول نبيهم المبغي عليه ، ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم إلى أن تغلب بهم على أعدائه " (١) .

ويقول الشيخ سليمان الندوي في كتابه : " الرسالة المحمدية " : " وقد قال لي يوماً ، وأنا في فرنسا مستشرق اسمه : " ماسينيون " : " يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله ﷺ مُحَمَّد ومحامده أن ينقل كتاب : " الشفا " للقاضي عياض ، إلى إحدى اللغات الأوروبية " (٢) .

وهناك كلمة مشهورة " لفولتير " وهي : " إنَّ الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته ، ولا بطلاً في أسرته " ، يريد أنَّ عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه ، لاطّلاعه على دخائله ومبازله ، ولكنَّ هذا القول لا يصدق بحق الرسول ﷺ ، وفي ذلك يقول " باسورث سميث " : " إنَّ ما قيل عن العظماء في مبازلهم لا يصحَّ على الأقلَّ في مُحَمَّد رسول الإسلام ، واستشهد بقول " كين " : " لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه ، كما امتحن مُحَمَّد أصحابه ، إنَّه قبل أن يتقدَّم إلى الناس جميعاً تقدَّم إلى الذين عرفوه إنساناً المعرفة الكاملة ، فطلب من زوجته وغلّامه وأقرب أصدقائه إليه ، وأحبَّ خلّانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلأ ، فكلَّ منهم صدق دعواه ، وآمن بنبوّته ، وإنَّ حليّة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ، ودخيلة نفسه ، وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه ، أليس أنَّ أوّل من آمن بمُحَمَّد رسول الله زوجته الكريمة ؟ التي عاشته خمسة عشر عاماً ، واطّلت على دخائله في جميع أموره ، وأحاطت به علماً ومعرفة ، فلمّا ادّعى النبوة كانت أوّل من صدّقه " (٣) .

(١) - نقلاً عن : " الرسالة المحمدية " للشيخ سليمان الندوي ص/١٢٤ ، وعيسى عليه السلام لم يقتل ، ولم يصلب ، ولكن شبه لهم ، ورفع الله عيسى إلى السماء ، وكان الله عزيزاً حكيماً .

(٢) - ص/١٠٧ .

(٣) - نقلاً عن الرسالة المحمدية ص/١٠٦ .

يقول البروفسور " كك . س . راماكرشناراو " ، في كتابه " مُحَمَّد رسول الإسلام " : " إنّ رسول الإسلام استطاع أن يعلم العرب ، الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم / ٤٠ / سنة ، لمجرد استفزاز بسيط .. استطاع أن يعلم أولئك الأجلاف ، ضبط النفس والنظام إلى درجة الصلاة حتى في ميدان المعركة .. " .

" وعندما أخفقت محاولاته العديدة في استمالة الخصوم ، ودعوتهم إلى التسامح والتوفيق برزت ظروف اضطرته للمعركة دفاعاً عن النفس ، وقد غيّر رسول الإسلام استراتيجيات الحرب كلياً ، فلم يزد مجموع القتلى عن بضع مئات في كافّة الحروب التي حدثت خلال حياته ، بعد أن دانت له شبه الجزيرة العربية كلّها .. " .

" لقد أصبحت الحرب نفسها إنسانيّة في عصر بربري متوحش ، فقد صدرت الأوامر إلى المقاتلين بعدم الاختلاس أو الغشّ ، أو خيانة الموثيق ، أو التمثيل بالقتلى ، أو قتل النساء ، أو الأطفال أو الشيوخ .. " .

" ومكّة أصبحت - بعد الفتح - تحت سيطرته ، وكان باستطاعته بحكم شريعة العرب أن ينتقم لجميع الأعمال الوحشية التي لقيها هو وأصحابه ، ولكن ماذا فعل مُحَمَّد بأهل مكّة ؟ لقد طفح قلبه رحمةً ومحبةً ، وخاطبهم قائلاً : (لا تثريب عليكم اليوم ! اذهبوا ، فأنتم الطلقاء) .

" وبعد فتح مكّة خضعت لنفوذه مساحة تزيد عن المليون ميل مربع ، لقد أصبح (مُحَمَّد) سيد الجزيرة العربية ، ذلك الرجل الذي كان يصلح نعاله وإزاره الخشن بيديه ، وكان يحلب الغنم ، ويكنس الموقد ، ويوقد النار ، ويقوم على خدمة أهله ، وفي آخر أيام حياته ازدهرت المدينة التي كانت مقراً لإقامته ، وانتعشت ثراءً واقتصاداً ، فكثر الذهب والفضة في كلّ

مكان فيها ، وحتى في أيام الرخاء والازدهار تلك ، كانت تمضي الأسابيع العديدة بدون أن توقد نار الطبخ في مواقد سيد الجزيرة ، طعامه التمر والماء ، وقد تنقضي الليالي تباعاً وأهله جوع ، لا يجدون ما يأكلون ، ولم يكن ينام على فراش وثير ، ولكن على جريد من نخل بعد نهار طويل من العناء ، ليقضي معظم ليله في العبادة ، يتضرع إلى الله بالدموع أن يمنحه القوة على تبليغ الرسالة ..

" كثيراً ما تغيرت الظروف ، لكن رسول الله لم يتغير ، سواء في الانتصارات أم في الهزائم ، في القوة أم في الضعف ، في الرخاء أم في الفاقة ، لقد ظلّ كما هو ، وظلّ خلقه كما كان .. هكذا هي سنة الله لا تتغير ، ورسله أيضاً لا يتغيرون " .

ويقول " توماس كارليل " : " إنّ الإسلام يعلمنا الخضوع لله ، وأن تستسلم قوانا كلّها ، وتدعن لقدرته ، فمهما فعل بنا ، ومهما أعطانا فهو خير ، وهو الأفضل ، ولو حتى الموت ، أو ما هو شرّ من الموت ، فالنفس يجب أن تدعن لله .

ويتساءل " غوته " : فإذا كان هذا هو الإسلام ، أفلا نكون جميعاً مسلمين ؟ ويجيب " كارليل " عن سؤال " غوته " : " نعم جميعنا نعيش كذلك نحن الذين نملك الخلق ، فالإسلام بحقّ أعظم حكمة أرسلتها السماء إلى الأرض " .

" إن كلام هذا الرجل (مُحَمَّد) هو الصوت المنبعث مباشرة من صميم الوجود ، وعلى الناس أن يستمعوا له ، وليس لشيء آخر ، لأنّ ما سواه هباء لو قيس به " .

ويقول " شاند شاروا " في كتابه " أنبياء المشرق " : " كان (مُحمَّد) جوهر الرحمة ، وقد أثر في أتباعه بحيث لن ينسوه أبداً " .

ويقول " وليام درير " في كتابه " تاريخ النشوء الفكريّ في أوربا " :

" بعد أربع سنوات من موت الإمبراطور الروماني " جستنيان " سنة ٥٦٩/ ولد في مكة في بلاد العرب ذلك الرجل الذي كان له أعظم تأثير بين جميع الرجال على الإنسانيّة كلها ، إنّه (مُحمَّد) .

ويقول " أ . ر . جب " في كتابه : " المحمديّة " : " لو كان القرآن من تأليف (مُحمَّد) لاستطاع غيره أن يأتوا بمثله ، فليأتوا إذن بعشر سور من مثله ، فإن لم يستطيعوا ، فليؤمنوا إذن بالقرآن معجزة إثباتيّة باهرة " .

ويقول البروفسور " كك . س . راماكشناراو " : " إذا كان سمو الغاية ، وضعف الوسيلة ، وتحقيق النتائج المذهلة " - هي المقاييس الثلاثة للإنسان العبقريّ - فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن (مُحمّداً) بأيّ رجل عظيم آخر في التاريخ الحديث ؟! .

" إن (مُحمّداً) لم يحرك الجيوش ، ولم يهزّ الشرائع ، ولا قووض الشرّ ، ولا السلالات الحاكمة فحسب ، بل حرّك ملايين الرجال ، وأكثر من ذلك ، فقد أزال مذابح القرايين ، وحطّم الآلهة المعبودة ، وقووض الأديان والنظريّات والمعتقدات ، وهزّ النفوس ، وأمّا الكتاب الذي أصبح كلّ حرف من حروفه قانوناً ، فقد أسّس به (مُحمَّد) قوميّة روحية ، امتزج فيها الناس من شتى الألسن والأعراق .

" لم تكن صلواته المستمرة ، ولا مناجاته لله ، ولا انتصاراته التي حقّقها حتّى بعد موته .. لم تكن كل هذه الأشياء دعوى نبيّ كاذب مدّع ..

"إن (مُحَمَّدًا) فيلسوف وخطيب ورسول ، ومشرّع ومحارب ، وقاهر نظريّات ، ومحبي العقائد الحقيقيّة ، وصاحب الديانة الخالية من الأصنام والتمائيل ، ومؤسس عشرين إمبراطورية دنيويّة تربطها جميعاً رابطة رويّة واحدة ، ذاك هو (مُحَمَّد) ، ولو استعرضنا جميع المقاييس التي يمكن أن تقاس بها العظمة الإنسانيّة ، لصحّ لنا التساؤل : هل كان هناك رجل أعظم من مُحَمَّد ؟!

"هناك مثل يقول بأنّ الرجل النزيه هو أنبل شيء صنعه الله ، و (مُحَمَّد) كان أكثر من نزيه ، لقد كان إنسانياً إلى مخ عظامه ، وكان العطف والشفقة والإنسانيّة موسيقى نفسه ، وكانت غاية رسالته خدمة الإنسان والرقّيّ به ، وتطهيره وثقيفه ، أو بكلمة أصبح أنسنّة الإنسان ، وقد عاش حياته كلّها وأنهاها ، وهو يحقّق هذه الغاية ، وسواءً بالفكر أم بالقول أم بالفعل ، فقد كان خير الإنسانيّة إبحاء الوحيد ، ومبدأه الإرشاديّ الأوحد .

"كان (مُحَمَّد) أبعد الناس عن التفاخر والأنانيّة ، وإذا سألت ما الألقاب التي أطلقها على نفسه ، تجدها اثنين فقط : (عبد الله ورسوله ..) والعبد أولاً ثمّ الرسول ..

"كان (مُحَمَّد) يقول بكلّ بساطة : إنّهُ بشر مثل الناس الآخرين ، ولم يكن يملك خزائن الأرض ولا السماء ، ولا ادّعى يوماً أنّه يعلم الغيب " .

ويقول " المهاتما غاندي " : " يقول قائل : إنّ الأوربيّين في جنوب أفريقيا يمتلكهم الفزع من مجيء الإسلام ، ذلك الإسلام الذي مدّن إسبانيا ، وحمل مشعل النور إلى مراکش ، والذي بشرّ العالم بالتآخي ، إنّ الأوربيّين في جنوب أفريقيا يفزعون من مجيء الإسلام ، لأنّهم ينادون للمساواة بالأجناس

البيضاء ، فليفرعوا إذا شاءوا ، فإذا كان الإخاء جريمة .. وإذا كان المساواة مع الأجناس الملونة هي التي تفرعهم ، فعندئذٍ سيكون لفرعهم ما يبرّره " .
ويقول البروفسور "هور كرونجي" : " إنّ هيئة الأمم التي أسّسها رسول الإسلام قد أقامت مبادئ المساواة والإخاء الإنسانيّ على أسس عالميّة ، كشمعة تنير الطريق للأمم الأخرى " .

تقول " ساروجيني نايدو " عن المساواة في الإسلام : لقد كانت أوّل ديانة نادى بالديمقراطيّة ، وطبّقها ، إذ عندما يرتفع الأذان ، ويجتمع المصلّون معاً ، تتجسّد ديمقراطيّة الإسلام خمس مرات في اليوم ، حيث يركع العظيم والحقير جنباً إلى جنب ، وهم يعلنون أن لا عظيم إلّا الله .

" ولقد اندهشت من تلك الوحدة الإسلاميّة التي لا تتجزأ ، والتي تجعل الإنسان أخاً فطريّاً للإنسان الآخر ، فعندما يلتقي مصريّ وجزائريّ وتركيّ في لندن فما عاد يهتمّ أن تكون مصر وطناً لأحدهم والهند وطناً للآخر " .

ويقول " إدوارد جيبون ، وسيمون أوكلي " في كتاب " تاريخ الإمبراطورية الإسلاميّة " : " إنّ طهارة رسول الإسلام قد أبت عليه أن ينتهك أيّ معيار من معايير الفضيلة الإنسانيّة ، كما أنّ مداركه الخالدة قد حصرت مناقب أصحابه وأتباعه ضمن حقوق العقل والدين " .

يقول البروفسور " كك . س . راماكراشناو " : " لو كانت العظمة على سبيل المثال تتألّف من تطهير وتنقية شعب كان هاوياً في ظلمات التوحّش ، ومغموراً في ظلام خلقيّ مطلق ، فإنّ تلك الشخصيّة الديناميّة التي استطاعت أن تحوّل أمة كاملة ، وتهذبها ، وترقيها بعد أن كانت تعيش في هاوية سحيقة كحال العرب ، فجعلت منهم حملة مشاغل الحضارة والتمدّن والعلم .. أقول : إنّ تلك الشخصيّة لها كلّ الحقّ أن تدّعي العظمة ،

ولو كانت العظمة تتألف من توحيد العناصر المتضاربة لمجتمع ما في رابطة أخوة وتراحم ، فإنّ رسول الصحراء قد حقّق كلّ هذا الامتياز .. ولو كانت العظمة تتألف من إصلاح الناس المستغرقين في الخرافات الشائنة ، وفي الممارسات المهلكة بجميع أشكالها فإنّ رسول الإسلام قد قضى على تلك الخرافات ، وأزال تلك المخاوف اللامعقولة من قلوب الملايين ، ولو كانت العظمة في التخلّق بالأخلاق الحسنة ، فقد شهد لمحمّد أعداؤه وأصدقاؤه ، بأنّه الأمين والصادق المصدوق ..

" وإذا كان الفاتح رجلاً عظيماً ، فهذا رجل نهض من يتم وضعف ، ليصبح حاكماً على بلاد العرب ، ونظيراً لكسرى وقيصر ، رجل أسّس أمبراطوريّة عظيمة ، استطاعت أن تستمرّ كلّ الأربعة عشر قرناً الماضية ..

" وإذا كان إخلاص القائد هو مقياس العظمة ، فإن اسم الرسول (محمّد) لا زال إلى يومنا هذا له سحر يسيطر على ملايين الأنفس المنتشرة في جميع أنحاء العالم .

" إنّ محمّداً لم يدرس الفلسفة في مدارس أثينا أو روما ، أو بلاد فارس أو الهند أو الصين ، ومع ذلك فقد استطاع أن ينادي بأرقى المثل ذات القيم الخالدة للبشريّة ..

" وبرغم أمّيته فقد تكلم بفصاحة وحماسة ، ألهمت الرجال إلى حدّ البكاء ، ورغم يتمه وافتقاره إلى المباهج الدنيويّة ، كان محبوباً من الجميع ..

" ومع أنّه لم يلتحق بالكليّات العسكريّة ، فقد استطاع أن يبيد تنظيم قوّاته في وجه خصومه العتاة ، وحقّق الانتصارات من خلال قواه المعنويّة التي مهر فيها ..

" والدعاة الموهوبون بالعبقريّة نادرون لكن " ديكارتيه " يعتبر (مُحَمَّدًا) واحداً من أكمل الدعاة وأندرههم في العالم .

" وقد عبر " هتلر " عن وجهة نظر مماثلة ، حيث يقول في كتابه " كفاحي " : " قلما يكون المفكر عظيمًا ، أمّا الداعية فهو أقرب جدًّا إلى امتلاك هذه الصفة ، وهو دائماً القائد الأفضل ، لأنّ القيادة معناها القدرة على تحريك الجماهير ، ثمّ إن موهبة إنتاج الأفكار لا تعني شيئاً بالقياس مع القدرة على القيادة " ، ثم يتابع قوله : " ولكن أن يجتمع المفكر والمسئول والقائد في شخص رجل واحد ، فهذا أندر الظواهر الطبيعيّة على سطح الأرض ، فهنا تكون العظمة الحقيقية .. ولقد شاهد العالم هذه الظاهرة النادرة تتحقّق في شخصيّة رسول الإسلام حيّة تنبض لحماً ودمًا " .

ويقول البروفسور " بيقان " في مجلة " تاريخ كامبردج في القرون الوسطى " : " إنّ التقارير التي نشرت في أوروبا قبل بداية القرن التاسع عشر عن (محمد) وعن الإسلام ، يجب اعتبارها الآن غرائب أدبية " .

ويقول البروفسور " كك . س . راماكراشنا راو " في كتابه : " محمد رسول الإسلام " : " إنّ النجاح العظيم الذي أحرزه محمد في حياته إنّما تحقّق بالقوّة الروحيّة ، وبدون ضربة سيف واحدة " .

ويقول أيضاً : " تشير السجّلات التاريخيّة بأنّ جميع الذين عاصروا الرسول مُحَمَّدًا سواء من أصدقائه أم من أعدائه قد شهدوا له بالمزايا الأصليّة ، وبالأمانة النقيّة ، والفضائل النبيلة ، والصفاء المطلق ، والصدق المحض في جميع نواحي الحياة ، وفي كلّ مجال من النشاط الإنسانيّ ، حتى اليهود وهم الذين رفضوا الإيمان برسالته رضوا به حكماً في نزاعاتهم الشخصيّة ، بسبب نزاهته المتناهية ..

" وقد اعترف له أولئك الذين لم يؤمنوا برسالته بقولهم : " يا مُحَمَّد ! لا تنهملك بالكذب لكننا لا نؤمن بالذي أنزل عليك الكتاب ، وأوحى إليك بالرسالة " ، واعتقدوا أنّ به مسأً من الشيطان ..

" أوليس الإيمان الراسخ والقناعة الثابتة من جانب أتباع مُحَمَّد الجدد هؤلاء هما أدلة نبيلة على إخلاص هذا الرسول ، وعلى اندماجه المطلق في الرسالة التي وكلت إليه " .

وجاء في الموسوعة البريطانية " انسيكلو بيديا بريتا نيكاً " : " مُحَمَّد أنجح الأنبياء والشخصيات الدينية جميعاً " .

ويقول : " كك . س . راماكرا شناراو " : " مُحَمَّد النبيّ ، والقائد ، والمملك ، والمحارب ، ورجل الأعمال ، والبشير ، والفيلسوف ، والسياسيّ ، والخطيب ، والمصلح ، ومعين اليتامى ، وحامي العبيد ، ومحرر النساء ، والقاضي ، والصدّيق ، لقد كان بطلاً حقيقياً في جميع هذه الأدوار العظيمة ، وفي كافّة تلك المجالات الإنسانيّة الواسعة .

" إنّ اليتيم هو أشدّ حالات البؤس والضعف ، وبه بدأت حياة هذا النبيّ على سطح هذه الأرض ، وإنّ المملك قمة السلطة الماديّة ، وبه اختتم النبيّ حياته ، فمن صبيّ يتيم ، إلى لاجئ مضطهد ، ثمّ إلى حاكم مطلق دينياً ودينيّاً ، في أمة كاملة ، وحكماً في مصائرهما من تجارب ومغريات ، وتقلّبات وتغيّرات ، وأضواء وعمّات ، ونجاح وفشل ، ورعب وسرور " .

" ولقد صمد أمام نيران العالم ، وخرج من ذلك غير واهن ، ضارباً المثل الأعلى في كلّ ناحية من حياته ، إذ لم تكن إنجازاته تقتصر على جانب معيّن ، بل شملت كافّة الجوانب ، والأحوال الإنسانيّة " .

يقول " ر . ف . ج بودلي " في كتاب " الرسول " : " لا أصدّق أنّ رجلاً سواه ممن جابهوا ظروفاً خارجيّة شديدة القسوة ، قد صمد لها مثلما صمد لها هذا الرجل (محمّد) .

ويقول " أ . ر . جب " في كتابه " المحمدية " : " إنّ الإصلاحات التي جاء بها (محمّد) والتي عززت مكانة المرأة قد اعترف بها العالم كله " .
ويقول " توماس كارليل " عن رسول الله ﷺ في كتابه " الأبطال وعبادة الأبطال " : " رجل فقير ، ضعيف الموارد ، لم ينشغل بما انشغل به عامّة الناس ، لا يصحّ أن يوصف بالسوء ، لقد كان ما في نفسه شيئاً أسمى من صور الرغبة الشخصية ، وإلّا لما لاقى كلّ ذلك الإجلال من أولئك العرب الأجلاف ، فيحاربون ويصارعون طوع أمّره ، ثلاثاً وعشرين سنة ، مخلصين له أشدّ الإخلاص ، بعد أن كانوا وحوشاً ، لا تكاد نزاعاتهم تنتهي أو تخمد ، وبعد أن كانوا يحبّون أنفسهم بشراسة ، فلا يقيمون للحقّ ولا لقيمة الإنسان وزناً ، ولم يسلموا قيادهم لرجل قبله ، أتقول : إنهم سمّوه نبياً ؟ لماذا ؟ ألم يقف أمامهم وجهاً لوجه ، مسفراً لا يتقنع وراء أي غموض ، يرقع عباءته بيده ، ويصلح نعاله بنفسه ، ألم يمض مجاهداً وناصحاً وأمراً ، وهو في وسطهم ، لا بدّ أنّهم أدركوا من أيّ الرجال هو ، فلتسمّه كما تشاء .. فما من إمبراطور بتاج وآبئة ، لقي من الطاعة مثلما لقي هذا الرجل ، في عباءة كان يرقعها بنفسه ، وخلال فترة تجربته القاسية ، التي دامت ثلاثاً وعشرين سنة ، نجد فيه مثلاً من البطولة الحقيقيّة ، التي كانت ضروريّة لذلك الواقع " .

وقال الدكتور " نظمي لوقا " في كتابه " محمّد الرسالة والرسول " :

" .. وبدافع من حب البشرية ، أقدمت على تسطير هذه الصفحات ..

وسيّان بعد هذا أن يقول عنها القائلون إنّها شهادة حقّ ، أو رسالة حب ، أو

تَحِيّةٌ توقير وتبجيل ، فما كان - يعني مُحَمَّدًا - كآحاد الناس في خلاله ومزاياه ، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل ، فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل ، ويحیی فيه الرجل " .

وبعد ؛ فهذا غيض من فيض ، وقطرة من بحر ، واجتماع هذه الشهادات على تباين مشارب قائلها ، واختلاف منازعهم واتجاهاتهم ، وتباعد أقطارهم ، يقدم لنا دليلاً " متواتراً تواتراً معنوياً " باصطلاح المحدثين ، على صدق هذا الرسول الكريم ، وأنه الرحمة المرسله للعالمين .

وتأمل رعاك الله ؛ فلا زال في الناس أولو بقيّة يحترمون عقولهم ، فيؤثرون الحقّ على الهوى ، والصدق على الزيف ، وتبهرهم الحقيقة ويعشقونها ، فيعترفون بها كأقلّ ما يجب عليهم فعله .. ولو خطوا خطوةً أخرى لدخلوا رحابها ، وكانوا من أهلها وأحبابها ، ولم يكتفوا أن تبهرهم أنوارها من بعيد ، ثمّ يقولوا للمؤمنين يوم الحسرة والمزید : انظرونا نفتبس من نوركم .. فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ..



الفصل الثالث

كيف ندافع عن نبي الهدى والرحمة . ؟

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ماذا وراء العدوان على نبي الهدى والرحمة . ؟

المبحث الثاني : بناء الجيل المؤمن المحب لرسول الله ﷺ .

المبحث الثالث : التعريف والدعوة وحسن الأسوة .

تمهيد : سنة الله العظيم فيمن سب نبيه الكريم ﷺ :

مقام الأنبياء والرسل عند الله عظيم ، إذ اختارهم الله واصطفاهم لحمل الأمانة ، وتبليغ لرسالة ، وتعريف الخلق بخالقهم سبحانه ، ولا شك أنّ الإساءة إليهم إساءة إلى الله الذي اصطفاهم وأرسلهم .. وإذا كان الله تقدّست ذاته ، وتباركت أسماؤه ينتصر لعباده المؤمنين ، ويدافع عنهم ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) الحج ، فلا شك أنّ الله سبحانه يدافع عن أنبيائه ورسله ، وينتصر لهم ، ولكنّ سنة الله فيهم ، وفي عباده عامّة قضت في هذه الحياة أن يتلي الأخيار بالأشرار لحكم كثيرة ، لا تحيط بها عقول البشر ، ثم تكون العاقبة للمتقين .

وينبغي أن يعلم كلّ مسلم أنّ العداء الفكريّ ، والافتراء والاستهزاء بصوره المختلفة ، وأساليبه و المتعدّدة ، لم ينقطع طيلة القرون الماضية من حياة

هذه الأمة المجيدة .. ومع ذلك فقد كانت الأمة ماضية نحو غايتها الشريفة ، وأهدافها الواضحة ، وأعمالها الإيجابية البناءة ، لا يضرّها كيد الخفافيش في ظلام الليل ، وغيبة الحسيب والرقيب ، بله أن يصدّها ذلك عن دينها ، أو يشكّكها بعقيدتها ، وكما يقول المثل : " القافلة تسير ، والكلاب تنبح .. " . وإنّ من الأحكام الشرعيّة التي لا يختلف فيها اثنان : أنّ الإساءة إلى مقام النبي ﷺ تعدّ بمثابة إعلان الحرب على أمة الإسلام كلّها من أقصاها إلى أدناها ، وذلك يوجب في أقلّ تقدير وأضعف الإيمان قطع العلاقة بكافة أشكالها : السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وغيرها ، مع تلك الدولة التي يصدر مثل ذلك عن بعض رعاياها ، فتقرّه ، وتسكت عنه ، وتدافع عنه ، ولا تستنكر فعله ، ولا تأخذ على يد فاعله وتعاقيه .

وبناء على ذلك فإنّ ما حدث من مواقف الاستنكار الشعبيّ ، والمقاطعة التجاريّة ، مع ما فيه من الخير هو أقلّ من الواجب بكثير ، ممّا يدعو المجرمين إلى أن يتجرّءوا أكثر ، لأنهم يرون حصون الأمة لا حماة لها ، ولا غيارى على انتهاكها ..

ومع ذلك فإنّ الله تعالى قد خصّ نبيّه محمداً ﷺ إذ جعله خاتم الأنبياء والمرسلين أن جعل العقوبة عاجلة لمن سبّه أو آذاه ، ولن تكون عاقبته إلاّ الخزي والبورار ، وربّما جاءت النعمة الإلهيّة بصورة غريبة عن مألوف الناس ، ممّا يزيد المؤمنين إيماناً ، ويدلّل على صدق النبي ﷺ وعلوّ مقامه عند ربّه .

وقد يتساءل بعض الناس : وما دليلك على ما تقول ؟. فأليك آيها القارئ الكريم بعض هذه الأدلّة :

١ - يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ

وَأَنحَرَهُ ② إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③ ﴿الكوثر .

قال الإمام الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

③ ﴿ أي : إِنَّ مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم . فيعمّ خيري الدنيا والآخرة ، أو الذي لا عقب له ، أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته ، وظاهر الآية العموم ، وأنّ هذا شأن كلّ من يبغض النبي ﷺ ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما مرّ غير مرّة . قيل : كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا : قد بتر فلان ، فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد ، فنزلت الآية . وقيل : القائل بذلك عقبة بن أبي معيط . قال أهل اللغة : الأبتَر من الرجال : الذي لا ولد له ، ومن الدوابّ : الذي لا ذنب له ، وكلّ أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتَر ، وأصل البتر القطع ، يقال بترت الشيء بترّاً : قطعته ^(١) .

وقال الإمام الواحدي في أسباب النزول : قال ابن عباس ؓ : إنّ العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام عند باب بني سهم ، فتحدث معه ، وأناسٌ من صناديد قريش في المسجد ، فلما دخل العاصي عليهم قالوا له : من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال : ذلك الأبتَر ، وكان قد توفي قبل ذلك عبدُ الله ابنُ رسول الله ﷺ ، بعد أن مات ابنه القاسم قبل عبد الله ، فانقطع بموت عبد الله الذكور من ولده ﷺ يومئذ ، وكانوا يصفون من ليس له ابن بأبتَر ، فأنزل الله هذه السورة ، فحصل القصر في قوله : ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③ ﴾ لأنّ ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتَر

(١) - فتح القدير ٧٠/٨ .

على الموصوف ، وهو شانىء النبي ﷺ قصر المسند على المسند إليه ، وهو قصر قلب ، أي هو الأبر لا أنت ^(١) .

وقال الشيخ ابن عاشور : " ومعنى الأبر في الآية الذي لا خير فيه ، وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي ﷺ ، فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبر ، دون المعنى الذي عناه هو ، حيث لمز النبي ﷺ بأنه أبر ، أي لا عقب له ، لأن العاصي بن وائل له عقب ، فابنه عمرو الصحابي الجليل ، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ، ولعبد الله عقب كثير . فقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَبْرُ ﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبر لشانىء النبي ﷺ ونفيها عن النبي ﷺ وهو الأبر بمعنى الذي لا خير فيه .

ولكن لما كان وصف الأبر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل : « مُحَمَّدٌ أَبَرٌ » إبطالاً لقوله ذلك ، وكان عرفهم في وصف الأبر أنه الذي لا عقب له تعين أن يكون هذا الإبطال ضرباً من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يتقرب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أن الأحق غير ما عناه من كلامه كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ

مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِ .. ﴿ ١٨٦ ﴾ البقرة . وذلك بصرف مراد القائل عن الأبر الذي هو عديم الابن الذكر ، إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظاً الخير ، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له ، لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله ، وهب أنه لم يولد له البتة ، وإنما اصطلاح الناس على اعتباره نقصاً لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم

(١) - التحرير والتنوير ١٦/٤٠٧ .

الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية ، فهم يتغنون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر ، وذلك أمر قد يعرض ، وقد لا يعرض أو لحجة ذكر البرء بعد موته ، وذلك أمر وهمي ، والنبى ﷺ قد أغناه الله بالقناعة ، وأعزّه بالتأييد ، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه ، فتمحّض أنّ كماله الذاتى بما علّمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته ، وأنّ كماله العرضي بأصحابه وأمتة إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم (١) .

ويقول سيّد قطب رحمه الله : " في الآية الأولى قرّر أنّه ﷺ ليس أبتر ، بل هو صاحب الكوثر ، وفي هذه الآية يرّد الكيد على كائديه ، ويؤكد سبحانه أنّ الأبتر ليس هو مُحَمَّد ﷺ ، إنما هم شائثوه وكارهوه ، ولقد صدق فيهم وعيد الله ، فقد انقطع ذكرهم وانطوى ، بينما امتدّ ذكر مُحَمَّد ﷺ وعلا ، ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأوّلون !

إنّ الإيمان والحقّ والخير لا يمكن أن يكون أبتر ، فهو ممتدّ الفروع عميق الجذور ، وإنما الكفر والباطل والشرّ هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر ..
إنّ مقاييس الله غير مقاييس البشر . ولكنّ البشر ينخدعون ويغترّون ، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأماننا هذا المثل الناطق الخالد .. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنّهم قد قضوا على محمد ﷺ ، وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم ، وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيته من كانوا يقولون عنه : الأبتر !؟

إنّ الدعوة إلى الله والحقّ والخير لا يمكن أن تكون بترء ، ولا أن يكون

(١) - التحرير والتنوير ١٦/٤٠٧ .

صاحبها أبتز ، وكيف وهي موصولة بالله الحيّ الباقي الأزليّ الخالد ؟ إنما يبتز الكفر والباطل والشرّ ، ويبتز أهله ، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنّه طويل ممتدّ الجذور .. وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون .. (١) .

٢ - ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (١٥) الحجر ،

أي : إِنَّا كَفَيْنَاكَ شَرَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بك ، الجاهدين في عداوتك ، الساخرين منك ، ومن دينك ، وورد في أسباب النزول أنّهم جماعة ذوو قوّة وشوكة من المشركين ، وكانوا خمسة من المشركين : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن المطلّب ، والأسود بن عبد يغوث ، وهذا تأمين ربّانيّ للنبيّ ﷺ ، وعصمة وصون ، جعل النبيّ ﷺ لا ييالي بسخريتهم واستهزائهم ، ولا بشيء من إيذائهم ، وقد روي أنّ جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ : أمرت أن أكفيكمهم ، فأوماً إلى عقب الوليد فتعلّق بثوبه سهم ، فأبى تعظماً نزعته ، فأصاب عرقاً في عقبه فمات ، وأوماً إلى إخص العاص بن وائل ، فمات بشوكة دخلت فيه ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلّب فعمي ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات ، وأشار إلى الأسود بن يغوث ، وهو قاعد في أصل شجرة فأصيب بداء فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتّى مات (٢) .

٣ - ومن غرائب الوقائع التاريخية ما روى الإمام ابن حجر العسقلانيّ رحمه الله في كتابه : " الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة " : أنّ النصاري كانوا ينشرون دعائهم بين قبائل المغول طمعاً في تنصيرهم ، وقد مهّد لهم الطاغية "

(١) - في ظلال القرآن ٨/١١٥ .

(٢) - انظر تفسير الرازيّ : ٢١٥/١٩ ، وتفسير القرطبيّ : ٦٢/١٠ ، وتفسير ابن كثير :

هولاكو " سبيل الدعوة ، بسبب زوجته الصليبيّة " ظفر خاتون " ، وذات مرّة
توجّه جماعة من كبار النصارى لحضور حفل مغوليّ كبير ، بسبب تنصّر أحد
أمراء المغول ، فأخذ واحد من دعاة النصارى في شتم النبيّ ﷺ ، وكان هناك
كلبٌ صيد مربوط ، فلمّا بدأ هذا الصليبيّ الحاقداً في سبّ النبيّ ﷺ ، زجر
الكلب وهاج ، ثمّ وثب على الصليبيّ ، وخمسه بشدّة ، فخلّصوه منه بعد
جهد ، فقال بعض الحاضرين : هذا بكلامك في حقّ محمّد ﷺ ، فقال
الصليبيّ : كلاً ، بل هذا كلب عزيز ، رأيته أشير بيدي فظنّ أنّي أريد ضربه ،
ثمّ عاد الصليبيّ لسبّ النبيّ ﷺ ، وأقذع في السبّ ، عندها قطع الكلبُ
رباطه ، ووثب على عنق الصليبيّ ، وقلع زوره في الحال ، فمات الصليبيّ من
فوره ، وعندها أسلم أربعون ألفاً من المغول " (١) .

وصدق الله العظيم : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿ ٢١ ﴾ المجادلة .



(١) - الزور : هو ملتقى عظام الصدر حيث اجتمعت ، وما ارتفع من الصدر إلى الكتفين .

المبحث الأول

ماذا وراء العدوان على نبي الهدى والرحمة . ؟

العدوانُ على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لم يتوقّف في يوم من الأيام ، وتاريخ العلاقة بين الأديان يعجّ بالمواقف السيئة المسيئة ، تجاه الإسلام ونبيّه ﷺ وقرآنه .. مع ما كان يتحلّى به المسلمون ، من تسامح ، وطيب معاملة ، وترفع عن الإسفاف في الخصومة ، والكذب والافتراء ، وقد كان المسلمون أصحاب القوة والغلبة ، والسلطان والحضارة .. فما حدث في عصرنا ليس جديداً ، ولا غريباً في حقيقته ، ولكنه غريب ومستنكر ومستهجن من حيث إنّ المسلمين كانوا يتوقعون ممّن يختلفون معهم في الدين أن يتخلّوا عن عقليتهم القديمة ، ويتحلّوا بسلوك يتلاءم مع ما يدّعون من تقدّم حضاريّ ، وقدر من التسامح وسعة الصدر ، وشيء من الموضوعيّة ، والاحترام الحرّيّة الإنسان ، وأن يتقبّلوا الآخرين ، ويحترّموا أفكارهم ومشاعرهم .

وينبغي أن نعيّ ماذا وراء هذا العدوان الأثيم على سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ .؟! وخلفيّاته التاريخيّة والنفسيّة ، لنعرف ما يجب علينا .؟ وكيف يكون التنفيذ والردّ ، ولا نقف عند ظاهر هذا الموقف ، ولا نتجاوزه ..

وبادئ ذي بدء إنّنا نستطيع أن نرصد ثلاثة مواقف ومحطّات في تاريخ علاقة الغرب بالإسلام ونبيّه ﷺ وكتابه .

فالحطّة الأولى : هي الكذب والافتراء ، والإساءة والإيذاء ، وهذا الموقف قديم قدم ظهور الإسلام ، وإعلان النبيّ ﷺ دعوته على الملأ ، فقد واجهه

المشركون بشتى أنواع الإساءات والالتهامات والافتراءات ، من الجنون إلى الكذب ، إلى السحر والشعر ، إلى الغمز واللمز ، والإيذاء الجسديّ والاستهزاء .. وعندما كلّت سواعد المشركين عَنْ حمل هذا اللواء الأثيم ، تلقّفه عنهم أكثر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، واشتدّت وتيرة هذه الحرب الفكرية الثقافية مع ارتفاع وتيرة انتصار الإسلام وامتداد فتوحاته الكاسحة في شرق الأرض وغربها .. فعندما انْحَسَر سلطان الكنيسة ، وأفل نجمها ، وفقدت هيمنتها على كثير مِنْ بقاع الأرض عكف كثير مِنْ رجالها في الغرب ، الذي كان يثْنُ في ظلمات تخلفه وهمجيته على نسج الأكاذيب والأساطير حول شخصيّة النبي ﷺ بما لا يتصوّره عقل عاقل ، وذلك لتحسين مجتمعاتهم فيما يظنون من خطر الحضارة الإسلاميّة ، التي انتشر نورها في أكثر بقاع الأرض ، وامتدّ خيرها وبرّها .. واستنام الغرب على هذا الأسلوب ؛ يبدئ فيه ويعيد ، ويكرّر ويزيد .. ولاشكّ أنّ الكذب والافتراء بضاعة الحمقى المفلسين ، ولن تكون لها الغلبة ، مهما رَوّجوا لها ، واتّخذوا من أساليب ، وربّما خدع بها بعض البسطاء المغفلين إلى حين .. وكانت ذروة هذا الموقف الحروب الصليبيّة الهمجيّة ، التي قاد لواءها الحقد الأرعن على الإسلام وأهله ، وكان فيها من البغي والإفساد في الأرض باعتراف مؤرّخيها ما يندى له جبين الإنسانيّة ، ثمّ اندحرت ، واندحر أصحابها بما فيهم من شرّ وبلاء ..

ثمّ صحا فريق من الغربيّين المتحرّرين من سلطان الكنيسة وهيمنتها ، الذين يحترّمون عقولهم ، بعدما ذاقوا منها الويلات ، فكانت منهم المراجعة العلميّة الدقيقة ، لكلّ ما ورثوه عنها من عقائد وأفكار ، وأحكام وأخبار ، في

كلّ جانب من جوانب الحياة .. فكانت المحطة الثانية من محطات الموقف من الإسلام ونبّه ﷺ ، وهي محطة الإقرار والاعتراف والإنصاف على وجه العموم ، ونفي الأكاذيب والأباطيل حول شخصيّة النبي ﷺ ودعوته .

على أنّ أصحاب الموقف الأوّل لم يتخلّوا عن استراتيجيّتهم وخططهم في مواجهة الإسلام ونبّه ودعوته ، وإن كان صوتهم قد خفت لتراجع دورهم وتسلّطهم ، وتهميش هيمنتهم على حياة الغرب الاجتماعيّة والفكرية والسياسيّة ، بعد الصراع المرير الذي خاضه المجتمع معهم ، فأقصاهم وهمّشهم ..

ومع تراجع مدّة الاستعمار الجغرافيّ في العصر الحديث ، وظهور الاستعمار الفكريّ والغزو الثقافيّ لبلاد المسلمين ، ثمّ تراجع المدّ القوميّ واليساريّ ، وظهور الصحوة الإسلاميّة تياراً كبيراً ، وخياراً أوّل للأمة عادت رحي الموقف الأوّل إلى الظهور ، تدور من جديد ، فكانت المحطة الثالثة من محطات الموقف من الإسلام ونبّه ﷺ ، وهي محطة حملة التشويه والسخرية والاستهزاء ، باسم الأدب ، وباسم الحرّيّة الشخصيّة ، وباسم حرّيّة الرأي والإبداع ، ويقود لواءها هذه المرّة الحداثة الغربيّة الملحدة ، ومن ورائها قوى الاستكبار العالميّ ، التي تسعى لبسط نفوذها وهيمنتها على أمم الأرض وشعوبها ، بدعوى أنّهم متخلّفون عن ركب الحضارة ، وأنّ أولئك هم أصحاب التقدّم الحضاريّ ، والوصاية على نشر الديمقراطية ، والدفاع عن حقوق الإنسان ..

ثمّ لا بدّ لنا أن تساءل : من أين أتينا ؟ ويأتينا الجواب القاطع من القرآن

الكريم : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ .. ﴾ (١٦٥) آل عمران ، فلا بدّ أنّنا نتحمّل نحن المسلمين قدراً كبيراً من المسؤوليّة عمّا حدث ، لأسباب ومواقف ، قد تختلف بين فئة وأخرى ، وعلى حسب ما تكون عليه من موقع ومسؤوليّة ..

فماذا وراء هذه الإساءات . ؟ إننا يمكننا أن ننظر إلى هذا الموضوع من عدّة زوايا مجملّة ، بعدما تحدّثنا باختصار عن المحطّات التاريخيّة ، التي مرّت بها علاقة الغرب بالإسلام ، وهي لا تزال تتجاوز في هذا العصر ، ثمّ تحتاج كلّ زاوية منّا إلى بيان موجز ، وتفصيل غير مسهب :

١ - الزاوية الأولى : زاوية أزمة الحضارة الغربيّة على وجه العموم ، وما تعاني من تحبّطات .

٢ - الزاوية الثانية : أزمة العقيدة النصرانيّة بحدّ ذاتها ، وما تعانيه من تناقضات في المواقف ، واختلال في الأقوال والتصريحات ، ممّا هو ناشئ من مصادر النصرانيّة نفسها .

٣ - الزاوية الثالثة : أزمة الصليبيّة العالميّة والتنصير ، وما تتعرّض له من انتكاسات متنوّعة ، وعلى أصعدة متعدّدة ، حتّى على مستوى المسؤولين الدينيّين والقادة .

٤ - الزاوية الرابعة : زاوية النموّ السريع للإسلام في الغرب ، وتخوّف الغرب من آثار ذلك ، وعواقبه في المستقبل القريب .

٥ - الزاوية الخامسة : زاوية واقع الضعف المزري للأمة الإسلاميّة ، وتقصيرها وتفريطها ، وإساءة بعض أبنائها إلى دينها وقيمها .

١ - فأما الزاوية الأولى : زاوية أزمة الحضارة الغربيّة على وجه العموم وتحبّطاتها ، فيمكن توضيحها ، والإشارة إلى أهمّ جوانبها في النقاط التالية :

* شهادة كثير من علماء الغرب ومفكّريه أنّ العدّ التنازليّ للحضارة الغربيّة قد بدأ منذ زمن بعيد ، وأنّ مسألة انهيار الحضارة الغربيّة مسألة وقت ،

والبديل المرشح لمراث هذه الحضارة هو الإسلام .. والمعطيات والأدلة التي يسوقها هؤلاء على ذلك كثيرة ، أهمّها :

● - الفساد الأخلاقيّ : من الفساد الجنسيّ ، والشذوذ الجنسيّ ، وأمراضهما المتفشية ، والخمر والمخدّرات ، والجريمة المنظّمة ، وتحكّم مافيا الفساد بكثير من المجتمعات الغربيّة ومقدّراتها ، وتفكّك الأسرة ، وسيرها في طريق الانهيار ، وضياح الطفولة ، وفساد أوضاع المرأة ، وشيخوخة المجتمعات وتاكلها ، والمجتمع القائم صورة لا روح فيه ولا قيم ..

● - الانشطار الإنسانيّ النوويّ للمجتمعات الغربيّة ، وتسلب الأنايّة وتقديس الذات : حتّى أصبح الفرد محور الفلسفة ، التي يقوم عليها المجتمع ، ولولا النظام الصارم الذي يحكمهم لانهار المجتمع منذ عهد بعيد .

● - انهيار القيم في المجتمعات الغربيّة ، وسنة الله في الحضارات أنّ الحضارة عندما تفقد قيمها تؤذّن بسقوطها وانهيارها ، ولو بعد حين : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ الإسراء .

● - اعتزاز الغرب بالقوّة المادّيّة ، والعلوم الدنيويّة ، واغتراره بها ، وارتيكانه عليها ، وبغيه في الأرض وتجبره ، وظلمه وعدوانه ، وما مآل المفسدين المستكبرين إلّا إلى تباب ..

● - وإنّ جزءاً لا يتجزأ من بغي الغرب وطغيانه : عدوانه على قيم الآخرين ، واستخفافه بها ، وبوجه خاصّ عدوانه على القيم الإسلاميّة الإنسانيّة الرفيعة ، فهذه بضاعة الفارغين ، كما أنّه يخشى أن يفني عقلاؤه إلى قيم الحقّ ، ممّا يجعل بسقوط منظومته المتأكلّة المهترئة ..

* إفلاس الحضارة الغربيّة من القيم الروحيّة ، وفقد الكنيسة للهيمنة

الروحيّة على الشعوب التي تؤمن بها .

ولأنّ مثل الغرب في إدباره عن الإسلام ، وكيده الدائب له كمثّل المريض الذي يأبى أن يعترف بمرضه ، ويأبى أن يعترف للطبيب بطبّه ، ولا يكتفي بذلك ، بل يرفع أعلى صوته ، ويدّعي بغرور لا يحسد عليه أنّه الطبيب الأوحد ، لجميع الناس ، ومن كافّة العلل والأمراض .!؟ إنّ الناس لا يمكن أن يستجيبوا له إلّا في حالة واحدة ، وهي إذا فقدوا عقولهم .. وأظنّ أنّهم لن يتخلّوا عن عقولهم بهذه السهولة ..

٢ - وأمّا الزاوية الثانية : وهي أزمة العقيدة النصرانيّة بحدّ ذاتها ، وما تعانیه من تناقضات في المواقف ، واختلال في الأقوال والتصريحات ، ممّا هو ناشئ من مصادر النصرانيّة نفسها ، وفقدتها لمصادقيّة الثبوت ، ممّا حمل كثيراً من أتباعها على الانفضاض عنها ، فقد كتب العلماء والباحثون حتّى من النصارى أنفسهم عن ذلك الكثير ، وأثبتوا من كتبهم نفسها اختلال عقائدهم بدءاً من عقيدة التثليث ، التي لا تجد سنداً من منطق العقل ، ولا حجة من النقل .. وقد كشف الدكتور محمّد عبده يمانيّ ، جانباً مهماً من تاريخ ذلك المعاصر وملابساته ، إذ يقول في معرض حديثه عن دور وسائل الإعلام تُجاه نُصرة النبي ﷺ : " .. مواجهة أهل الكتاب بما جاء في سفر أشعيا ، الذي عثر عليه كاملاً في إحدى مغارات الأردنّ سنة /١٩٥٨/ م ، مع مخطوطات دينيّة كثيرة ، وقد كان الرهبان والمؤمنون يختفون في هذه المغارات رهبانيّة ، أو خوفاً من أهل الشرك أن يقتلوهم ، أو يفتنّوهم عن دينهم ، كما كان الحال في قصّة أهل الكهف ، وكان الموجود من سفر

أشعياً في التوراة جزءاً ممّا جاء في السفر المكتشف ، وقد قام الفاتيكان بفحص هذا السفر ودراسته من سنة ١٩٦١/ م إلى ١٩٦٥/ م فتيّن لهم أنّ لهذا السفر تأثيراً كبيراً على قواعد المسيحية ، وأنها تلتقي مع الإسلام في كثير من الأصول ، فأصدر الفاتيكان كتاباً أثنوا فيه على الإسلام خيراً ، ودعوا فيه إلى الحوار مع المسلمين ، وإلى نسيان الماضي ، ثمّ أصدر الفاتيكان وثيقة أخرى هامّة ، تضمّنت اعترافاً بالإسلام لأوّل مرّة ، جاء فيها كما ذكرت : " إنّ كلّ من آمن بعد اليوم بالله خالق السموات والأرض ، وربّ إبراهيم وموسى ، فهو ناجٍ عند الله ، وداخل في سلامه ، وفي مقدّمتهم المسلمون " .

في هذه الفترة انتهز الفاتيكان فرصة وقوف المسلمين بعرفة سنة ١٩٦٥/ م فوجّه من إذاعته تهنئة إلى الملك فيصل رحمه الله ، وإلى المسلمين بأداء مناسك الحجّ ، وأجاب الملك على التحيّة بمثلها من الإذاعة ، ولم يلبث الفاتيكان أن وجّه الدعوة إلى الحوار مع المسلمين للتعاون بخصوص حقوق الإنسان ، وقد ذهب الدكتور معروف الدواليبي رحمه الله بأمر من الملك فيصل مع السفير السعوديّ في روما إلى الفاتيكان ، وتمّ الحوار مع وزير الدولة في الفاتيكان الكاردينال " بينادولي " بكلّ مودّة واحترام ، وتقرّر مواصلة الحوار فيما بعد ، وقد أبلغ الدكتور الدواليبي الملك فيصل بنتائج اللقاء الودّيّ ، ثمّ سافر وفد من علماء المملكة ، كنت أنا واحداً منهم ، وتمّ الحوار مع الفاتيكان في جوّ من الاحترام المتبادل ، ثمّ دعانا مجلس الوحدة الأوروبيّ في " ستراسبورغ " إلى جنيف لفتح الحوار مع مجلس الكنائس العالميّ البروتستانتيّ ، ثمّ دعينا إلى وزارة العدل الفرنسية ، ثمّ إلى جمعية الصداقة السعودية الفرنسية ، وكانت لقاءاتنا يسودها روح المودّة والتعاون ، وفي يوم مغادرتنا الفاتيكان خاطبنا الكاردينال " بينادولي " قائلاً : " لقد قرّرنا إيقاف

التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي ، ونحن نطلب منكم أن تعودوا إلينا بالبشارة " يريد البشارة كما جاءت في سفر أشعيا ، والتي تقول : " بعد المسيح يأتي نبي عربي من بلاد فاران - وفاران باللغة الآرامية هي بلاد الحجاز - وعلى اليهود أن يتبعوه ، وعلامته أنه إن نجا من القتل فإنه النبي المنتظر ، لأنه يفلت من السيف المصلت على رقبة ، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قدّيس " وهذا النصّ شاهد عليهم بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمْ

الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ البقرة ، وقد كتب البابا بولس السادس بعد ذلك إلى الملك فيصل رسالة إجلال واحترام ، ذكر له فيها أنّ السفير الإسرائيلي في روما طلب في اليوم التالي لسفر الدكتور الدواليّ مقابلة الكاردينال " بينادولي " ، وطالب إيقاف الحوار بين الإسلام والمسيحية ، ثمّ كرّر الطلب في خمسة أيام متتالية ، ثمّ لم يمض بعد ذلك إلّا وقت قصير حتّى فوجئ العالم بموت البابا بولس في ظروف غامضة ، ثمّ مات بعده الكاردينال " بينادولي " فتوقّف الحوار ، ممّا يدلّ على صلة قتلة الأنبياء بموت البابا والكاردينال ، لأنّهما رفضا طلب السفير الإسرائيليّ بإيقاف الحوار مع المسلمين .

" ولعلّ من الأمور المهمّة جدّاً ما نشر حديثاً في كتاب : " مُحمّد

مؤسّس الدين الإسلاميّ ، ومؤسّس إمپراطوريّة المسلمين " لمؤلّفه : القسّ جورج بوش المتوفّى سنة /١٨٥٩/ م ، وهو الجدّ الأكبر للرئيسين جورج بوش الأب والابن ، ورغم أنّ الكتاب مليء بالطعن والإنكار والخبث ، فإنّ المؤلّف يناقض نفسه تحت ضغط الحقائق الدامغة ، والتي يعرفها في العهدين القديم والحديث فهو يؤكّد أنّ النبيّ مُحمّداً ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل ، ويقرّ أنّ

النبوءات المسيحية واليهودية تشير إلى ظهوره وانتشار دعوته ، كما يقرّ هو نفسه بصحة نبوته ورسالته ﷺ ، وانتشار دعوته ، ويشير إلى معجزة الإسراء والمعراج ، فينقل ممّا هو مكتوب عندهم أنّه سيناطح " جند السموات " ، وأنّه هو " النجم إذا هوى " ، وقد وصفه بأنّه النبيّ ، وأنّه الرسول ، ثمّ أرجع ذلك إلى عقيدة القضاء والقدر ، وأنّه لا يقع في ملك الله إلّا ما يريد الله ، ثمّ يقول : " إنّ الله أراد أن ينتشر الإسلام ، ولكن إلى حين ، ثمّ يعودون إلى حظيرة الكنيسة ، وأنّ الله أرسله عقوبة لأصحاب الديانات السالفة عندما انحرفوا ، ويقول : إن الانتصارات الباهرة التي حقّقها النبيّ ﷺ ، وامتداد الدولة المذهل في ثمانين سنة فقط لا تفهم إلّا أنّها من عناية الله المقدّرة سلفاً ، ولكنّه يرى أنّها جاءت تأديباً لأصحاب الديانات السالفة الذين ضلّوا عن سواء السبيل ، وقد ترجم الكتاب إلى العربيّة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ من الأردنّ ، وهذا الكتاب مهمّ لفهم عقيدة المحافظين الجدد ، وفهم السياسات الأمريكيّة الداعمة لليهود بغير حدود ، وهو واحد من مجموعة كتب هذا القسّ ، الذي أعماه التعصّب عن رؤية النور المحمّديّ ، وقد وعد المترجم بترجمة هذه الكتب ، وطلب الدعم والعون ممّن يستطيعون ذلك " (١) .

وممّن يصرّون انفضاض الشعوب النصرانيّة عن الكنيسة أدقّ تصوير المفكر المسلم محمّد أسد في كتابه : " الإسلام في مفترق الطرق " إذ يقول : " إنّ أهمّ العوامل الفكرية التي تعوق التجديد والإحياء الدينيّ في أوروبا هو الرؤية المعاصرة لطبيعة المسيح على أنّه ابن الربّ ، فالمفكرون الأوروبيون

(١) - مجلّة الرابطة العدد/٤٩٠ / ربيع الأوّل ١٤٢٨ هـ ص/٥٦ .

ينفرون غريزياً من صورة الإله التي تروّجها تعاليم الكنيسة ، ولكنّ هذا هو التصرّور الوحيد المألوف لهم ، ولذلك بدءوا برفض وإنكار صورة الربّ ، ومعها كافّة الديانات " (١) .

ويقول بعض الفلاسفة الغربيين : " إنّ المأساة الحقيقيّة للمسيحيّة هي الدين المسيحيّ نفسه .. أي وعظ الناس بفكرة الربّ الإنسان " (٢) .

ومع كلّ ذلك فإنّ الغرب نصرانيّ صليبيّ حتّى العظم ، عصبيّة ، أو حرصاً على بعض المصالح والمنافع المادّيّة ، أو حيث لا بدّيل عن ذلك إلّا الخواء الروحيّ القتال ، بخلاف ما يشاع ويقال عن علمانيّة الغرب ، وإنّ التحليل لعلمانيّة الغرب ، وفكّ الرباط الدينيّ بين الكنيسة والدولة يوضّح بالرغم من كلّ ما يقال أنّ الدولة والمجتمع أي السياسة في أوسع معانيها إنّما هي ذات صبغة مسيحيّة ، بالرغم من كلّ ما يساق لنفي هذه الحقيقة ، سواء كان هذا من الدين المسيحيّ أو الحضارة المسيحيّة ، لذلك يرى جيفري لانج أنّ تعبير علمانيّة الغرب تعبير خاطئ ، ويجانبه الصواب تماماً .

إنّ الدين والدولة في جمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة على سبيل المثال يبدوان منفصلين ، ولكن هناك أعياد وإجازات دينيّة تقرّها الدولة وتحميها ، وهناك كذلك جمعيّات دينيّة تحظى باعتراف وحماية الدولة ، وتحصل الجهات الماليّة الحكوميّة ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها ، ويقوم مدرّسون حكوميّون بتدريس مادة الدين في المدارس الحكوميّة ، كذلك يتمّ الأخذ بالقسم بالله أمام

(١) - انظر : " الإسلام كبديل " د. مراد هوفمان ص/٢٠٩ .

(٢) - المرجع السابق ص/٢٠٥ .

المحاكم ، وفي القوّات المسلّحة ، كما يتمّ توظيف رجال الدين بهذه القوّات ، وتجدر على حوائط الفصول الدراسيّة بالمدارس المسيح مصلوباً " (١) .

٣ - وأمّا الزاوية الثالثة : أزمة الصليبيّة والتنصير ، وما تعرّض له من انتكاسات متنوّعة ، وعلى أصعدة متعدّدة ، حتّى على مستوى المسؤولين الدينيّين والقادة ، فيمكن إجمال مظاهرها في النقاط التالية :

● - فشل المخطّطات الصليبيّة والتنصيريّة في تحقيق أهدافها وخططها ، وبخاصّة بعدما أعلن المنصّرون في مناسبات مختلفة ، أهدافاً اعتبروها بدهيّة بما يملكون من قوّة مادّيّة حاضرة ، وقوّة داعمة بلا حدود ، عن محاصرة الإسلام وتنصير أبنائه ، في بلدان كثيرة ، وبخاصّة في إفريقية ، ثمّ باعوا بالخبيثة الظاهرة على كلّ مستوى .

● - الشعور بالإحباط تجاه الصحوة الإسلاميّة ، وما آتت من ثمار في شتّى بقاع الأرض ، وفي مقابل ذلك هناك ردّة عامّة عن الكنيسة في المجتمع الغربيّ ، وتتمثّل في ظاهرة : هجر الغربيّين للكنائس ، وبيع الكنائس ، وإسلام القسس ، والفضائح الأخلاقيّة للقسس ، التي لا تزال تتوالى وتتفاعل ، والإحصاءات الدقيقة تكشف عن إفلاس الكنيسة ورعاتها ، وأفول شمسها على مختلف الأصعدة ، فالخطّ البيانيّ للإسلام في صعود وارتفاع ، والخطّ البيانيّ للنصرانيّة والتنصير في هبوط وتنازل ، على الرغم من كلّ ما يملكه القوم من أموال وإمكانات ، فكيف لا يتّخذون ردّات فعل المحبط البائس اليائس ؟!

ويعبّر عن ذلك أدقّ تعبير الدكتور مراد هوفمان في كتابه : " الإسلام

كبديل " إذ يقول :

(١) - المرجع السابق ص / ١٤٢ .

" الشرق يمثل عالم النوعية والكيف ، والغرب يمثل عالم المادة والكم ، الشرق يمثل الحضارات التي جمعت بين الروح والمادة ، والغرب يمثل الحضارة المادية الجشعة ، ويقتصر عليها ، الشرق يمثل دفء العلاقات الإنسانية الحميمة ، وقيم الأخلاق النبيلة ، والغرب يمثل العلاقة النفعية ، والأخلاق المادية النفعية ، الشرق يمثل القيم الأخلاقية والإنسانية الثابتة ، والغرب يمثل القيم النسبية المتغيرة ، على يد كل فرد ، والتي لا تعرف الثبات ، ولا تعترف به .

ولا أدلّ على ما نقول من أنّ الغرب وهو يملك هذه القوة المادية ، التقنية المتقدمة ، التي يضمن بها ، ويدلّ بها على أمم الأرض ترى كثيراً من أفرادها يهربون من هذا الواقع باللجوء إلى أديان الشرق عامة ، ودين الإسلام على وجه الخصوص " (١) .

● — البلبلة الفكرية التي يعيشها الغرب على مختلف الأصعدة والاتجاهات ، حتى الكنيسة التي كان يؤمل منها أن تمثل قوة التوجه الروحي غرقت في مستنقع المادة أكثر من الماديين أنفسهم ، بل غرقت في مُستنقع الإثم والرذيلة ، حتى أباحت جريمة الشذوذ وباركتها ، ومالأت الماديين الملاحدة في قضايا عديدة ، مما دفع كثيراً من أتباعها إلى الانصراف عنها .

وقد أشار إلى جانب من ذلك الأمير شارلز عندما صرّح بتاريخ ١٠/٧/١٩٩٦م ، في أثناء إلقائه كلمة في حفل عشاء : " لقد حاول العلم جاهداً أن يتحوّل إلى ديكتاتورية ، وأن يحتكر رؤيتنا وفهمنا للعالم ، بفصل الدين عن العلم ، إني أؤمن بأنّ الإبقاء على القيم الحضارية مرتبط بالإبقاء على إحساس دفين بالمقدس في قلوبنا " ، واستطرد الأمير شارلز قائلاً :

(١) - وقد سُمّي كتاباً له آخر : " الإسلام في الألفية الثالثة ، ديانة في صعود " فأثار حفيظة القوم وغيظهم ، وكان سهماً عليهم في الصميم .

"إنني على اقتناع تام بأنّ عالماً يمثل فيه العلم والدين مكونات أساسية لرؤيتنا هو عالم أكثر تحضراً وحكمة وتوازناً ، ولقد استطاع العالم الإسلامي أن يحافظ بشكل أفضل على رؤية العالم المتسقة والروحانية هذه ، وهذا ما لم يتحقق لنا في الغرب " .

لقد استطاع الإسلام بدجمه الدين بالدولة أن يقدم مفهوماً يختلف تماماً عن مفهوم الغرب للدين ، ولقد أشار وليّ عهد بريطانيا الأمير شارلز في الخطبة التي ألقاها يوم ٢٧/١٠/١٩٩٣م في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية إلى الحقيقة التالية : " إننا نقع في شرك يتسم بالغرور الشديد إذا ما اختلط علينا الأمر ، وقدّرنا أنّ الحداثة في بلدان أخرى هي أن يصيروا مثلنا . جوهر الإسلام هو رؤيته الاندماجية للكون ، لقد خسر الغرب الرؤية الاندماجية رويداً رويداً حتى أضاعها " (١) .

● - الفساد الأخلاقيّ الذي يتكشفُ يوماً بعد يومٍ عن فضائح رعاة الكنائس ، واستغلالهم للدين ومواقعهم الكنسيّة ، للتغريب بالناس ، وإشباع رغباتهم الجنسيّة ، وشذوذهم وفسادهم ، وفي كلّ يوم تطالعنا الأخبار بعجائب تكاد لا تصدّق .! ويكفي أن نعلم أنّ الأموال التي دفعتها بعض الكنائس الأمريكيّة لضحايا الشذوذ الجنسيّ لرعاتها ، واغتصاب الأطفال ، والتغريب بهم تجاوزت ستّ مئة وستين مليون دولار ، لتسوية /٥٠٨/ قضية ، وأنها أنفقت أكثر من ملياري دولار لحلّ هذه القضايا وتسويتها ..

وفي خبر جديد بتاريخ ٧/٩/٢٠٠٧ م : أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة وافقت في سان دييجو بولاية كاليفورنيا على دفع /١٩٨/ مليون دولار لتسوية /١٤٤/ قضية ضدّ بعض رجال الدين ، الذين اتّهموا بانتهاكات جنسيّة (٢) .

(١) - " الإسلام كبديل " د. مراد هوفمان ص/١٤٥/ وص/١٣٩/ .

(٢) - المصدر موقع /bbc/ الإخباري .

وآخر ما سمعت من أخبار ذلك أن قساً استرالياً عاشر ابنتيه المراهقتين عشر سنوات لتثقيفهما جنسياً ، وادّعى أنّه كان يسعى لتدريهما على واجباتهما الزوجيّة ، فحكمت عليه المحكمة بالسجن ثماني سنوات ونصف ، وقال له القاضي : " إنّ التبجّح بالدين إنّما هو نفاق وخيانة " (١) .. فأيّ طهر يدّعيه هؤلاء ؟! وأيّ وصاية مزعومة على ملكوت السموات ، ودعاوى حقّ منح الرحمة والغفران ؟!

● وكرّد فعل عن كلّ ما سبق ، تقوم كثير من دوائر الغرب بتشجيع النكرات من المسلمين وغيرهم على نشر الإفك والعدوان ، وتجريء السفهاء على الإثم والبهتان ، باسم الفنّ والإبداع تارة ، وباسم الحرّية الشخصية ، وحرّية الفكر والكلمة تارة أخرى ، وتوفّر لهم الدعم والحماية ، وذلك لشقّ صفّ المسلمين ، وتشكيك ضعاف الإيمان بدينهم ، وغزو الأُمّة من الداخل .

على أنّ الحقيقة الموضوعيّة تقول : إنّ الغرب لا يمثّل موقفاً واحداً في كلّ شيء ، وإنّما هو مواقف وآراء ، متقاربة ومتباعدة ، وما يقرّه اليوم قد ينقضه في الغد ، وما تعترف به فئة قد تنكره أخرى أشدّ الإنكار ، وعلى سبيل المثال :

لقد تمّ إعلان الكنيسة الكاثوليكيّة عن تحليها عن عدّ الإسلام عدواً لها في المجتمع الفاتيكانيّ الثاني عام ١٩٦٤/م ، وتمّ تكوين لجنة بابويّة لشتون العلاقات مع الديانات غير المسيحيّة ، وضمت هذه اللجنة رجال دين على دراية واسعة ، وعلم غزير بالإسلام ، ويكثّنون له بعض الإعجاب ، وفي ١٩٨٥/١٠/٢٨ م أصدر البابا بول السادس المنشور البابويّ الذي جاء فيه :

" .. إنّ الكنيسة تحترم المسلمين الذين يعبدون الله الحيّ الخالد ، الرحيم القويّ ، خالق السموات والأرض " (٢) .

(١) - العربيّة نت .

(٢) - " الإسلام كبديل " د. مراد هوفمان ص/٢٠٩ .

فما صدّى هذا المنشور عند الآخرين ؟! وما موقف المسيئين منه ؟! على أنّ الكنيسة لا تزال بعيدة كلّ البعد عن استخلاص النتائج اللاهوتيّة المترتبة على المنشور البابويّ إن كان جاداً ، ومن حقّ الإنسان أن يتساءل : لماذا لا يتجرّأ أحد على ذكر محمد ﷺ ، ولو بكلمة واحدة ؟! في هذه المناسبة ، وفي مناسبات أخرى مشابهة ؟.

إنّ التقبّل والتسامح ، وإعلان الاحترام ، لا يمثّل كبير شيء ، ولا يكفي .. " يقول الشاعر الألمانيّ المعروف غوته : " التقبّل والتسامح مجرد خطوة لا بدّ أن تؤدّي إلى الاعتراف ، أمّا مجرد التقبّل فهو إهانة " (١) .

وبعد ؛ فإنّ من سنّة الله الماضية في الأمم والحضارات : أنّ القوّة المعنويّة ، قوّة المبادئ والقيم هي التي تغلب وتنتصر على القوّة المادّيّة ، التي عندما تفقد سندها المعنويّ فإنّما هي هيكّل كرتونيّ فارغ ، لا تستطيع الوقوف أمام آية عاصفة !.

٤ - وأما الزاوية الرابعة : زاوية النموّ السريع للإسلام في الغرب ، فيمكن رصدها وبيانها في النقاط التالية :

● - النموّ السريع للإسلام في المجتمعات الغربيّة أصبح حقيقة واقعة ، يرصدها كثير من الناس ، ويتحدّثون عنها بدوافع مختلفة ، ومظاهر ذلك متعدّدة ، أهمّها :

● - ظاهرة الدخول في دين الله ، من الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، ومن مختلف فئات المجتمعات ، حتّى من عليّة القوم من رجال دينهم ، وبجهود متواضعة محدودة ..

(١) - " الإسلام كبديل " د. مراد هوفمان ص/ ٢٨٥ .

● - ظاهرة بناء المساجد ، وإقامة المراكز الإسلامية ، والنشاط الدعوي المؤثر ، لجماعات من المسلمين ، ليس لها من سند إلا الله ، ثم ما تبذله من أموالها في سبيله ..

● - وبما أنّ السلوك الحضاريّ المتميّز لكثير من الدعاة في الغرب ، والأسلوب الدعويّ المعاصر ، بما فيه من برامج هادفة ، وطرح متميّز قد آتى ثمراته ، في إقبال الناس على الإسلام ، والدخول في دين الله حباً ورغباً .. فإنّ أعداء الإسلام اليوم بإساءاتهم وعدوانهم يريدون لهذا السلوك أن يرتدّ إلى العنف ، أو إلى مرحلة الدفاع التي كان عليها منذ نصف قرن ..

● - ظاهرة تحوّل العمل الدعويّ إلى مؤسسات ، دعويّة ، وخيريّة ، وأكاديميّة ، تستفيد من أنظمة تلك المجتمعات وقوانينها ، وتقوم على تنظيم إداريّ سليم ، ويقدم لها الدعم من جهات شعبية ، وحكوميّة رسميّة ، ودعويّة متخصصة ، كالمملكة العربيّة السعوديّة ، ودول الخليج ، ورابطة العالم الإسلاميّ ، والندوة العالميّة للشباب الإسلاميّ ، والهيئة الخيريّة العالميّة ، والهيئة العالميّة لتحفيظ القرآن ، وغيرها ..

٥ - وأما الزاوية الخامسة : وهي زاوية واقع الضعف المزري للأمة الإسلاميّة ، وتقصيرها وتفريطها بحقّ دينها ونبيّها ﷺ على وجه الخصوص ، وإساءة بعض أبنائها إلى دينها وقيمها ، أو لامبالاتهم بذلك .. فتلك ظاهرة مؤسفة ، لا يختلف عليها اثنان ، ولولا شعور هؤلاء الغربيّين بضعف المسلمين لما أقدموا على ما أقدموا عليه ..

وإنّ ضعف المسلمين المزري ، وتفريطهم المتخاذل له مظاهر شتى ،

تثيرها الأسئلة التالية ، وتكشف عنها :

● - أليست أمة الإسلام في أكثر بقاع الأرض تعيش تبعية عمياء للغرب ، قد فقدت هويتها وانتماءها ، همُّها أن يرضى عنها السادة المتجبرون ، ولو على حساب دينهم وقيمهم ومقدساتهم ؟!

● - أليس في أمة الإسلام من لا يبالي بدينه أدنى مبالاة ؟! ولا يلتزم بشيء من فرائضه ، يعيش ليأكل ويشرب ، ويتمتع ويلعب ، لا يعرف هدفاً لحياته ، ولا غاية لوجوده .

● - أليس في أمة الإسلام من يتبنّى فكر الغرب ونظريّاته وفلسفاته ، في كبير أموره وصغيرها ، دون وعي ولا تمييز ، ويدعو إلى ذلك ، ويعده سبيل تقدّم الأمة ورقّيتها ؟!

● - أليس في أمة الإسلام من يضطهد دعاة الحق والخير ، ويكيد لهم بالليل والنهار ، ويتّهمهم بأسوأ التهم ، ويستعدي عليهم ولاة أمر المسلمين ، ويظنّ أنّه من المصلحين ، ويسعى في الأرض فساداً ، والله لا يحبّ المفسدين ؟!

● - أليست أكثر بلاد الإسلام لا تحكم بشريعة الإسلام ، وإنّما تحكم بقوانين غريبة مستوردة من الشرق والغرب ، ونحن أمة رسالة ، وحملة دعوة ، أسعدت أمم الأرض وشعوبها قروناً طويلة ؟! فنشأ من ذلك صراع فكري واجتماعي ، وصل بالأمة إلى درجة التفرّق والتمزّق ، وشيوع العداوة والبغضاء .. وربّما غرق المجتمع الواحد في دوامة من العنف ، وانتهاك الحرمات وإراقة الدماء ..

ولا عجب بعد هذه المظاهر أن يجنح بعض الشباب إلى الغلوّ والتطرّف ، لقلة بضاعته من العلم الشرعيّ ، وضعف وعيه ، وانطماس بصيرته ، وأن يتأثّروا بأصحاب الأهواء ، ودعاة الفتن ، فينساقوا وراءهم إلى ما لا تحمد عقباه ..

وكان من أثر ذلك أنّ الأُمّة الإسلاميّة في أوطانها ، بما هي عليه من ضعفٍ وتخلّف ، وتبعيّة عمياء قد خذلت طليعتها المرابطة في وجه الحضارة الغربيّة ، فجعلتها مكشوفة الظهر ، مخذولة عن النصرة في كثير من المواقف ..

فمن الممكن أن نفهم بناء على ما تقدّم : أنّ موقف الغرب الذي يحتضن الإساءة إلى دين الإسلام ، ومقام النبي ﷺ إن هو في حقيقته إلاّ ردّة فعل شعوريّة أو لا شعوريّة على انتصار الإسلام وتفوّقه ، على الحضارة الغربيّة في ميادين مختلفة ، في الوقت الذي ظنّ فيه الغرب واهماً أنّه قد ضمن لنفسه التفوّق المطلق على الإسلام والمسلمين ، وعلى عامّة أمم الأرض ، بما ملك من القوّة المادّيّة ، والتقدّم التقنيّ ..

ومع كلّ ذلك فإنّه يسعنا أن نقول : إنّ ما وقع ، ولا يزال يقع من الغرب وللأسف ، ولا يتوقّع له أن ينقطع من عدوان على قيم الإسلام ، وإساءة متعمّدة إلى سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ ، لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، فربّ ضارة نافعة ، ولعلّ الأُمّة الغافية أن تصحو من رقدتها ، وتتخلّى عن غفلتها ، وتعزم على الرشد أمرها ، وتعيّ مسؤوليّتها ، وتعرف دخائل عدوّها ، وإنّ ممّا ينبت الربيع (ربيع الغرب الزائف) لما يقتل حبّطاً ، أو يُلَمّ ، كما يقول نبينا ﷺ ..

فينبغي أن نعلم ونوقن أنّ ما حدث ويحدث إنّما هو عقوبة عاجلة لأُمّة تاهت عن هُويّتها ، وفقدت انتماءها ، وافتنن كثير من أبنائها بكيد أعدائهم ، حتّى رأوا حسناً ما ليس بالحسن ، كما قال الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته حتّى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ورجاؤنا بالله تعالى ألا يطول ليل محنة الأمة ، وأن تصحو صحوه تملأ
الأرض رحمة وعدلاً ، بعدما ملئت ظلماً وبغيًا ..

* - والسؤال الذي يطرح نفسه علينا بقوة : فما العمل الواجب إذن . ؟ !

- إننا باختصار بحاجة إلى السلوك الإيجابي الواعي ، لا ردة الفعل الآتية

المرتجلة ، التي تذهب مع الأيام أدراج الرياح ، ولا يكون لها من أثر يذكر ، في

بناء الأمة وكيانها .. وهذا ما سنتحدث عنه بإذن الله في المباحث التالية :



المبحث الثاني

بناء الجليل المؤمن المحب لرسول الله ﷺ

أي حب قد ناله المصطفى ﷺ ؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ ، قَالَ : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ ، فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ ، قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ ، قَالَ : فَيُبْغِضُونَهُ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ) .
وفي رواية عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ قَالَ : كُنَّا بِعَرَفَةَ فَمَرَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ عَلَى الْمَوْسِمِ ، فَقَامَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ لِأَبِي : يَا أَبْتَ إِنِّي أَرَى اللَّهَ يُحِبُّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : لِمَا لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، فَقَالَ : بِأَيْبِكَ أَنْتَ ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِ حَدِيثِ جَرِيرٍ عَنْ سُهَيْلٍ " (١) .

فإذا كان الله تعالى يحبّ الرجل الصالح بهذه الصورة الودودة ، ويجعل جبريل عليه السلام يحبه ، وأهل السموات يحبونه ، ويضع له القبول في الأرض ، فكيف نستطيع أن نتصور عظم محبة الله تعالى لرسوله ﷺ ، ونحن

(١) - رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم /٢٩٧٠/ ، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم /٤٧٧٢/ ، وهذا لفظ مسلم .

نرى هذه المئات من الملايين ، وعلى كَرّ هذه القرون ، الذين يحبّون الرسول ﷺ من قلوبهم ، ويتمنّون لو فدوه بأنفسهم وأرواحهم ، وآبائهم وأمهاتهم .! لقد وضع الله لنبيّه ﷺ أعظم القبول في الأرض ، رغم أنف أعدائه الشائنين ، ومن جحدوا نعمة الله على الإنسانية به فكانوا من الأخسرين ، ولينتظروا من الله الخزي في الدنيا ، وسوء العقبى في الآخرة ، فهم الأقلّون الأذلّون ، مهما ملكوا من نشب الدنيا وحطامها .

وإنّ أمضى سلاح نقارع به حملات الافتراء والتشويه ، والسخرية والاستهزاء أن يتسلّح شباب الأمة بالعلم الشرعيّ الصحيح ، والمعرفة الواسعة بسيرة النبيّ ﷺ وهديه وسنته ، وتمتلئ قلوبهم إيماناً بالله ورسوله ﷺ وبقيناً ، وحبّاً وإجلالاً ، ممّا يوجّج الغيرة الصادقة ، ويدفع إلى نصرة الحقّ ، والدود عن حيّاضه .. وينبغي أن يكون ذلك منذ الطفولة ، لينشأ المسلم وقد أشرب قلبه حبّ الله ورسوله ﷺ ، ولن تُغلب أمةٌ يتلأأ في جنباتها لواء الحبّ لله ورسوله ﷺ ، وتؤثر طاعته وأتباعه ، والدفاع عن حرّماته على كلّ شيء ..

إنّ الواقع يشهد أنّ أكثر المسلمين لا يعرفون نبيّهم حقّ المعرفة ، ولا يقدّرونه حقّ قدره ، فمن ثمّ عندما تُلقى إليهم الشبهات تلقى آذاناً صاغية ، وقلوباً فارغة ، وثقافة ضحلة خفيفة ، فتمكّن الشبهات ، وتفعل فعلها .. وكيف لهم أن يشعروا بالغيرة على رسول الله ﷺ .! وهم لم تستر عقولهم بمعرفته ، ولم تفض قلوبهم بحبّه .؟ وقد يما قيل : " المرء عدوّ ما جهل .! " .

وإنّ أكثر مجتمعاتنا الإسلاميّة تعاني من ضمور ثقافة الحبّ لله ورسوله ﷺ ، وتشكو من جفاف القلوب ، وتصحّر الأرواح وجفوتها .. فما السبب في ذلك .! إنّ العلّة والسبب فينا نحن .. الآباء ، والأمّهات ، والمعلّمون ،

والمربون ، والمناهج التعليمية التلقينية ، والمؤسسات التربوية ، والمحاضن الدعوية ..
وما أشبه ذلك .. ولكل منها حظّه المزري من التقصير في مسؤوليته ..

فكم من الدعاة من يهمل لغة الحبّ والعاطفة ، والرفق والرحمة ، ويحمل
لواء الدعوة بمنهج صعب ، وخطاب خشن ، ويلقى الناس بوجه كربه !
وكم من الدعاة من يناله حظّ لا يحسد عليه ، من قول الرسول ﷺ
وتحذيره : (إنّ منكم منقرين) ، فهلاًّ نعيد النظر بأساليب خطابنا ، وندقق في
مراجعة سلوكنا .! ونطلب من إخواننا النصح والتسديد .!؟

إن الحبّ أعظم قوة دافعة ، وعاطفة محرّكة ، وطاقّة باعثة ، به يظهر
الفرق جلياً بين إيمان المؤمنين ، وأفكار الفلاسفة المهوّمين ، وبه يكون الإيمان
حيّاً نابضاً ، بعد أن يكون مغشّى بغشاوات الشهوات والأهواء ، مترعاً بحبّ
الدنيا ، والسعي وراء حطامها ..

إن هذه القوّة الدافعة تنهض بالهمم الوانية ، فتلحق المقلّين المقصّرين
بركب الكثيرين السابقين ..

وإنّ الحبّ إن لم يوجّه إلى الغايات الشريفة ، والأحوال الزكيّة ، توجهّه
إلى الأهواء المفسدة ، والشهوات المدمّرة ، وأصبحت حياة الإنسان بذلك
تافهة رخيصة ، أسيرة مستعبدة ، ضائعة مضيّعة ..

إنّه طاقة ضخمة ، لا تقبل الإهمال والتعطيل ، وإلاّ فإنّها تنقلب إلى
قوّة باغية مفسدة .. كواقع حال كثير من أبناء الأمة اليوم .

لقد استغرقت أهواؤنا وشهواتنا هذه الطاقة الحيّة ، والمنحة الإلهيّة
البديعة ، وضيّعت منها الكثير الكثير ، وراء فتنة النساء والأولاد ، والأموال
وحبّ الجاه ، والتفاخر بالمظاهر وأنواع الزينات ..

إِنَّ الْحَبَّ لِلَّهِ تَعَالَى هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ ، والمدخل الأجلّ لبناء جيل قويّ في إيمانه ، راسخ في مواقفه ، ثابت أمام الفتن والحن ، وَإِنَّ حَبَّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ ﷺ أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ..

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۚ ۞ ﴾ البقرة .

يقول الإمام ابن جزّي في تفسيره لهذه الآية : " اعلم أنّ محبة العبد لربه على درجتين : إحداهما المحبة العامة التي لا يخلو منها كلّ مؤمن ، وهي واجبة . والأخرى المحبة الخاصة ، التي ينفرد بها العلماء الربانيون ، والأولياء ، والأصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ، فإن سائر مقامات الصالحين : كالخوف ، والرجاء ، والتوكل ، وغير ذلك ، فهي مبنية على حظوظ النفس ، ألا ترى أنّ الخائف إنّما يخاف على نفسه ، وأنّ الراجي إنّما يرجو منفعة نفسه ، بخلاف المحبة ، فإنّها من أجل المحبوب ، فليست على المعاوضة .

واعلم أنّ سبب محبة الله معرفته ، فتقوى المحبة على قدر قوة المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ، فإنّ الموجب للمحبة أحد أمرين وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال : الموجب الأوّل : الحسن والجمال ، والآخر : الإحسان والإجمال ، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع ، فإنّ الإنسان بالضرورة يحب كلّ ما يستحسن ، والإجمال مثل جمال الله في حكمته البالغة ، وصنائه البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار ، التي تروق العقول ، وتهيج القلوب ، وإنّما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر ، لا بالأبصار ، وأما

الإحسان فقد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر : ﴿ .. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢٤) إبراهيم ، ويكفيك أنّه يحسن إلى المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وكلّ إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه ، وهو المستحقّ للمحبة وحده .

واعلم أنّ محبة الله تعالى إذا تمكّنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجدّ في طاعته ، والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته ، والتلذّذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق إلى لقائه ، والأنس بذكره ، والاستيحاش من غيره ، .. وخروج الدنيا من القلب ، ومحبة كلّ من يحبه الله ، وإيثاره على كلّ من سواه ، قال الحارث المحاسبيّ : " المحبة تسليمك إلى المحبوب بكليّتك ، ثمّ إثارك له على نفسك وروحك ، ثمّ موافقته سرّاً وجهراً ، ثمّ علمك بتقصيرك في حبه " (١) .

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله . ! لأنّهم يعيشون مع الله .. ويشهدون أنّ الكون بما فيه خلق الله وملكه ، وأنّ الأمر أمره ، والنهي نهيه ، وأنّه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لأمره ، له الملك ، وله الحمد في السموات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ..

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله . ! لأنّهم يدعون الله رغباً ورهباً ، ويعبدون الله تعالى في السراء والضراء ، ولأنّ قلوبهم امتلأت بتعظيم الله وخشيته ، وإجلاله وهيبته .. ولا يلوّثون قلوبهم بالتعلّق بأحد سوى الله ..

(١) - التسهيل لعلوم التنزيل ١/٦٧ .

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! لأنهم يؤثرون مرضاة الله تعالى على أي هوى أو رغبة ، ويذلون في سبيل الله مهجهم وأرواحهم ، ويرون ذلك قليلاً في جنب الله ونصرة دينه . !

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! لأنهم يأوون إلى ركن الله المكين ، ويتمسكون بحبله المتين ، ويلوذون بحمى الله الذي لا يرام ولا يضام : ﴿ ..

وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١١١ ﴾ آل عمران .

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! لأنهم يتوكلون على الله ، ومن يتوكل على الله ، فهو حسبه ، فאלله تعالى حسبهم ، ونعم الوكيل .

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! مهما تقلبوا على جمر الابتلاء ، فهم يتلذذون بالصبر لله ، وفي الله ، لا ترهبهم قوة ، ولا تأسرهم شهوة ، ولا تحكمهم نزوة ، ولا يبالون بكيد ، ولا يحدهم قيد ..

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! لأنهم يشتاقون إلى الله مولاهم ، ويحبون لقاءه ، فيحب الله لقاءهم ، ويحسنون الظن بالله ، فيكرمهم الله بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

والذين آمنوا أشد حبا لله . ! إنها حقيقة تذهل عبدة الطاغوت ، وأولياء الشيطان ، وتقتلهم همماً وغمماً ، وتذهب كيدهم مع السراب ، وتجعل مكرهم وخططهم في تباب .. حقيقة تجعل الصراع بين الحق والباطل أكبر من قوة الباطل ، ومن صراع الند مع الند ، مهما ملك الباطل من قوة المادة ، وأسباب القوة ، ومهما وقف الحق مجرداً منها .. إنها تجعل الباطل يتصاغر أمام هيبة الحق وعزته : ﴿ .. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ١١٧ ﴾ الرعد .

واعلم أخي المؤمن أن أعظم ما يدفعك إلى تحصيل محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ ، ويجعل حبك لله أعظم وأشد من كل حب : أن تعلم أن محبتك لله ورسوله ﷺ ، هي أثر عن سبق محبة الله لك ، فإذا تحققت من نفسك أنك تحب الله ورسوله ﷺ ، فاستبشر أن الله تعالى يحبك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ ..

﴿ ٥٤ ﴾ المائدة . فذكر سبحانه أن أول صفة لهم : أنهم يحبهم الله تعالى .

وكذلك سبقت محبة رسول الله ﷺ للناس جميعاً ، حب أي منهم له صلوات الله وسلامه عليه ، لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين ، ومقتضى ذلك أن يحب الناس ، ويحرص على خيرهم وهدايتهم ، وهذا ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كانت دعوته لقومه ، وهو يناله أشد الأذى منهم : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (١) .

وإنما مثل ذلك كمثل محبة الوالد والوالدة للولد ، فكما أن محبة الوالد والوالدة لولدهما ، تسبق محبة ولدهما لهما ، ومحبة الولد لهما هي أثر عنها ، فكذلك محبة رسول الله ﷺ للإنسانية عامة ، وللمؤمنين خاصة ، تسبق محبتهم له ، وتتقدم عليها .

ومن لم يستشعر ذلك من نفسه ، ويحرص على تنمية محبة الله ورسوله ﷺ في قلبه ، فليبك على نفسه ، ولتقطع أنفاسه حسرات على ما فقد من حلاوة الإيمان وأنس اليقين وثمراته ، وليعلم أنه من القاسية قلوبهم ، الغافلين

(١) - رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم / ٣٢١٨ / ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم / ٣٣٤٧ / عن عبد الله ﷺ قَالَ : كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرْبُهُ قَوْمُهُ فَأَذْمُوهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : ..

المعرضين ، الغارقين في بحار الأهواء والشهوات ، مهما حافظ على رسوم ظاهرة ، وحرص على إقامة الاحتفالات ، واقتصر على إحياء الذكريات ، وأنه ممن يقابل الإحسان بالإساءة والنسيان ، مهما تحرك لسانه بأذكار وأوراد ، لأنها لا تؤدّي بما تحمل من معان وحقائق ، والمعوّل عند علام الغيوب على ما في القلوب ، من حقائق الإيمان اليقين ، وصدق الطاعة والاستجابة ..

قال في المواهب : " .. وإذا كان الإنسان يحبّ من منحه في دنياه ، مرة أو مرتين ، معروفاً فانياً منقطعاً ، أو استنقذه من مهلكة أو مضرة لا تدوم ، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ، ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول ؟!

وإذا كان المرء يحبّ غيره على مافيه من صورة جميلة ، وسيرة حميدة ، فكيف بهذا النبيّ الكريم ، والرسول العظيم ، الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم ، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم ، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة ، وأسبغ علينا نعمه باطنة وظاهرة ، فاستحقّ أن يكون حظّه من محبّتنا له أوفى وأزكى من محبّتنا لأنفسنا وأولادنا ، وأهلينا وأموالنا ، والناس أجمعين ، بل لو كان في منبت كلّ شجرة منا محبة تامة له ﷺ ، لكان ذلك بعض ما يستحقّه علينا .

ويقول القاضي عياض رحمه الله تعالى : " فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال ، إلى ما لا ينال بكسب ولا حيلة إلّا بتخصيص الكريم المتعال ، من فضيلة النبوة ، والرسالة ، والخلة ، والمحبة ، والاصطفاء ، والإسراء ، والرؤية ، والقرب ، والوحي ، والشفاعة والوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والبراق والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثاني والقرآن العظيم ،

وصلاة الله تعالى وملائكته ، وتأيدته بالمعجزات ، وما خصّه الله تعالى به من منازل الكرامة ودرجات القدس ، ومراتب السعادة التي تقف دونها العقول ، وتحار دونها الفهوم . ! " .

وهكذا طفحت قلوب الصحب الكرام رضي الله عنهم بحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله : يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه : (.. وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ، لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ) (١) .

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه : (مَا رَأَيْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ، كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرَبٍ) (٢) .
وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَّانٍ (أي ليلة اكتمال القمر) فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَإِلَى الْقَمَرِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ) (٣) .

وفي أهميّة الحبّة ، ومنزلتها السامية بين مقامات الدين يقول الإمام الغزالي رحمه الله : " .. إِنَّ الْحَبَّةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى مِنَ الْمَقَامَاتِ ، وَالذَّرْوَةُ الْعُلْيَا مِنَ الدَّرَجَاتِ ، فَمَا بَعْدَ إِدْرَاكِ الْحَبَّةِ مَقَامٌ إِلَّا وَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَارِهَا ، وَتَابِعٌ مِنْ تَوَابِعِهَا ؛ كَالشُّوقِ وَالْأُنْسِ وَالرِّضَا وَأَخْوَاتِهَا ، وَلَا قَبْلَ الْحَبَّةِ مَقَامٌ إِلَّا وَهُوَ

(١) - رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /١٧٣/ في حديث طويل عنه .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وآله برقم /٣٥٨١/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

(٣) - رواه الترمذي في كتاب الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وآله برقم /٢٧٣٥/ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ .

مُقدِّمةٌ مِنْ مُقدِّماتِها ؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .. وسائر المقامات إن عَزَّ وجودُها ، فلم تخلُ القلوبُ عن الإيمانِ بإمكانِها ، وأما محبةُ الله تعالى فقد عَزَّ الإيمانُ بها حتَّى أنكرَ بعضُ العلماءِ إمكانها ، وقالَ : لا معنى لها إلَّا المواظبةُ على طاعةِ الله تعالى ، وأما حقيقةُ المحبةِ فمُحالٌ إلَّا معَ الجنسِ والمثالِ .. ولما أنكرُوا المحبةَ أنكروا الأنسَ والشوقَ ، ولذَّةَ المناجاةِ ، وسائرِ لوازمِ الحبِّ وتوابعه ، ولابدَّ من كشفِ الغطاءِ عَن هذا الأمرِ .. " (١) .

وقد أرجع الإمام الغزالي أسباب الحبِّ إلى خمسة أسباب :

- ١ - حبُّ الإنسان وجود نفسه ، وكماله وبقائه .
- ٢ - وحبُّه من أحسن إليه ، فيما يرجع إلى دوام وجوده ، ويعين على بقائه ، ودفع المهلكات عنه .
- ٣ - وحبُّه من كان محسناً في نفسه إلى الناس ، وإن لم يكن محسناً إليه .
- ٤ - وحبُّه لكلِّ ما هو جميل في ذاته ، سواء حبُّه أكان من الصور الظاهرة أو الباطنة .
- ٥ - وحبُّه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن .

فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحبُّ لا محالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى الخلق ، ومحسن إلى الوالد ، كان محبوباً لا محالة غاية الحبِّ ، وتكون قوَّة الحبِّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوَّة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحبُّ لا محالة في أعلى الدرجات .. وهذه الأسباب كلّها لا يتصور

(١) - إحياء علوم الدين ٤/٢٩٤ .

كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى " (١) .

ويعدّد الإمام ابن القيم رحمه الله أسباباً كثيرةً لتنمية محبة الله ، ومحبة رسوله ﷺ في قلب المؤمن وزيادتها ، وأهمها أحد عشر سبباً (٢) :

- أحدها : تلاوة القرآن مع التدبر لمعانيه ، والتفهم لما أريد به من سلوك وعمل .

- ثانيها : التقرب إلى الله بالنوافل والطاعات والقربات بعد أداء الفرائض ، واجتناب المحرمات ، فإنها توصل المؤمن إلى درجة المحبوبة بعدما تقدّم من برهان المحبة ، وترفع العبد في مقامات القرب والحب ، وفي الحديث القدسيّ المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَنْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيِدَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) (٣) .

وقد تضافرت عشرات الأدلة والنصوص من الكتاب والسنة ، التي تبين أثر العمل الصالح في زيادة الحب لله ورسوله ﷺ ، وأثر الحب في زيادة

(١) - إحياء علوم الدين ٤/ ٣٠٠ .

(٢) - ذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه ، نذكرها هنا بتصرف وبيان .

(٣) - رواه البخاري في كتاب الرقاق برقم ٦٠٢١/ .

القرب ، وأثر القرب في زيادة الحبّ وتأجّجه ، فالعلاقة بين الحبّ لله ورسوله ﷺ وبين العمل الصالح علاقة تأثير متبادل ، لا ينفك أحدهما عن التأثير في الآخر وزيادته .

وإنّ من شأن المؤمن أن يضرب من كلّ غنيمة من العمل الصالح بسهم ، وأن يكون له في كلّ ميدان من الخير نصيب ، فلا يقتصر على نوافل الصلاة ، أو الصوم ، أو الصدقة ، أو الحجّ ، أو الذكر لله تعالى ، وإنما يجتهد أن ينافس المجتهدين في كلّ باب ، وأن يقدّم محابّ الله تعالى ، وما يكون أنفع لعباده على رغائبه ومحابّه .

- الثالث : دوام ذكر الله تعالى على كل حال : باللسان والقلب ، والعمل والحال . فنصيب المؤمن من محبة الله تعالى على قدر نصيبه من هذا الذكر ، وكذلك كثرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، فمن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره .

- الرابع : إثارة محابّ الله تعالى على محابك عند غلبات الهوى ، والتسّم إلى محابّه ، وإن صعب المرتقى .

- الخامس : مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة وحقائقها ، فمن عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وأفعاله وقربه من عباده : أحبه لا محالة .

- السادس : مشاهدة برّ الله تعالى وإحسانه ، وسابغ آلائه ونعمائه ، وعظيم مننه الباطنة والظاهرة ، فإنّها داعية إلى محبّته ، وكثرة ذكره وشكره .

- السابع : وهو من أعظمها وأعجبها ، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى ، والذلة لعظمته وربوبيّته ، وعلى قدر تحقّق العبد بالعبوديّة لله تعالى يتحقّق بالذلة والانكسار بين يدي الله تعالى ، ويستشعر الافتقار إليه

سبحانه ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات ، ومن ذاق عرف واغترف .

- الثامن : الخلوة بالله تعالى وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه ، ووقوف القلب ببابه ، والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

- التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطياب كلامهم ، وثمرات أفكارهم وأحوالهم ، كما تنتقي أطياب الثمر ، ولا تتكلم بين أيديهم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام ، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك ، وكذلك دراسة سير السلف الصالح ، وفهم أقوالهم وأخبارهم ، وحسن الظن بهم ، وتذوق مشاعرهم ، وما فاضت به أرواحهم من معانٍ وحقائق وآداب ، مما لا يخرج عن مشكاة الكتاب والسنة وهديهما ، وقد حفظت لنا بحمد الله تعالى كتب السير والتراجم من ذلك الشيء الكثير .

- العاشر : تخفيف العلائق ، وقطع العوائق ، ومباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل ، فما أكثر ما شغلت علائق الدنيا الإنسان ، ووقفت في وجهه العوائق ، فصددته عما فيه خيره ، وحجبت عن صلاح أمره ، ففاته النفائس مع فوات الأنفاس !

والعاقل الموفق من حزم أمره ، وأحكم سيره ، ولم يغتر بزخرف فان ، يشغله عن سعادة الأبد ، ويصدّه عن رضوان لا يفنى .

- الحادي عشر : الإكثار من مطالعة سيرة النبي ﷺ وشمائله ، والتفكير في فضائله ومكارمه ، وما خصّه الله به من خصائص وفضائل ، ورحمة الله تعالى للإنسانية ، بل للعالمين به ، وما لقيه ﷺ في سبيل دين الله تعالى من عنت وإيذاء ، وتكذيب واستهزاء ، وكمال رأفته ﷺ وشفقته بأمته ، وحرصه على نيلها لكل خير ، وإبعادها عن كل شر .

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الأسباب بقوله : " ومن هذه الأسباب : وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ونالوا القرب ، ودخلوا على الحبيب .. وملاك ذلك كله أمران : استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة . وبالله التوفيق . "

وقبل هذه الأسباب وبعدها لابدّ من التوبة النصوح من جميع الذنوب ، ومن الإصرار على المحرمات والمعاصي ، وأن يكون قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٣٥﴾ آل عمران ، شعار المؤمن في حياته ، ومنطلقه وملاذه ، يسارع إلى الإنابة إلى الله تعالى بعد كلّ ذنب ، ويحرص على تجديد التوبة ، فإنّ القلوب المترعة بحبّ الشهوات الأثيمة وإلفها والإصرار عليها لا مكان فيها لحبّ الله ورسوله ﷺ ، ولا حظّ لها من التّنعّم بذلك إلّا أن تتطهّر من أدناسها ، وتقبل بصدق الهمة على ربّها ، وهذه الأسباب التي ذكرناها آنفاً خير عون للمؤمن على إحكام التوبة وتحقيقها ، والله وليّ التوفيق والسداد .

فامتحن نفسك أخي المؤمن عند كلّ سبب من هذه الأسباب ، فإن رأيت منها مسارعة في مرضاة ربك ، وما يحبّه الله سبحانه ، ومسارعة في طاعة رسوله ﷺ ، والحرص على اتباع سنته وهديه ، فاحمد الله تعالى أن لديك براهين صدقك في محبتك ، وإيثارك لمرضاة ربك على شهوات نفسك .. وإن وجدت غير ذلك فالسبيل أمامك مرسوم ، والطريق أهل بالحيتين السالكين ، وساعات السبق بالرهان محدودة بأنفاس

هذه الحياة ، فلا تكن من القاعدين المفرطين المحرومين . ؟ ! والسعيد من وفقه الله تعالى وهده .

وبعد ؛ فإن أحوج ما تحتاجه أجيالنا الحاضرة : التربية على الطاعة لله ، والاتباع لرسول الله ﷺ بالحب والرغبة ، لا بسيف التهيب والتخويف ، وأن تعقد أواصر الحب والمعرفة العميقة الدقيقة بحياته الشريفة ، وسيرته العطرة ، وهديه الكريم في كل شأن .. فذلك التحصين البناء هو الوسيلة المثلى للدفاع عن دين الله ، والانتصار لرسول الله ﷺ ..

لقد أصبحت لغة الحب السامية الراقية غريبة ضائعة ، في أمة حقيقة العبادة في دينها الحب .. وأسمى علاقة بين أبنائها الحب .. وإن كثيراً من المناهج الدعوية والنشاطات التربوية القائمة في الساحة اليوم تعاني من الجفاف الروحي ، والخلل في التربية بالحب ، وعلى الحب ، مما يشيع الأمراض النفسية في صفوف الدعوات ، يجعل العلاقة بين أبنائها أشبه بالعلاقات الحزبية ، التي تحكمها الأثرة والأهواء ، والنفعية وتقديم المصالح الشخصية .. وإن ما ينقصها هو اعتماد هذه الأسباب ، بالوسائل والأساليب المناسبة ، وأن تترجم إلى مناهج عملية ، وبرامج دقيقة ، لتغذي حب الله تعالى ، وحب رسوله ﷺ في قلوب أتباعها والناشئين في محاضنها ..

وإن الدعوات التي قامت على ذلك ، وتأسست على إحياء الحب في الله ،
والحب لله ورسوله ﷺ نجحت أيما نجاح ، وحققت من الثمرات في سنوات ما لم
يحققه غيرها في عقود .. والتي أغفلت ذلك ، لم يكن حظها من عملها إلا الجهد
والنصب .. وتلك سنة الله تعالى في دينه ودعوته ، ولا استثناء في ذلك ، ولا
محاباة ..

وما لم يول الدعوة والمربون ذلك أكبر الأهمية ، وأول الأولوية فإن الخطر
ماحق ، والضياح بالأجيال القادمة محقق ، والمخرج من التيه دونه حين من الدهر
مديد ، ولكنه مُيسر على المجتهدين الصادقين .. والله المستعان وعليه التكلان .



المبحث الثالث

التعريف والدعوة وحسن الأسوة

عندما كانت أمة الإسلام تحمل لواء الدعوة إلى الله ، وتنشر إرث النبوة في كل أرض كانت عزيزة بين الأمم ، قوّة مهيبة ، تخطب الأمم ودّها ، وتحسب لها ألف حساب ، قد جمع الله تعالى لها عزّ الدنيا وسيادتها ، وسعادة الآخرة وفوزها ، وعندما تخلّت عن هذه المسئوليّة تفرّقت كلمتها ، واختلّ نظامها ، واشتغلت بسفساف الأمور ، وكتب عليها الضعف والتخلّف في كلّ ميدان من ميادين الحياة ، وتسلّط عليها أعداؤها بألوان الظلم والقهر ، وسيّمت سوء العذاب ، وأصبحت في ذيل الأمم .. وتلك سنّة من سنن الله في دينه وخلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ..

وبيان ذلك وسببه أنّ الأمة عندما تقوم بحقّ الدعوة والدين ، ويملك عليها ذلك عقلها ومشاعرها ، ونشاطها وهمّتها ، وبذلها وتضحيتها ، فإنّها تكون على درجة من الوعي والشعور بالمسئوليّة ، والأخذ بأسباب القوّة ، والجدّ في الحياة ، والحرص على معالي الأمور ، ممّا يفتح لها آفاق الإبداع ، وأبواب السموّ في كلّ شأن ، والتقدّم على من سواها في كلّ ميدان ، وهكذا كان حال سلف هذه الأمة عندما حملوا لواء الدعوة إلى الله تعالى بحالهم وقالهم ، وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وفتحوا قلوب أمم الأرض بالإسلام ، ولم يفتحوا بلادهم بحدّ الحسام ، كما يزعم الزاعمون المفترون ..

وعندما تتخلّى الأمة عن حمل لواء الدعوة تقعد بها الهمة ، وتركن إلى الدنيا وشهواتها ، وتشغل باللهو واللغو ، والقليل والقال ، وتوافه الأمور ،

ويملك الكسل النفسي والجسدي زمامها ، وترضى بالدون في كل شأن ،
ويصبح بأسها بينها ، فيغلبها عدوها ، ويتسلط عليها بقوته المادية ، وإفلاسها
المعنوي ، وهذا ما آل إليه أمر الأمة في القرون المتأخرة ..

وحكم هذا القانون الرباني في كل مرحلة من تاريخ الأمة تجده صحيحاً
مطرداً ، لم يشد ، ولم يتخلف ، ولم يحاب أحداً .. ولن يصلح آخر هذه الأمة
إلا بما صلح به أولها ..

ويلاحظ في كتاب الله أن الله تعالى ربط هزيمة الباطل واندحاره بحركة
الحق وإقدامه ، فقال سبحانه : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ۝٨١ ﴾ الإسراء ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ آلُؤْلُؤٌ مِمَّا نَفْصُونَ ۝١٨ ﴾ الأنبياء . فلن تكون للباطل راية
مرفوعة ، ولا كلمة مسموعة إلا عندما يتخاذل أهل الحق عن نصرته ،
ويقعدون عن حمل لوائه ، ويركنون إلى الدنيا وشهواتها ، وتدب إليهم خلائق
المترفين ، الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ، وتشغلهم توافه الأمور عن
معاليها ، فتأسر سلوكهم ، وتحكم حياتهم ..

ولذا فقد ألقى الله شأن الداعين إلى دينه فجعلهم أرفع الناس منزلة ،
وأحسنهم قولاً ، وأعزهم مكانة ، لأنهم يقومون بمهمة مضاعفة ، تحقق
التحصين الداخلي للأمة ، والدفاع عن قيمها وحرماتها ، إذ إنهم يحفظون
على الأمة كيانها المعنوي ، ويصونون نظامها الروحي ، ويقفون في وجه
الباطل ، ويصدون عن الأمة هجمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا
مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾ فصلت .

ولا يكون الداعي إلى الله كذلك إلا إذا تمثلت الدعوة إلى الله تعالى في سيرته وحياته ، قبل أن تكون على طرف لسانه وقوله ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ .. وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴾ ، فكلمة الحق روحها العمل الصالح ، الذي يصدقها ، ويزكي قائلها ، ويكون ترجمة أمينة لحقائقها . وإنّ الناس بفطرتهم يتأثرون بالأسوة الحسنة ، والسيرة العملية أضعافاً مضاعفة عن التأثير بالقول النظريّ ، والدعوة بالكلام ، وكم أساء بعض العابثين اللاهين ، المنحرفين من المسلمين في الغرب إلى دينهم ، فكان سلوكهم صدّاً عن سبيل الله ، وكانوا عقبة كثوداً أمام دعوة الحق ، وصورة مشوّهة عن هذا الدين ، شعروا بذلك أم لم يشعروا ، وأدركوا خطر سلوكهم أم لم يدركوا !.

وكم كانت المعاملة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والسلوك القويم ، والأخلاق الكريمة ، والموقف الأمين الصادق ، المعبر عن مبادئ الحق وقيمه ، دون أن يعلن الإنسان الدعوة المباشرة إلى دين الله ، ويفرغ وقته وجهده لذلك .. كم كان ذلك سبباً في ترغيب الناس بالإسلام ، وإقبالهم على دين الله تعالى ، يحرصون على التعرف عليه ، ويسارعون إلى الإيمان به !.

ولو نظرنا في أحوال أمة الإسلام لرأينا أنّها مقصورة تقصيراً فاحشاً بحق الدعوة إلى الله تعالى منذ قرون ، إذ انكفأت على نفسها ، ونسيت الرسالة التي بعثت بها ، حتّى انحسر العلم ، وانتشر الجهل ، وراج فيها الاشتغال بتوافه الأمور ، وما لا ينفع ولا يرفع ، ممّا جرّأ عليها أعداءها ، فغزوا شبابها في عقر دارهم بفكرهم وكفرهم ، وشتّى ضلالاتهم .. ووجهوا سهامهم بالبدس والتشويه ، والزور والافتراء ، إلى هويّتها الحضاريّة ، وتاريخها الزاهر ، وأخصّ خصائصها العقديّة والفكرية ، كيلا تستطيع النهوض ، ولا تقوم لها قائمة ..

وما تعيشه الأمة من نهضة دينية في هذا العصر ، مع ما تحتاجه من رشد ، وما يكتنفها من علل ، ويشوبها من سلبيات ، لم يبلغ أن يكون استدراكاً يسيراً لتقصير كبير متراكم منذ قرون ، أودى بها إلى هذا التخلف المزري ، الذي تعاني منه على كل صعيد .. مما يؤكد عليها التدقيق في مسارها ، ومضاعفة جهدها واجتهادها ، لتستدرك ما فاتها ، وتدرك من سبقها ، وما ذلك على الله بعزيز ..

وإنّ من حقّ رسول الله ﷺ على أمته ، ومن أهمّ أبواب الدعوة ، واستدراك ما قصرت فيه من مسئولية : أن تحسن التعريف بسيرته العطرة ، وشمائله الكريمة ، وأخلاقه العظيمة ، وتردّ افتراءات المفترين ، وكيد الكائدين ، وأن تقدّم الصورة المثلى بسلوكها العمليّ عن حقائق هذا الدين ومبادئه ، لتقوم بها حجة الله على عباده .. وذلك لأنّ ثقافة الغرب المتراكمة ، على مدى القرون المتطاولة ، تقوم على التشويه التافه لشخصية رسول الله ﷺ ، والكذب المتعمّد على سيرته العطرة ودينه ، كما سبق أن بيّنا ، ولئن استطاع قلة قليلة من علماء الغرب وعقلائهم ، ومفكرهم وأدبائهم أن تتحرّر عقولهم من هذه الترهات والأكاذيب ، ويفلتوا من أسرها ، فإنّ الكثرة الكاثرة من خاصّة الغربيين وعامّتهم لا يزالون أسارى هذه الأباطيل الرخيصة ، تحول بينهم وبين التعرّف على الإسلام ، وعلى نبيّه الكريم ﷺ ، ممّا يصدّهم عن قبول دعوته ، والاستجابة لدينه ، ولا يخفى ما يقوم به الإعلام المغرض ، الذي تملكه الصهيونية الحاكمة على الإنسانية كلّها من دور خبيث في الكيد والتشويه ، والصدّ والافتراء ، وحجب الحقائق ، ونشر الأكاذيب وترويجها ..

وهذا ما يضاعف العبء على الأمة ، ويثقل عليها وطأة المسؤولية ،
ويوجب على علمائها ودعاتها ، ومفكرّيها ومسئوليها مضاعفة الجهد ،
والتفنّن في ابتكار أساليب الدعوة والتعريف والدفاع ..
وإذا كان لابدّ لنا من واجبات عمليّة محدّدة ، للقيام بمسؤوليّة التعريف بدين
الله تعالى ، وبرسول الله ﷺ ، فمن أهمّ ذلك فيما أرى :

* نشر كتيّبات تعريفية بجميع لغات العالم ، للتعريف بأصول الإسلام
الكبرى : الله ، الرسول ﷺ ، مبادئ الإسلام ، مبادئ الإيمان .

* عرض السيرة النبويّة بأسلوب أدبيّ ، رفيع المستوى شيق ، قصصيّ
وغير قصصيّ ، وبمستويات متعدّدة ، لتكون أسلوباً تربوياً أمثلاً ، لغرس حبّ
النبيّ ﷺ في نفوس الأطفال والناشئة ، وتقديم الجديد المناسب لهم في كلّ
مرحلة من مراحل نموّهم .

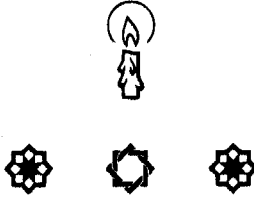
* إصدار كتيّبات ، وأقراص مدججة ، وأفلام وغيرها ، ونشرها بجميع
لغات العالم ، تتحدّث عن هدي النبيّ ﷺ في شتى مناحي الحياة .

* إعادة النظر فيما يقدّم من السيرة النبويّة في المناهج الدراسيّة ،
وتطويرها بما يناسب أرقى الأساليب التربويّة المحبّبة المشوّقة ، وجعلها تواكب
نشأة الطفل إلى أن يتمّ المرحلة الثانويّة .

* نشر الوعي بين المسلمين ، لتحملّ مسؤوليّة الدفاع الإيجابي عن النبيّ
ﷺ ، وذلك بالتحقّق بسيرته ، وآتباع هديه ، وتعريف الناس به .

* إقامة مسابقات للكتابة في جميع ما سبق ، وعلى مستوى العالم الإسلامي ، ورصد جوائز سنخية لذلك .

* ثم لا بدّ أخيراً من سنّ القوانين الرادعة في البلاد الإسلامية للدفاع عن دين الأمة وقيمها ، وأن يكون من حقّ أيّ فرد في الأمة أن يقاضي من يسيء إليها ، وأن يقوم ولاية أمور المسلمين على المستوى الدوليّ بتحمّل مسئولية ذلك على أتم وجه .



الفصل الرابع

صَوْرَةٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْحُبِّ وَالْوَفَاءِ

لقد أخرج النَّبِيُّ ﷺ للإنسانية جيلاً قيادياً ، يمتاز بصفات عليا ، وخصال رفيعة ، من الكمال الخلقي ، وقوة الإرادة ، وعلو الهمة ، وصدق العزيمة ، والحب الخالص ، والتضحية النادرة ذلك لأن التربية النبوية كانت تعني بالنوع لا بالكم ، ورفع المستوى ورقية ، لا بإكثار العدد والمباهاة به ..

* مواقف الحب ، وثمرات المعرفة والقرب : يحسن بنا أن نعرض بعض ثمرات هذا الحب ، وآثاره في الفرد والجماعة ، وما تحقق في حياة الناس من عجائب الانقياد والطاعة ، وخير ما يلتمس ذلك في سيرة الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ، الذي خصه الله بأعظم الخصائص ، وحباه أكرم الفضائل ، وجمع له أسمى صفات الجمال والكمال ، وأبلغ معاني الحسن والإحسان ، وأرسله رحمة للعالمين ، وجعله رءوفاً رحيماً بالمؤمنين ، " فمن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه " .

وكان كل جلس من جلسائه يحسب أنه أحب الناس إليه ، وأكرمهم عنده منزلة ، لما يرى من حسن إقباله عليه ، واهتمامه بملاطفته وحديثه ، ويقول واصفه عليّ رضي الله عنه : " لم أر قبله ولا بعده مثله " .

* فمن أعظم ثمرات الحب الصادق :

١ - الطاعة والاتباع ، ودقة التنفيذ والالتزام بأمر الله تعالى ، وأمر رسوله ﷺ ، هذا الالتزام والطاعة التي لا يعرفها الناس في حياتهم إلا في

الأنظمة العسكرية ، ولكن التنفيذ فيها لا يكون إلا بقوة النظام وشدته ، وهيمنة العقوبات الرادعة ، لمن يشد أو يخالف ، أما دقة التنفيذ والالتزام في علاقة المؤمن بدين الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن باعثها الحب لله ورسوله ﷺ ، والحرص على مرضاة الله ومثوبته .

٢ - الخروج عن أهواء النفس وحفظها وشهواتها ، وأن يكون هوى المؤمن تبعاً لشرع الله تعالى وهدى نبيه ﷺ ، كما جاء في الحديث : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (١) .

٣ - فداء رسول الله ﷺ بالنفس وتعرضها للأخطار دونه ﷺ ، ويبلغ المؤمن ذلك بالنية المخلصة ، والعزيمة الصادقة ، ولو لم يعيش مع النبي ﷺ ، ولم يكن في عصره .

* نماذج فذة ، ومواقف نادرة :

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ، وسلف هذه الأمة الصالح ، يستشعرون حبهم لرسول الله ﷺ في كل موقف ، ويرونه أعظم القربات إلى الله تعالى ، وأجل حقائق الإيمان ، التي ينبغي للمؤمن أن يتحقق بها ، لقد اندفع إليه أصحابه بالحب الصادق ، والطاعة والاتباع ودقة التنفيذ والالتزام ، والخروج عن أهواء النفس وحفظها وشهواتها ، وفداء رسول الله ﷺ ، بالنفس وتعرضها للأخطار دونه ، لقد اندفعوا في ذلك كله كما يندفع الماء إلى الحدور ، وانجذبت إليه النفوس والقلوب كما ينجذب الفراش إلى النور ، كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد ، وأحب أصحابه ورجال أمته

(١) - رواه الإمام النووي رحمه الله في الأربعين ، وقال : حديث حسن صحيح ، رواه في كتاب الحجة بإسناد صحيح ، وتعقبه ابن رجب فضعه من وجوه ، انظر جامع العلوم والحكم . /٣٩٣/

وأطاعوه ، وفدوه بأرواحهم ومهجهم ، حباً وطاعة وفداء لم يسمع بمثل ذلك في تاريخ الأمم مع أنبيائها ، أو مصلحيها وقادتها ، ووقع في ذلك من خوارق الحبّ والتفاني في طاعته ، وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد مالم يحدث قبله ، ولن يحدث بعده مثله ؛

* دقة الطاعة والجندية الصادقة :

فمن ذلك أن النبي ﷺ أعطى الراية يوم خيبر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له : (امش ، ولا تلتفت ، حتى يفتح الله عليك) ، فسار عليّ رضي الله عنه شيئاً ثم وقف ، ولم يلتفت ، ونادى : " يا رسول الله ! على ماذا أقاتل الناس ؟ فلم ينس ﷺ قول النبي ﷺ : (امش ولا تلتفت ..) واحتاج إلى سؤال النبي ﷺ عن شأن مهمّ من شئون القتال فوقف وسأل ، ولم يلتفت .

* وللنساء نصيب كبير من الحبّ والفداء :

" ولما كان يوم أحد ، أقبلت امرأة تسعى ، حتى كادت أن تشرف على القتلى ، فكره النبي ﷺ أن تراه ، فقال : المرأة ! المرأة ! . قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : فتوسّمت أنها أُمي - وهي صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، بلغها أن المشركين قتلوا أخاها حمزة رضي الله عنه ، ومثلوا به ، فهي تريد أن تراه .

قال : فخرجت أسعى إليها ، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، فلدمت في صدري - أي دفعته دفعاً شديداً - وكانت امرأة جلدة - أي شديدة - وقالت : إليك عني لا أرض لك .

فقلت لها : إنّ رسول الله ﷺ عزم عليك ألاّ تذهبي ، فوقفت ، ولم تتحرّك من مكانها .

نعم .! وقفت ، ولم تتحرك من مكانها ، لأنها تلقت أمر رسول الله ﷺ ، فسمعاً وطاعة .! إنها الجندیة المثلى ، تتجلى في أشدّ ساعات الهول ، ونزول المصيبة .! وحين تطيش العقول ، وتزلزل الأفئدة ..

- وروى ابن إسحاق في السيرة أن امرأة من الأنصار رضي الله عنها ، قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ ، فلما أخبرت قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله تعالى كما تحيّن ، فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رآته قالت : " كلّ مصيبة بعدك جليل " أي : صغيرة .

* وعندما يشتدّ البأس تظهر حقائق الحبّ المكنون :

فمن ذلك قصّة أبي دجانة ؓ يوم أحد : إذ ترّس بنفسه دون رسول الله ﷺ مع ثلّة كريمة من أصحاب المصطفى ﷺ .

وكان مثل ذلك من نسيبة بنت كعب رضي الله عنها .

* وأي برهان أعظم من التضحية والفداء .؟!

ومن ذلك موقف زيد بن حارثة ؓ ، مولى رسول الله ﷺ ، يوم الطائف ، إذ كان يتلقّى دون المصطفى الحجارة التي يرمى بها من سفهاء ثقيف وغلمانهم ، وفي ذلك يقول بعض المحبّين المادحين :

كَانَ يَلْقَى عَنْهُ الْحِجَارَةُ زَيْدٌ إِنَّ رُوحِي لَنَعْلِ زَيْدٍ فِدَاءُ

وقد بادله رسول الله ﷺ هذا الحبّ العجيب بالحبّ والإيثار ، ومن هنا فكان يسمّى : حبّ رسول الله ﷺ ، وكان ابنه أسامة ؓ يسمّى : حبّ رسول الله ﷺ وابن حبه .

* شهادة من أبي سفيان تكشف عن مكانة الحبّ وثمراته : لما أخرج

المشركون زيد بن الدثنة رضي الله عنه من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان بن حرب ، وكان على الشرك : أنشدك الله يا زيد .! أحبّ أن محمّداً الآن عندنا نضرب عنقه ، وأنت في أهلك .؟ فقال زيد : " والله ما أحبّ أن محمّداً الآن في مكانه الذي هو فيه نصيبه شوكة ، وأنا جالس في أهلي " ، فقال أبو سفيان : " ما رأيت أحداً من الناس يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً " .

* ويوم الحديبية قدّم الصحب الكرام أصدق شهادة : فقد قال عروة بن

مسعود الثقفي لأصحابه من المشركين ، بعدما رجع من مفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم ، عند الحديبية : " أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحذون إليه النظر تعظيماً له " .

لقد أحاط النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالحبّ والتبجيل ، ودقة الأدب ، التي لم يكن للعرب بها أيّ عهد أو علم أو معرفة ، مع أيّ عظيم من عظمائهم ، أو كبير من كبرائهم ، ولم يكن ذلك عن تصنّع غير صادق ، أو تظاهرٍ منافقٍ ، وإنما عن حقيقةٍ راسخة ، من الحبّ الصادق ، والبرّ والوفاء ، والتوقير والتعظيم ، بهرت ألباب الآخرين ، وشدهت أنظارهم ، فشهدوا تلك الشهادات بكلّ إكبار وتقدير ، وانطلقت من ألسنتهم تلك الكلمات ، التي انتزعتها منهم شدة الإعجاب بما رأوا وعانوا ..

ولم لا يكونون كذلك ؟! وقد بشر الله بهم ، وبشرهم نصّ كتابه المبين
فقال سبحانه : ﴿ .. فَأَلْذِيكَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٧٧) الأعراف .

فكانوا المفلحين حقاً ، وكانوا خير القرون عدلاً وصدقاً ..
وإن هذه المواقف من الحبّ الصادق ، والفداء النادر لتذكّرنا بصورة
من الحبّ التي حباها الله نبيّه ﷺ ، وهو لم يزل بعد في طفولته الأولى ، سواء
عند حليلة السعديّة ، أو بين أترابه ، أو بعد أن أكرمه الله بالوحي والنبوة ،
فعاداه الطغاة المتجبرون ، وحذب عليه عمّه أبو طالب ، ووقف يدافع عنه ،
ويحميه من أذى قومه ، وهو لم يزل على دينهم وعقيدتهم ، وقال في ذلك :

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل
وفيها يقول :

ونسلمه حتى نصرعَ حوله ونذهلَ عن أبنائنا والحلالِ
أي : ولن نسلمه .

ولا عجب في ذلك كلّه فبعد أن توجّهت العناية الإلهيّة إلى الحبيب
المصطفى ﷺ بغاية الحبّ والاجتماع والرضا ، فإنّ من أثر ذلك أن يكون له
القبول بين العباد والسعداء من خلق الله ..

ولا تزال شواهد ذلك ودلائله تتكرّر وتعاد إلى يومنا هذا ، والسعيد
الموفق من تقوده تلك العاطفة الصادقة إلى الإيمان والهداية .

* ومن هنا كان الحبّ الصادق عدّة الأتقياء ليوم البعث والجزاء : فقد
جاء في الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال :

مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ : لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ ﷺ ، فَقَالَ : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ
فَرَحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) ، قَالَ أَنَسٌ : فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ
ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحَبِّي إِيَّاهُمْ ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ
أَعْمَالِهِمْ (١) .

ويعمل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى فرح الصحابة بذلك فيقول : "
وإنما كان فرحهم بهذا القول أشد من فرحهم بسائر أعمال البر ، أنهم لم
يسمعوا أنّ في أعمال البر عملاً يحصل به ذلك المعنى ، من القرب من النبي
ﷺ ، والكون معه إلا حب الله ورسوله ﷺ ، فأعظم بأمر يلحق المقصر
بالمشمر ، والمتأخر بالمتقدم .. " .

فهل رأيت أخي المؤمن من ثمة أعظم من هذه المعية مع المحبوب ؟!

ويقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ

رَفِيقًا ۖ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ النساء .

(١) - رواه البخاري في كتاب المناقب برقم ٣٤١٢ / و ٥٧٠١ / و ٥٧٠٥ / و ٦٦٢٠ /
ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٧٧٥ / و ٤٧٧٨ / ، وكما يحمل هذا الحديث
بشارة عظيمة ، لمن يحب الله ورسوله ﷺ ، وعباد الله الصالحين ، فإنه يحمل تهديداً ووعيداً ،
وإنذاراً شديداً ، لمن منح هذه النعمة العظيمة ، والجوهر الثمين ، جوهر الحب ، وإخلاص
القلب ، لمن لا يستحقها ، ممن يحاذ الله تعالى ، ويكذب رسوله ﷺ ، ويحارب دين الله ، ويكيد
لأوليائه ، وأهل الفسق والعصيان ، ممن يستحق نقيضها ، من البغض في الله تعالى ، والجهاد في
الله ، والحرص على كسر الشوكة : ﴿ .. فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٣﴾ النور .

قال الإمام القرطبي في تفسيره هذه الآية : " وقالت طائفة : إنما نزلت هذه الآية لما قال عبد الله بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه - الذي أرى الأذان - يا رسول الله إذا متّ ومتنا كنت في عليين لا نراك ، ولا نجتمع بك ، وذكر حزنه على ذلك ، فنزلت هذه الآية .

وذكر مكّي عن عبد الله هذا وأنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللهم أعمني حتى لا أرى شيئاً بعده ، فعمي مكانه .

وحكاه القشيري فقال : اللهم أعمني ، لا أرى شيئاً بعد حبيبي ، حتى ألقى حبيبي ، فعمي مكانه .

وحكى الثعلبي : أنها نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ، ونحل جسمه ، يعرف في وجهه الحزن ، فقال له : يا ثوبان ما غير لونك ؟! فقال : يا رسول الله ما بي ضرر ولا وجع ، غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة ، وأخاف ألا أراك هناك ، لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين ، وأنني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ﴾ أي : هم معهم في دار

واحدة ، ونعيم واحد ، يستمتعون برؤيتهم ، والحضور معهم ، لا أنهم يساوونهم في الدرجة ، فإنهم يتفاوتون ، لكنهم يتزاوون للاتباع في الدنيا والافتداء . وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله .. " (١) .

(١) - تفسير القرطبي ٢٧٢/٥ .

* موازين الإيمان لا يعرفها إلا أكمل الرجال :

عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ جَدِّهِ عليه السلام قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله : لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : فَلَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله : (الْآنَ يَا عُمَرُ) ^(١) .

وليس الحديد عند عمر رضي الله عنه ، هو حصول تلك المحبة الراجحة للنبي صلى الله عليه وآله ، وإنما الحديد هو إدراكه لتلك المحبة والتفاتة إليها ، وتقرير ذلك أنه كان في أول الأمر قد امتحن نفسه أمام حبّ الولد والزوج والعشيرة ، والمسكن والتجارة ، فوجد حبّه لهذه الأشياء مرجوحاً بجانب حبّه لله ورسوله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن قد جرى بعد في خاطره حديث المقارنة بين حبّه لرسول الله صلى الله عليه وآله وحبّه لنفسه ، فلم يجرؤ أن يحكم فيه بشيء بل استثنى نفسه من تلك المقارنة ، سكوتاً عن الحكم بما لم يختبر ، لا حكماً برجحان حبه لنفسه ، فلما نبّهه النبي صلى الله عليه وآله ، فكرّ وقارن وتحسّس حال قلبه ، فإذا هو يجد من رجحان محبته لرسول الله صلى الله عليه وآله على محبته لنفسه ، ما كان غافلاً عنه ، لا ما كان خلواً منه ، فقلوه صلى الله عليه وآله : (الْآنَ يَا عُمَرُ) ومعناه : الآن أصبت في قولك ، وأحسنّت التعبير عما في نفسك .

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : " كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله إيماناً صحيحاً ، لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة ، غير أنهم متفاوتون ؛ فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالخطّ الأوفى ، ومنهم من أخذ بالخطّ الأدنى ، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً بالغفلات في أكثر

(١) - رواه الإمام أحمد في مسند الشاميين برقم /١٧٣٥٥/ .

الأوقات ، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته ، بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ، ويذل نفسه في الأمور الخطيرة ، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردّد فيه .. والناس متفاوتون في محبته ﷺ ، بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين ، أو الغفلة عن ذلك ، ولا شك أن حظّ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى أتمّ ، لأن هذا ثمرة المعرفة ، وهم بها أعلم " .

* وعلي المرتضى يكشف سرّ الخيرية العظيم :

قال عليّ رضي الله عنه : " كان رسول الله ﷺ أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ " .

* وأمهات المؤمنين يعلمن موازين الولاء والبراء : فقد دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها ، في مدة صلح الحديبية ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ ، طوته عنه ، فقال : يابنية ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ مشرك نجس ، فقال لها : لقد أصابك بعد أبيك شرّ .

* طاعة وأتباع وولاء لا يتزحزح :

وكان من شدة طاعة الصحابة له ﷺ ، والتزامهم بأمره ، أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه ، وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ، ليس بها داع ولا مجيب ، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه : " .. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، قال : فاجتنبنا الناس ، أو قال :

تَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنْكَرَتْ لِي نَفْسُ الْأَرْضِ ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ ..
إِلَى أَنْ قَالَ : حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ
جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا
رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟
فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ .. (١)

- وكان من عجيب حبه ﷺ وطاعته للرسول ﷺ ، وهو محلّ عتاب
وجفوة : أن رسول الله ﷺ ، أرسل إليه رسولا يقول له : إن رسول الله ﷺ
يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقال : أطلّقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ، بل
اعتزلها ، فلا تقرّبنيها ، فقال لامرأته : الحقّي بأهلك ، فكوني عندهم ، حتى
يقضي الله في هذا الأمر .

فانظر أخي المؤمن ! لو أنّ رسول الله ﷺ أمرهم أن يطلقوا نساءهم
أما كانوا يفعلون ذلك بغير تردد أو تلكؤ ، ويشتون بذلك إيثارهم لحبّ
رسول الله ﷺ وطاعته على حبّ الزّوجة والرغبة فيها ؟!

- وكان أيضاً من حبّ كعب بن مالك ﷺ للرسول ﷺ ، وإشاره
على كلّ أحد في الدنيا ، وعلى إغراء الدنيا وفتنتها : أن ملك غسّان أرسل
إليه يخطب ودّه ، ويستلحقه بنفسه ، وتلك من أعظم المحن في حال الجفوة
والهجر ، ولكنه رفض ما عرض عليه ، ولم يتزعزع إيمانه وثقته وحبه ، يقول
ﷺ : (.. قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أُنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ
مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَطَفِقَ

(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٦٦/ .

النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكٍ غَسَّانَ ، فَإِذَا فِيهِ :
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبِكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارٍ هَوَانٍ
وَلَا مَضِيعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُؤَاوِيكَ ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ،
فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُورَ ، فَسَجَرْتُهُ بِهَا .. (١) .

* ومن غرائب الطاعة للرسول ﷺ وإشاره على النفس والأهل

والعشيرة : ما روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله ﷺ
عبد الله بن عبد الله ابن أبي ﷺ قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ - وأبوه هو
رأس المنافقين - قال : ما يقول ؟ بأبي أنت وأمي ، قال : يقول : لئن رجعنا
إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ ، فقال : فقد صدق والله يارسول الله ،
أنت والله الأعزَّ ، وهو الأذلَّ ، أما والله لقد قدمت المدينة يارسول الله وإن
أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرَّ مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن
آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله ﷺ : لا ، فلما قدموا المدينة قام
عبد الله بن عبد الله ابن أبي ﷺ على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القائل :
لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ ؟ أما والله لتعرفنَّ العزة لك
أو لرسول الله ﷺ ! والله لا يؤويك ظلَّ ، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله
ورسوله ﷺ ، فقال : يا للخزرج ! ابني يمنعني بيتي ، يا للخزرج ! ابني
يمنعني بيتي ، فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه ، فاجتمع إليه رجال
فكلّموه ، فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبي ﷺ
فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا له : خلّه ومسكنه ، فأتوه فقال : أمّا إذا
جاء أمر النبي ﷺ فنعم ! " .

(١) - رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٦٦/ .

* ومن عجائب المسارعة في الطاعة ، وسرعة الاستجابة ، والخروج

عن أهواء النفس ومألوفاتها : ما حدث عند نزول تحريم الخمر ، وكان بعض الصحابة في مجلس شرب ، فبلغهم الخبر ، وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضاً ، وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجاج ، ثم صبوا في باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا .! انتهينا ربنا .!

* ثمرات لا تقنى ، وعجائب لا تبلى : وبعد ؛ فلا يزال الحب

الصادق ، يثمر على مرّ القرون ثمراته الطيبة المباركة ، ويتخرج في مدرسته العامرة كبار الأئمة الربانيين ، والأبرار المتقين ، من مختلف طبقات الأمة ، الذين ضربوا أبلغ الأمثال ، وقدموا أرقى النماذج في الطاعة والانقياد ، والتضحية والفداء ، فهذا رجل من السلف يقول : " والله ! لو أمرنا رسول الله ﷺ ، بقطع الأعناق لقطعناها " .

- وإنّ لسان المحبّ ليردّد في كلّ حال مع من قبله من المحبّين الصادقين :

عذابه فيك عذبٌ وبعده فيك قربٌ

وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحبُّ

حسبي من الحبّ أني لما تحبُّ أحبُّ

محبّك أصفو والحياة مريرة وباسمك أسلو والأنام غضابٌ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابٌ

إذا صحّ منك الودّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابٌ

* ومن آثار الحبة الصادقة الشوق إلى لقاء الله والتعلل بالرجاء :

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ ۖ ۞ ﴾
العنكبوت .

قيل : هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم .

أي : أنا أعلم أنّ من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليّ ، فقد أجَلْتُ له أجلاً يكون عن قريب ، فإنه آتٍ لا محالة ، وكل آتٍ قريب .
وفيه لطيفة أخرى ، وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء ، كما قال الشاعر :

لولا التعلل بالرجاء لقطعت
نفس الحب صباةً وشوقاً
حتى إذا رُوح الرجاء أصابه
سكن الحريق إذا تعلّق باللقا

وقد روي عن بلال رضي الله عنه أنّه لما حضرته الوفاة بكت بعض بناته وقلن :
واحزنناه ! فأفاق وقال رضي الله عنه : " بل واطرباه ! غداً ألقى الأحبة ، مُحمّداً
وصحبه " .

* ويعدّل : فلا حياة للقلب إلّا بمحبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله ،
ولا عيش إلّا عيش المحبين ، الذين قرّت أعينهم بحبيبتهم ، وسكنت نفوسهم
إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقربه ، وتنعموا بمحبته ، ففي القلب
فراغ لا يسده شيء إلّا محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله ، ومن لم يظفر
بذلك فحياته كلّها هموم وغموم ، ونكد وكدر ، وآلام وحسرات .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : " ولن يصل العبد إلى هذه
المنزلة العلية ، والمرتبة السنية ، حتّى يعرف الله ، ويهتدي إليه ، بطريق

توصله إليه ، ويخرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة ، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة ، فينجذب إليها بكلية ، ويژهّد في التعلّقات الفانية ، ويدأب في تصحيح التوبة ، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة ، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة ، ثم يقوم حارساً على قلبه ، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله تعالى ، ولا بخطرة فضول لا تنفعه ، فيصفو بذلك قلبه بذكر الله ومحبه والإنابة إليه ، فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه ، على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه ، فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول ﷺ ، واستولت روحانيته على قلبه ، فجعله إمامه وأستاذه ومعلمه وشيخه وقُدوته ، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه ، فيطالع سيرته ﷺ ، ومبادئ أموره ، وكيفية نزول الوحي عليه ، ويعرف صفاته وأخلاقه ، وآدابه وحركاته وسكونه ، ويقظته ومنامه ، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه .

* والصحبة الصالحة هي السبيل ، وهي العون والدليل :

واعلم أخي المؤمن ! أنه لا سبيل يبلغك ذلك ، ولا وسيلة تسير بك إلى هذه الغاية الجليلة ، وتختصر لك الطريق كلّ سوى الصحبة الصالحة ، صحبة أهل العلم والإيمان ، والخشية والإحسان ، والحبّ في الله والنصح لعباده ، صحبة من يذكرك بالله حاله ، وينهض بك إلى الله مقاله ، من إخوان الصدق ، ودعاة الحق ، الذين عرفوا الدنيا على حقيقتها ، فتجردت قلوبهم عن أعراضها الفانية ، وزهدوا بحطامها الزائل ، وأقبلت قلوبهم على الآخرة بعزم وهمة ، وامتألت منها ، إنهم أهل الطاعة والحبّ والاتباع ، الذين سلكوا الطريق قبلك ، وعرفوا مداخله ومخارجه ، وعقباته وغوائله ، إنهم لا

تراهم إلا في أسنى الأحوال الإيمانية ، والمنازل العلية ، هم أهل الصدق في
الطاعة لله تعالى ، والاتباع لرسوله ﷺ ، والنصح لعباد الله ، والشفقة عليهم .
وقد زهد بمثل هذه الصحبة كثير من الناس في هذا العصر ، وظنوا
أنهم يستطيعون الاستعاضة عنها بالرجوع إلى الكتب ، وجمعها ومطالعتها ،
ولو كان البلاغ لدين الله تعالى تغني عنه الكتب ، لشاء الله تعالى أن ينزل على
عباده من كتابه الكريم نسخاً ، يقرءونها ، ويكون لهم البلاغ بها ، وتقوم
بها الحجة عليهم ، ولكن الأسوة في حياة البشر لا بد منها ، وقضى الله أن
يكون التأثير بالحال أعظم من التأثير بالمقال ، " وإنّ هذا العلم دين ، فانظروا
عمن تأخذون دينكم " . والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .



الفصل الخامس

ثمرات الجهاد النبوي وبركاته على الإنسانية

أتى لباحث مهما علا كعبه في اللغة والأدب أن يحيطَ بثمرات دعوة النبي ﷺ وجهاده ، وفضله على الإنسانية وبركاته .؟! وقد غيّرت دعوة النبي ﷺ ، وما جاء به من دين مجرى التاريخ الإنسانيّ كله ، وبدلت وجه العالم ، وجعلت ملائك السماء تلهج بالثناء على أهل الأرض .. ولكننا في هذا البحث الموجز نريد قدر الطاقة أن نضع أيدينا على معالم كبرى ، يندرج تحتها فروع وتفصيلات ، وما مضى من فصول هذا البحث إن هو إلا بعض البيان لما نوجزه هنا ، وبالله وحده التوفيق والسداد ^(١) .

١ - شريعة ربّانية خالدة ، ورسول خاتم مؤيد :

لقد منح الله البشرية على يد النبي ﷺ شريعة ربّانية خالدة ، وجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم أنبيائه ورسله ، رسولاً بشر به الأنبياء والمرسلون ، وأخذوا العهد على أقوامهم وأممهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ، مؤذلاً بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات .. وعلى رأسها القرآن الكريم ، تلك المعجزة البرهانية الباهرة ، التي تجمع بين كونها منهجاً وتشريعاً ، وكونها حجة وبرهاناً ، وهو الكتاب الوحيد بين الكتب السماوية ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، محفوظ بحفظ الله تعالى من التغيير والتبديل ،

(١) - وأحب أن أنوه في بداية هذا الفصل أنني استفدت كثيراً مما كتبه الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله حول هذا الموضوع في كتابه عن السيرة النبوية .

والتحريف والتزوير ، والزيادة والنقصان ، يتحدثى الجن والإنس أن يأتوا بمثله ،
أو بسورة من مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ..

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٨٨) الإسراء .

وقد جمع الله لهذه الشريعة من الخصائص والمزايا ، ما يجعلها تسمو على
كلّ دينٍ ومنهج ، كما كان الفرق بعيداً وكبيراً بين خلق الله تعالى ، وبين
صنعة البشر ..

إنه معجزة كبرى ، جمعت في آياتها ألوف المعجزات ، لا يزال يكشف
الدهر عنها يوماً بعد يوم ، ولا تزال آياته تبهر العلماء والمختصين في كلّ علم
وفنّ ، على اختلاف ألسنتهم وثقافتهم وأديانهم ، فيقبلون إلى مائدته
الممدودة ، وينهلون من ورده العذب المصفى ، ويطرحون على أعتاب حقائقه
الكبرى زخرف القول ، وأباطيل الزيف ، فإذا هم بين عشية وضحاها من
أبنائه البررة ، ودعائه المهتدين ، وحماة الذائدين .. وكما كان هذا الكتاب
العزير دستور الهداية في الأولين ، ومحور الدعوة إلى الحقّ المبين ، فإنه كذلك في
الآخرين .. لا يزال ينبوع الهداية الذي لا ينضب ، ومنارها المرفوع ، وقولها
المسموع ، فلا خوف عليه من عدوّ حاقّد ، أو موتور حاسد .. وإنما الخوف
كلّ الخوف على أبنائه ألاّ يقدروه حقّ قدره ، فلا يقوموا بحقه ، ولا يستظلّوا
تحت ظلّ لوائه ، فيضيّعوا أنفسهم ، ويضيّعوا أمم الأرض من ورائهم ..

وأما الرسول الخاتم ﷺ ، الرعوف الرحيم بالمؤمنين ، المبعوث رحمة
للعالمين ، فإنّ الله تعالى يقدّمه للإنسانية أسوة حسنة ، وقدوة عظمى ، في كلّ
جانب من جوانب الحياة ، ويتحدّى النبيّ ﷺ البشرية كلّها بوحي الله تعالى :

أنه سيّد ولد آدم ، فهل استطاع أحد من البشر أن ينقض هذا التحديّ أو يبطّله؟! أم أنّ عقلاء الناس ، الذين تجرّدوا عن التحيز والعصبيّة ، وتحلّوا بالشجاعة الأدبيّة الرفيعة ، في كلّ زمان ومكان يشهدون بالحقّ ، ويعترفون بالصدق ، فيضعون حياة مُحمّد ﷺ النفسيّة ، وتأثيره الاجتماعيّ في أعلى ما عرفته الإنسانيّة من سلوك أخلاقيّ عظيم ، ويرون آثاره في البشريّة أقوى الآثار ، التي غيرت وجه الأرض ، بدّلت حياة الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن العبث إلى الجدّ ، ومن الفوضى والتسيّب إلى النظام وتحمل المسؤوليّة ، ومن البغي والإفساد في الأرض إلى الإصلاح والبناء ، ونقلت الإنسان من حضيض الهمجيّة والتخلّف إلى أوج الرقيّ والتقدّم ..

لقد قيل الكثير عن هذا الرسول العظيم ﷺ ، من الحقّ الصادق ، ومن الزيف الباطل ، ولكننا مطمئنون إلى انتصار الحقّ ، وهزيمة الباطل ، لأنّ ستّة الله في الحياة أنّ الزيف الباطل ليس له من قرار إلّا النار ، ومثله كهباء ورماد ، قد اشتدّت به الريح في يوم عاصفٍ ، وهو زيد لا ينتفع الناس منه بشيء .. ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَايَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَبُذْهُ فِي الْآرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٧) الرعد .

وإنّ من يشهد لهذا النبيّ العظيم ﷺ بشيء من الحقّ إنّما يقدم شهادة لنفسه ، أنّه أبصر شيئاً من نور الحقّ ، وآته على درجة من الموضوعيّة ، والتجرّد عن العصبيّة ، ولن ينفع بذلك أحداً إلّا نفسه .. والله غنيّ عن العالمين .. ثمّ ألم تر أنّ التأييد الإلهيّ كان يحفّ هذا النبيّ في كلّ حركةٍ من حركاته ، وفي كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته .!؟ أفما ترى في ذلك دليلاً من

أوثق أدلة النبوة ؟! وبرهاناً لا يسع أحداً من العقلاء الألباء إنكاره ؟! وإلا فما تعليلكم لذلك وتفسيره ؟!

لقد عرفت الإنسانية قبل مُحَمَّد ﷺ قادة ، كما عرفت بعد مُحَمَّد ﷺ قادة ، فهل عرفت قائداً مثل مُحَمَّد ﷺ ؟! عرفت قبل مُحَمَّد ﷺ قادة شتوا أمرها ، وأفسدوا سعيها ، وضللوها في مسالك شتى ، ولم يكونوا على شيء من الرشد في أمرهم ، وقادوا أممهم وشعوبهم إلى الفساد والدمار .! وعرفت بعد مُحَمَّد ﷺ قادة ، لم يكن حالهم خيراً من أولئك .. بل ربّما زادوا عليهم في الظلم الإضلال ، والبغي ونشر الفساد .! اللهم إلا مُحَمَّدًا ﷺ ، نبي الرحمة والهدى ، وإلا القادة الهداة ، الذين خرّجتهم مدرسة مُحَمَّد ﷺ ، ولا تزال تخرّجهم بإذن الله .!

أفلا يحق للإنسانية أن تعبّر محمداً ﷺ قائدها الأول ، ومعلمها الأكبر ، ومرشدها الأعظم . ؟! بلى إنّه كذلك ، عرف من عرف ، وأنكر من أنكر ، وكابر من كابر .. فلا يضرّ الشمس الساطعة أعمى البصر ، مطموس البصيرة ، ولا يعاند الحقّ إلاّ من سفه نفسه ، وجحد الحقّ واستكبر ..

ولقد غمط كثير من المستشرقين ومحترفي التنصير رسول الهدى والرحمة حقّه ؛ فمنهم من قلل من شأن دينه ودعوته ، وأخلاقه وشمائله ، ومنهم من شكّك في صدقه في رسالته ، ومنهم من جحد فضله على الإنسانية ، وما أسداه من خير إلى البشرية ، ومنهم من ادّعى أنّه اقتبس دينه من كتبهم وأسفارهم ، وتعلّم من علمائهم ، ومنهم من سبّ وتهجّم ، وأهان وافترى ، وجرّأ السفهاء على الإساءة وعلم !.

ونحن المسلمين نؤمن بأنبياء الله ورسله جميعاً ، ونرى تعظيمهم عقيدة راشدة ، ليس الخروج عنها إلا خروجاً عن الدين ، ومبادئه وحقائقه ، وأنهم من أصحاب العزّات القويّة في تبليغ دين الله تعالى ، وهداية الخلق بأنوار الوحي الأعلى .. فأيّ الفريقين أقوم قليلاً ، وأهْدَى سبيلاً . ؟ !

ونعلم أنّ أنبياء الله ورسله متواضعون ، وهم أكرم الخلق نفوساً ، وأعظمهم خلقاً ، يؤمن بعضهم ببعض ، ولا يفكر أحدهم في الاستعلاء على غيره ، أو انتزاع الصدارة منه ، ومع ما خصّ الله نبيّه مُحَمَّدًا ﷺ من خصائص ومزايا ، وفضائل متفرّدة ، فإنّه أبى على أمّته أن يفضلوه على أحد من إخوانه من الأنبياء ، أدباً منه معهم وتواضعاً ..

وفي صلاة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلف مُحَمَّدٌ ﷺ ليلة والإسراء والمعراج تسليم له بالإمامة عليهم والسيادة ، وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنّ الدين المرتضى عند الله واحد ، وهو يقوم على العبوديّة لله الواحد الأحد .. فهل يضير مُحَمَّدًا ﷺ بعد ذلك أن يجحد بنبوّته جاحد . ؟ !

والحقّ أنّ " مكانة مُحَمَّدٍ بين إخوانه المرسلين تقرّرها الوظيفة التي وكلت إليه ، وهي وظيفة نعرف ضخامتها عندما نعرف أنّ الله قسم تاريخ الحياة نصفين : نصفاً أوّل وزّع عشرات الأنبياء ومثاتهم في أرجائه ، ونصفاً آخر اكتفى فيه بنبوّة واحدة ، لا معقّب عليها ..

ونصف الحياة الأوّل يمثّل الجانب الناشئ ، أمّا نصفها الآخر فهو يمثّل جانب رشد الإنسان ونضجه .. ومُحَمَّدٌ ﷺ وحده هو الذي صَاحَبَ العالم في الفترة اليقظة النابهة من تاريخه .. فعلام يدلّ هذا . ؟ !

وإنّ كتاب مُحَمَّد ﷺ هو السجلّ الباقي المستوعب لتعاليم الله دون نقص ولا زيادة ، تلك التعاليم التي جمعت وصايا السماء من الأزل إلى الأبد ، وكتب الله لها حفظاً لم يكتب لكتاب في الأوّلين والآخرين ، فهي محفوظة حرفاً حرفاً ، ولا نقول كلمة كلمة .. وأمّا الكتب الأخرى فقد فقدت أصولها ، وعراها من التحريف والتبديل ما عراها .. فعلام يدلّ هذا ؟!

وإنّ نبوة مُحَمَّد ﷺ قد اتّسعت وامتدّت ، وشرّقت وغرّبت ، حتّى شملت الأزمنة والأمكنة ، ولقد عرف المستقدمون والمستأخرون ، وشهد الواقع أيّ مهمّة عظمى أعدّتها له الأقدار ، وزوّدته لاحتمالها بأنفس المواهب ، وأكمل الصفات .. ولقد استغنى بهذه الشهادة العمليّة المشهودّة عن تزكية الكلام ، وكثرة الخصام ، وجعله الله تعالى في منصب الدفاع عن الأنبياء والرسل جميعاً ، ونفي الشبهات ، ودفع المفتريات .. فعلام يدلّ هذا ؟! (١) .

فماذا منح هذا النبيّ الكريم ﷺ الإنسانيّة من بركات ؟! وماذا أسدى إليها من الخيرات ؟! فما أعظم ما حباه الله من العطاء وما أكرمه .!

فالصلاة والسلام عليك يا سيّد الأنبياء والمرسلين ، وعلى إخوانك النبيّين ، وأصحابك الأبرار ، وآل بيتك الأطهار ، ما تعاقب الليل والنهار .. وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

٢ - إحياء عقيدة التوحيد النقيّة الواضحة ، وتجديد الملة الإبراهيميّة الحنيفيّة .

إنّ الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، ونبد عبادة ما سواه هي الحقيقة الكبرى التي دعا إليها الأنبياء والرسل جميعاً ، وجاهدوا في سبيلها ، وأفنوا أعمارهم

(١) - اقتبست بعض هذه الأفكار من كتاب : " الجانب العاطفيّ من الإسلام " للشيخ محمّد الغزاليّ ص/١٧١/ مع زيادة تناسب المقام .

لأجلها ، ومع ذلك فإنّ تلك الحقيقة الكبرى هي أوّل ما يناله التحريف والإفساد بعد وفاة الأنبياء ، وانتقال الدعوة إلى من بعدهم ؟! وقد بعث الله نبيّه مُحَمَّدًا ﷺ على فترة من الرسل ، وانطماس من السبل ، فجدد الدعوة إلى التوحيد الخالص ، وعبادة الله وحده ، وأحيا عقيدة التوحيد نقيّة واضحة ، لا تشوبها شائبة ، وجدّد الملة الإبراهيميّة الحنيفيّة .. ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن ، وأبي الأنبياء والمرسلين ، الذي تعزّز كلّ ملة بانتسابها إليه ، وربّما ادّعى بعضها شططاً أنّ إبراهيم كان على ملّتها ، تزور الحقائق ، وتنسب السابق للآحق ..

وإنّ ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام تمثّل معلماً من معالم الدين الحقّ ، ومحوراً لجمع البشريّة على الهدى ، ومن حكمة الله في إرسال نبيّه ﷺ لإحياء ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام : أنّ إبراهيم الخليل أعلن تسمية عالميّة لملة الحقّ هي الإسلام ، وهي تسمية تدلّ على أنّ الله تعالى يمهد لاجتماع شمل النبوات في نبوة خاتمة بيعة محمد ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨) الحجّ .

ولهذا السبب ، ولغيره أيضاً ، فإنّنا نجد في القرآن الكريم إشادة متميّزة بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومراحل حياته ، ودعوته لأبيه وقومه ، وأخبار أبنائه وذريّته وقصصهم ، واتّصلاً وثيقاً بين الدعوتين والرسالتين ، وقد كان

ذلك هو السبب الأوّل لدخول بعض الباحثين الغربيين في الإسلام ، وتأتي دعوة إبراهيم أيضاً ببعثة مُحَمَّد ﷺ في أهل الوادي غير ذي الزرع ، من سكان مكة المكرمة تنويحاً لإحياء النبي ﷺ لدعوة إبراهيم الحنيفيّة ، لتصل النبوة الخاتمة بأبي الأنبياء والمرسلين ، وتجمع هدى السابقين في رسالة خاتم النبيين ﷺ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ... رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة .

٣ - إعلان وحدة المبدأ والمصير ، والمساواة الإنسانية بين جميع البشر .

الوضوح العقدي والفكريّ سمة كبرى من سمات الإسلام وخصائصه ، تجعل الإنسان يفقه دينه خلال أقصر مدة ممكنة ، فيجد فيه أمنية عقله ، وتلبية لنداء فطرته ، وغذاء لأشواق روحه ، وحلاً لمشكلاته الفكرية والعملية ، الحاضرة والمستقبلية .

ولقد كان إعلان وحدة المبدأ والمصير ، والمساواة الإنسانية بين جميع البشر من أهمّ المبادئ التي جاء بها الإسلام ، وصدع بها النبي ﷺ في كلّ مناسبة : كما جاء في الحديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَاضَمَهَا بِأَبَائِهَا ، فَالْنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ اللَّهُ : ﴿ يَكُونُ

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾ .

وما أسهل إعلان المبادئ المثالية ، والشعارات البراقة الرفيعة ، وربما كانت الممارسة العملية عكس ذلك تماماً . ! تتخذ من تلك الشعارات ستاراً لظلمها وبغيها ، فالعبرة كل العبرة في السلوك العملي ، ونوع العلاقات التي تحكم حياة الناس وتنظمها .

ولقد كانت سيرة النبي ﷺ العملية ، ومواقفه التشريعية ، والدعوية والاجتماعية ترجمة دقيقة حية لهذه المبادئ ، وقد تجلّى ذلك في : إقامة الحق والعدل ، بين الكبير والصغير ، والقوي والضعيف ، وعقد الأخوة بين المؤمنين ، التي كانت ذات ثمرات عملية ، من التعاطف والتعاون ، والتراحم والتناصر ، والتزاور والتناصح ، وبذل المعروف وإغاثة الملهوف ، والحب في الله ، والبغض في الله .. وما إلى ذلك من حقوق الأخوة وآداب الصحبة .

ويكفينا في التدليل على هذه الحقائق هذا الموقف النبوي القاطع ، كما جاء في الحديث الشريف عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قَرِيشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟) ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (٢) .

(١) - رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله برقم ٣١٩٣ / وقال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

(٢) - رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار / ٣٢٨٨ / ومسلم وهذا لفظه في كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود / ٣١٩٦ .

ولقد تجلّت هذه المبادئ أيضاً في حياة الصحابة وسلف هذه الأمة الصالح وعلاقاتهم ، وعبروا عنها في مواقفهم وسيرتهم ، كما نلاحظ ذلك في موقف ربيّ بن عامر أمام رستم قائد جيش الفرس ، إذ قال له : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء ، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " .

٤ - إعلان كرامة الإنسان ، وشرف مكاته في الوجود ، وتحريره من الوهم والخرافة ، ومن عبودية الطاغوت إلى عبادة الله وحده .

لقد أعلن القرآن الكريم كرامة الإنسان وسيادته في هذا الوجود ، وتسخير كلّ ما في الكون لأجله ، ومنّ عليه بذلك في آيات كثيرة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٧٠) الإسراء .

وما أتعس الإنسان عندما تنبّت صلته بالله تعالى ، فيصبح ممزّق الكيان ، مهدر الكرامة ، أسير الوهم والخرافة ، مشوّش الخاطر ، مشّتت اللبّ ، حبيس العادات والتقاليد ، والتبعية العمياء للآباء والأجداد ، يخاف ما لا يخاف ، ويرجو ما لا يرجي ، ويستعبد لأتفه الطواغيت ، وربما زاد في بليّته ومصيبته ، وقُضي عليه في محنته ، حتّى أصبح يرى حسناً ما ليس بالحسن ، ولا نجاة للإنسان من هذا المأزق الخطير إلّا بتحقيق العبوديّة لله تعالى ، وكفره بتلك الطواغيت ، على اختلاف أنواعها ، وتلك أعظم مهمّة كلّف الله بها رسله الكرام ، عليهم الصلاة والسلام .

ويقول الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ إبراهيم .

والإنسان إما أن يكون في ولاية الله وحسن رعايته ، وإما أن يكون من أولياء الشيطان ، الذين يتولون الطواغيت ، ويتولاهم الطاغوت ، فلا يزالون يتخبطون في هذه الحياة ، ويتقلبون في الظلمات ، حتى يكون مأواهم النار ، وبئس المصير : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة .

وإنَّ عبودية الإنسان للطاغوت تعني أنَّ الإنسان مكبل القوى ، معطل الطاقات ، مشلول الإرادة ، يدخل الحياة ، ويخرج منها ، وهو لا يعلم لم دخل ، ولم خرج ؟! لا يعرف لحياته قيمة ولا منزلة ، ولا هدفاً ولا غاية .. فأَيَّ سعادة يحس بها في حياته إذا كانت حياته بهذه الصورة ؟!

٥ - ربط الإنسان بالله واليوم الآخر ، بتصحیح النية والقصد ، وابتغاء مرضاة

الله في كل أمر ، وما يتبع ذلك من ثمرات طيبة في حياة الفرد والمجتمع :

ولا عبرة في الإسلام للعمل إلا بالنية ، كما في الحديث المشهور عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا لِمَرِي مَا

نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ (١) .

والنية من أعمال القلوب .. والمناهج الوضعية لا تعرف أعمال القلوب ، ولا تقيم لها وزناً ، وهي في الحقيقة سرّ صلاح الإنسان واستقامة حياته ..

وتصحيح القصد ، وسلامة النية ، وابتغاء مرضاة الله ، والاستعداد لليوم الآخر أصول كبرى لمنهج ربانيّ فريد لتربية الإنسان ، وسموّ شخصيته ، وحسن علاقاته ، وهذه المبادئ السامية ، والأصول الزاكية هي التي جعلت أمة الإسلام منتجة منجبة ، معطاء مباركة ، كالشجرة الطيبة ، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ، فلا تزال تقدّم للبشرية النماذج الربّانية المتألّقة ، التي يجعلها الله تعالى قوّة لدينه ، وحجّة على خلقه ، مصداق قول النبي ﷺ : (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ) (٢) .

والنية الصالحة تضع الإنسان أمام آفاق واسعة لأعمال الخير والبرّ ، إنّها تحدّد منهج حياته ، وآفاق تحرّكاته ، ومسار سلوكه ، وتغريه بنية الخير ، وفعل الخير ، كما جاء في الحديث عن أبي كبشة الأنماريؓ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ : مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةٌ فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا ، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا . وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ : إِنَّمَا الدُّنْيَا لَأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا

(١) - رواه البخاريّ ٧/١ و ١٥ ومسلم في كتاب الإمارة برقم /٣٥٤٤/ ، والترمذي والنسائي وأبو داود .

(٢) - رواه مسلم في كتاب الإمارة برقم /٣٥٤٤/ عَنْ نُوْبَانَ ؓ .

وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدُ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا ، فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ يَنْتَهِي فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدُ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْطِئُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَحْسَنِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَهُوَ يَنْتَهِي فَوَزَرُهُمَا سَوَاءٌ (١) .

وإنَّ من أعظم ثمرات الجهاد النبوي وبركاته على الإنسانية أنَّ الإنسان لم يعد تفكيره وهمّه محصوراً في حدود هذه الحياة الدنيا ، لا يعرف إلاَّ المأكل والمشرب ، واللهم والمنكح ، والتكاثر في الدنيا ، والنصب في جمع جطامها ، والعبّ من متع الحياة ، وكتوس الشهوات المترعات ..

لقد ربطت عقيدة الإيمان الإنسان بالله واليوم الآخر ، فصَحَّحت له قصده ونيتَه ، وعلَّقت قلبه بالله رغباً ورهباً ، حتَّى قال قائل أولئك الذين تربّوا هذه التربية الإيمانيّة العالِيّة ، وهو يستقبل الموت : " فزت ! وربّ الكعبة . ! " ، وقال بلال رضي الله عنه ، وهو في سكرات الموت : " بل واطرباه ! غداً ألقى الأحبة .. مُحَمَّدًا وصحبه ..

وعندما ارتبط قلب الإنسان بالله واليوم الآخر ، وصَحَّ قصده ، واستقامت نيّته ، وطابت سريرته هانت عليه الدنيا بما فيها ، فكان الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه من كلّ شيء ، وكانت رقابة الله ، وابتغاء مرضاته أعظم في نفسه من كلّ شيء ، لا يؤثر على ذلك شيئاً ، ولا يرضى عنه بدلاً ، فجَلَّتْ همّته ، وعظمت أمانته ، وبورك سعيه ، وضرب أروع الأمثال في التزام مكارم

(١) - رواه الترمذي / ٢٢٤٧ / وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

الأخلاق ، وحراسة العقيدة والمبادئ ، وكان النموذج الصادق للمدرسة النبوية ، والتربية الربانية ..

وكان من ثمرات ذلك : السعادة النفسية ، والاستقرار الأسري ، والأمن الاجتماعي ، ولا تزال آثار ذلك مشهودة في مجتمعات المسلمين إلى اليوم ، يقول الدكتور مراد هوفمان في كتابه " الإسلام كبديل " (١) : " إنَّ إيمان الناس في العالم الإسلامي ، و يقينهم الثابت بالقضاء والقدر ، وثقتهم بهداية الله وحسابه العادل في الآخرة ، واعتقادهم بالآخرة والحياة بعد الموت يحفظ غالبية المسلمين من إحساس يبدو سمة لما يعرف بمرحلة ما بعد الحداثة ، بما يتضمَّنه من ضياع وجودي ، وفراغ كوني ، واغتراب مأساوي ، كما يحميمهم من الشعور بالاكتئاب بسبب التقدُّم في العمر .. كلَّ هذه الأمراض التي طالما حوّلت الكثير من الأطباء النفسيين (في الغرب) إلى أثرىاء " .

٦ - الجمع بين مصالح الدنيا ، والعمل للآخرة ، وذلك بإعمار الأرض وفق منهج الله وشرعه ، والعمل للآخرة والاستعداد للقاء الله ، دون إفراط ولا تفريط ، تحقيقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) ﴿ القصص .

وكان من ثمرات ارتباط الإنسان بالله واليوم الآخر ، بتصحيح النية والقصد ، وابتغاء مرضاة الله في كلّ أمر : أنّ الإنسان لم يعد ممزّق الفكر والشعور ، والنشاط والسلوك بين العمل للدنيا ، والسعي للآخرة ، ولم يعد يشعر بالتناقض والشتات بين الجانبين في حياته ، بل لقد تعلّم في مدرسة النبوة : أن يجمع بينهما في تقارب واتّصال ، وودّ وانسجام .. وتعلّم أيضاً أنّ إعمار الدنيا وفق منهج الله ودينه قصد مهمّ من مقاصد الإسلام العليا في هذه الحياة .. وهو نوع من العبادة ، والقربة إلى الله ، يؤجر عليه كما يؤجر على عباداته الخاصّة ، وربّما رجح هذا النوع على نوافل العبادات ، عندما يتعيّن على الإنسان ، فيكون فرضاً عينياً ، أو من فروض الكفايات ..

" والنزاع القديم بين الناس في هذه الحياة أساسه : أتكون الغلبة والهيمنة للحيوان الرابض في دم الإنسان ، يتحرّك بنزعات القسوة والأثرة وحدها ، أم تكون الهيمنة للقلب الإنسانيّ ، المتطلّع إلى الكمال والسلام ، والحبّ والإيثار ؟! ذاك ما يجب أن يعرف بجلاء ، وأن ترتفع به حناجر الدعاة المصلحين .. وليس في الإسلام تغليب للروح على الجسد ، ولا للجسد على الروح ، وإثما فيه تنظيم دقيق يجعل المعنويّات الرفيعة ، والقيم العليا هي التي تتولّى قياده ، وتمسك بزمامه ، فلا هو براهب يقتل نداء الحياة ، ويكبت هواتف الفطرة ، ولا هو مادّيّ يتجاهل أشواق الروح إلى الرفعة والخلود .. " (١) .

ولقد علّم الإسلام الإنسان أن يوازن موازنة صحيحة بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ، دون إفراط أو تفريط ، وقد جمع الله تعالى قانون ذلك في

(١) - " الجانب العاطفيّ من الإسلام " ص/٩٤/ بتصرّف .

الآية التي ذكرناها آنفاً ، إذ يقول الله سبحانه : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) القصص .

إنَّ الإنسان كائن عظيم حقاً ، بيد أنَّ عظمته ترجع إلى نسبه السماويِّ الروحيِّ ، لا إلى نسبه الأرضيِّ الماديِّ ..

واليوم في شتَّى بقاع الأرض لا حديث إلاَّ عن رفع المستوى الاقتصاديِّ ، وضمان مقادير موفورة من الرغبات والشهوات للكبار والصغار ، إنَّهم يريدون للإنسان أن يكون كالحیوان المسعور ، لا يزال يلهث ويلهث وراء الشهوات ، ولا يشبع من نهمة الاستهلاك حتَّى يهلك ..

٧ - رفع مكارم الأخلاق من أن تكون فضيلة نفسية نافلة إلى أن تكون واجباً

إيمانياً ، وسلوكاً اجتماعياً راشداً ، وتشريعاً ربانياً ملزماً ؛ بينما نرى الحضارة الغربية حوّلت مكارم الأخلاق إلى أخلاق مادية نفعية ، ثمَّ إلى أخلاق شخصية خاصة ، يحكمها قانون النسبية ، ومنطق الحرية الجاحمة ، والأنانية المفرطة ، ثمَّ رمت بها إلى مخلفات عفى عليها الزمن ، فضاعت الأخلاق ، وشقي الإنسان ، وتمزّقت روابط الناس في المجتمعات ..

هذه الكلمات تمثّل خلاصة دقيقة موجزة ، لموقع الأخلاق في الإسلام ، والمساحة الكبيرة التي تحتلّها ، وطبيعة علاقتها الوثيقة بأصول الإسلام الكبرى وحقائقه ، وموقعها في الحضارة الغربية ، وموقف الفلسفة المادية منها ، ممّا يجعل الفرق بعيداً ، والبون شاسعاً بين النظرتين والموقفين ..

وإنَّ إحياء مكارم الأخلاق ونشرها في العالمين هي السمة الكبرى التي اتّسمت بها الحضارة الإسلامية ، بعد توحيد الله تعالى ، وأركان العقيدة

وأصولها ، ولا عجب في ذلك بعدما علمنا أنّ النبي ﷺ بعث ليتمّم مكارم الأخلاق ، ورأينا ومضات من سيرته الشريفة العطرة تقدّم للإنسانية زخماً كبيراً من الأخلاق العظيمة ، التي شهد الله له بها ، وشملت مكارم الأخلاق كلّها ..

٨ - إرادة الخير للإنسان حيث كان ، ويتجلّى ذلك في الدعوة إلى الإيمان ، الذي

هو سبيل النجاة في الآخرة ، وفعل الخير والمعروف ، والتزام العدل مع الناس كافة :

لقد عانت الإنسانية في تاريخها القديم ، ولا تزال تعاني إلى يوم الناس هذا من الأنانيّة والعنصريّة ، وغلبة العنصريّة الجنسيّة والقوميّة ، بله التعصّب الدينيّ ، الذي كثيراً ما كان وبالاً على الدين نفسه ، من حيث يظنّ أولئك المتعصّبون أنّهم يحسنون إلى دينهم ، ويتصرون له .. ولا يستثنى من ذلك إلاّ ما جاء به الإسلام ، وطبق في حياة الناس فنعموا به وسعدوا ، من المساواة الإنسانية ، والتحرّر من العنصريّة بكلّ أشكالها وألوانها ، وتقديم الإسلام للإنسان حيث كان ، وحبّ الخير لجميع الناس .. ولا عجب في ذلك ، فالإسلام هو الدين الخاتم ، الذي اختاره الله للبشريّة كافّة ، ولا يقبل من أحد ديناً سواه ، فإن لم يحمل لواء هذه الدعوة ، ويشتر بها ، ويقدم للناس المبادئ والأحكام التي تكفل تنفيذها ، لم يتحقّق له الهدف الذي يريده ..

ولقد شهد بذلك للإسلام الأعداء البعداء ، قبل المحبّين الأولياء ، ومن الأعداء من عاب تلك المزيّة الرّبانيّة على الإسلام بكبره ، وصدّه طغيانه عن الدخول في دين الله ، فما ضرّ بذلك إلاّ نفسه .. والله غنيّ عن العالمين ..

٩ - وإذ كانت رسالة النبي ﷺ عامّة شاملة للإنسانية كلّها فقد خرّجت

مدرسة النبوة جيلاً إنسانياً فريداً ، بعيداً عن أيّ نظرة أنانيّة أو قليّة ، أو قوميّة أو محليّة ، فكان جيلاً مؤهلاً لإنقاذ البشريّة ، وبناء الحضارة ، وقيادة الإنسانية .

لقد انقلبت نفسيّة الصحابة بالإيمان انقلاباً واسعاً عميقاً ، فقد كانوا منذ أن يعمر الإيمان قلب أحدهم تنقلب حياته رأساً على عقب ، فيتغلغل الإيمان في أحشائه ، وتخالط بشاشته قلبه ، ويجري في عروقه ومشاعره مجرى الروح والدم ، فيقتلع جرائم الجاهليّة وجذورها ، وترهاتها وأباطيلها ، ويغمر العقل والقلب بفيضه الربّانيّ ، فيجعل منه رجلاً آخر ، يظهر منه من روائع الإيمان واليقين ، والحبّ والفداء ، والصبر والشجاعة ، وعلوّ الهمة وقوّة الإرادة ما يغيّر العالم ، ويحيّر العقل ، ومنطق الفلسفة ، وتاريخ الأخلاق وحركات الإصلاح ، وهو لا يزال موضع حيرة ودهشة ، وقد عجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق ، وإرادة الله العليا لهذا الدين ..

وقد شهد النبيّ ﷺ لأصحابه ﷺ أنّهم خير القرون ، كما جاء في الحديث عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، قَالَ عِمْرَانُ : فَلَا أُدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ؟ ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) ^(١) . أفلا يدلّ ذلك على اختيار إلهي واصطفاء ربّانيّ ؟!

ويؤكد ذلك أيضاً ما روي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَاتَّخَذَهُ بَعْلِمِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ ، فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا ، فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ ، وَوزراء

(١) - رواه البخاريّ في كتاب الشهادة برقم /٢٤٥٧/ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم

نبيّه ﷺ ، فما رآه المؤمنون حسناً ، فهو حسنٌ ، وما رآه المؤمنون قبيحاً ، فهو عند الله قبيحٌ (١) .

وما روي أيضاً عن عبد الله بن عمر ؓ قال : (من كان مُسْتَنّاً فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كانوا خيرَ هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصُحبة نبيّه ﷺ ، ونقل دينه ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم ، فهم أصحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كانوا على الهدى المستقيم ، والله ربُّ الكعبة) (٢) .

لقد تزعم هذا الجيل الذي تخرج في مدرسة مُحَمَّدٍ ﷺ العالم ، وعزل القيادات الفاسدة المريضة ، التي ظلمت وأفسدت في الأرض ، واستعبدت الأمم والشعوب ، فانهارت على أيديهم تلك الأمبراطوريات ، بعد أن عمّرت قروناً ، وكانت لها حضارة ماديّة راسخة ، تعتزّ بها ، وتستमित في الدفاع عنها ، وبنوا في مدّة وجيزة مُدهشة حضارة إنسانيّة فاضلة ، لم تكن كأي من الحضارات قبلها ولا بعدها ، فما المؤهلات القياديّة ، التي تحققت في هذه النخبة الفتية ، ولم تكن لها من قبل حضارة ، ولا عهد لها بقيادة أو إدارة ؟!

لقد هيّاها الله تعالى لهذه المسئوليّة الإنسانيّة الكبيرة بمؤهلات عظيمة كان

أهمّها :

● - أنهم كانوا أصحاب كتاب منزل ، وشرعة إلهيّة ، جعلها الله خاتمة الشرائع ، وكتب لها الظهور على الدين كله ؛ فهم لا يقننون ، ولا يفتنون من عند أنفسهم ، لأنّ ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، وأتباع الهوى ، ولا

(١) - رواه أبو نعيم في الحلية ١/٣٧٥ ، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/٦١ .

(٢) - رواه أبو نعيم في الحلية ١/١٣٥ .

يخبطون ، في سياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، فهم على بينات من أمرهم ، ونور من ربهم ، قد أخلصوا الله سرائرهم ، وصدقوا الله فصدقهم .

● - أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية أخلاقية عالية ، وتزكية للنفس راقية ، وإعداد وتدريب .. ولم يكن ذلك على يد معلّم أو فيلسوف ، أو جامعة أكاديمية .. لقد تربوا في مدرسة النبي ﷺ زمناً طويلاً ، وعاشوا تحت إشرافه الدقيق ، ومتابعته الدائبة : يزكّيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويخالطونه فيشهدون أخلاقه العظيمة ، وشمائله الكريمة ، ويهيئهم ويعدهم لهذه المهمة العظيمة ، فالنجاح الذي تحقّق على أيديهم هو في الحقيقة نجاح لهذه التربية النبوية المسدّدة .

● - أنهم لم يكونوا أصحاب أهداف دنيوية رخيصة ، وغايات دنيّة ، تقوم على فرض السيطرة على الآخرين ، وجمع الغنائم ، والتنافس على الدنيا ، والتخاصم فيها ، وإنّما كان جهادهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وإقامة دين الله في الأرض ، ونصرة شريعته ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المؤهل الكبير ، والغاية السامية بقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحجّ ٤١) .

● - ويكفي هذا الجيل الذي تخرّج في مدرسة مُحَمَّد ﷺ فخراً أنّ أعداءهم شهدوا لهم بمكارم الأخلاق ، وكريم الصفات ، وأشادوا بعدلهم وإنصافهم ، وأنثوا عليهم غاية الثناء في كلّ مناسبة ، فهذا شيخ من عظماء الروم يصف جنود المسلمين بقوله : " إنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتنافسون فيما بينهم " .

وقال آخر : " هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بشن ، ولا يدخلون إلا بسلام .. " (١) .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا دعي الجماع

١٠ - رسول الهدى والرحمة للعالمين ، وشريعة الرحمة للإنسانية عامة :

هذه هي الحقيقة الكونية الكبرى ، التي تتجلى في شخصية مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ ، كما تتجلى في الشريعة التي جاء بها ، إنها أوضح من الشمس في رابعة النهار ، وأجلى من الصبح لذي عينين ، وهذه آثارها ، لا يماري بها من يحترم عقله ، ولا يعرض عنها إلا حاسد قد أعمى الحسد قلبه ..

وإذ كان تاريخ علاقة الإنسان بأخيه الإنسان على ظهر هذه الأرض يسري الظلم بين سطوره كما تسري النار في الهشيم ، وتتواصل حلقاته ، وتشابه فصوله ، ولا يختلف في ذلك مشرق الأرض عن مغربها ، فإن حاجة الإنسانية إلى رسول الهدى والرحمة ﷺ ، وحاجتها إلى شريعته شريعة الرحمة لا تقل عن ضرورة الطعام والشراب ، والهواء والدواء ..

ولن يجد من استنارت بصيرته ، وأشرق نور الإيمان في قلبه في سنة النبي ﷺ وهديه ، وأخلاقه وشمائله ، والشريعة التي جاء بها ، لن يجد في ذلك كله إلا الرحمة بالإنسان ، وبالعالمين .. فهل يرضى عاقل لنفسه أن يعرض عن رحمة ربّه ، ويتقلب في متاهات الضنك والشقاء؟! .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

الْأَبْصُرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ الحجّ ، وصدق الله العظيم :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

(١) - من كتاب ربّانية لا رهبانية للشيخ أبي الحسن الندوي .

صَدْرُهُ، ضَبَقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴿الأنعام﴾ .

فَاللَّهُمَّ اهْدِنَا هَدْيَ فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَامْلَأْ قُلُوبَنَا بِنُورِ مَحَبَّتِكَ الَّذِي لَا يُحْبَو ،
وَاجْعَلْنَا هُدًى مُهْتَدِينَ .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فِي الْأَوَّلِينَ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ
وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فِي الْآخِرِينَ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كُلَّمَا ذَكَرَكَ
وَذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كُلَّمَا غَفَلَ عَنْ ذَكَرِكَ
وَذَكَرَهُ الْغَافِلُونَ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ وَرَقِ الْأَشْجَارِ
وَقَطْرِ الْأَمْطَارِ ، وَرَمْلِ الصَّحَارَى وَمَاءِ الْبَحَارِ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ مَا
خَلَقْتَ ، وَمَا أَنْتَ خَالِقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ،
وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .



الخاتمة

بأبي أنت وأمي يا رسول الله
هلمزأيها الإنسانُ إلى الأسوة العظمى !
وبعد ؛ فلنفترق على عهد !

بأبي أنت وأمي يا رسول الله

أخي المسلم ! الحبّ لرسول الله ﷺ !

أتدري أهميّة هذه الكلمة التي تقولها ، ويقولها كلّ مؤمن محبّ . ؟
إنّها كلمة عظيمة القدر ، جليلة الأثر .. تصدر عن صدق الإنسان في
الإيمان بالله ورسوله ﷺ .. وإنّه لا يخفى على أيّ مسلم أنّ شهادة أن لا
إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله هي الركن الأوّل من أركان
الإسلام ، لا يُقبل الدخول في دين الله ما لم يعلن الإنسان هذه الشهادة ،
صادقاً مخلصاً بها من قلبه ، وقد كلّفت هذه الشهادة النبيّ ﷺ جهاداً
مريراً ، يوم قام يصدع بدعوة الناس إلى دين الله تعالى ، وتوحيده
وعبادته .. وعرف الناس يومها ما وراء هذه الدعوة والشهادة ، وما
تكلفهم من تضحيات وأعباء .. فلم يُقدّم عليها إلّا من قالها بصدق ،
ووطن نفسه على تحمّل تبعاتها ومسؤوليّاتها ..

ومن هنا فإنّ ركن الإسلام الأوّل لم يكن إعلاناً ظاهريّاً ، يقتصر على لسان الإنسان ، ولا يتجاوزه ، إنّهُ تعبير عن إذعان العقل ، وخفقة القلب ، واستجابة السلوك ، التي تتجلّى أوّل ما تتجلّى بإعلان اللسان .. إنّهُ تعبير عن اصطباغ كيان الإنسان كلّهُ بصبغة التوحيد والإيمان ، وما تقتضيه من عبوديّة لله خالصة ، وطاعة مطلقة ، وحبّ لنبِيِّهِ ﷺ واتباع ، وإيثار له على الأهل والمال والولد والمتاع ، والنفس والنفيس ، وكلّ ما يُؤثّر أو يُحبّب ..

إنّهُ التعبير الصادق عن التحوّل إلى صبغة الله الربّانيّة ، التي تصل الإنسان بالملأ الأعلى ، وتحرّره من حطام الأرض ، وأوهام المادّة : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١٣٨) البقرة .

ولقد عرف تاريخ الدعوة الأولى نماذج فدّة من أولئك الذين قالوا هذه الشهادة بصدق ، وتحملوا لأجلها كلّ أذىً وابتلاء في سبيل الله .. ولم يكونوا بذلك بدعاً في تاريخ الدعوة إلى الإيمان ، فقد قصّ علينا القرآن من ذلك ، وكذلك النبيّ ﷺ ما يؤكّد أنّ الابتلاء والتضحية ليس موقفاً عرضيّاً ، ولا حالة شاذّة ، بل هي سنّة ماضية من سنن الله في تاريخ الإيمان ، وقافلة المؤمنين على مدار التاريخ ..

ولكنّ الملاحظ في تاريخ هذه الأمّة ، وهي التي شهد الله لها بالخيريّة على سائر الأمم ، كما شهد لها نبِيُّها ﷺ بذلك أنّ هذه النماذج الفدّة لم تكن قليلة ولا نادرة ، بل هي كثيرة كثيرة عجيبة ، وشائعة شيوعاً عاماً في كلّ الأمم وشعوب الأرض ، الذين دخلوا في دين الله ، وعرفوا حقيقة هذه الشهادة ، وما تقتضي من تضحيات .. إنّها ثمرة بذرة الإيمان الصادق ،

وبشاشته عندما تلتقي مع الفطرة ، فتسري في الدماء ، وتختلط بخفقات القلب .. ولاشك أنّ العجب يزول من هذه الظاهرة عندما نفهم هذه الشهادة على حقيقتها ، وما تحمل من معان كبرى ، وحقائق شاملة ضخمة ، لا بدّ للمؤمن أن يعيها حقّ الوعي ، وهو يُقدّم هذه الشهادة ، ويقرّ بها ..

إنّ هذه الشهادة تنتظم حياة الإنسان كلّها ، وترجم علاقته بهذه الدنيا ، إنّها تقتضي تعظيم الله تعالى تعظيماً ، لا يشبهه تعظيم ولا يدانيه ، وتقتضي حبّ الله تعالى حبّاً لا يماثله حبّ ، ولا يقاربه .. ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ البقرة ، وكذلك تعظيم رسول الله ﷺ وحبّه ، أعلى ما يكون التعظيم والحبّ لأحد من البشر آيّا كان شأنه .. ﴿ لَتَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١ ﴾ الفتح .

ومّا يلاحظ بصورة واقعيّة عمليّة أنّ هذا التعظيم والحبّ تجلّى في تشريعات ومواقف ، فالتكبير وهو تعظيم لله تبارك وتعالى شعار المؤمنين في الحياة كلّها .. إنّهُ فيض ثرّ رقائق من نبع الإيمان الذي لا ينضب ، ولا يغيض .. يتكرّر في الأذان ستّ مرّات ، ويتكرّر في الإقامة أربع مرّات ، وبه تفتتح الصلاة ، وهو ركن فيها ، وهو نشيد المؤمنين الإيمانّيّ ، ومظهر بهجتهم وفرحتهم بالعيدين ، يردّدونه صباح مساء ، وفي أعقاب الصلوات .. وهو شعارهم في الجهاد في سبيل الله ، يذكّركم بالله تعالى ، وأنّ القوّة لله جميعاً ، فيثير حماسهم ، ويشدّ عزائمهم ، ويرهب أعداءهم ،

ويلقي الرعب في قلوبهم .. وهو حداؤهم العذب ، ورفيقهم في تنقلاتهم
وأسفارهم ، كلما علوا جبلاً أو مرتفعاً من الأرض ..

والتعبير عن الحب الصادق لرسول الله ﷺ تجلّى في كلّ موقف من
مواقف أصحابه ؛ فما أكثر ما انطلقت هذه الكلمات الجميلة ، من أفواههم
في كلّ مناسبة ، كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، عالية مدوّة ، صادقة
معبرة : " **بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. نفسي كنون**
نفسك .. نحري كنون نحرك .. " .

وهذه التشريعات والمواقف ، أوجدت روحاً سارية في حياة الأمة ،
ملكّت عليها مشاعرهما ، وأجّجت عواطفها ، فمهما شغلّتها الدنيا ،
واستغرقت في شئونها ، وغفلت عن ذكر ربّها ، وقصّرت بحقّ دينها ، فإنّ
هذه الروح تكمن بإذن الله ولا تموت ، وتخبو ولا تنطفئ ، وتضمّر ولا تزول ،
وعندما تتعرّض لأيّ مثير ، تراها تشبّ وتثور ، وتصبح كالعاصفة الهائجة ،
أو البركان المدمّر .. وغالباً ما تكون المثيرات عدواناً على دين الله تعالى من
بعض الأعداء الحاقدين ، فتؤدّي إلى عكس ما يريدون ويمكرون .. ﴿

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ الأنفال .

لقد قال الصحابة رضي الله عنهم هذه الكلمات في أحلك الظروف وأدقّها :
حين اشتدّ القتال مع أعداء الله تعالى ، وتكالبت عليهم قوى الشرّ والمكر ،
وأحْدق الخطر والموت بهم وبرزوا رسول الله ﷺ من كلّ جانب ، وكان
الموت قاب قوسين أو أدنى ، وحين وقف أحدهم وحده ، يواجه الموت
صيراً ، يتحدّى قوى الكفر والباطل ، وفي مثل هذه الظروف تبدو الأمور
على حقيقتها ، وينكشف صدق المبادئ من زيفها .. قال الصحابة

الكرام ﷺ هذه الكلمات بصدق ، فأدهشوا أعداءهم بها ، حتّى قال زعيمهم أبو سفيان في موقف من المواقف ، قبل أن يسلم : " ما رأيت أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب مُحمّد مُحمّداً .. " (١) ، وقال زعيم آخر (٢) : " أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب مُحمّد مُحمّداً .. والله ما تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له .. " (٣) .

ولا يزال كلّ مؤمن ومؤمنة ، يقول هذه الكلمات في كلّ وقت ، وفي مثل هذه الظروف ، على وجه الخصوص ، ليواجه غطرسة الباطل وطمغيانه ، ويترجم عن صدق إيمانه ، وقوّة يقينه بالله ورسوله ﷺ ، ومبلغ ولائه لدينه ..

أفما ترى معي في ذلك أخي المؤمن أنّ دين الله هو الدين الظاهرُ على الدين كلّهُ ، إذ جعل الله له من كيد أعدائه ، وما يبذلون لمحاربته من إمكانات مادّيّة ، وجهودٍ بشريّة مضميّة سبباً لقوّته ، وتحديد بنيانه ، ووعي أبنائه .. فكيف بما يبذل أصلاً لنصرته ، والدعوة إليه ، والدفاع عن حرّماته ؟! إنّهُ نور الله .. وآتَى لهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم ؟!

(١) - عندما أرادوا قتل زيد بن الدثنة ﷺ .

(٢) - هو عروة بن مسعود الثقفيّ ، قال ذلك عندما وفد على النبي ﷺ وسيطاً في صلح الحديبية .

(٣) - انظر : " السيرة النبويّة وأخبار الخلفاء " للإمام الحافظ المحدث ابن حبان البستي ص

وصدق الله القائل في محكم آياته ، ومن أصدق من الله قيلاً : ﴿ إِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

الأنفال .



هَلُمَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِلَى الْأُسُوةِ الْعَظَمَى !

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ! أنت كالزهرة المفتحة في روضة الربيع ، تشدو البلابل على أغصانها ، وتقبل عليها الفراشات ، تراقص بجوارها ، وتأتيها النحلة ترشف من رحيقها ، ويتمتع الإنسان ببديع ألوانها ، وعبق طيها .. تقبل عليك الحياة كما تقبل العروس بأبهى حلتها وأكرم بهجتها إلى عروسها ، فربما التبست عليك المسالك ، وحار بصرك بين الموارد ، فإذا أردت الرشد في العقل والفكر ، والسداد في العمل والسلوك ، وتميز الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والتوفيق في جميع ما تقدم عليه أو تحجم ، والسير على صراط الله المستقيم ، فاجعل من نبيك المصطفى ﷺ ، ورسولك المجتبي أسوة لك في كل شأن .. فالتمس هديه ، وتعرف على سنته ، واحرص على أن ترسم خطاه ، تكن مهدياً راشداً ، مؤيداً مسدداً .. وتتل من رضوان ربك في الآخرة ما يجعلك في فراديس الجنان في صحبة المصطفى ﷺ ، فالتبني ﷺ هو الأسوة العظمى للمؤمنين في كل شأن من شئون الحياة ..

فإذا كنت طفلاً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فانظر إلى طفولة النبي ﷺ كيف كانت سامية عن الدنايا ، تبدو على صاحبها علائم النجابة وسمو الهمة .

وإذا كنت يتيماً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كانت حياة هذا اليتيم بعيدة عن عقد اليتيم ، مدعاة لعطف كل من عرفه ، فأحبه وحرص على أن يتقدم له بكل خير ..

وَإِذَا كُنْتَ شَاباً فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، كَيْفَ كَانَتْ حَيَاةُ هَذَا الشَّابِّ بَعِيدَةً عَنْ أَيِّ صَبُوءٍ مِنْ صَبُوءَاتِ الشَّبَابِ وَنَزَوَاتِهِمْ ، وَكَيْفَ كَانَ ﷺ نَمُودِجاً لِلشَّابِّ الْعَفِّ الْكَرِيمِ ، ذِي الْمَرْوَةِ وَالشَّهَامَةِ ، حَتَّى كَانَ حُكَمَاءَ الرِّجَالِ يَجْلَوْنَهُ ، وَيَحْتَكُمُونَ إِلَيْهِ ..

وَإِذَا كُنْتَ زَوْجاً فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، كَيْفَ كَانَ ﷺ زَوْجاً وَدُوداً وَفِيّاً ، يَتَوَاضَعُ لِنِسَائِهِ ، وَيَرْفُقُ بِأَزْوَاجِهِ ، وَيَعْدِلُ بَيْنَهُنَّ ، وَيَدَاعِبُهُنَّ وَيُمَازِحُهُنَّ ، وَيَعِينُهُنَّ فِيمَا يَقْمَنُ بِهِ مِنْ خِدْمَةٍ ..

وَإِذَا كُنْتَ أَباً مُرَبِّياً فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، كَيْفَ كَانَتْ تَرْبِيَتُهُ ﷺ هِيَ التَّرْبِيَةُ الْمُثَلَّى لِأَوْلَادِهِ ، وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ ، وَلَأَصْحَابِهِ ، وَلَأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِكُلِّ مَنْ اتَّصَلَ بِهِ بِأَيِّ سَبَبٍ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رِعْوفاً رَحِيماً ، وَكَانَ لَهُ مِنْ أَسَالِيبِ التَّرْبِيَةِ الْفَاعِلَةِ الْمُؤَثِّرَةِ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ فِي مِثْلِ عَصْرِهِ ! وَمَا يَجْعَلُ الْمُرَيْنَ الْكِبَارَ تِلَامِذَةً بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَرْتَشِفُونَ مِنْ مَعِينِ هَدْيِهِ وَتَوْجِيهِهِ ..

وَإِذَا كُنْتَ تَرِيدُ التَّعَرُّفَ الْحَقَّ عَلَى النُّبُوَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَعَلَى رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ بَدْءاً مِنْ أَوَّلِ عَهْدِ النَّاسِ بِالنُّبُوَّةِ وَرِسَالَاتِ السَّمَاءِ ، وَإِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ، فَدُونِكَ حَيَاةُ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَسُنَّتُهُ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، فَهُوَ السَّجَلُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، وَالتَّارِيخُ الدَّقِيقُ لِمَنْهَجِ النُّبُوَّةِ وَدَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ .. وَلَنْ تَجِدَ كِتَاباً سِوَاهُ يَسْعَفُكَ فِي ذَلِكَ أَوْ يَدَانِيهِ ..

وَإِذَا كُنْتَ مِنْ شِدَاةِ الْأَدَبِ الْعَالِي ، وَطِلَّابِ الْحِكْمَةِ الْعَمِيقَةِ ، تَأْسِرُكَ الْجَمْلَةُ الْبَلِيعَةُ ، وَتَبْحَثُ عَنِ الْبَلَاغَةِ الْمَعْجَزَةِ فَقِفْ إِجْلَالاً وَاحْتِرَاماً أَمَامَ الْقُرْآنِ

الذي جاء به مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ من عند الله ، وتحَدَّى الثقلين أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا .. وقف عند كلام أفصح من نطق الضاد ﷺ ، بإجماع كل من اشتغل بصناعة الأدب ..

وإذا كُنْتَ ملكاً أو رئيساً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، الذي لم يكن رسولاً ملكاً ، وإنما كان رسولاً عبداً باختياره ورغبته ، ولكنه ملك القلوب بحبه ، ودانت رقاب العظماء لعظمة شخصيته ، ووقف ببابه الملوك والرؤساء ، والأمراء والكبراء ، ومع ذلك فلم يُر إلا خاشع القلب لربه ، متذلاً لعظمته ، متواضعاً لعباد الله ، قد وهب نفسه ووقته لكل فرد من أمته ..

وإذا كُنْتَ مُديراً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كان يدير شئون الناس بالرفق والرحمة ، يرحم الغافل ، ويرفق بالجاهل ، ويُعطى كل ذي حق حقه ، ولا يرضى أن يظلم تحت رعايته أحد من خلق الله ..

وإذا كُنْتَ قائداً منتصراً ، وفاتحاً غالباً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف لم يحمله انتصاره على أعدائه في مواطن كثيرة على أن ينتقم منهم ، أو يُنكَل بهم ، وإنما كانت رحمته هي الغالبة ، وعفوه عند المقدرة هو الخليفة التي حكمت علاقته بخصومه وأعدائه ، فاستل من قلوبهم سخائم الحسد والحقد ، وأقبلوا إلى دينه ودعوته مسلمين مستجيبين ، وانقلب خصوم الأمس الألداء إلى أتباع أوفياء ..

وإذا كُنْتَ قائداً مهزوماً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف لم تلن له قناة ، عندما نزلت به الشدائد ، وأحاطت به الابتلاءات ، ولم تهن قوّته ، أو تضعف عزيمته ، وإنما كان عزيز النفس ، رابط الجأش ، عظيم الثقة

بالله تعالى ، والتوكل عليه ، كثير الضراعة إليه ، والتذلل بين يديه ، كما كان شأنه كذلك في انتصاره وتمكّنه ..

وَإِذَا كُنْتَ تَاجِرًا فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، كيف كان تاجراً بمال خديجة رضي الله عنها أميناً صادقاً ، وكيف باع واشترى بعد نبوته ، ودان واستدان في مواقف مختلفة ، فكان سمحاً كريماً ، يجعل التجارة باباً من أبواب نصرة دينه ، ونشر دعوته ..

وَإِذَا كُنْتَ غَنِيًّا فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، يوم كانت تأتيه الأموال الكثيرة ، التي كان يسعه أن يختصّ بها أو يبعضها أزواجه وأهله ، ولكنّه كان يقسمها بين أصحابه ، ويؤثرهم بها على نفسه وأهله ..
ويوم أعطى المؤلّفة قلوبهم من الأموال ما لا تطيب به نفوس الملوك ، ولا تقدر عليه ..

ويوم كان حاله في فقره ، لا يختلف عن حاله في غناه ، لأنّه ﷺ علّمنا أنّ حقيقة الغنى هو غنى النفس ، وأنّ عفة النفس أكرم صفات المؤمن وأعزّها ..

وَإِذَا كُنْتَ عَامِلًا فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، إذ كان يعمل مع أصحابه في كلّ مناسبة ، ولا يتميّز عنهم ، ويحبّ العمل ، ويحثّ عليه ، ويرغب به ، ويدعو أمّته إلى إتقانه ..

وَإِذَا كُنْتَ فَقِيرًا فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، يوم كان يجوع فيعصب على بطنه الحجر والحجرين من شدّة الجوع ، ويطوي على الجوع

ثلاثة أيام صابراً محتسباً ، لا يذوق فيها شيئاً ، ويحمل أزواجه الكريمات على مثل حاله من الزهد في الدنيا والتقلل منها ..

وإذا كنتَ طالباً متعلماً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كان عندما يتعلّم من جبريل عليه السلام ، ويتلقّى عنه ، يقبل عليه بكلّيته ، وينصت إليه بمسامع قلبه ، ويتشوّق للقائه ، وكيف كان ينصت لرأي أصحابه ، ويطلب مشورتهم ، ويتفهّم آراءهم ، وربما أخذ ببعضها دون أن يجد في نفسه غضاظة أو حرجاً ..

وإذا كنتَ مُعلماً مُرشداً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فانظر إلى رفق النبي ﷺ في تعليمه ، وصبره على جهل الجاهل ، وجفوة الأعراب .. وانظر إلى ترغيبه في العلم ، وحثّه عليه ، وتشجيعه على الاستزادة منه .. وانظر إلى أساليبه في التعليم ، كيف فاقت أساليب عصره ، بل أتى ﷺ بأساليب في التربية والتعليم لم يعرفها الناس إلا في العصر الحديث ..

وإذا كنتَ خطيباً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فانظر كيف كان النبي ﷺ يؤثّر بليغ القول وجوامعه ، ويوجز في خطبته ، ويجمع فيها حقائق الدين ومبادئه ، ولا يطيل على الناس ولا يملّهم ، ولا يذكر أحداً ولا يُعيّنه ..

وإذا كنتَ مذكّراً واعظاً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد كان ﷺ الناصح الأمين ، والمرشد المبين ، يتحوّل أصحابه بالموعظة بين الحين والآخر ، كراهة السأمة عليهم ، ولا يكثر عليهم ، يجلّي لهم الحقائق ،

ويضرب لهم الأمثال ، وكانت مواعظه تؤثر في القلوب ، وتذرف منها العيون ، فيستجيب لها السعداء ، وتزيدهم هدىً إلى هداهم .

وإذا كُنتَ قاضياً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد كان ﷺ يحرص على الصلح بين المتخاصمين ، ويطلب البينة ، ويتحرى الحق ، ويحكم بالعدل ، ولا يجابي أحداً في الحق ، ويحذر من شهادة الزور وقول الزور .

وإذا كُنتَ آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فلتكن رحيماً رفيقاً ، واعياً حكيماً ، بعيداً عن الغلظة والتعنيف ، والاتهام وسوء الظن ..

وإذا كُنتَ داعياً إلى الله مرشداً ، فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، إذ كان مبشراً للمؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، حريصاً على هداية الناس أجمعين ، صابراً على أذى الخلق ابتغاء وجه الخالق ، يتجاوز عن جفوة ذي الغلظة ، ويدعو له بالهداية ، ولا ينتصر لنفسه ..

وإذا كُنتَ عابداً لله متبلاً ، قاتلاً ذاكراً ، فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، إذ كان ﷺ سيد العباد المجتهدين ، قام من الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما قيل له : أتفعل ذلك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!) ، وكان يصوم حتى يقول أهله : لا يفطر ، ويفطر حتى يقولوا : لا يصوم ..

وكان ﷺ في كل باب من أبواب العبادة لا يدرك شأوه أحد ، ومع ذلك فقد كان ينهى عن التنطع في الدين والغلو ، ويدعو أمته إلى التوسط والاعتدال ، وألا يحملوا أنفسهم من العمل ما لا يطيقون ..

وَإِذَا كُنْتَ مَدْبَرًا لَشُؤْنِ الدُّنْيَا فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، إِذْ كَانَ ﷺ يُحِبُّ إِتْقَانَ الْعَمَلِ وَإِحْسَانَهُ ، وَيَعِدُّ ذَلِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَقُرْبَةً ، وَكَانَ يَدْعُو بِسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ إِلَى الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَإِحْكَامِهَا ، وَالاجْتِهَادِ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ ، وَابْتِغَاءِ طَيِّبِ الرِّزْقِ ، وَيُرْشِدُ أُمَّتَهُ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا ..

وَإِذَا كُنْتَ مُقِيمًا لِعَلَّاقَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَجَالِسًا أَوْ مُصَاحِبًا ،

فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، إِذْ كَانَ ﷺ يَكْرُمُ جَلِيسَهُ وَيُؤَثِّرُهُ ، وَيَقْبَلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ ، حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ آثَرُ النَّاسِ عِنْدَهُ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ ، وَيُؤَلِّفُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَنْفَرَهُمْ ، وَيَعِينُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَلَا يَتَمَيَّزُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ..

وَأَيًّا مِنْ كُنْتَ ، وَفِي أَيِّ مَوْقِعٍ مِنْ مَوَاقِعِ الْحَيَاةِ حَلَلْتَ ، وَكَيْفَ أَصْبَحْتَ أَوْ أَمْسَيْتَ ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ بَتَّ أَوْ أَضْحَيْتَ ، فَلَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَقِدْوَةٌ مِثْلَى ، تَضِيءُ لَكَ بَنُورَهَا ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ ، وَتُخْرِجُكَ مِنْ مَتَاهَاتِ الْخَيْرَةِ وَالضَّيَاعِ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَجِدَ فِي غَيْرِ حَيَاةِ الْمُصْطَفَى ﷺ مَا يَغْنِيكَ أَوْ يَجْدِيكَ ..

وَانْظُرْ رِعَاكَ اللَّهُ كَمْ أَصْلَحَتْ حَيَاتُهُ الْمُبَارَكَةَ ، وَسِيرَتُهُ الشَّرِيفَةَ الْعَطْرَةَ ، وَهَدِيَهُ الْمُدُودَ بِوَحْيِ السَّمَاءِ ، الْمَوْصُولَ بِنُورِ اللَّهِ الْمُبِينِ : مِنْ حَيَاةِ أُمَمٍ وَشُعُوبٍ ، وَأَخْرَجَ اللَّهُ بِهَا أَنَاسًا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى ، إِلَى الْخَيْرِ وَالْهُدَى ، مِنْذُ أَوَّلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ ، إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا ، وَمِنْ مَشْرِقِ الْأَرْضِ إِلَى مَغْرِبِهَا .!؟ وَإِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَرَادَ ..

وَقَلِّبَ النَّظَرَ وَالْمُقَارَنَةَ تَارَةً أُخْرَى فَهَلْ تَرَى إِنْسَانًا آخَرَ غَيْرَ الْمُصْطَفَى

ﷺ كَانَ لَهُ مِثْلُ هَذَا التَّأثيرِ ، أَوْ عَشْرُهُ أَوْ عَشْرَ مِئَاتِهِ .؟

وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله قيلاً : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ .. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
﴿١﴾ الجمعة .

ويقول سبحانه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ الأحزاب .

ويقول جلّ وعلا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ،
فَنَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ ﴾ الفتح .



فلنفترق على عهد . !

أخي القارئ الكريم ! نحن أمة رسالة ، هي خاتمة رسالات السماء ، وأتباع رسول هو سيّد ولد آدم ، وخير الأنبياء وخاتمهم ، وحملة دين كتب الله له الظهور على الدين كلّ .. فأين نحن من هذه الرسالة ؟! وأين نحن من رسولها ؟! وأين نحن من هذا الدين العظيم ؟! بالأمس كانت الأمة التي تخرّجت على يد سيّد الأنبياء أمة فتوح مبين ، وبناء حضارة ، ودعاة هداية ، وحملة لواء الحقّ والعدل ، والحرية والكرامة إلى أمم الأرض قاطبة .. ونعمت أمم وشعوب في ظلال عدلها وبرّها ، وفضلها وسموّ أخلاقها ، وهزم أعداؤها في أنفسهم قبل أن يهزموا في ساحات الوغى ، وميادين القتال والنزال ، وشهد بعدالتها ونزاهتها المنصفون من أعدائها على مرّ العصور ، دون أن تتبجّح بدعوى هي خاوية الوفاض منها .. فعندما أذهلت الهزيمة الماحقة لبّ هرقل ، واندحر جيشه اللجب أمام جند الحقّ في كلّ ميدان .. وغادر أرض الشام باكياً حزيناً ، تساءل أمام كبار قوّاده عن سرّ هذه الهزيمة الهائلة وسببها ، فقال لهم : أخبروني عن هؤلاء القوم الذين تقاتلونهم : أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كلّ موطن قال : فما بالكم تهزمون ؟! فردّ على الأمبراطور أكبر قوّاده ، وقال له : " أيّها الملك ! هزمتنا وانتصروا : من أجل أنّهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم .. ومن أجل أنّنا نشرب الخمر ، ونزني ونركب الحرام ، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عمّا يرضي الله ، ونفسد في الأرض " .

أليس من حقّ الله علينا ، وحقّ ديننا ونبينا ، وحقّ أولئك الأطهار الذين
وصلّوا لنا هذا الدين بجهادهم .. أليس من الوفاء بهذه الحقوق أن نتساءل في
أنفسنا : أنعجز أن نكون مثل هؤلاء ؟! أنعجز أن نتمثّل سيرتهم في حياتنا ،
ونجدّد حياتهم بسلوكنا ؟!

إنّ أسوأ مصائبنا أنّنا نرمي باللوم على غيرنا ، ونتنصّل من مسؤولياتنا ،
ونلتمس الأعذار والمبررات لتقصيرنا وعودنا ، ونلوم غيرنا أن لم يفعل الكثير ،
ونعذر أنفسنا عن فعل القليل ..

إنّ صرح الإسلام العظيم أمانة بين أيدينا ، فهل نحن نبني ولا نهدم ،
ونجمّع ولا نفرّق ، ونصلح ولا نفسد ؟! إنّ المصيبة الكبرى أنّ منا من يحسب
الهدم بناءً ، والتخريب إصلاحاً ، وتراهم ماضين في مشروعاتهم ، لا يقبلون
النصح أو النقد ، ولا يفكّرون في متطلّبات واقعهم ، ولا ثمرات أعمالهم ..

وإني لأرغب إليك أخي القارئ الكريم ! بعد هذه السياحة الموجزة في
رحاب السيرة العطرة أن نفرّق على عهد ، لا يكلفك فوق طاقتك ، ولا يأخذ
من وقتك وجهدك إلّا القليل : ألا وهو أن تفكّر بجدّ : ماذا قدّمت وتقدّم
لنصرة دين الله ، والدفاع عن رسول الله ﷺ ؟! وليكن منك القليل ، بل ما
هو أقلّ من القليل ، فالقليل ، وما هو أقلّ منه يبارك الله به ، ولا تدري لعلّه
يكون سبب نجّاتك يوم القيامة .. وأبواب الخير أمامك لا تحصى ، والسعيد من
وفق وسدّد ، والله يتولّانا وإياك بتوفيقه وهداه .

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبّه سيّدنا محمّد ، وعلى آله وأصحابه
ومن اتّبع هداه إلى يوم الدين . والحمد لله ربّ العالمين .



* دعاء وضاعته

جاء في جامع الترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ،
وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي ،
وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ . قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ يُحَدِّثُ عَنْهُ قَالَ :
كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ (^(١)) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : (اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ ، اللَّهُمَّ
مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا
أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ) (^(٢)) .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَحُبَّ مَنْ
يُحِبُّكَ ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي
وَأَهْلِي وَمَالِي ، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ .

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكِرْهُ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ .

(١) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله برقم ٣٤١٢/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ
حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) - رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله برقم ٣٤١٣/ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ
حَسَنٌ غَرِيبٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْخَطْمِيُّ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ خُمَاشَةَ .

اللَّهُمَّ يَا حَبِيبَ التَّائِبِينَ ، وَيَا سرورَ العَابِدِينَ ، وَيَا قُرَّةَ أَعْيُنِ العَارِفِينَ ،
وَيَا أَنيسَ المَنفَرَدِينَ ، وَيَا حِرْزَ اللَّاجِئِينَ ، وَيَا ظَهْرَ المُنْقَطِعِينَ ، وَيَا مَنْ حَنَّتْ
إِلَيْهِ قُلُوبُ الصَّدِيقِينَ ، اجْعَلْنَا مِنْ أَوْلِيائِكَ المَقْرَبِينَ ، وَحِزْبِكَ المَفْلَحِينَ .

سُبْحَانَ مَنْ نَوَّرَ بِمَعْرِفَتِهِ قُلُوبَ أَحِبَّائِهِ ، وَطَهَّرَ سَرَائِرَهُمْ فَتَمَتَّعُوا
بِخُطَابِهِ .. يَا خِيَّةَ مَنْ لَمْ يُؤَيِّدْهُ الحَكِيمُ الحَلِيمُ ، يَا حَسْرَةَ مَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ المَلِكُ
العَظِيمُ ، يَا مُصِيبَةَ مَنْ فَاتَهُ هَذَا الجُودُ العَمِيمُ .

اللَّهُمَّ يَا حَبِيبَ كُلِّ غَرِيبٍ ، وَيَا أَنيسَ كُلِّ كَثِيبٍ ..

أَيُّ مُنْقَطِعٍ إِلَيْكَ لَمْ تَكْفِهِ بِنِعْمَتِكَ ؟

أَمْ أَيُّ طَالِبٍ لَمْ تَلْقَهُ بِرَحْمَتِكَ .؟

أَمْ أَيُّ مُحِبٍّ خَلَا بِذِكْرِكَ فَلَمْ تُؤْنِسْهُ .؟

أَمْ أَيُّ دَاعٍ دَعَاكَ مُضْطَرّاً فَلَمْ تَجِبْهُ .؟

رَبِّ كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ قُلْ لَكَ عِنْدَهَا شُكْرِي ، وَكَمْ مِنْ
بَلِيَّةٍ ابْتَلَيْتَنِي بِهَا قُلْ لَكَ عِنْدَهَا صَبْرِي ، فَيَا مَنْ قُلٌّ عِنْدَ نِعْمَتِهِ شُكْرِي فَلَمْ
يَحْرِمْنِي ، وَيَا مَنْ قُلٌّ عِنْدَ بَلِيَّتِهِ صَبْرِي فَلَمْ يَخْذِلْنِي ، وَيَا مَنْ رَأْنِي عَلَى المَعَاصِي
فَلَمْ يَفْضَحْنِي ، وَيَا ذَا النِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى أَبَداً ، وَيَا ذَا المَعْرُوفِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ
أَبَداً ، اغْفِرْ لِي جَرَائِمِي وَتَفْرِيطِي ، وَأَعِنِّي عَلَى دِينِي بِدُنْيَايَ .

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .



أهم المراجع

● القرآن الكريم وعلومه

جامع البيان للطبري

تفسير القرطبي

تفسير ابن كثير

تفسير الرازي

التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي

مقدمة في التفسير لابن تيمية

التحرير والتنوير " للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

في ظلال القرآن سيد قطب

تفسير معارج التفكير للشيخ عبد الرحمن حسن حنكة

● السنة النبوية وشروحها

صحيح البخاري

صحيح مسلم

فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني

شرح النووي على صحيح مسلم

سنن أبي داود

سنن الترمذي

سنن النسائي

الكتب التسعة ، في قرص مدمج لشركة صخر .

سنن ابن ماجة
الموطأ للإمام مالك
جامع الأصول ابن الأثير
مسند الإمام أحمد
المستدرک للحاکم
سنن الدارمي
سنن البيهقي
الأدب المفرد للإمام البخاري
ملخص فضل الله الصمد
مجمع الزوائد للهيتمي
مسند الفردوس للدليمي طبع دار الكتب العلمية ، ت سعيد بن بسيوني زغلول
المقاصد الحسنة للسخاوي
كشف الخفاء للعجلوني
الوابل الصيب من الكلم الطيب الإمام ابن القيم
فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي
جامع العلوم والحكم ابن رجب الحنبلي
من ذخائر السنة النبوية للشيخ طه محمد الساكت ، جمع الشيخ بحد مكّي
التصريح بما تواتر في نزول المسيح الشيخ محمد أنور شاه الكشميري الهندي
في ظلال الحديث النبوي " للدكتور نور الدين عتر

● . المعاجم اللغوية والموسوعات

لسان العرب لابن منظور
المصباح المنير للفيومي

المعجم الوسيط
النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير
الأعلام للزركلي

● . السيرة النبوية والتاريخ والتراجم

السيرة النبوية لابن هشام
تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون
الطبقات الكبرى لابن سعد
الشمائل المحمدية للترمذي
شرح المواهب اللدنية للقسطلاني
الأنوار المحمدية للشيخ يوسف النبهاني
عيون الأثر لابن سيّد الناس
السيرة النبوية وأخبار الخلفاء " للإمام الحافظ المحدث ابن حبان البستي
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض
سبل الهدى والرشاد للصالحيّ
السيرة النبوية للشيخ محمد محمد أبو شهبة
السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي
الرسول ﷺ للشيخ سعيد حوى
محمد رسول الله ﷺ " لمحمد رضا
الرسالة المحمدية للشيخ سليمان الندوي
قبسات من نور النبوة للشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني والشيخ عبد الفتاح أبو غدة
تراجم سيّدات بيت النبوة د. عائشة عبد الرحمن
خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة

الرسول المعلم وأساليبه في التعليم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي
تاريخ آداب العرب للرافعي
البداية والنهاية لابن كثير
الحلية لأبي نعيم
الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر العسقلاني
الاستيعاب لابن عبد البر
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ابن حجر العسقلاني
حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي

● . دوريات ومنوعات

مجلة المجتمع
مجلة الأدب الإسلامي
تعليقات شكيب أرسلان على كتاب : " حاضر العالم الإسلامي
إحياء علوم الدين للإمام الغزالي
الفروق القرآني
الإسلام كبديل د. مراد هوفمان
فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء الشيخ محمد الغزالي
الجانب العاطفي من الإسلام " للشيخ محمد الغزالي
الإيمان بالرسول من سلسلة العقائد للشيخ أحمد عز الدين البيانوني
الإيمان بالملائكة من سلسلة العقائد للشيخ أحمد عز الدين البيانوني



الفهرس التفصيلي للبحث

الموضوع	رقم الصفحة
تصديق :	٥
الإهداء :	٧
الرحمة المهداة للعالمين :	٩
مُتَكَلِّمًا :	١٣
مُهَيِّئًا مدخل عام : وفيه ثلاثة مباحث :	١٩
المبحث الأول : القرآن الكريم يقدم للإنسانية الرسول الخاتم ﷺ :	٢١
المبحث الثاني : الرسول الكريم ﷺ يعرف بنفسه	٤٧
المبحث الثالث : أضواء وظلال حول آيات نبي الرحمة	
وصاحب الخلق العظيم والأسوة الحسنة	٥٣
شرعة الرحمة ، ونبي الرحمة :	٥٤
بشرى الإنسانية بالرحمة العامة :	٥٩

- ٦٠ والإسلام دين الرحمة العظمى :
- ٦٢ ومن أهم مظاهر الرحمة الإلهية في شريعة الله
- ٦٢ نُصُوصٌ نَبَوِيَّةٌ فِي بِنَاءِ دِينِ اللَّهِ عَلَى الرَّحْمَةِ
- ٦٤ نَبِيُّ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَالْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ ﷺ :
- ٦٨ عَظَمَةُ الْأَخْلَاقِ النَّبَوِيَّةِ ، وَعَظَمَةُ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ :
- ٧١ وَقَفَاتٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١ ﴾
- ٧٥ فَطْرَةِ الْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى :
- ٧٦ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ الْعَظْمَى :
- ٨٣ وَإِنَّ آيَةَ الْأَسْوَةِ لَتَتَحَدَّى :
- هل عرفت الإنسانية فتى أظهر سيرة وأزكى سريرة من رسول
- ٨٤ الله ﷻ . ؟
- ٨٧ أوجه الحسن في التأسي برسول الله ﷺ :

	الباب الأول : صورة شاملة للشخصية العظيمة والشمال
٩٣	الكرمة وفيه تمهيد وستة فصول
٩٥	تمهيد : مقياس العظمة وأخلاق النبوة
٩٩	الفصل الأول : صفاته الخلقية وجمال صورته ﷺ
١٠٣	أم معبد الخزاعية تصف النبي ﷺ وصفاً جامعاً :
	الفصل الثاني : كمال عقله ﷺ وحكمته واتزان شخصيته
١٠٩	وعظيم هيئته
١١٥	موقفه ﷺ في قصة الإفك :
١١٧	شجاعته ﷺ ، وعظيم هيئته ﷺ :
	الفصل الثالث : فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم
١٢٥	وجوامع كلمه وفيه مبحثان :
١٢٥	المبحث الأول : فصاحته ﷺ وقوة حجته وإفحامه للخصوم :
١٣٨	ومن النماذج الرائعة الدالة على رفعة الخطاب النبوي :

- ١٣٩ حوارہ ﷺ مع أبي سفيان يوم أحد
- ١٤١ المبحث الثاني نماذج من جوامع كلمہ ﷺ
- ١٥٣ وبَابُ الدُّعَاءِ بِأَبِّ رَحْبٍ عَجِيبٌ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ :
- ١٥٣ دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الطَّائِفِ :
- ١٥٤ وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَرَفَةَ :
- ١٥٧ الفصل الرابع : عظمة أخلاقه ﷺ في التعليم ورفقه في الدعوة
- ١٦٥ وَمِنْ أَرْوَاعِ الْأَمْثَلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى رَفَقِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ
- ١٦٧ والتعليم الحق هو الذي يكون دافعه : الرحمة والرفق بعباد الله ..
- ١٦٩ استقباله ﷺ لوفاة عبد القيس ، وتعليمهم وحسن ضيافتهم :
- ١٧٢ التعليم بالقدوة والسلوك العملي :
- ١٧٣ التدرج في التعليم :

- ١٧٤ تعهدهم بين الحين والآخر ، كيلا يملوا
- ١٧٤ التلطف بهم في القول ، والتشويق قبل إلقاء العلم :
- ١٧٥ الفصل الخامس : عبادته ﷺ
- ١٧٨ صور عجيبة من قيامه ﷺ لليل ، واجتهاده في عبادة ربه :
- ١٨٠ وانظر إلى موقف سيد العابدين ﷺ يوم بدر :
- ١٨٧ وذكره ﷺ لله تعالى باب عظيم من أبواب عبادته ﷺ :
- ١٨٨ ومن كمال عبوديته ﷺ أنه كان يدعو بجوامع الدعاء :
- ١٩١ دعاء نبوي جامع :
- ١٩٣ الفصل السادس : عيشه ﷺ وزهده وفيه أربعة مباحث :
- ١٩٦ المبحث الأول : إيثاره ﷺ حال الفقر على الغنى
- ١٩٧ لم اختار النبي ﷺ حال الفقر على الغنى ؟

- ٢٠٠ من الحكمة في اختيار النبي ﷺ حال الفقر على الغنى
- ٢٠٢ المبحث الثاني : صفة عيشه ﷺ وعيش أهل بيته
- ٢٠٥ المبحث الثالث : صفة سكنه ﷺ وسكن أزواجه
- ٢١٠ المبحث الرابع : الحجرات النبوية الشريفة معلم من معالم النبوة :
- ٢١٠ وقفةٌ مُحِبِّ أَمَامِ الْحُجَرَاتِ النبوية الشريفة
- ٢١٥ الفصل السابع : صورة شاملة مجملة عن شخصيته وشمائله :
- ٢١٥ عظمة الشخصية النبوية :
- ٢١٧ صِفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ :
- ٢١٩ خصال الكمال والجمال في البشر نوعان :
- ٢٢١ صورة شاملة مجملة :
- ٢٣٧ الباب الثاني : الرحمة المهداة للعالمين وفيه تمهيد وسبعة فصول :

- ٢٣٩ تمهيد موقع الأخلاق في دين الله
- ٢٤٠ نهج العقل والحكمة ونهر الرفق والرحمة
- ٢٤٢ كلمة للإمام الغزالي في بيان موقع حسن الخلق :
- ٢٤٥ الفصل الأول : عُموم رحمة النبي ﷺ بالعالمين وفيه ثلاثة مباحث :
- ٢٤٧ المبحث الأول : رحمته ﷺ بالملائكة الكرام عليهم السلام
- ٢٥١ المبحث الثاني : رحمته ﷺ بالجن :
- ٢٥١ تكليف الجن بالإيمان بالنبي ﷺ وبلوغ دعوته ﷺ لهم
- ٢٥٥ المبحث الثالث : رحمته ﷺ بالحيوان والجماد
- ٢٥٥ ومن مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان : أمره ﷺ بالرفق والإحسان :
- ٢٥٥ ونهيه ﷺ عن لعن الحيوان
- ٢٥٦ ونهيه ﷺ عن اتخاذ الحيوان غرضاً

- ٢٥٧ ونهيه ﷺ عن أخذ أفراخ الطير عن أمهاتها
- ٢٥٨ ونهيه ﷺ عن سب الديك
- ٢٥٨ وربما كانت رحمة الحيوان سبباً لرحمة الله ومغفرته
- ٢٥٩ وَعَذِّبَتْ امْرَأَةً فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا :
- ٢٥٩ ويدافع النبي ﷺ عَنْ جَمَلٍ مَظْلُوم :
- ٢٦٠ وأما رحمته ﷺ بالجماد
- ٢٦١ حنين الجذع للنبي ﷺ
- ٢٦١ ومن رحمته ﷺ بالجماد : نهيه ﷺ عن سب الحمى
- ٢٦٢ ومن رحمته ﷺ بالجماد : نهيه ﷺ عن سب الدهر
- ٢٦٢ ومن رحمته ﷺ بالجماد : نهيه ﷺ عن سب الريح
- ٢٦٣ الفصل الثاني : رحمته ﷺ بأصحابه وأمه ومظاهرها

- ٢٦٣ مثل النبي ﷺ مع أمته
- ٢٦٤ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ
- ٢٦٥ قِصَّةُ زَوْجِ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ
- ٢٦٨ وَكَانَ ﷺ يَتَعَرَّفُ عَلَى دَخَائِلِ حَيَاةِ أَصْحَابِهِ
- ٢٧٠ إِقْبَالَهُ ﷺ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ جُلُوسَاتِهِ
- ٢٧٠ بُكَاءُهُ ﷺ لَشُكْوَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ؓ
- ٢٧١ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
- ٢٧١ حُبِّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ وَأَمَتِهِ
- ٢٧٣ دَلَالَتُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَتَبْشِيرُهُمْ بِالْجَنَّةِ :
- ٢٧٤ نَهْيُهُ عَنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ ، أَوِ الدَّعَاءِ بِنَزُولِ الْبَلَاءِ :
- ٢٧٥ وَكَانَ ﷺ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ :

- ٢٧٥ خوفه ﷺ على أمته وشفقته :
- ٢٧٨ حفظه ﷺ لمكانة أصحابه ﷺ ، ونهيه عن الإساءة إليهم
- ٢٧٩ ومن رحمته ﷺ وعظ أمته وتذكيرهم ، ووصيتهم :
- ٢٨٠ تحذيرهم من الفتن ، وبيان المخرج منها
- ٢٨١ وتحذيرهم من فتنة المسيح الدجال ، وهي أخطر الفتن وأعظمها .
- ٢٨٣ دعوتهم إلى التوسط والاعتدال والأتزان ، ونهيمهم الغلو في الدين
- ٢٨٥ خشيته أن يفرض عليهم من العمل ما لا يطيقون
- ٢٨٦ وأمره بالأخذ بظواهرهم ، وترك سرائرهم إلى الله تعالى
- الفصل الثالث : رحمته ﷺ بالأطفال والنساء وحسن عشرته
- ٢٨٩ لأهل بيته وفيه ثلاثة مباحث :
- ٢٩٠ المبحث الأول : رحمة النبي ﷺ بالأطفال ومظاهرها
- ٢٩٢ حب النبي ﷺ للأطفال ، وحبهم له ، وفرحهم به

- * مظاهر رحمة النبي ﷺ بالأطفال : ٢٩٢
- حسن استقبال المولود بالتحنيك والدعاء له بالبركة ٢٩٣
- غرس العقيدة الحقة ، وأصول الإيمان في نفس الطفل منذ الصغر ٢٩٤
- غرس الاحترام والتقدير في نفس الطفل بالتعامل الراقي معه ٢٩٥
- ١ . سلام النبي ﷺ عَلَى الصَّبِيَّانِ ٢٩٥
- ٢ . تأديب الطفل بآداب الإسلام ٢٩٥
- ٣ . أن يجالسَ الطفل الكبار ، وأن يستأذنَ في التنازلَ عَنْ حَقِّهِ ٢٩٦
- ٤ . الدعاء للأطفال ، ورفع همهم ليكونوا أهلاً لحمل المسؤولية ٢٩٧
- ٥ . نهْيُهُ ﷺ عن الدعاء على الأطفال ٢٩٩
- ٦ . تربية الطفل على العبادة بكل أنواعها ٢٩٩
- ٧ . تعليم الأطفال للقرآن ٣٠٠

- ٣٠٠ تلطف النبي ﷺ مع الصبيان ، ورقته في معاملتهم
- ٣٠١ رحمة الوالدة وولدها ، وحماية الأم والدفاع عن حقها
- ٣٠٢ رفق النبي ﷺ بالأطفال ، وتقديره لرغباتهم ومشاعرهم
- ٣٠٣ وكان ﷺ يخفف الصلاة رحمةً بالأطفال والأمهات
- ٣٠٣ الرغبة بالحنو على الطفل
- ٣٠٣ تقبيل الأطفال والحنان عليهم وممازحتهم
- ٣٠٥ ملاعبة النبي ﷺ للحسين بن علي ﷺ
- ٣٠٥ ورحمة النبي ﷺ بالأطفال ومداعبتهم ، لا تمتنع من تأديبهم
- ٣٠٦ بكأوه ﷺ ورقته لفقد الطفل
- ٣٠٧ حرصه ﷺ على هدايتهم إلى الإسلام
- ٣٠٨ الحث على تعليم البنات وتأديبهن

- ٣٠٩ حسن توجيه الأطفال والدعاء لهم
- ٣٠٩ تأكيده ﷺ على العدل بين الأطفال
- ٣١٠ عنايته ﷺ باليتامى ، وحثه على كفالتهم
- ٣١١ عنايته ﷺ بالمرضى ، ودعاؤه لهم ، واهتمامه بهم
- ٣١٢ وصيته ﷺ بكف الصبيان عن كيد الشيطان وأذاه ، وتعويدهم
- ٣١٣ رفع همّة الطفل لما يتوقع منه من آمال عالية
- ٣١٣ تقديم خبرات عملية للطفل
- ٣١٤ تربيتهم على الأمانة ، وتدريبهم على حفظ السر
- ٣١٤ الحرص على أن ينشأوا نشأة أخلاقية سوية ، بعيدة عن الكذب
- ٣١٥ تشجيع الأطفال على الاستعداد للجهاد ، وتنمية مهارات القوة
- ٣١٧ المبحث الثاني : رحمة النبي ﷺ بالنساء ومظاهرها :

- ٣١٩ وتما يدل على مكانة المرأة بَعَّةُ النَّبِيِّ ﷺ للنساء :
- ٣١٩ تعهد النساء بالموعظة ، وتذكيرهن بحق الله وحق أزواجهن :
- ٣٢٠ الوصية بالنساء والتأكيد على عظم حقهن :
- ٣٢٢ وصيته ﷺ بحق المرأة وواجبها !
- ٣٢٢ حنه ﷺ على تعليم النساء !
- ٣٢٣ حث الزوجين على التعاون على البر والتقوى
- ٣٢٣ التأكيد على بر الأمهات ، وأن حق الأم أعظم الحقوق :
- ٣٢٣ الحث على اختيار ذات الدين النكاح
- ٣٢٤ المرأة راعية في بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيته :
- ٣٢٤ الوصية بحسن عشرة النساء وأداء حقوقهن :
- ٣٢٤ تبشيره ﷺ لبعض النساء بالجنة

- ٣٢٥ ومن رفقته ﷺ بالنساء وحسن معاملته :
- ٣٢٥ تقديره ﷺ لمشاعر النساء وعواطفهن :
- ٣٢٦ ثناؤه ﷺ على المرأة الصالحة وأنها خير كنز :
- ٣٢٧ حثه ﷺ على تيسير الزواج والتخفيف من مؤنته :
- ٣٢٧ حثه ﷺ على حسن الخلق مع الأهل :
- ٣٢٧ رضا الله في رضا الزوج ، وفضل المرأة المطيعة المسيرة لزوجها :
- ٣٢٨ بيانه ﷺ لعظم مكانة الزوج من المرأة :
- ٣٢٨ تحذيره ﷺ من هجر فراش الزوج :
- ٣٢٩ وإنما هو جنتك ونارك :
- ٣٢٩ سماعه ﷺ شكوى المرأة لزوجها !
- ٣٣١ أثر التربية القرآنية والسيرة النبوية في عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- ٣٣١ وأخرى تشكي من زوجها :
- ٣٣٢ حثه ﷺ على حفظ الأسرار الزوجية :
- ٣٣٢ تحذيره ﷺ من قذف المحصنات المؤمنات الغافلات :
- ٣٣٢ تحذيره ﷺ النساء من تغيير خلق الله :
- ٣٣٣ والمرأة المترجلة لا ينظر الله إليها يوم القيامة :
- ٣٣٣ تحذيره ﷺ النساء من التبرج وترك الحجاب :
- ٣٣٤ تحذيره ﷺ من الطلاق ومن سؤال المرأة الطلاق بغير حق :
- ٣٣٤ تحذيره ﷺ من إفساد المرأة على زوجها :
- ٣٣٤ إذنه ﷺ لهن بأخذ ما يحتجن من النفقة بالمعروف :
- ٣٣٤ تحذيره ﷺ من فتن النساء :
- ٣٣٥ تحذيره ﷺ من دخول الأجانب على النساء !

- ٣٣٥ تحذيره ﷺ من سفر المرأة وحدها إلا مع ذي محرم :
- ٣٣٥ تكريم الحالة وبيان ﷺ أنها بمنزلة الأم :
- ٣٣٧ المبحث الثالث : حسن عشرته ﷺ لأهل بيته :
- ٣٣٨ ما كان عليه ﷺ من البر والوفاء :
- ٣٣٩ تلطفه ﷺ بنسائه ، وتقديره لمشاعرهن
- ٣٣٩ موقفه ﷺ من حال غضب زوجته عائشة ورضاها
- ٣٤٠ وكان ﷺ يقدر حداثة سن زوجته عائشة رضي الله عنها
- ٣٤٠ وكان ﷺ يخدمهم ويخدم نفسه
- ٣٤٠ وكان ﷺ يروح عنهن بما أحل الله :
- ٣٤١ مسابقته ﷺ لعائشة رضي الله عنها
- ٣٤١ حادثة الأهل ومباسطهن وممازحتهن ، والاستماع إلى حديثهن ..

- زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها : ٣٤٤
- ومن حسن عشرته ﷺ لأهله موقفه مع فاطمة رضي الله عنها : ٣٤٦
- ومن المواقف الدالة على حسن عشرته ﷺ لأهله ٣٤٧
- ومن أروع صور حسن العشرة النبوية ٣٤٧
- وفي مواقف الغيرة ٣٤٨
- وينتصر النبي ﷺ لصقيّة عندما عيرتها بعض ضرائرها ٣٤٨
- معاملته ﷺ لخادمه أنس بن مالك ٣٤٩
- شفقته ﷺ على مغيث ، وشفاعته له عند بريّة ٣٤٩
- تحفيفه ﷺ على عائشة رضي الله عنها عندما حاضت بسرف ٣٥٠
- هجره ﷺ لنسائه عندما طلبن زيادة النفقة : ٣٥٠
- الفصل الرابع : رحمته ﷺ بأعدائه وعفوه عنهم : ٣٥٣

- ٣٥٤ قول ابن عباس فيما ينال الكافر من رحمة بالنبي ﷺ
- ٣٥٤ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾
- ٣٥٥ قوله ﷺ : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)
- ٣٥٦ وكان ﷺ حريصاً في كل مناسبة على هداية الناس إلى الحق
- ٣٥٦ قصة إسلام ضماد ﷺ
- ٣٥٨ وكان ﷺ يعفو عمن أساء إليه ، ولا يجزي بالسيئة السيئة
- ٣٥٨ حبه ﷺ على فك الأسير
- ٣٥٨ أشد ما لقيه ﷺ من الأذى ، وصبره وحلمه ، ورحمته وعفوه :
- ٣٦٠ " عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس ، وكفائته من آذاه "
- ٣٦١ الأعرابي الذي اختلط سيف النبي ﷺ
- ٣٦١ وقصة دُعُورُ بن الحارث في غزوة غطفان

- وَعُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ سَوَّقَهُ مَحَاوِلَةَ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ ٣٦٣
- وَعُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ يُرِيدُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ أَمْرُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ٣٦٥
- مَحَاوِلَةُ الْمَرْأَةِ الْيَهُودِيَّةِ سَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ ٣٦٦
- مَحَاوِلَةُ شَيْبَةَ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ ٣٦٧
- صُورَةُ الْجِهَادِ الْمَشْرِقَةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَخُلَفَائِهِ ٣٦٧
- قِصَّةُ إِسْلَامِ أَبِي سُفْيَانَ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ مَوَاقِفَ ٣٦٨
- الفصل الخامس : صدقه ﷺ وأمانته وحفظه للعهد وبره ووفاءه ٣٧٣
- حَقِيقَةُ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ ٣٧٣
- صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَقِفُ عِنْدَ صِدْقِ الْقَوْلِ وَالْخَبَرِ ٣٧٥
- شَهَادَةُ قَرِشٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْأَمَانَةِ وَدَلَالَتِهَا ٣٧٥
- الْأَمَانَةُ النَّبَوِيَّةُ لَا تَقْبَلُ التَّجَزُّؤَ أَوْ التَّنَازُلَ ٣٧٧

- والأمانة في مفهوم الإسلام أوسع من حفظ الوديعة المادية ثم ردها ٣٧٧
- ومن الأمانة أن لا يتجرأ على الفتوى بغير علم : ٣٧٨
- شدة أمانته ﷺ على الوحي ٣٧٨
- وحذر ﷺ من العدوان على شيء من أموال الناس ٣٧٩
- ومن أروع مواقف الأمانة موقفه ﷺ يوم الهجرة ٣٨٠
- وقارن هذا الموقف بموقفه ﷺ يوم دخل مكة ٣٨١
- وفي غزوة خيبر ٣٨٢
- وأما حفظه ﷺ للعهد ووفائه فهو نوع من أمانته ٣٨٤
- وكانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد ٣٨٤
- وصيته ﷺ بالأنصار : ٣٨٤
- وبلغ وفاء النبي ﷺ قمة لا تساميهما قمة عندما يلتزم بعهد شخصي ٣٨٥

- ٣٨٥ ترجيحه ﷺ لحق الوالدين وبرهما على الهجرة إليه ﷺ :
- ٣٨٥ موقفه ﷺ مع أبي العاص بن الربيع ﷺ زوج زينب رضي الله عنها
- ٣٨٦ وموقف آخر مع أبي العاص بن الربيع كان سبب إسلامه
- ٣٨٧ وكان ﷺ يوصي بالوفاء ، وحسن الرعاية حتى مع الحيوان
- ٣٨٧ شهادة أبي سفيان أمام هرقل قبل أن يسلم
- ٣٨٨ وفاؤه ﷺ بالعهد يوم عمرة القضاء
- ٣٨٨ ومن أروع المواقف الدالة على وفائه بالعهد موقفه ﷺ يوم الحديبية ..
- ٣٩٧ الفصل السادس : حسن خلقه ﷺ وحلمه ، وسماحته وعفوه :
- ٣٩٧ المعنى العام والمعنى الخاص لحسن الخلق
- ٣٩٨ حقيقة حسن الخلق
- ٣٩٨ أول ما يتجلى حسن الخلق في العلاقة الإيجابية مع الآخرين

- ٣٩٩ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى : الرِّفْقُ وَالتَّيسِيرُ وَرَفْعُ الْحَرْجِ وَالْعَفْوُ وَالسَّمَاةُ
- ٣٩٩ وَمِنْ قَبِيلِ الْمَعْنَى الْعَامِّ لِحَسَنِ الْخَلْقِ
- ٣٩٩ لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعِيشُ مَعَ النَّاسِ ، وَلَا يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ
- ٤٠٠ أَخْلَاقُ الْإِنْسَانِ لَا تَجَلَّى عَلَى حَقِيقَتِهَا إِلَّا فِي إِحْدَى حَالَتَيْنِ :
- ٤٠٠ مَوْقِفُهُ ﷺ يَوْمَ الطَّائِفِ
- ٤٠١ مَوْقِفُهُ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ
- ٤٠٣ مَوْقِفُهُ ﷺ مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَظًّا
- ٤٠٥ الْفَصْلُ السَّابِعُ : جُودُهُ ﷺ وَكَرَمُهُ
- ٤٠٥ مِنَ مَعِينِ الرَّحْمَةِ الَّتِي جَبَلَ عَلَيْهَا قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ : نَبْعَ الْجُودِ
وَالْكَرَمِ ، وَالبَذْلُ وَالْإِيثار
- ٤٠٥ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجُودَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ
- ٤٠٦ قِصَّةُ الرَّجُلِ وَالْبُرْدَةِ

- ٤٠٦ (استدن علينا حتى يأتينا ما نقضيه ..)
- ٤٠٧ أعطى المؤلف قلوبهم مئات من الشاء أو البقر أو الإبل :
- ٤٠٨ وليس هذا العطاء الكثير من الإسراف في شيء ..
- ٤٠٨ وكان ﷺ يؤثر فقراء أصحابه ، ويقدمهم على أهل بيته
- ٤١٠ ومثل آخر يوم الخندق :
- ٤١١ ما وقع لأبي طلحة وأم سليم :
- ٤١٢ دلائل نبوة لا شك فيها
- الباب الثالث : شهادات المنصفين ، ودفع المفترين ، وفيه
- ٤١٣ تمهيد وخمسة فصول :
- ٤١٣ تمهيد : شهادات المنصفين بالنبوة الخاتمة :
- ٤١٧ الفصل الأول : من شهادات المنصفين في عهد النبوة
- ٤١٧ تصديق المشركين العام برسول الله ﷺ :

- ٤١٧ شهادة أبي جهل بالحق ، واعترافه بكبره وعناده
- ٤١٨ شهادة الوليد بن المغيرة بالحق :
- ٤١٩ وشهادة أخرى من عتبة بن ربيعة :
- ٤٢١ شهادة ملك عُمان وإسلامه :
- ٤٢٢ شهادة ثُمَامَةَ بنِ أثال بالحق وإسلامه :
- ٤٢٣ شهادة الحبر اليهودي زَيْد بن سَعْنَةَ بالحق وإسلامه :
- شهادة النجاشي ، وأتباعه للنبي ﷺ ، وإسلام عمرو بن العاص
- ٤٢٥ ﷺ على يديه :
- ٤٣٠ خبر آخر لعمرو بن العاص :
- شهادة أبي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ عند هِرْقْلَ قبل أن يسلم ، وشهادة
- ٤٣٢ هِرْقْلَ بالنبي ﷺ ودينه :
- ٤٣٦ وشهادة أخرى من أبي سفيان :

- ٤٣٦ وشهادة ثلاثة من أبي سفيان :
- ٤٣٧ وشهادة أخرى منه رابعة بعد إسلامه :
- ٤٣٧ وللمقوقس عظيم القبط شهادة :
- ٤٣٨ شهادة عروة بن مسعود الثقفي يوم الحديبية قبل إسلامه :
- ٤٣٩ الفصل الثاني : من شهادات المنصفين في العهد التالية
- الفصل الثالث : كيف ندافع عن نبي الهدى والرحمة . ؟
- ٤٦١ وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :
- ٤٦١ تمهيد : سنة الله العظيم فيمن سب نبيه الكريم ﷺ :
- ٤٦٢ بعض الأدلة على ما نقول
- ٤٦٨ المبحث الأول : ماذا وراء العدوان على نبي الهدى والرحمة . ؟
- ٤٦٨ ثلاثة مواقف ومحطات في تاريخ علاقة الغرب بالإسلام ونبيه ﷺ :
- ٤٦٨ المحطة الأولى : هي الكذبُ والافتراء ، والإساءة والإيذاء

- ٤٦٩ المحطة الثانية وهي محطة الإقرار والاعتراف والإنصاف
- ٤٧٠ المحطة الثالثة وهي محطة حملة التشويه والسخرية والاستهزاء
- ٤٧٠ من أين أتينا . ؟
- ٤٧١ ماذا وراء هذه الإساءات . ؟
- ٤٧١ ١ - الزاوية الأولى : زاوية أزمة الحضارة الغربية على وجه العموم
- ٢ - الزاوية الثانية : أزمة العقيدة النصرانية ، وما تعانيه من
- ٤٧٣ تناقضات :
- ٤٧٧ ومع كل ذلك فإن الغرب نصراني صليبي حتى العظم
- ٣ - الزاوية الثالثة : أزمة الصليبية العالمية والتنصير ، وما
- ٤٧٨ تعرض له من انتكاسات :
- ٤٨٢ ٤ - الزاوية الرابعة : زاوية النمو السريع للإسلام في الغرب :
- ٤٨٣ ٥ - الزاوية الخامسة : زاوية واقع الضعف المزري للأمة الإسلامية :
- ٤٨٦ فما العمل الواجب إذن . ؟ !

- ٤٨٧ المبحث الثاني : بناء الجليل المؤمن المحب لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
- ٤٨٧ أي حبّ قد ناله المصطفى ﷺ . ؟ !
- ٤٨٩ إن الحبّ أعظم قوّة دافعة ، وعاطفة محرّكة ، وطاقة باعثة :
- ٤٩٠ وقفات مع قول الله تعالى : ﴿... وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ (١٦٥) ﴿...﴾
- ٤٩٠ قول الإمام ابن جزيّ في تفسيره :
- ٤٩٣ محبتك لله ورسوله ﷺ ، هي أثر عن محبة الله لك :
- ٤٩٤ قول صاحب المواهب فيما يوجب محبة النبي ﷺ :
- ٤٩٤ وقول القاضي عياض رحمه الله تعالى :
- ٤٩٥ وهكذا طفحت قلوب الصحب الكرام ﷺ بحبّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :
- ٤٩٥ قول الإمام الغزالي في أهميّة الحبة ومنزلتها السامية :
- ٤٩٦ أسباب الحبّ عند الإمام الغزالي خمسة :

- أحد عشر سبباً عند الإمام ابن القيم لتنمية حبة الله ومحبة
 ٤٩٧ رسوله ﷺ في قلب المؤمن :
- أحدها : تلاوة القرآن مع التدبر والتفهم لمعانيه : ٤٩٧
- ٢ . التقرب إلى الله بالنوافل من الطاعات والقربات : ٤٩٧
- ٣ . دوام ذكر الله تعالى على كل حال : ٤٩٨
- ٤ . إثارة محاب الله تعالى على محابك عند غلبات الهوى ٤٩٨
- ٥ . مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته ، وتقلبه في رياضها ٤٩٨
- ٦ . مشاهدة بر الله تعالى وإحسانه ، وسابغ الآثمة ونعمائه ٤٩٨
- ٧ . انكسار القلب بكيته بين يدي الله تعالى ، والدلة لعظمته .. ٤٩٨
- ٨ . الخلوة بالله تعالى وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه . ٤٩٩
- ٩ . مجلسة الحيين الصادقين ، والتقاط أطيب كلامهم ٤٩٩
- ١٠ . تخفيف العلائق ، وقطع العوائق : ٤٩٩

- ١١ . الإكثار من مطالعة سيرة النبي ﷺ وشماله ٤٩٩
- وقبل هذه الأسباب وبعدها لابد من التوبة النصوح ٥٠٠
- المبحث الثالث : التعريف والدعوة وحسن الأسوة ٥٠٣
- من أهم الواجبات العملية للتعريف بدين الله ٥٠٧
- * نشر كتيبات تعريفية بجميع لغات العالم للتعريف بالإسلام ٥٠٧
- * عرض السيرة النبوية بأسلوب أدبي ، رفيع المستوى ٥٠٧
- * إصدار كتيبات ، وأقراص مدحة وأفلام وغيرها ونشرها ... ٥٠٧
- * إعادة النظر في مناهج السيرة النبوية الدراسية وتطويرها ... ٥٠٧
- * نشر الوعي بين المسلمين لتحمل مسئولية الدفاع عن النبي ﷺ ٥٠٧
- * إقامة المسابقات العالمية للكتابة في كل ما سبق ٥٠٨
- * سنّ قوانين في البلاد الإسلامية للدفاع عن دين الأمة وقيمها . ٥٠٨

- ٥٠٩ الفصل الرابع : صور مشرقة من روائع الحب والوفاء
- ٥٠٩ * مواقف الحب ، وثمرات المعرفة والقرب :
- ٥٠٩ * فمن أعظم ثمرات الحب الصادق :
- ٥٠٩ ١ . الطاعة والاتباع ، ودقة التنفيذ والالتزام بأمر الله ورسوله ...
- ٥١٠ ٢ . الخروج عن أهواء النفس وحفظها وشهواتها
- ٥١٠ ٣ . فداء رسول الله ﷺ بالنفس وتعرضها للأخطار دونه ﷺ ...
- ٥١٠ * نماذج فذة ، ومواقف نادرة :
- ٥١١ * دقة الطاعة والجندية الصادقة :
- ٥١١ * وللنساء نصيب كبير من الحب والفداء :
- ٥١٢ * وعندما يشتد البأس تظهر حقائق الحب المكون :
- ٥١٢ * وأي برهان أعظم من التضحية والفداء . ؟ !

- * شهادة من أبي سفيان تكشف عن مكانة الحب وثمراته : ... ٥١٣
- * ويوم الحديبية قدم الصحب أكبر شهادة : ٥١٣
- * الحب الصادق عدة الأتقياء ليوم البعث والجزاء : ٥١٤
- * موازين الإيمان لا يعرفها إلا كمل الرجال : ٥١٧
- * وعلي المرتضى يكشف سر الخيرية العظيم : ٥١٨
- * وأمهات المؤمنين يعلمن موازين الولاء والبراء : ٥١٨
- * طاعة وأتباع وولاء لا يتزحزح : ٥١٨
- * ومن غرائب الطاعة للرسول ﷺ وإثاره على النفس والأهل : ٥٢٠
- * ومن عجائب المسارعة في الطاعة : ٥٢١
- * ثمرات لا تقنى ، وعجائب لا تبلى : ٥٢١
- * ومن آثار المحبة الصادقة الشوق إلى لقاء الله والتعلل بالرجاء : ٥٢٢

- * لا حياة للقلب إلا بمحبة الله تعالى ، ومحبة رسوله ﷺ ٥٢٢
- * الإمام ابن القيم يرسم الطريق ٥٢٢
- * والصحبة الصالحة هي السبيل ، وهي العون والدليل : ٥٢٣
- الفصل الخامس : ثمرات الجهاد النبوي وبركاته على الإنسانية : ... ٥٢٥
- ١ . شريعة ربانية خالدة ، ورسول خاتم مؤيد : ٥٢٥
- ٢ . إحياء عقيدة التوحيد ، وتجديد الملة الإبراهيمية : ٥٣٠
- ٣ . إعلان وحدة المبدأ والمصير ، والمساواة الإنسانية : ٥٣٢
- ٤ . إعلان كرامة الإنسان ، وتحريره من الوهم والخرافة : ٥٣٤
- ٥ . ربط الإنسان بالله واليوم الآخر بتصحيح النية والقصد : ٥٣٥
- ٦ . الجمع بين مصالح الدنيا ، والعمل للآخرة : ٥٣٨
- ٧ . رفع مكارم الأخلاق إلى أن تكون واجبا إيمانياً : ٥٤٠

- ٨ . إرادة الخير للإنسان حيث كان : ٥٤١
- ٩ . خرجت مدرسة النبوة جيلاً إنسانياً فريداً : ٥٤١
- أهم المؤهلات التي تحققت في جيل الصحابة : ٥٤٣
- . أنهم أصحاب كتاب منزل ، وشرعة هي خاتمة الشرائع : ٥٤٣
- . أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة إلا بعد تربية أخلاقية عالية : ٥٤٤
- . أنهم لم يكونوا أصحاب أهداف دنيوية ، وغايات رخيصة : ٥٤٤
- . شهادة أعدائهم لهم بمكارم الأخلاق ، وكريم الصفات : ... ٥٤٤
- ١٠ . رسول الرحمة وشرعة الرحمة : ٥٤٥
- الخاتمة : ٥٤٧
- بابي أنت ونامي يا رسول الله ٥٤٧
- هكز أنها الإنسان إلى الأسوة العظمى ! ٥٥٣

- ٥٦١ وبعد ؛ فلنفتقر على عهد
- ٥٦٣ دعا. وضاعة
- ٥٦٥ أهم المراجع
- ٥٦٩ الفهرس التفصيلي للبحث



* صدر للمؤلف *

١. ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره .
٢. وجوب وحدة المسلمين .
٣. رسالة المعلم وآداب العالم والمتعلم .
٤. اعرف نبيك مُحَمَّدًا ﷺ يا بني . !
٥. ومضات من هدي النبي ﷺ الخاتم .
٦. البينات في تفسير سورة الحجرات .
٧. المنهج القويم للداعية الحكيم .
٨. مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء .
٩. رسالتان في التربية .
١٠. صور وعبر من لطائف القدر . المجموعة الأولى .
١١. صور وعبر من عجائب القدر . المجموعة الثانية .
١٢. حديث القلب .
١٣. النصائح الذهبية لتربية الأولاد ورعايتهم .
١٤. إتحاف العابد بحقوق المساجد .
١٥. أساليب تربوية ومفاهيم دعوية من حياة الشيخ أحمد عز الدين البياونى .

- ١٦ . قبسات من نور النبوة لصاحبي الفضيلة : الشيخ أحمد عز الدين البيانوني ،
والشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالى . بعناية د . عبد المجيد البيانوني ، وفي
ختامه رسالة : " ومضات من هدي النبي الخاتم ﷺ .
- ١٧ . ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعية .
- ١٨ . القول المبين في تفسير سورة : " يس " .
- ١٩ . لمحات من حياة الشيخ أحمد عز الدين البيانوني وتعرف بمؤلفاته .
- ٢٠ . مواقف تربوية من هدي النبي ﷺ مع الأطفال .
- ٢١ . والدي قدوتك وقدوتي مواقف النبي ﷺ مع الأطفال .
- ٢٢ . أيها الأمير . ! رسالتان في النصيح والرعاية
- ٢٣ . كيف تنعم أسرنا بالأمن . ؟
- ٢٤ . إنها الأنثى . ! رؤى نقدية حول دعوى التمييز ضد المرأة .
- ٢٥ . ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة
- ٢٦ . نبي الهدى والرحمة ﷺ .

